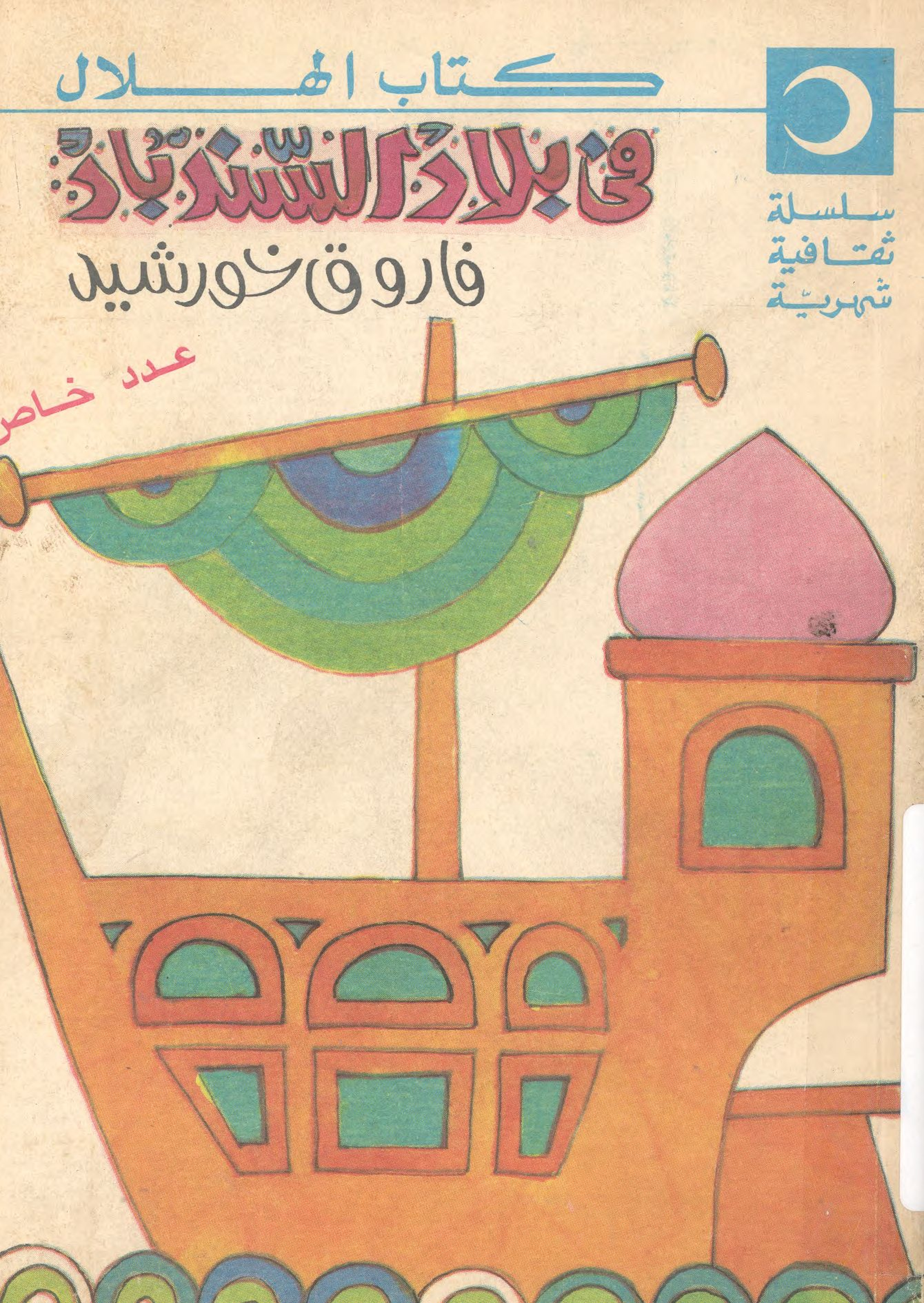

كتاب الهلال
في بلاد السندباد
فاروق خورشيد
عدد خاص
سلسلة
ثقافية
شهرية

كتاب الهلال

سلسلة شهرية تصدر عن « دار الهلال »

رئيس مجلس الإدارة : مكرم محمد أحمد

رئيس التحرير : مصطفى نبيل

سكرتير التحرير: عايد عياد

مركز الادارة

دار الهلال ١٦ محمد عز العرب

تليفون ٦٢٥٤٥٠ ـ سبعة خطوط ـ

KITAB ALHILAL

العدد ٤٢٨ ـ ذو القعدة ١٤٠٦ ـ أغسطس ١٩٨٦

NO: 428- August 1986

الاشتراكات

قيمة الاشتراك السنوى (١٢ عددا) فى جمهورية مصر العربية تسعة جنيهات بالبريد العادى وفى بلاد اتحادى البريد العربى والافريقى والباكستان ثلاثة عشر دولارا او ما يعادلها بالبريد الجوى وفى سائر انحاء العالم عشرون دولارا بالبريد الجوى

والقيمة تسدد مقدما لقسم الاشتراكات بدار الهلال فى ج . م ع نقدا او بحوالة بريدية غير حكومية وفى الخارج بشيك مصرفى لامر مؤسسة دار الهلال وتضاف رسوم البريد المسجل على الاسعار الموضحة اعلاه عند الطلب .

كتاب الهلال



سلسلة شهرية لنشر الثقافة بين الجميع

الغلاف بريشة الفنان :
بهجت عثمان

الرسوم الداخلية
بريشة الفنان : صلاح بيصار

في بلاد السندباد

بقلم
فاروق خورشيد

دار الهلال

قبل البدء

قال لي : لماذا ألف ليلة وليلة
قلت له : لاننا لم ندرسها بعد ، ولم نعرفها بعد ..؟
قال لي : وكل هذه الدراسات التى قدمها المستشرقون ومقالات جورجى زيدان والزيات وغيرهما ، ودراسة الدكتورة سهير القلماوى وغيرها من أساتذة الجامعة وطلابها !
قلت له : أنا لا أنكر كل هذا الجهد العظيم ، الذى بذل بأكثر من لغة ، وفى أكثر من جامعة ، ومن أكثر من دارس ومتخصص .. ولكنها فى الحقيقة رؤية غربية لعمل شرقى .. او رؤية متعالية لعمل أدنى فى المستوى من العطاء المعترف به فى مجال الادب والفن .. أما أصحاب الدرس والنقد من علماء الغرب ومستشرقيه ، فهم حريصون على البحث عن الاصول الهندية والفارسية بل واليونانية التى اثرت هنا أو هناك فى قصص الف ليلة وليلة ، فيسلبون الليالى انتماءها العربى ، وحقها فى أن تمثل وجدان الشعب فى ظل الحضارة الاسلامية تمثيلا يعكس أصالته ، ويبرز همومه وطموحاته ، ويؤكد دوره فى خوض المعارك من أجل الوجود الحضارى للانسان الانسان ..
وحين يغرقون فى هذا اغراقا يخرجهم عن الصدق والعدل والحكمة ، لا يجد واحد منهم ــ كفون جرونيباوم ــ امامه الا ان يقول أنها تمثل الحضارة الاسلامية ، من

حيث هي استعارت العطاءات الفكرية والثقافية للشعوب القديمة وحملتها الى الشعوب المتحضرة المعاصرة دون اضافة ودون جديد ، الا اخراجها من قالبها النبيل القديم إلى هذا الرداء المشوش المهلهل المتدنى الذى هو سمة الحضارة الاسلامية ككل .. فهم بعد أن يمزقوا جسد هذا العمل الفنى الكبير تمزيقا خبيثا يريدون أن ينسبوا كل قطعة منه الى حضارة لا علاقة لها بالعرب أو بالاسلام ، يعودون ليمحوا كل هذه المزق ليسلبوا بها فكر العرب ومنهج الحضارة الاسلامية ، ليسلبوا العرب دورهم الحضارى ، ويسلبوا الحضارة الاسلامية عطاءها المبهر للانسانية فى كل مجالات الفكر والثقافة والعلم والفن على السواء ، فاذا هى عندهم حضارة ناقلة تحمل عطاء الفكر من زمن الى زمن دون اضافة بناءة وعطاء فعال ..

أما أصحاب الفن فيهم — ممن ملأ قلبهم الأغراض وسوء القصد — لقد استغلوا ألف ليلة وليلة فى تشويه صورة الانسان المسلم ، وتشويه ما أعطاه الاسلام من قيم وتعاليم وما حباه الله به من قدرات قفزت بالانسانية كلها خطوات الى الامام .. فلم يبرزوا — ابرازا متضخما — الا صورة الجنس فى الليالى ، ولم يؤكدوا الا على صورة الحريم الذى يملأ القصور ، والا على العبيد والجوارى وليالى الغناء والشراب والجنس المبذول ..

وليست هذه صورة الليالى وان كان هذا موجودا فيها ، فهذا مظهر لجوهر عميق المعنى ، غزير الدلالة .. وقد لجئوا الى هذه الصورة الشعبية كأداة اعلامية تستخدم الفن الشعبى فى بث بذرة التعالى عند انسان الغرب على انسان الشرق ، ولتشويه صورة العطاء الحضارى الذى قدمه الشرق المسلم ، بل ولابراز الاسلام

نفسه في صورة مبتذلة تساعد أصحاب النظرة الصليبية في تثبيت معالم كراهية الدين والحضارة الاسلامية على السواء .. وهذه الصورة التى استغلت النسيج الشعبى لالف ليلة وليلة لتثبيت نفسها فى اذهان العامة من اهل الغرب ، هى الصورة التى وقرت فى اذهانهم عنا وعن الف ليلة وليلة ، وهي صورة يراد بها خلق الهوة النفسية بين شعوب الغرب وبيننا .. وهو نفس السلاح الذى شهرته طائفة أعداء الاسلام والمسلمين ، وأعداء الحضارة الاسلامية كلها ضد الرسالة والرسول نفسه ، فقد نقل الدكتور محمد حسين هيكل فى كتابه « حياة محمد » من الكاتب الفرنسى « اميل درمنجم » فى كتابه « حياة محمد : ص ١٣٥ وما بعدها » قوله : « من البيزنطيين من أوقروا الاسلام احتقارا من غير ان يكلفوا انفسهم مؤونة دراسته ، ولم يحارب الكتاب والنظامون مسلمى الاندلس الا باسخف المثالب ـ فقد زعموا أن محمدا لص نياق ، وزعموه متهالكا على اللهو ، وزعموه ساحرا ، وزعموه رئيس عصابة من قطاع الطرق ، بل زعموه قسا رومانيا مغيظا محنقا ان لم ينتخب لكرسى البابوية .. وحسبه بعضهم الها زائفا يقرب له عبادة الضحايا البشرية ، ويقول عن واحد آخر من الكتاب المتعصبين : انه « يذكر أن محمدا مات فى نوبة سكر بين ، وأن جسده وجد ملقيا على كوم من الروث وقد اكلت منه الخنازير ، وذلك يفسر السبب الذى من أجله حرم الخمر وحرم لحم ذلك الحيوان ، وذهبت الاغنيات الى حد أن جعلت محمدا صنما من ذهب وجعلت المساجد الاسلامية برابى ملأى بالتماثيل والصور » .

هذه الصورة هى التى ملأت الاغانى الشعبية التى سادت أوروبا فى هذه الحقبة وفى العصور الوسطى

كأغنية انطاكية واغنية رولان ، وغيرها من الاعمال الشعبية شديدة التعصب ، والتى استخدمت كأداة لايغار صدور العامة والبسطاء ضد الاسلام والنبى والحضارة الاسلامية بعامة . وبنفس الطريقة تستخدم أفلام السينما والتليفزيون قوتها التأثيرية في رسم صورة العربى هذه الايام بطريقة مشوهة ومنفرة ، فهو يلبس دائما نظارة سوداء ويبذر الملايين ويكذب ويسرق ويغتصب الفتيات ويقتنى العبيد . انه الوجه القبيح دائما من كل شيء عربى واسلامي ذلك الذى يحرصون على ابرازه وتصويره. دون النظر الى الوجوه الاخرى ، أو الجوانب المضيئة والمشرقة ، وبهذا ظلموا الف ليلة وليلة فى ابداعهم كما ظلموها في دراساتهم . وانتقلت الينا هذه الصورة المشوهة فوقرت فى أعماقنا دون أن نحاول البحث فى امرها ، واكتشاف حقيقتها .

قال لى : وماذا عما أطلقت عليه « الرؤية المتعالية لعمل أدنى فى المستوى من العطاء المعترف به فى مجال الادب والفن » ؟ ..

قلت : هذه رؤية أصحاب الادب والفن من رواد الحركة الادبية عندنا ، فعلى الرغم من انهم جميعا قرءوا الف ليلة وليلة الا انهم صنفوها الى جوار الحواديت وحكايات العجائز ، وهم يرون هذه الاعمال بعيدا عن منظور الادب والفن ، فلم تكن الدعوة الى دراسة ادبنا الشعبى قد نضجت بعد ، ولم تكن القلوب والعقول قد تفتحت على اهمية دراسته واستيحائه في فننا . فظلموا الف ليلة واحجموا عن تقديمها الى القراء والدارسين تقديما صحيحا وصحيا . .

قال : ليكن الدرس هذا العام اذن عن الف ليلة وليلة ..

***

وبهذا الحوار مع الصديق الدكتور أحمد مرسى عميد المعهد العالى للفنون الشعبية بأكاديمية الفنون بالقاهرة بدأت رحلتي الشاقة والطريفة مع ألف ليلة وليـلة ، وهي رحلة استمرت طوال عام دراسي مع مجموعة من طلبة الدراسات العليا الجادين والمتطلعين .. وكانت الدراسة قاسما مشتركا بيننا بحيث غدونا وحدة عمل نشطة تستكشف الجوانب الفولكلورية والادبية واللغوية والتاريخية للنص الذى رصدنا أنفسنا لقراءته ..

أقول : بدأت الرحلة واستمرت عاما دراسيا كاملا ، ولكنها بالنسبة لى لم تنته عند هذا الحد الزمنى ، وما أظن أنها ستنتهى فى القريب من الزمن . فقد بدأت مأساة تقديم ألف ليلة وليلة الى المحاكمة الجنائية باعتبارها عملاً منافيا للاداب العامة ، وباعتبار ناشرها مروجـا لمواد يحظرها القانون . وصدر حكم المحكمة بالفعـل بمصادرة الطبعة المصرية من الليالى ، وماجت الحيـاة الادبية بتيارات مختلفة حول موضوع محاكمة ألف ليلة وليلة . فمعظم الشعراء والفنانين وكبار الكتاب أظهروا معارضتهم لهذا الامر الذى يعرض نصا شعبيا للضياع ، ويترك وجوده لرياح التغيير تطمس معالمه الرئيسية ، وتقضى على مايحمل من عطر التراث ، وأصالة الفـن القصصى الشعبى العربى الاسلامى المتوارث ، وآخرون ممن استفزتهم كلمات الجنس الصريح فى الليالى وممن وقرت فى نفوسهم مقولات الغرب عن الحريم وليـالى هارون الرشيد ، تحمسوا تمام التحمس لاقوال النيابة ومنطوق الحكم .. ثم أسقطوا على ألف ليلة وليلة كل ماقى العصر من مظاهر الانحلال الخلقى ، والخروج على القيم والدين . وظنوا أن حملتهم على ألف ليلة وليلة يمكن أن تكون حملة على كل معانى الخروج على القيم

المتوارثة . والمعانى الاخلاقية الصارمة فى التزامها بالحرفية المتعصبة فى مقابل التحلل الواضح فى بنيـة المجتمـع الذى يعيشون فيه ، وفى قيمه واخلاقه .. وتابعت هذه المأساة وتتبعتها .. واحسست أن الف ليلة وليلة كانت « شماعة » تعلق عليها اخطاء فئة منحـرفة من المجتمع ، وأنها مجرد رمز يهاجم فى عنف حين يصبح اصحاب الفعل انفسهم فى منجاة من العقاب والهجـوم الواضح .. واحسست ايضا انها كانت كبش فداء صالح لكل من يريد أن يبرىء نفسه من جريمة الاشتراك بشكل او بآخر ، فيما حدث للمجتمع من تفكك وانحلال ، ولما يسوده من مظاهر الخـروج على القيم والدين .. واحسست ايضا أن ماحدث لالف ليلة كان ناجما عـن جهلنا الكلى بها ، وعن سيادة مجموعة المقولات المغلوطة ، هى تلك التى سردناها فى صدر الحديث فى وعى الناس بعامة والمثقفين بخاصة . وكان لابد من محاولة لرفـع هذا الغبن عن واحدة من درر تراثنا العـربى بعـامة ، والشعبى بخاصة ..

لقد الهبت الف ليلة وليلة خيالَ الشعراء والموسيقيين والقصاصين والدارسين منذ القرن الثامن عشر فى أوروبا حتى الآن .. أما آن لها أن تلهب خيال ابنائها من أصحاب الفن فى قرنهم العشرين ؟

سؤال حائر ودائم ومستفحل . ولم يكن أمامى الا ان اقدم محاولاتى المتواضعة فى « المصور » لاضـع أيدى الدارسين والقراء على المفاتيح التى يمكن أن يدخلوا بها الى عالم الليالى الرحب . ومن هنا كانت سلسـلة من المقالات عن الليالى والناس . وفى خلال هذه القـراءة واثناءها وضح أمامى تماما أن ماتجهله عن الليالى أكثر كثيرا مما نعرفه ، وأن الليالى لم تبح بسرها الفنى الكامل

رغم كل الدراسات والابحاث التي تعقبت قصص الليالى للوصول الى مصادر الحكايات وأصولها الاسطورية والشعبية ، والبقايا الحضارية التى ترسبت من الحضارات القديمة كلها ..

وفى خلال هذه القراءة واثناءها أيضا وضح أن الليالى لن تتضح صورتها تماما الا من خلال قراءات مقارنة للسير الشعبية العربية الاخرى ، وكذلك من خلال الحصيلة المتداولة من الحكايات الشعبية التى تملأ كتب الاخبار والتاريخ ، وكتب المجمعات الادبية مع الارتباط الكامل بالحس العربى الشعبى المشترك الذى لا تزال بقايا عطرة منه موجودة فى أحيائنا الشعبية وبيئاتنا المحافظة على تقاليدها وعاداتها القديمة .

ولاشك أن حصيلة العمر فى قراءة ودراسة السير الشعبية العربية والادب الشعبى العربى والموروث الفولكلورى العربى بعامة قد عبدت الطريق أمامى فى هذه القراءة ، ولاشك أيضا أن ارتباطى منذ الصبا الباكر بالاحياء الشعبية وحياتها العريقة فى القاهرة قد ساعدتنى على فهم الكثير من الاحداث والشخصيات . وكذلك أضافت زياراتى العديدة لبغداد ودمشق والقدس ومكة والمدينة وصنعاء والكويت ، أدوات هامة من أدوات الفهم لمعنى وحدة الانسان العربى وخاصة فى الاحياء الشعبية فى العواطف والسلوك وفى الامانى والالام معا ، مما قرب صورته التى تعكسها الليالى وتحاول أن تصورها تصويرا فنيا راقيا ..

واذا كان الانسان داخل المدينة لم يعد لغزا أمامى بفضل كل هذه الادوات ، وبفضل الممارسة الابداعية القصصية ، والممارسة النقدية الادبية الطويلة ، الا أننى كنت أحس دائما أن هناك منطقة فى الليالى لا أستطيع

آن أضع يدى على نبضها الصحيح ، وتلك هى المنطقة التى تشغل حيزا ضخما من الليالى ، واعنى بها عالم البحار .. فالبحر يلعب دورا هاما فى كل انحاء الليالى اذ نحن امام مجتمع التجار ، وما يرتبط بهذا المجتمع من عادات وتقاليد ، ولعل أهم معالم هذا المجتمع رحلات التجارة ، ودنيا السفن ومغامرات خوض البحار بحثا عن السلع الرائجة ، وترويجا للسلع المحلية . ومن هنا سيطر البحر ومغامراته على العديد من قصص الليالى ، كما انفرد وحده بأكثر من حكاية وأكثر من شخصية ، وقفزت اساطير البحر تملأ الليالى بحكايات البحارة ومغامراتهم ، وحكايات البحار المجهولة ، والجزر البعيدة والمراكب التى تنتقل من مجهول الى مجهول متعرضة للمهالك والاخطار .

ولاشك أن وجود المنطقة العربية فى مصب الطرق من الشمال الى الجنوب ، ومن الجنوب الى الشمال اى بين اوروبا والشرق الاقصى . وكذلك وجودها فى مصب الطرق حيث تلتقى عندها تجارات آسيا وافريقيا واوروبا جميعا ، لاشك أن هذا الموقع الفريد بين بحار العالم ، حمل الى الحصيلة الشعبية العربية زادا متشابكا من حكايات البحر واساطيره من كل الشعوب المشتغلة بالتجارة ومن كل الامم التى حاولت خوض البحر ، ومن كل البحارة من مختلف الجنسيات .. ومن ثم حفلت الحصيلة الشعبية بمجموعة ضخمة من قصص البحار التى يعمل فيها الموروث المشترك لعالم البحر فى العالم كله ، كما يعمل فيها ايضا ما استقر فى الاذهان من علومات صحيحة هى نتيجة التجريب والتعليم المتوارثين بزوجة كلها بما خلقه الخيال من خرافات وحكايات مؤلفة عن البحر ودنياه ، وعن جزر البحر وعجائبها ،

ومن الدنيا البعيدة التى يصل البحر بينها وبين العالم العربى بأواصر الثقافة والتجارة ، تربطهما معا الذاكرة الشعبية والمخيلة الشعبية النشطة دائما ..

وقد كان أمام القاص الشعبى فى الف ليلة وليلة مجموعة ضخمة من مؤلفات الجغرافيين والرحالة العرب كالادريسى والمسعودى وابن خرداذبة وابن ماجد وابن بطوطة ، بالاضافة الى كتاب عجائب الهند لمؤلفه بزرج ابن شهريار الذى احتوى من الحكايات مايكاد يطابق حكايات البحر فى الليالى ، وكأنه أحد مصادر المؤلف الشعبى الرئيسية ، كما كان أمام القاص حصيلة من المترجمات التى نقلت الى العربية من كتب الاسمار والرحلات ، وقد خصها ابن النديم فى فهرسه بالذكر والمناقشة ، مما يجعل حصيلة القاص تتسع لتشمل تجارب وذكريات ومدونات المؤلفين من الصين والهند وفارس والروم ، الى جوار حصيلته من التجارب والمدونات العربية .

والواقع أن هناك مقولة خادعة أبعدتنا كثيرا عن الاهتمام بالتراث البحرى العربى فى شكله الرسمى ، وشكله الشعبى على السواء ، تلك التى تقول ان العرب اهل صحراء ، وأنهم قهروا الصحراء بالجمل ، وقاموا بالرحلات الدائمة من شمال الجزيرة العربية الى جنوبها فى رحلتى الشتاء والصيف ، فاهتممنا بعالم الصحراء وركزنا فى جهودنا لفهم الشخصية العربية على حياة الصحراء وما تتركه من آثار اجتماعية وسلوكية وثقافية فى نفسية ومكونات الانسان العربى .ونسينا تماما أن رحلتى الشتاء والصيف تنقلان السلع والتجارات بين الشام واليمن . أو بين الساحل الشمالى المطل على البحر الابيض ، والساحل الجنوبى المطل على المحيط ، ثم

ثم ماذا .. ؟ لم تكن الشام ولا الجنوب العربى هما هدفا الرحلتين ، وانما كانتا مجرد نقطة انتقال عبر المحيط الى أوروبا فى الشمال ، والى الصين والهند فى الجنوب حتى تكتمل الدائرة ، وتتحقق أهداف رحلات الصحراء هذه ...

ومن قديم جدا قهر العرب البحر كما قهروا الصحراء وخرجوا على سفنهم يربطون أجزاء الانسانية بعضها ببعض ويصلون الشرق بالغرب ، ويحققون للعالم ماكان يريده فى مطالع وجوده الحضارى من تعاضد وتعارف ، وتبادل لخيرات الارض وتبادل للخبرات والتجارب والمعرفة والثقافة . وتكشف ألف ليلة وليلة فى عالمها الطريف الملىء بدنيا متمازجة ومتفاعلة من الخبرات والثقافات عن دور فنانها ومبدعها فى خلق الرؤية العالمية لمعنى الانسان الانسان ، ابن العالم أجمع ، ووارث العالم أجمع . الانسان من أقصى الصين الى أقصى بلاد بحر البلطيق ، يدافع عن قضايا الحضارة وعن معنى الحرية ، ويحقق معنى الاخوة الانسانية فى صدقها الفنى التلقائى . واستطاعت ألف ليلة وليلة بما قدمته من مغامرات البحر ان تعبر عن الشوق الانسانى فى التواصل والتعاون والالتقاء . .

ومنذ الصفحات الاولى فى ألف ليلة وليلة ظل البحر يسيطر على حكاياتها ، فعندما يقف شهريار وشاه زمان أمام شاطىء البحر يظهر عمود طويل ضخم من الدخان يتقدم نحو الشاطىء بسرعة ، ويهرب الملكان الى اغصان شجرة ، ليتحول العمود عندما يصل الى الشاطىء الى مارد جبار يحمل فتاة داخل صندوق . فعالم الغموض الذى هو عالم الجن والشياطين يرتبط منذ اللحظة الاولى بالبحر ومافيه من مجهول ، وماهو رمز له من الاتساع

والغموض والخطر . وعلى طول الليالى ستظهر قماقم الجن من البحر . تلك القماقم التى حبس فيها سيدنا سليمان الجن العاصين ، وختم عليها بخاتمه ، ورماها فى البحر لتظل هناك حبيسة الى آخر الدهر .. وسمك البحر فى الف ليلة وليلة يتحول – وهو يطهى فى الزيت المغلى – الى كائنات حية آدمية الشكل تشق الجدار وتخرج منه . والساحر يستعين بالماء يرشه من طاسة على ضحيته ليحوله من صورة الى صورة ، والعاشقة الخائنة تسحر زوجها حجرا ، وتسحر مدينته كلها بحيرة ، وتسحر الناس فيها الى أسماك . وعروس البحر تغرى حبيبها أن يعيش معها فى عالم كامل تحت سطح البحر ، وهى حين تكحله بكحل سحرى يستطيع أن يعيش كالاسماك ، فى عالم البحر السحرى ومدنه الكاملة والمليئة بالناس والملوك والجنود والحب والزواج والتآمر والسعادة والالم والامل . والحيتان تمكث ساكنة على السطح حتى لينمو على جلدها الزرع وتنبت الاشجار ، فاذا ما أوقد البحارة النار تحركت من مكانها وغاصت فى البحر ليغرق من عليها من البحارة . والحيتان تضرب السفن بذيلها فتغرق ، أو هى تبتلع السفن ومن فيها .. وفى البحار جزر موحشة يسكنها آكلو لحم البشر والغيلان ، كما تنمو عليها اشجار تثمر النساء ، وأشجار تبتلع الناس ، وأشجار تسمن ثمراتها الرجال وتخدرهم حتى ليتحولوا الى سوائم تسير على أربع ، وفى هذه الجزر سكان متوحدون يركبون الناجين من السفن ويسخرونهم فى أعمالهم كأنهم البغال أو الحمير ..

وفى البلاد البعيدة التى تقود اليها البحار قرود تتكلم وتفهم ، وسحرة وكهنة يدفنون الزوج الارمل حيا الى جوار زوجته الميتة . وبلاد لا يعيش فيها الا النساء .

وجزر يطير الرجال فيها في مواسم معينة كأنهم الطيور .
وهناك التنين والرخ والعنقاء ، وعروس البحر ، وكل
ما يمكن أن يتخيله الوجدان الشعبي من مخلوقات
واعاجيب ..

البحر بهذا مصدر من مصادر الخيال الشعبي، ومجال
فسيح لبناء الحكايات والقصص والروايات ، ودنيا
خصبة من الايحاء للروائي والقصاص يغامران مع أبطالهما
فيها بحثا عن الكنوز والثروات ، وبحثا عن الربح
والتجارة ، وبحثا عن المعرفة والتجربة والمتعة والاثارة .
ولكننا في كل دراساتنا عن الشخصية العربية ومكوناتها
اغفلنا البحر وروح المغامرة والاصرار والاثارة ، والقدرة
على الخيال والابتكار ، والطاقة على الصبر وتطويع
الممكن لبلوغ المراد ، وتحويل الحلم الى حقيقة وواقع ..
من قديم جدا ، والسفن العربية تمخر البحار
والخلجان ، للصيد والتجارة والاسفار . ومن قديم جدا
واللبان والبخور والند والصندل من منتجات الجنوب
العربي ، ومن مستوردات السفن العربية عبر البحار
السبعة ، تغزو معابد أوروبا والشرق ، وتعطر الحضارة
الاشورية والبابلية ، والفرعونية والاغريقية والرومانية .
ومن قديم جدا وحرير الصين وأخشاب الهند ولبان
عمان ولآلىء الخليج وجواهر سيلان تسهم في صنع
مظاهر الحضارة والتقدم في العالم القديم . ونحن نغفل
هذه المشاركة حين نغفل دور العرب في قهر البحار ؛
وحين نغفل القراءة النقدية الصحيحة لعالم البحار في
الف ليلة وليلة .

وهكذا ثار السؤال أمامي ، من أين يمكن البدء في مثل
هذه القراءة ؟

وتذكرت محاولات الدكتور حسين فوزي في سندباده

القديم ، واسترجعت عبارات المسعودي عن عجائب بلاد الصين والهند ، وعادت الى ذهني فقرات من حكايات اعاجيب الهند واعاجيب البحار ، وتوج الجميع عندي دائما اسم سندباد البحرى الذى حظيت رحلاته السبع باهتمام الادباء والشعراء ورجال السينما منذ مطالعها ، كما حظيت باهتمام الروائيين من عرب وأجانب ، وباهتمام الدارسين من عرب ومستشرقين . وسندباد فى الف ليلة وليلة تاجر بغدادى مغامر احب البحر . واحب المغامرة ، يبيع تجارته ويؤجر السفن ليشحنها بالبضائع بثمن ماباع من تجارة ، ثم يقلع بالسفن عبر الخليج الى بلاد الهند والصين ، والى جزر المحيط فى سلسلة من المغامرات المثيرة والشيقة . وابن النديم يتحدث فى الفهرست عن كتاب مستقل هو كتاب سندباد كنت احسب انه تجميع مستقل لحكايات السندباد البحرية جمعت بعيدا عن الليالى . ولكن الصديق الكبير الدكتور امين عبد المجيد بدوى صحح لى هذه المعلومة حين اهدانى ترجمته العربية لكتاب السندباد او « سندباد نامة » وقد قدمه الى العربيه باسم « سندباد الحكيم » ، فاذا هو يتحدث عن سندباد اخر هو حكيم هندى عاش فى عصر الملك كوش ، وذكره المسعودى فى كتابه مروج الذهب بقوله : « وكان فى مملكته وعصره سندباد ، وله كتاب الوزراء السبعة ، والمعلم والغلام وامراة الملك ، وهذا هو الكتاب المترجم بكتاب السندباد » ويذكر الدكتور امين بدوى انه الف قبل الاسلام بعدة قرون ، وانه هو الذى ذكره ابن يعقوب النديم فى الفهرست ضمن اخبار السامرين والمخرفين واسماء الكتب المصنفة فى الاسمار والخرافات ..

وسندباد فى هذا الكتاب يقوم بدور شهرزاد فى الف

ليلة وليلة فهو راوى الحكايات والاسمار التي من خلالها يقدم معرفة العصر وعلومه ومعتقداته ، فكأنه بحار ولكن فى دنيا المعرفة والحكمة لافى دنيا البحار . وفي الف ليلة وليلة ذكر لسندباد آخر هو سندباد الحمال ، القاعد فى مدينة بغداد فى عصر هارون الرشيد عن المغامرة والترحال ، راضيا بفقره ورزقه المحدود وسندباد الحمال هو الذى يقودنا الى قصر سندباد البحرى ، وهو الذى يقص عليه السندباد حكاياته واسفاره ويسميه في حديثه معه باسم السندباد البرى ثم يقاسمه ثروته ، ويدعوه الى الاقامة معه يسامره ويعايشه .. واسم سندباد ليس اسما عربيا والاقرب ان يكون اسما هنديا ، ولا بأس مع هذا ان يكون هذا التاجر الهندى الاسم مواطنا فى بغداد فى عصر هارون الرشيد ، ولا بأس أن يكون الاسم رغم هنديته يطلق على انسان عربى ، فتزاوج الثقافات يسمح بهذا ويجعله أمرا طبيعيا فى أمة اسلامية تدين بدين واحد ، وينتقل أبناؤها فى أطرافها المترامية عن طريق البر والبحر فيتزاوجون ويمتزجون ، وقد قضى اسلامهم على اختلافهم العنصرى واللونى والعرقى ..

وشغلنى هذا الامر حتى أصبح محور قراءاتى وتفكيرى .. بل ومحور حديثى مع الأصدقاء فى أسمارنا . فوجئت ذات ليلة بالصديق مكرم محمد أحمد ، يقاطع حديثى المتصل عن هذه الهموم التى تشغلنى بقوله :

ـ سأرسل لك غدا مجموعة من الكتب أحسب أنها ستجيبك على الكثير من الأسئلة التى تشغلك ..

ولم يكذب الصديق حديثه ففى الغد كانت أمامى مجموعة من الكتب من مطبوعات وزارة التراث القومى والثقافة فى سلطنة عمان .. وقادتنى هذه الكتب الى

العالم السحرى الذى كنت أبحث عنه ، عن عالم البحر العربى ، الذى مثلت مغامرات سندباد وحكايات البحر فى الليالى عطاءه الفنى والادبى والشعبى على السواء .. تفتحت أمامى دنيا كاملة من تاريخ العرب مع البحر منذ أعمق التاريخ والى اليوم ، وامتلأت هذه الدنيا بالمدن البحرية ذات التاريخ العريق ، وبالصناعات البحرية واولها صناعة السفن الضاربة فى عمق سحيق من تاريخ البشرية . وقصة الاصرار العربى على قهر البحر وفتح الطريق أمام الوجود المترابط للانسان منذ البداية الاولى للمعنى الحضارى للانسان . ووقفت أمام كتاب « عمان وتاريخها البحرى » استرجع صور الثغور والقلاع والسفن وطرق التجارة وطرق الابحار . فاذا أنا أمام سفن الليالى وسفن سندباد ، واذا أنا أمام الطرق التى سلكها سندباد فى رحلاته واذا أنا امام الجزر والبحار التى قدمت لالف ليلة وليلة عطاء البحر السحرى فى ابداعه الفنى .. كما قدم لى كتاب « تاريخ عمان » ، تأليف وندل فيليبس وترجمة محمد أمين عبد الله قصة البداية والاستمرار ، قصة مراحل التكون ومراحل التطور ، ومراحل التفوق للانسان العربى فى مواجهة البحر القابع أمامه ، ومواجهة الصحراء القابعة من خلفه، وفى مواجهة التحدى على مر الزمن للفرس من ناحية ، والبرتغاليين البرابرة من ناحية ، والاطماع الانجليزية والفرنسية والالمانية والهولندية والبلجيكية من ناحية أخرى .

قصة تمتلىء بالسحر والبطولة والغموض . وعالم يختلط فيه عطر الحقيقة بعبق الخيال الشعبى ؛ واحسست ـ كما احسست من قبل أمام كتاب « التيجان » لوهب بن منبه الذى حكى عن تاريخ

الحميريين وأبطالهم وملوكهم — انني أمام اليوسعيديين قد عثرت على كنز لا ينضب للعطاء الفني ، وللتحقيق الشعبي ، وللعمل الدرامي المعاصر المرتبط بحقيقه جزء هام من مكونات الشعب العربي العريق في مغـــامراته الدائمة من أجل المعرفة ، وفي شوقه الدائم للتحدي والانتصار ، وتحقيق ارادة الله في أن يسود الانســان بمثله وقيمه هذا العالم الملىء بالخير والثراء .. وسألت نفسي عن سر ثراء الموروث الشعبي العربي بحـــكايات وبطولات اليمن ، وسر تواري حكايات البطولات للساحل الجنوبي الشرقي من الجزيرة على خصبه وثرائه مـــن المنظور الثقافي العربي بعامة والشعبي بخاصة .. ان رحلة مالك بن فهم من غرب الجزيرة الى شرقها مهاجرا بقومه لاجلاء الفرس المستعمرين ، وبدء المرحلة المعروفة من تاريخ عمان ، لاتقل في أهميتها عن رحلات الهلالية ، ان لم تتفوق عليها في دلالتها التاريخية والقوميـــة ، ومع هذا فقد أفرزت الهلالية أكثر من عمل شعبي يعيش عبر البلاد العربية كلها ، وعبر العصور والقرون الى يومنـــا الحاضر .. وأن تاريخ الفتح العماني لافريقيا هو تاريخ الاسلام في أفريقيا ، وتاريخ التطور الحضاري بصـــورته الاسلامية المشرقة والثرية لزنجبار وعمان معا ، وصورة لمعنى الدعوة الى التآخي في الاسلام ، ولمعنى أنه لا فرق بين عربي ولا عجمي الا بالتقوى . وصورة مشرفـــة كما يقول « د . ج . هوجارت » في كتابه « شـــبه الجزيرة العربية » فيما ينقله عن « وندل فيليبس » للتاريخ العربي ، الذي هو « سجل من الفخر ، والطموح والثأر ، والشهوة ، والتمرد ، والحماسة » .. أي هو صورة لتاريخ الانسان الانسان .. انمافعلهاليوسعيديون لافريقيا ولعمان وللعالم المتحضر يشكل صفحات مشيرة

لخيال الروائي، كما يشكل تحديا لقدرة الباحث التاريخي. كما يسجل انبهارا للقلوب المتطلعة الى صفحات فخار حقيقية في تاريخ الانسان العربي . وتأتى المعارك ضد قرصنة البرتغاليين لتستفز خيال الكتاب ان كانوا يريدون حقا أن يسجلوا معنى التحدى والصمود ، العربيين ، ومعنى التوحش والبربرية الغربيين، تسجيلا فنيا وروائيا يثبت في أعماق انساننا المعاصر قيمه وخلقه وتراثه ودينه .

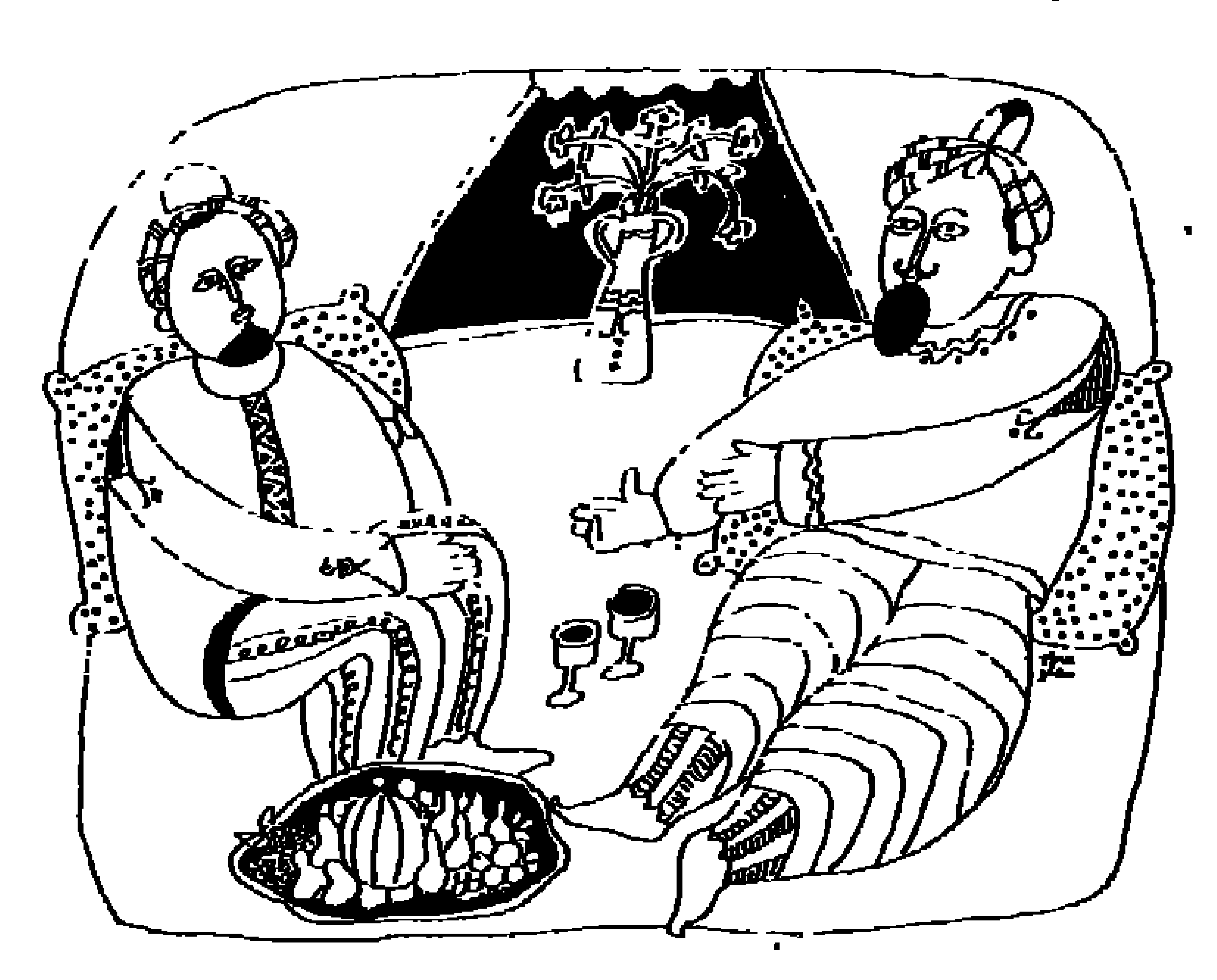
ان العالم العربى اليوم فى حالة استرجاع لنفسه ، وجمع لشتات وجوده بعد أن مزقته اطماع المستعمرين وشراهتهم . ولسنا اليوم بقادرين على المشاركة فى صنع التطور التقنى الذى مازلنا نكتفى بأن ننعم بمعطياته .. ولكننا نستطيع ان نعمل على تكوين الطلائع الصحيحة التى ترث حضارة منهارة من داخلها ، مزقتها المادية المغرقة وتستعد الان للغرق ، كما فعلت كل الحضارات التى سبقتها .. وستكسب البشرية الكثير اذا ما استطعنا ان نكون هذه الطليعة التكوين الصحيح ، وأى طريق أصح من ربط الانسان بقيمه ، وبالكشف على الجوهر الحقيقى الذى أعطى البشرية الحضارة يوما ، والذى يتأهب من الآن لأن يحمل الشعل حين يسقط من الايدى المهتزة التى تمسك به اليوم ، بعد أن تحولت من اشعاعات الفكر والفلسفة والعلم ، الى معطيات القهر والمذابح وحمامات الدم وابادة الشعوب ، وسرقة الثروات وقهر الكرامات .. ان الكشف عن مكنون لم يعرفه عامة المثقفين العرب وتملكه عمان ، واجب في اثراء الوجود العربى ، واضافة الى الوجود الانسانى نفسه بجزء من ماضيه وكفاح أجداده البطولى فى هذه البقعة من ارض الله لارساء كلمة الله للانسان .لارساء معاني العدل والحرية

والأخوة والانسانية .

واستغرقتنى القراءة فقد جعلت الاحداث والشخصيات والمعانى تتدافع من بين السطور مشكلة لى دنيا سحرية رائعة ، انعكست أيضا على أحاديثى مع الاصدقاء ... ومرة أخرى فوجئت بالصديق مكرم محمد أحمد يقول لى ذات مساء :

ــ هناك مفاجأة لك ، لقد كنت أتحدث مع الاخ الصديق عبد العزيز محمد الرواس وزير الاعلام فى سلطنة عمان ، ووجدت نفسى أحدثه عن حماسك ، وعن اهتمامك الجديد المفاجىء بكل شىء عن عمان ، وقد أخبرنى اليوم تليفونيا انه يدعوك الى زيارة عمان ويرحب بك هناك ؛ وسيتيح لك الفرصة لتشاهد كل ماتريد وتطلع على كل ماتحب ..

واحسست أن ألف ليلة وليلة قد وجدت سندا جديدا فى شخص وزير الاعلام العمانى ، وأن الطريق الى دنيا من السحر والاثارة قد بدأ .. أو على الاقل بدأت خطوة ما قبل البدء .



المعادلة الصّعبة

شغلت مقولة ان « الشرق شرق ، والغرب غرب ، ولن يلتقيا » اذهان المفكرين والادباء زمنا طويلا . كما شغلت أصحاب العمل فى الحقل الحضارى بحثا ودراسة وتقنينا وتقعيدا ، فمنذ قديم جدا والاختلاف الحضارى بين أصحاب الحضارات الشرقية ، وأصحاب الحضارات الغربية واضح وبين . فالقيم التى يقيم الشرق عليها حضاراته غير تلك القيم التى ترسم لحضارات الغرب سلوكا مغايرا ، ومثلا مخالفة ، وهى بالقطع نابعة من اختلاف جذرى بين هذه وتلك . والذى يمكن لنا أن نستقرئه من التاريخ يؤكد لنا أن الحضارات الشرقية ارتبطت بالقيم الدينية بالدرجة الاولى ، وتفجرت طاقاتها وابداعاتها ، وتحددت سلوكياتها وأهدافها من النبع المرتبط بالدين كمحور أساسى للفعل الحضارى . والدين يرسخ فى وجدان الانسان وقلبه وعقله جميعا انه ليس صاحب الفعل المطلق فى الحياة والكون ، وانما هو مخلوق من مخلوقات تشغل الكون ، وانه انما خلق ووجد ليعبد خالق هذا الكون كله . ويقدس قدرته ويتحرك فى اطار من هذه القدرة التى تمنحه الحياة والنعم وتحاسبه على مايفعله بهذه الحياة والنعم ، أن خيرا فخير ، وان شرا فشر ، ثم هى تسلبه هذه الحياة والنعم حتما مقضيا لافكاك منه . بينما تتركز معظم الحضارات الغربية حول الانسان نفسه ، وحول قدرته المطلقة على الفعل ، وعلى دوره الدائم فى الصراع مع قوى

الغيب المجهولة التى تحارب وجوده وتتحكم فيه ، وتنهى هذا الوجود وتسيطر عليه ، دون محاولة أصيلة لوضع الانسان فى مكانه الذى تضعه فيه الفلسفات الدينيــة الواضحة فى تحديد مكان الانســان من عالم الاله ... ومن هنا نصف الحضارات الشرقية بأنها حضــارات الروح ، بينما نسم الحضارات الغربية بأنها حضــارات العقل . وليس معنى هذا أننا نخلى الحضارات الروحية من فعل العقل ، فالعقل جوهر الفعل الانسانى ، ولكننا نحس أن حركة العقل فيها يحكمها ايحـــاءات الروح وعطاءات الوجدان ، وفى نفس الوقت لا نستطيع أن نخلى الحضارات العقلانية من فعل الروح ، فالروح هى نبض الحياة عند الانسان ، ولكننا نحس أن حركة الروح فيها يحكمها العقل وتتحكم فيها قوانينه ومعطياته .. ومن هنا يظل الشرق شرقا والغرب غربا ، وفى عصــر صبا الانسانية سادت حضارات الشرق ، وحكمت العالم كله بمعطياتها التى تثرى وجدانه ، وتعطيه معنى لوجوده وهدفا خالدا وباقيا للحياة ، وشيدت الانسانية المعابد للآلهة ، وسخرت فنونها وابداعاتها لتعميق هذه الصلة المتوطدة بين الانسان والهه ، كما سخرت علومهــا واكتشافاتها لتحقيق المعانى التى ترسمها الإديان ، معاني الاخاء فى الله ، ومعاني المساواة أمام الله ، ومعــانى العدالة فى الحساب القدري الذى يخضع فيه سلوك الانسان لتقويم الهه ، والهه وحده .. وحين بدأ تمرد الانسان فى الغرب على هذه القدرية التى تحكم انسان الشرق ، أرسى فكره ثم حضارته على أساس من هــذا التمرد ، وسخر العقل فى البحث عن هوية للانسان غير انتمائه الي عالم مخلوقات الله وحسب . وكــان الجهد العقلى الفلسفى هو بداية هذا البحث ، وكــان

الاستعلاء والاحساس بالتفوق والقدرة على الفعـــل المستقل بداية الاستغلال والاستعمار والبحث المطلق عن الثراء والقوة ، والاغفال الكامل لحقوق الاخرين، والدهشة المطلقة من سذاجة من يتصورون وجود قوة أخـرى أو قيم اخرى غير قوة العقل وقيمة وقوة الفعل وقيمــه ، ثم قوة التراكم المعرفى وما أدى اليه من متغيرات حاده فى قدرات انسان الغرب المتنامية . وحين سـخرت الحضارات الغربية الدين لارادة الانسان ، فـــرفعت شعارات الدين تخفى وراءه أهدافها الحقيقية فى الثروات والمزيد من الثروات ، والقوة والمزيد من القوة ، والسيطرة والمزيد من السيطرة .. ولم يكن عجبا أبدا أن تبـــدأ حروب أصحاب الحضارات الغربية رافعة الشعار الدينى فى المعارك الوحشية ضد أرض هذه الديانات وأصحابها الاصليين . ويظل الشرق شرقا والغرب غربا عبر هــذه المرحلة الدامية من تاريخ الانسانية حين بدأت سلسـلة الحروب الاستعمارية لنهب الثروات وتدمير الحضــارات الشرقية وتدمير أصحابها ، والبدء فى غـــرس قيم الحضارة الغربية الغازية والمنتصرة فى كل مكان هزمتـه السيوف المشرعة ، وهزمه البارود و « القنبر » ... وأرغمت هذه الشعوب المهزومة على هجر تراثها والتنكر لثقافتها ، بل والى نسيان لغتها ، وكانت المحـــاولات فى معظمها تحاول الغاء الشخصية الموروثة للحضارات القديمة لاحلال مفاهيم شخصية الحضارة الغربية الغازية .. وعلى الرغم من أن الضغوط المستمرة والمؤيدة بقوة السلاح قد ادخلت الكثير من المفاهيم التى يريدها الغزاة، كما أنها استطاعت أيضا ان تستقطب طبقات بذاتها من أبناء الشعوب العريقة المهزومة ، الا أن حركة المقـاومة ولدت منذ لحظة الهزيمة ، وقوبل العسف المسـلح ،

بالسلبية فى التعامل معه مرة ، وبالعودة الى التقوقع في حضن ماتبقى من رموز تراثية تؤكد الذات وتحفظ الهوية وتصونها من الضياع والذوبان . ومع كل هـذه المحاولات الفكرية والوجدانية كانت المقاومة الجماعيـة تتزايد ، وتأخذ اشكالها المختلفة ومراحلها المتعـددة اتجاها الى الاستقلال وطرد جنود الغزاة وتحقيق الحرية للوطن والانسان .. وتحقق الاستقلال بعد حين ، وبعد ضياع اجيال واجيال من ابناء هذه الاوطان . تحقق الاستقلال ومعنى الحرية ..ولكنهما حين تحققا كان الانسان فى هذه الاوطان قد فقد اتزانه ، وفقد هويته الحضارية، ووقف حائرا مضيعا يتلفت حوله فى قلق . فقد أصبح أسير الحضارات الغربية ومعطياتها المادية والفكرية معا . هو لا يستطيع أن يقيم حياته اليومية دون الاستعانة بكل التسهيلات التى أنتجتها الوثبات العلميـة والفنيـة للحضارات الغربية فى كل مجال من مجالات الحيـاة اليومية الممارسة . وهو لايستطيع أن يقيم حياته الفكرية بمعزل عن التأثير اليومى لوسائل الاعـلام الحديثة ، ولمعطيات المكتبة والمطبعة فى كل مكان من العالم ، حاملة مايزيد ارتباطه بالفكر الغربى ، وبهموم الحياة فى بلدان الحضارة الغربية ، معطاة من منظور أصحابها المالكين لكل هذه الوسائل ان مباشرة ، وان عن طريق تثبيت النفوذ وتربية الكوادر على مناهجهم هم ، وفلسفاتهـم هم .. ورفع المثقفون من أبناء شعوب الحضارات الشرقية أكثر من شعار لانقاذ شعوبهم من مرحلة التردي والضعف التي تلت خروج المستعمر الذى أكمل عمليات التدمير وبذر بذور الفرقة قبل أن يغادر بجيوشه الارض المحررة. ارتفع شعار الانتماء الضيق الى الوطن ، والشعار الاكثر اتساعا بالانتماء الى القومية ، والشعار الاكثر اتساعا

بالإنتماء الى الدين .. ولكن كل هذه الشعارات كانت مكبلة باستمرار بالنظرة الغربية الى الامور ، تلك النظرة التى جعلت الانتماء الى الوطن ، يعنى العمل على زيادة ارتباطه بالمفهوم الغربى للحضارة ، وزيادة تبنى كل معطيات الغرب المتقدم بالفعل فى كل مجال ، بل والانضـــواء تحت لواء الدولة الاكثر قوة ونفوذا ، وتبنى ايديولوجياتها السياسية والاجتماعية والثقافية جميعا . وهى نفسها التى جعلت الانتماء الى القومية نوعا من التنافس على زعامة هذه القومية ، ونوعا من المزايدة على مقعد القمة وموقع الصدارة فيها، فتحولت الدعوة القومية بعد حين قليل من ظهورها الى اغراق فى تثبيت الذات الضيقة وتفخيمها لتصبح مؤهلة لتتزعم مجموعة الذوات الاخرى التى تكون مجموع القومية ، وهى نفس النظرة التى جعلت الانتماء الى الدين يتجه الى الاغراق فى التمسك بحرفيات الدين وطقوسه مفرغة اياه من كل معنى حضـــارى ، وجاعلة منه وسيلة الى اثبات الذات بوضع المقابل أمام المقابل . وهذا التثبيت بالخصوصية الدينيـــة يعنى انسحابا من الصراع الحضارى القائم . والاكتفـــاء بالوضع المتدنى الذى وصلت اليه شعوب الحضارات الشرقية تحت وطأة الضغط المستمر الذى تمارســـه الحضارات الفاعلة والصاعدة ، والتى يهمها أن تظـــل مناطق الشرق الغنية فاقدة التوجه والرؤية ، غارقة فى السلفيات ، والبحث عن ذواتها فى أعماق التاريخ ، وفى ممارسات الطقوس ، والاختلاف حولها ، تاركة اليوم وهمومه ، وتاركة الغد ومشكلاته ، فى يد اصـــحاب الحضارات الغربية فيما يبدو استسلاما يحميه تضخم الذات ، والاحساس الكامل بالاهمية والخصوصية التى

يكسبها الارتباط بما هو الصحيح والباقى ، وبما هو الباب الى الحياة الاخرى الفائزة ، حين يخسر هؤلاء الذين يتشبثون بالحياة الان ، وهى الخاسرة .. وقد عرفت شعوب المنطقة التى خرجت من الاحتلال العثمانى لتقع تحت وطأة الاحتلالين الانجليزى والفرنسى هذه التيارات كلها ، ومارست هذه الصراعات دون استثناء ، وهى تحاول أن تخرج من يد المستعمر الغربى وأن تطرد جيوشه .. وحين نالت استقلالها وجدت نفسها واقعة تحت اسار النفوذ الحضارى الغربى بشكل أو بآخر . ومازالت تعيش هذا الاضطراب القلق تحت الضغوط التى يمارسها أصحاب الحضارات الغربية ووارثوها ، لتبقى هذه الشعوب فى حالة الحيرة ، والقلق والاضطراب ، وثرواتها تنهب ، وقواها تنهك ، وارتباطها الدائم القديم بقيمها يتحلل شيئا فشيئا .

الا أن هناك شعوبا فى منطقتنا تجنبت هذا الطحن المخيف ، واستبدلت به نعاسا طويلا سادها تحت وطأة الانكفاء على الذات ، والخوف من كل ماهو سائد فى المنطقة من قلاقل وأحداث . وقامت نظم ملكية قبلية رجعية شديدة التشبث بالماضى ، وشديدة الارتباط بالمعنى الدينى الضيق ، وشديدة الخوف من كل ماهو جديد وغير مألوف ، قامت هذه النظم بفرض ستر من حديد واضطهاد وسجون وتعذيب على شعوبها لتظل بمعزل عن المنطقة وأحداثها وتجاربها . وكما جنبت هذه السنين شعوب هذه المناطق الوقوع فى البلبلة الفكرية والاجتماعية التى عاشتها شعوب المنطقة الاخرى ، فقد عادت بهذه الشعوب الى عصور موغلة فى القدم حضاريا وفكريا ، وساد حكم التخلف والشعوذة والمقولات الخرافية ، وانعزلت هذه الشعوب تماما عن حركة المد

الحضاري والمدني التي تسود العالم كله . وفي نهايات القرن العشرين كانت هذه الشعوب لاتزال تعيش نفس الحياة والمقولات التي عرفتها في القرن التاسع أو العاشر الميلاديين أو ربما قبل هذا ايضا . وما كان لمثل هذا الوضع ان يسود ، فالانسان هو الانسان في شوقه الدائم الى الحرية والمغامرة والمعرفة ، وفي حرصه الدائم على المشاركة في الجهد المشترك على ان يسود الانسان العالم ويحقق أمر الله فيه . وبمعنى آخر الانسان كائن حضاري بطبعه وتكوينه ، ولا يمكن أن يقهر على العزلة والتوحد ، او على قتل كل حركة فكر تمر بعقله ، وكل خاطرة تهز وجدانه ، وكل تطلع نحو السمو والرقي الدائمين .. ومن هنا انطلقت هذه الشعوب تزيح عوامل التخلف ، وتخرج واحدة اثر أخرى الى النور والضوء والوجود المشارك في الكيان العربي المتحرك الباحث عن ذاته ، بل وفي الكيان العالمي نفسه الباحث في رؤى حضارية أكثر عدالة للانسان ، واكثر أمنا لمستقبله . وكانت آخر الشعوب العربية لحاقا بالركب هي شعوب جنوب الجزيرة ، وكان آخرها على الاطلاق هو الشعب العماني الذي بدأ حركته منذ عام ١٩٧٠ حين تولى مقاليد الامر في عمان سلطانها الحالي السلطان قابوس بن سعيد البوسعيدي ، معيدا سيرة الكثيرين من اجداده العظام الذين خرجوا بعمان الى صدارة تاريخ المنطقة في كثير من حقب الحياة العربية الزاخرة بالاحداث ، والزاخرة بالانتكاسات والانتفاضات ، ومن ذلك التاريخ ومايحدث في عمان تجربة تشد اليها الانظار ، وتستهوي كل من يريد أن يعرف اين يذهب الانسان العربي بطاقاته الجديدة المتفجرة من جنوب شرقي الجزيرة .

في أول لقاء لي مع الشيخ عبد العزيز بن محمد الرواس وزير الاعلام العماني قال :

ــ نحن نحاول أن نستفيد من تجربة الاخرين .

وفهمت أن كل مامرت به شعوب المنطقة التي سبقتهم في خروجها الى الصراع الحضاري الدائر بين الشرق والغرب كانت في مخيلة وواعية هؤلاء الذين يخرجون بشبابهم وثقافتهم واخلاصهم من البرعم العربي الذي بدأ تفتحه في عام ١٩٧٠ . وأن البحث عن حل للمعادلة المطروحة كان في الاذهان والعقول وهي تفكر لتتجنب أخطاء التجربة عند الاخرين ممن سبقوهم على نفس الدرب ، وربما لتجنب اخطار اخرى لم تعرفها الشعوب المبكرة في الخروج الحضاري ، ولكن عرفتها الشعوب التي فتحت عيونها على ثروات هائلة تنبثق من ارضها نافورات من البترول : ذهب العصر الاسود ..

هل تتمزق عمان بين تجربة التمسك بالخصوصية الوطنية والانتماء القومي ، والهوية الاسلامية ، كما تمزقت غيرها من شعوب المنطقة ..؟ وهل تفقد عمان اتزانها بين الثروة الضخمة الهائلة التي يمثلها البترول وبين التطلع الحقيقي نحو بناء لبنة صلبة في صرح الامة العربية ، بحيث تصبح الثروة طريقا الى القوة ووسيلة الى الدفع الحضاري ، وأداة تيسر الاجابة عن المعادلة الصعبة المطروحة على العربي في هذا العصر بعيدا عن التخبطات التي تعرض لها ويعيش في دواماتها الكثيرون في جنبات الامة العربية بأسرها .

وفي البدء طالعني هذ الكم الهائل من مطبوعات وزارة التراث القومي والثقافة ، والذي يتجه في معظمه بل وكثرته الغالبة الى أزاحة الستار عن ماضي عمان ، وعن علاقاتها بجيرانها عبر التاريخ ، وعن دورها الحضاري

قبل الاسلام وبعده . وبمعنى آخر يتجه الى الكشف عن هوية عمان ، وعن شخصيتها وعن دورها فى المنطقة سواء فى عمق الصحراء التى تربطها بالخليج واليمن والحجاز ، والصين ، وهى بهذا تكمل الدائرة التى تجعل من بلادنا العربية مركزا لكل الحضارات فى العالم القديم كله ، فثغور الشام ومصر تربطنا بحضارة الغرب فى أوربا ، وعمق النيل يربطنا بافريقيا حتى وسطها ، وصحارى العراق تربطنا بفارس والحضارات الوافدة من قلب آسياووادى الفولجا ، واليمن بسواحلها المتاخمة للساحل الافريقى تربطنا بأفريقيا وأراضي ماوراء المحيط الهندى ، بينما تقوم عمان بربطنا بالفرس من ناحية ، وبالصين والهند وجزر المحيط كبيرها وصغيرها من ناحية ثانية ، وبأفريقيا الوسطى وماعند ساحل افريقيا من ناحية ثالثة مكملة دور اليمن فى استكمال الدائرة الحضارية الافريقية والاسيوية النائية .. كانت الجزيرة العربية اذن دائرة تخرج من أطرافها التجارة الى كل أنحاء العالم ، وتصب على سواحلها كل خيرات العالم شرقه وغربه ، وشماله وجنوبه ، ليتم بينها كلها التبادل التجارى المنظم ، والذى سمح بتطور الحضارات القديمة ونموها ، والذى سمح أيضا باثراء العمل الانسانى بمده بما ينقص من ادوات ومواد دفعت باستعمالها المتبادل قدرة الانســـان على البحث العلمى والتطور الصناعى ، وقضت على ما كان يمكن أن تعيش فيه البيئات المختلفة من عزلة تحدث السكون وتمنع التطور .

عمان اذن بدورها البحرى الرائع عبر التاريخ ومنـذ اعمق اعماقه اكملت الدور الذى قامت به منطقة الشرق الادنى حضاريا وتاريخيا . وهى شريك بلاشك فى كـل ماقام فيها من حضارات سواء عند الطرف الشرقى فى

منطقة مابين النهرين من حضارات بابليه واشورية واكادية، أو ماقام فيها من حضارات على الطرف الشـــمالى من حضارات كنعانية وفينيقية ، أو ماقام فيها من حضارات عند الطرف الغربى من حضارات فرعونية وهلينستية ، أو ماقام فيها من حضارات عند الطرف الجنوبى الغربى من حضارات حميرية وسبابة .. هى شريك ــ لاشك ــ فى كل هذا ، كما هى شريك أيضا فى الثورة الاسـلامية الكبرى التى قامت فى وسط الجزيرة وقدمت للعالم كله الحضارة الاسلامية ذات العطــاء الدينى والثقــافى والحضارى معا .

فى كتاب « برترام توماس » عن رحلته من ظفار عبر الربع الخالى الى الامارات عام ١٩١٠ والذى عنـونه « البلاد السعيدة » فقرة تلفت النظر وتشد الانتباه اذ يقول عن ظفار : « اذا كانت هناك منطقة فى شبه الجزيرة العربية تصدق عليها هذه التسمية « يقصد البــلاد السعيدة » .. اذا استثنينا اليمن بأمجاده التاريخية ــ فهى بحق المنطقة التى تسمى « ظفار » والتى تشكل فى مجموعها خميلة من الغــابات الخضراء التى تفترش المرتفعات الجبلية المطلة على البحر . والجداول الرقراقة والحقول السندسية والسهول التى ترصع أديمهــا الاشجار والنباتات والاعشاب » . ثم يقول : « فى هذه البلاد ــ كما جاء فى سفر التكوين ــ حدد الرب العالم ذاكرا انها تبدأ شرقا من جبل سفار « أى ظفار » والى هذه البلاد جاء المصريون القدماء بحثـا عن اللبــان ليستعملوه فى تحنيط فراعنتهم ، وربما كانت أعمـدة النبى سليمان ، مدفونة فى مكان ما بهذه المنطقة . هذا اذا لم تكن ظفار هى نفس الجنة التى ورد ذكرها فى التوراة والسوق التقليدية لتجارة العاج وريش الطاووس

قديما » .. ارتبطت اذن هذه المنطقة منذ القديم بالمعنى الدينى الموحد الذى هو جوهر الديانات السماوية التى نزلت بأرض هذه المنطقة هادية ومبشرة ومقدمة المعانى الحضارية فى دفعات متتالية تبدأ باليهودية وتنتهى بالاسلام . كما أنها ارتبطت بما سبق هذه الديانات من محاولات انسانية لمعرفة الله وعبادته عبادات قاصرة ولكنها جادة فى محاولات الاهتداء الى معنى الوجود وروح الحق . ومن هنا كان الارتباط بين مصر الفرعونية وأرض اللبان ، ومعنى هذا علاقات مستمرة فى التجارة والثقافة معا ، وعلاقات متبادلة فى المصالح والافكار معا .. ويذكر الاستاذ عبد القادر بن سالم أن أحمد الغسانى فى كتابه « ظفار أرض اللبان » ان كتاب تاريخ الاسكندر ذكر خبرا يفيد بأن الاسكندر أخذ من أرض العرب المنتجة للبخور كمية من البخور لاحراقها للآلهة تقربا اليها ، ثم يذكر عددا من الحوادث تؤكد وجود علاقات منظمة بين البطالمة وبين بلاد اللبان والبخور . كما يذكر محاولات الرومان فى احتلال الجزيرة العربية وصولا الى بلاد اللبان ، وخيبة هذه الحملات وتعثرها ويقول : « لقد كان البخور أو اللبان راس بضائع العالم الثمينة المطلوبة فى ذلك العهد كان سعره يساوى سعر كل من الذهب والبترول فى هذه الايام ، ولم يكن يشتريه لغلائه هذا الا رجال الدين لاستعماله فى الشعائر الدينية التى تستنزف القسم الاكبر منه ، والملوك الاثرياء وذلك لحرقه فى المناسبات الدينية وفى اجتماعاتهم » . هذا عن الغرب أما الشرق فقد ارتبطت الاشارات الاولى فى العلاقات بين عمان وبلاد مابين النهرين بتجارة النحاس . ويقول الاستاذ عامر على عمير المرهوبى « عمان قبل وبعد الاسلام » ان

دونالد هولى يشير فى كتاب « الامارات المتصالحة » الى ان ملوك أور الذين عاشوا قبل الميلاد بألفى عام كانوا يتبادلون التجارة مع عمان ويصدرون اليها الشعير والملابس مقابل النحاس . ويقول : « وقد وردت اشارة الى ازدهار مثل هذه التجارة فى اللوحات التى اكتشفت فى مدينة بابل بالعراق . وكلها تؤكد أن السفن التجارية العمانية كانت ترتاد « موانىء أور » محملة بمختلف السلع والمنتجات ، وكان النحاس من أهم الصادرات العمانية وكان يصدر فى مقابل الفضة وزيت الطعام والمنسوجات والمصنوعات الجلدية » .

ويذكر الاستاذ عامر المرهوبى ان بعثة من علماء الاثار التابعين لجامعة « هارفارد » قامت بعملية مسح أثرى فى أرجاء عمان فى عام ١٩٧٣ ووجدت « أن هناك من الدلائل مايشير الى وجود عمليات لصهر النحاس فى عمان فى أربع مناطق للتنقيب ، هى سمد والباطنة والظاهرة وأبرا » .. اما الشمال فقد بدأت الصلات المباشرة معه بمحاولات الاسكندر الاستيلاء على الطريق البحرى الى الهند وقيامه بغزو المنطقة كلها لولا وفاته التى أوقفت هذا المشروع تماما ويقول الاستاذ عبد المنعم عامر فى كتابه « عمان فى أمجادها البحرية » عن رجال البحر العمانيين وعلاقاتهم البحرية بالهند وماوراء المحيط :« قد فتح هؤلاء الرواد فى الخليج فصلا جديدا فى قصة العلاقة بين الانسان والبحر ، فقد استطاعوا لاول مرة أن يتوغلوا الى مسافات شاسعة عبر مناطق كانت تعتبر فى ذلك الوقت مناطق مجهولة ومحفوفة بالاخطار » .. ويقول « ولهذا سمى خليج عمان مهد الملاحة البحرية » . وغاية مايصل اليه العلم هو أن خليج عمان قد شهد محاولات الانسان الاولى لارتياد البحار وكان العمانيون فى

ذلك الزمن الغابر ، أى قبل ٤٠٠٠ سنة يسكنون المنطقة التى كانت تعرف باسم مجان ، وكان لهم نصيب فى تلك الخطوات الرائدة التى أقامت صلات منتظمة بين عدد من الحضارات المتباعدة » ..

اذا كانت هذه هى علاقة المنطقة بالحضارات القديمة التى ازدهرت فى شمالها الشرقى والغربى ، فان علاقاتها بالحضارات فى الجزيرة نفسها ترتبط بكيانها العربى ، وتكوينها من هجرات عربية ، جعلت من أهل الجنوب جزءا من أهل الشمال والعكس صحيح . ويقول :« ويندل فيليبس » فى كتابه « تاريخ عمان » : « اذا تحولنا عن الروايات الى التاريخ ، وجدنا انه حدثت على الارجح هجرتان رئيسيتان من شمال ووسط شبه الجزيرةالعربية الى جنوب شبه الجزيرة ، فقد حدثت الاولى قبل عام ١٥٠٠ قبل الميلاد والثانية حوالى عام ١١٠٠ قبل الميلاد ، أى قبل عهد موسى بفترة قصيرة .. وقد جلب المهاجرون معهم الافكار والعادات والاسماء التى نجدها فى السجلات الاولى للكنعانيين والبابليين ، وعلى سبيل المثال فان وجود التشابه بين عبادة القمر لدى أهل بابل ، وعبادة القمر فى حضرموت تعتبر أمرا له دلالته . وكان أهل البلد نفسه يتحدثون لغة تماثل تلك التى كان يتحدث بها أهل عمورية القدماء فى شمال الجزيرة العربية » ويؤكد « ويندل فيليس » على وجود التشابه فى العقائد والاثار الادبية بين الاديان القديمة فى فلسطين وسوريا . وبين ماكان فى شبه الجزيرة من ديانات قبل الاسلام فيقول « كان الكنعانيون القدماء مثلا يعبدون نجمة الصباح التى يسمونها عشتار ونحن نجد نفس المعبود فى جنوب شبه الجزيرة العربية » ويقول : « وبالمثل فان عبادة الشمس كانت شائعة لدى

الكنعانيين وفى جنوب شبه الجزيرة العربية ، كما يتضح ان كلا من الحروف الابجدية الاولى المستخدمة فى ارض كنعان وتلك التى استخدمت فى شبه الجزيرة العربيه كان أصلها مشتركا » .. ويوجه فكرة الهجرات هذه بقوله : « ويبدو على وجه الاجمال أنه يحتمل أن يكون هذا الانتشار لثقافة مشتركة قد حدث نتيجة هجرات فى جنوب شبه الجزيرة العربية ، والتى تشمل عمان الحالية بدلا من أن يكون نتيجة مزيد من التنقلات العامة فى كلا الاتجاهين » .. واذا كانت الهجرات قد لعبت هذا الدور الهام فى توحيد الثقافة والثروة معا ، فان اكتشاف طرق التجارة بين الجنوب والشمال قد ساعد على هذا المزج الحضارى،ويقول الاستاذ عبدالقادر ابن سالم بن أحمد الغسانى فى كتابه « ظفار ارض اللبان .» حول طرق التجارة : « وكان اللبان من أهم المواد التى تاجر بها العرب الجنوبيون ، تاجروا بتصديره الى بلاد الشام ومصر والعراق . وقد أشير فى التوراة الى قوافل سبأ ، وهى قوافل كانت تسير من العربية الجنوبية مخترقة العربية الغربية الى فلسطين فتبيع ماتحمله من سلع هناك ، وقد كان السبئيون يسيطرون على العربية الغربية حتى بلغت حدود مملكتهم أرض فلسطين » .. ويقول : « سارت حكومة سبأ على سياسة التوسع التجارى ، وهذا التوسع يقتضى السيطره على الطرق فبذلت جهدها لبسط سلطانها على الطرق والمسالك وجعلها تحت نفوذها وحكمها ، وبعد أستيلائها على بقية الحكومات العربية الاخرى وضعت الطرق الجنوبية المؤدية الى أرض اللبان والمواد الاخرى التى اشتهرت بها العربية الجنوبية والى الموانىء والمرافىء التى تتاجر مع أفريقيا والهند وتستورد منها السلع

النفيسة الثمينة تحت نفوذها وحكمها ، فحسنتها وشقت طرقا جديدة لاغراض حربية واقتصادية . وبلطت بعض المواقع فيها لتقاوم السيول والامطار ، واحكمت جوانبها وحصنتها بالحجارة الصلدة حتى تقاوم السيول التى تنحدر من المرتفعات على هذه الطرق فلا تلحق الاذى بها » .. والكاتب يذكر بالتفصيل طريق اللبان هذا الذى يصل الى غزة ، ويذكر ان اول من استخدمه كانت الملكة بلقيس فى رحلتها الى الملك سليمان . ورغم تداخل الاسطورة بالحقيقة ، فان الطريق البرى حقيقة واقعة زادت من هذه الروابط التى مزجت حضارات الجزيرة بعضها ببعض . كما مزجت العطاءات الحضارية الاخرى التى عرفها ابناء الشمال من احتكاكهم بحضارات الشمال وبلاده ، بالعطاءات الحضارية الاخرى التى عرفها ابناء الجنوب من احتكاكهم بحضارات الجنوب وبلاده . وهناك أيضا عنصر آخر هام وهو عنصر الغزوات التى تعرضت لها اراضى الخيرات والثروات ، والاطماع التى احاطت بها .. وتنقل لنا كتب التاريخ أطماع الاسكندر والبطالسة والروم التى وصلت الى حد أحتلال ميناء عدن ، وتذكر أيضا صراع دولة بيزنطة ودولة الفرس حول الجنوب حيث أصبحت الحبشة بعد قيام دولة بكسوم رأس حربة بيزنطية موجهة الى جنوب الجزيرة فتحتل اليمن وتوجه حملاتها الى قلب الجزيرة فى مكة ، وحيث احتلت فارس الجنوب الغربى للجزيرة أو عمان منذ فترة ضاربة فى عمق الزمان ، وينقل « ويندل فيليبس » فى كتابه الذى ترجمه الاستاذ محمد أمين عبد الله عن كتاب كتبه ملاح من الاسكندرية مجهول الاسم سماه الرحالة ازيدور « بيربلوس البحر الاثيرى » أو البحر الاحمر ويقول : « ويصف هذا الكتاب الارض

الواقعة شرق جزر « كوريا موريا » وهي عمان بأنها منطقة لم تعد مملكة كما كانت بل أصبحت الآن مملوكة لفارس ، ونحن نعرف أن الفرس في عهد قورش الكبير قاموا بغزو مزون ـ أي عمان ـ حوالى عام ٥٣٦ قبل الميلاد . ولكننا لانعرف ما اذا كانت عمان قد بقيت تحت سيطرة الفرس حتى وقت كتاب بيربلوس أم لا .. وهي لم تبق كذلك على الارجح اذ يحتمل أن تكون قد وقعت غزوات أخرى كانت آخرها بواسطة البارثينيين » . وهذه الرواية تؤكد اطماع الفرس المستمرة في الاستيلاء على عمان لاحكام السيطرة على الخليج من ناحية ، ولضمان السيطرة على التجارة عبر المحيط من ناحية ثانية ، وللاستيلاء على ثروات من اللبان والنحاس وغيرهما من المنتجات من ناحية ثالثة . وتذكر كل كتب التاريخ العربى هجرة الازد اليمانية بقيادة مالك بن فهم الى عمان في حوالى عام « ١٤٧ ـ ١٩١ » ميلادية واصطدامهم بالفرس الذين كانوا يحتلون البلاد ، وهزيمتهم لهم ، واجلاءهم عن عمان واستقرار المهاجرين الجدد في الارض الجديدة ... وتعتبر رحلة مالك بن فهم هذه من أثرى الحكايات البطولية التى ترسم جزءا من ملحمة العروبة في عمان، كما انها تؤكد أن أطماع فارس لم تتوقف في اية حقبة تاريخية في السيطرة على البلاد . وتذكر كتب التاريخ ان اردشير احد ملوك الاسرة الساسانية قد قام في القرن الثالث الميلادى بتأييد مزيد من الهجرة التابعة له الى ارض عمان . كما تذكر ان خسروا الثانى قد قام بغزو عمان مرة ثالثة مابين عامى ٥٩٠ و ٦٢٨ ميلادية وقد شمل حكمه البحرين وحضرموت كذلك . الا ان هذا الوجود الفارسى لم يقدر له الاستمرار . وان احدث

باحتكاكه الثقافى والحضارى آثاره التى امتزجت بالحضارات الاخرى والحضارات القيمة الاصيلة ..

هذا الثراء فى العمق التاريخى حملته هذه المجموعة الضخمة من الكتب التى حرصت حكومة عمان على طبعها وطرحها للتداول فى فترة زمنية قصيرة جدا ، ولكنها كشفت عن العمق الحضارى للمنطقة ، وعن تشابك العلاقات الحضارية بها . وعن دورها الهام فى ترابط الحضارات من جهة . وفى المزج بين هذه الحضارات من جهة أخرى . وهذا الاندفاع نحو الغوص فى التراث وإنقاذ مخطوطاته بالاسراع بطبعها وتداولها ، تزامن مع السماح ببعثات الجامعات العالمية بالتنقيب فى كل انحاء البلاد ، والقيام بالكشوف الاثرية فتوافدت البعثات الانجليزية والدنماركية والايطالية والامريكية والفرنسية . تغطى كل منها جزءا من أجزاء الكشف عن البقايا التاريخية والاثرية التى تزيح النقاب عن النشاط الحضارى ، وعن العادات الاجتماعية ، وعن بقايا المبانى والقصور والمقابر ، وتحدد زمنها وتاريخها ، راجعة بعمان كمستوطنة انسانية الى عمق التاريخ القديم جدا . وكاشفة عن البدايات الاولى للحركة الانسانية نحو المعرفة ، ونحو الاستقرار ونحو الحضارة .

فالبداية اذن صحيحة اذ هى اتجاه الى العمق وليس مجرد طفو سريع الى السطح ، واذ هى تكريس للثروات والاموال بحثا عن معرفة الذات ، وعن الكشف عن دور هذه الذات منذ مطالع التاريخ لا الاسلامى فحسب وانما تاريخ ما قبل الاسلام . بل وتاريخ اول التحركات الانسانية نحو الحضارة . وقد أخطأت شعوب كثيرة فى المنطقة حين اهملت اهمية سرعة الكشف عن التراث بتدوينه وتسجيله وتداوله ، حتى طغت وسائل العصر ،

وطغى الزحف الحضارى ليطمس كل معالم الارتباط بالموروث القديم . وهدمت قيم أثرية هامة لتشق فوقها ومكانها الطرق المعبدة الحديثة ، وطويت صفحات رائعة من سجلات التاريخ بزعم أنها مليئة بالخرافات والخزعبلات التي لا تتفق فى زعمهم مع الحضارة والمدنية والعلم مرة ، والتى لا تتفق فى زعمهم ــ مع الدين الصحيح ونقاء الاسلام مرة أخرى .. والامر فى أوله وآخره سفه ورثة لا يعرفون قدر الكنوز التى ورثوها فأضاعوها .

ومن هنا صدقت كلمة الاستاذ الشيخ عبد العزيز ابن محمد الرواس حين قال .

ــ نحن نحاول أن نستفيد من تجارب الاخرين .

فأول الاستفادة من تجارب الإخرين هي تجنب اخطائهم .. واذا كان هذا قد حدث بالنسبة للبحث عن الجذور ، فهو يعنى فهم عمان لموقعها من صراعات الحضارات . فهى ابنة الحضارات الشرقية جميعا . وعلى راسها الحضارة الاسلامية بعطائها الحضارى والثقافي والدينى فى آن واحد . وهى اذ تواجه الزحف الحضارى الغربى الجارف حولها ، تواجهه وهى تدرك مكانها منه ، ومكان أبنائها فى المواجهة الحضارية الحتمية ، ولكنها تزودهم أول ماتزودهم بسلاح المعرفة بماضيهم وجذورهم وانتمائهم . فلا تخبط هناك ولا تذبذب ولا معارك فى مواجهة طواحين الهواء التى ذهبت بجهود من سبقوهم على الطريق ، ومزقت أمنهم النفسى ، وبلبلت مواقعهم من الانتماء الحضارى لامتهم ، ولأوطانهم ولهم هم أنفسهم .

الرحلة إلى الداخل

في هذا الزمن القبيح الذى يقتل فيه العربى أخـاه العربى ، ويتآمر فيه المسلم على أخيه المسلم ، وتسفك دماء العرب انهارا بأسلحة منطلقة من ايد عربية ، وترتفع فيه شعارات التصفية الجسدية والقتـــل الجماعى المنظم ...

في هذا الزمن الوغد الذى تدك فيه عاصمة عربية بآلاف الآلاف من القنابل القاتلة الحاصدة الحارقة ، فلا يجد العرب في كل مكان فعلا الا ان يتلفتوا حولهـــم في دهشة وحيرة وخجل ، ولا يجد المسلمون في كل مكان الا الكلمات الطنانة والصراخ الاجوف .

في مثل هذا الزمن الذى يطعن فيه العربى عربيا في ظهره ، ويتعاون فيه عربى مع أجنبى ليعرى أخـاه في الوطن والدين والانتماء ، ويقتله .

في مثل هذا الزمن لا يجد الانسان أمامه آلا أن يشد متاعه ويرحل .. عله يجد الاجابة عن الاسئلة الحائرة في عقله . او عله يجد السلوى في شيء يعيد اليه ايمانه بالمعنى والمغزى ، بالانتماء والارتباط ، بالفضيلة العربية التى تهال فوقها أكداس من الرمال والدخان والعـــار .. حقا لا يجد الانســان أمامه الا ان يفعل كمـــا فعـــل السندباد كلما عاد من رحلة ، استعد لرحلة أخرى .

والسندباد رمز الرحلة الدائمة والترحال المتتالى ، بحثا عن المعرفة ، وتطلعا الى التجربة ، وارتيـــــادا للمجهول ، علّ فيما لا نعرف ما يزيل الادران عما نعرف

من حقائق الممارسات .. ورحلات السندباد دائما الى الخارج ، عبر البحار والاخطار .. وصراعا مع البحر واهواله ومخاوفه . ولم يعد هناك أهوال ولا صراعات لافي عبور البحر او فى شبق أجواز السماء فوق السحاب، فهذا « مكن » يسير بقوة العلم متغلبا على الامواج والاعاصير والرياح والامطار . فان سار فيه كل شيء كما قدر له ، وظللته أجنحة الرحمة من صاحب الرحمة ، فلا مغامرة هناك ولا مجهول .. أما رحلتنا نحن فهى رحلة الى الداخل .. سندباد اليوم يرحل الى الداخل ، فهو يغوص في أعماقه ليعرف من هو ، ومتى كان ، وكيف كان ؟ .. وهو يحاول أن يعرف موقع قدمه فى وجود اليوم وتطلع الغد .. والرحلة الى عمان رحلة الى الداخل ، داخل العمق العربى ، وداخل عمق النفس فى وقت واحد . فعمان قد جنبت نفسها منذ فجر التاريخ الاسلامى كل تلك المعارك والانقسامات والفواجع التى شغلت المشرق العربى كله على مدى قرون وقرون ، والتي تجنى ثمارها اليوم صبرا وعلقما ونزفا دمويا دائما بين ايران والعراق ، وفى أرض لبنان بين الفرق المتشابكة والمتصارعة بلا هدف الا المزيد من سفك الدماء ، وأضعاف البنية الاساسية للمجتمعين الاسلامي والعربى على السواء . فمنذ البدء رفض الاباضية أصحاب المذهب الاسلامى المنتشر فى عمان خلاف المسلمين حول الخلافة . ونادوا بانتخاب خليفة للمسلمين عن طريق الشورى دون اعتبار للنسب القبلى أو الاصل العرقى . ويقول الدكتور عوض محمد خليفات فى كتابه والاصول التاريخية للفرقة الاباضية » : شهد أبو بلال ، زعيم هذه الجماعة المعلن ، معركة صفين مع على بن أبى طالب وانكر التحكيم ، واشترك فى معركة النهروان

مع المحكمة ضد على بن ابى طالب . ويبدو أنه لم يكن مرتاحا لما حدث من خلاف وفتنة بين المسلمين ، وصعق لما حل بأقاربه واقرانه من قتل وتشريد على يد اخوانهم فى الدين ، وراى ان القتال بين أتباع العقيدة الاسلامية بهذه الطريقة الشرسة امر لا يصح ، فانسحب مع نفر من اصحابه ، واقام مع ابناء عمومته من قبيلة تميم الذين كانوا يشكلون جزءا هاما من سكان البصرة آنذاك».

ولكن والى العراق اضطهد هذه الجماعة مما دعاهم الى الهجرة من العراق . ومع هذا فقد تعقبهم الوالي واباد من لقيه منهم ، وقتل أبا بلال . وبعده وفى بداية الربع الاخير من القرن الاول الهجرى ظهرت جماعة الاباضية ، ويقول عنهم الدكتور عوض محمد خليفات الاستاذ بالجامعة الاردنية : « سميت الاباضية بهذا الاسم نسبة الى عبد الله بن اباض الذى تعتبره المصادر غير الاباضية مؤسس المذهب الاباضي . اما العلماء الاباضيون فينسبون الى عبد الله بن زيد الازدى العماني الذي يعتبرونه أمام اهل الدعوة ومؤسس فقههم ومذهبهم ، ويجمع المؤرخون والمفكرون الاباضيون على أن عبد الله ابن اباض كان يصدر فى كل أقواله وافعاله عن جابر بن زيد » .. وايا كان الامر فى تأسيس هذا المذهب ، وايا كان الامر في معارك الائمة معلنين ومستترين ، وأيا كان الامر فى دولة الاباضية فى الجزيرة العربية او فى بلاد المغرب . فان دورهم فى نشر الاسلام فى افريقيا الشرقية وافريقيا السوداء واقتحامهم الصحراء وبعض مناطق الشرق الاقصى دور ثابت لا جدال فيه . ويلخص الدكتور عوض دراساته عن الاباضية فى نقط محددة منها انه حرموا قتل الموحدين واستحلال دمائهم ، وحرموا استعراض الناس وامتحانهم ، كما ان « الاباضين ينظرون الى الدين

نظرة واحدة متكاملة لا فصل فيها بين المظاهر الروحية والمادية ولا طغيان لاحداهما على الاخرى ، وتبعـا لذلك فقد أنكروا التصوف ورفضوه » ... وهم من أكثر المسلمين اتباعا للسنة الشريفة والاقتداء بها « أما ماتلحقه بهم بعض المصادر من تهم فانما هو ناتج عن أحد أمرين : الجهل أو التعصب » . وأنهم وحـدهم الذين طبقوا مبدأ الشورى في الحكم بعد الخليفتين ابى بكر وعمر .

وبحث الدكتور عوض محمد خليفات على قلة عدد صفحاته بحث مفيد ومركز . وهو يتجه فيه الى الدعوة الى زوال الفرقة وتحكيم العقل فى الخـلافات بين المسلمين ، ويقول فى ختامه : « أن الوحدة العـربية والتضامن الاسلامى يستدعيان منا أن نحكم العقل والعدل فى علاقاتنا جماعات وافرادا . وأن زوال الفـرقة بين اتباع المذاهب الاسلامية أمر هام وضرورى لتحقيـق حريتنا ، ووحدتنا ، ومستقبل اجيالنا . ان الدين واحد والمصدر واحد ولا مبرر للفرقة والاختلاف بين المسلمين ان هم حكموا قول رسول الله صلى الله عليه وسلم : تركت فيكم ما أن تمسكتم به لن تضلوا : كتاب الله وسنة رسوله الكريم صلى الله عليه وسلم » .. وليس بعد مثل هذا الكلام تعقيب ، وليس بعده اغراء لمن يبحث فى الاعماق ويرحل الى الداخل الا ان يلبى الدعـوة ويستجيب للنداء . فعسى أن تقوده الرحلة الى كشف جديد فى عمق النفس العربية انسيناه فى غمـرة الخلاف والصراخ والدماء المراقة . وكان أول الكشف عندى أن روح الرقة والصفاء لم تدمرها بعد كل هـذه الزلازل من الاحداث المخيفة فى الشمال العربى . وما كانت أرق واصفى مفاجاة من أن اجد الاخ سالم العبرى الملحق

الأعلامي لسفارة عمان فيّ وداعي بالمطار . وكانت اللفتة كريمة حقا. فليس معنى الاستضافة ان يصحبك المضيف حتى باب الطائرة التي تقلك الى بلده . ولكنها كانت المبادرة الكريمة التي تفصل بين المجاملة ، والرقة المتأصلة. ثم تأكد هذا الكشف حين حلت الطائرة بمطار مسقط فاذا فى انتظاري عند بابها الاخ محمد بن سالم الرهون مدير دائرة الاعلام بابتسامته المشرقة ، وذكائه الخارق الذى استطاع أن « يفرزنى » من بين الهابطين من الطائرة فيتقدم سائلا عن اسمى ، ثم مرحبا بي ، ثم مقدما اياى الى رفاقه الاخ غازي بن عبد الله مندوب العلاقات العامة والاخ نجيب بن رجب عوض مرافقى طــــوال اقامتي فى مسقط . وفى القاعة كان أول ماقدم لى التمر والقهوة .. فأنا اذن فى صلب الكرم العربى .. فهــذا نتاج الارض العربية يرحب بضيفها .. في بلادي يقدمون الملح والشاي ، وفي بلادى يقدمون القهوة منذ أعمق أعماق التاريخ ، وفى بلادى التمر رمز الثروة ورمز الكرم معا . وتقديمهما يعنى انك حللت أهلا ونزلت سهلا .. وان السلام عليك لحظة جئت ولحظة تنزل مكرما لا عدوان عليك ولا بغى .. وأين هذه الكلمة الان ، تلفظها الشفاة ولاتنزل منها الى القلوب ، ولا تصعد منها الى العقول . أصبحت كلمة باهتة لا تعنى شيئا ؛ كمعظم الكلمات والشعارات التى نرددها فى خطبنـــا الجوفاء ، ومقالاتنا العصماء ، وتصريحاتنا المبجلة ، والامر ، مجرد كلمات فقدت معناها الحقيقى ، وعطاءها الصادق الاصيل ، وافقت على صوت الاخ محمد سالم الرهون الرقيق الهادىء وهو يقول :

ـ نصحبك الى الفندق لترتاح الليلة ، وفى الغد ، وقت أن تستيقظ وتحس انك مرتاح ، خاطبنى فى

التليفون لترتب الامر لزيارتك ..

واحسست بالامتنان له ، وماذا وانت قد اجتزت ساعتين من الزمن عبر خطوط العرض ليصبح الفرق فى التوقيت بين القاهرة ومسقط ساعتين . مجرد التفكير فى انك سبقت الزمن ساعتين يصيبك بالدوار ، فما بالك وان هذا كله حدث دون أن تشعر والطائرة تتحرك بك سرعتها الفائقة المجنونة فتسبق الزمن فعلا .

وسألته :

ـ اليس هناك برنامج للرحلة ؟

ضحك وهو يقول :

ـ البرنامج تحدده أنت بعد أن ترتاح ، وتحدد ماذا تريد وماذا لا تريد .. نحن فقط سنيسر لك أمر أن ترى ماتحب أن تراه ، وأن تلتقى بمن تحب أن تلتقى بهم .

واقلتنا السيارة تمرق فوق طرقات ناعمة ، والاضواء فى كل مكان تلوح ثم تختفى وراءنا بسرعة ، وانا لا ارى الا اشباح جبال وعمائر ، واضواء منازل تسهر مع ليل هادىء . وفى الفندق تركنى المرحبون الاصدقاء .. لقد احسست لحظة غادرونى كأنى اعرفهم من زمن طويل جدا . وجعلت وانا اركب المصعد يتحرك بى الى الطابق الثالث استعرض الوجوه ، والابتسامات ، والاصوات ، والكلمات .. ولماذا لا ؟ . الم اجىء فى رحلة الى الاعماق ؟ وأى الاعماق سأعرف الا من خلال من القى واحادث . الالتفات الى الانسان أهم فى رحلتى هذه من كل الاشياء الاخرى .. هذه البساطة فى الحديث . وهذه السماحة فى الوجوه ، وهذه الرقة فى المعاملة اليست صدى لاعماق لا تعرف هذا الهم الثقيل الذى يجعلك تنام فى كابوس ، وتستيقظ فى ضيق ، وتحس بالاكتئاب وانت تسير وانت تأكل ، وانت تشرب ، وانت

تحادث السحاب . وحين دخلت غرفتي احسست ان حالة الاكتئاب التي لازمتني طوال هذا العام قد تركت مكانها لنفس تتفتح على رؤية جديدة وفكر جديد .

وفي الصباح كنت أزور المتحف الوطني . وهو مبنى متواضع يشي بالبساطة . كما يشي بأن الكشف عن آثار عمان لم يتم بعد ، وان الطريق الى إكتمال المتحف هو الطريق الى عرض الوجود العماني عبر التاريخ . اللوحات تتحدث عن مراحل تاريخ عمان المعروف . والصخور وبقايا الانية الخزفية تتحدث عن الوجود العماني قبل التاريخ. والملابس والاسلحة والادوات تتحدث عن الوجود العماني المعيشي . والصور تتحدث عن ملوك عمان وقوادها . والقوارب بانواعها تتحدث عن بحر عمان ، وعن رحلة المغامرة والكشف عبر المحيط .. ولم يكن هذا كافيا ، كنت في المتحف استعيد ما قرأته في الكتب المنشورة عن الحفريات والتنقيب في أرجاء عمان ، كما كنت استعيد ما قرأته في المخطوطات المنشورة عن تاريخ عمان وتاريخ حروبها ومعاركها ومغامرات رجالها في البر والبحر . ولم يكن هذا عندي كافيا . فقد كنت أحب أن يكون في المتحف اضافة الى ما قرأت ، وأن يصيبني بالدهشة والمفاجأة .. ولعل المسألة أنني قرأت قبل ان ارى . وان غيري ربما ممن لم يقرأ قد يصيبه المتحف بالدهشة والمفاجأة .. فالحقيقة أن المتحف يضم كل ماقد عرف عن عمان طبقا للتوثيق التاريخي ، ولكن النفس الطموح تتوق الى ماهو أبعد من المعروف والمتداول من معرفة . وكان الأبعد عندي ، والاضافة الجديدة الى هي اكتشاف روح البساطة والصدق والتواضع . فلا ادعاء هناك ولا تزييف . وانما الحقيقة البسيطة بكل

صدقها وبكل مالديها من مادة ومعرفة . ومع هذا فقد تمنيت وانا اغادر المتحف الوطني لو أنه حظي بعمارة أوسع ومساحة اكبر وضم نماذج مجسدة لقلاع عمان كلها وحصونها الباقية ، ولو أنه ضم جزءا خاصا عن العادات والتقاليد ، ولو أنه ضم نماذج مجسدة للمحارب العماني البري والبحري بملابسه واسلحته التقليدية من الزمن المعروف وحتى اليوم . ولو أنه حوى نماذج لعالم الماضي الحاضر في عمان كأشجار التمر وجوز الهند واللبان . لو اني رأيت فيه أدوات صيد الاسماك القديمة ومراحل صنعها وتطورها لو ان .. لو ان .. وكلمة « لو » لا تترك النفس المتطلعة تستريح . وعرفت فعلا انني قد تركت اكتئابي ورائي ، وبدأت أتوثب وافكر واتمنى ، واعود الى شباب طموح تركته من زمن ..

وما أن غادرت المتحف حتى فوجئت بدعوة للقاء السيد وزير الاعلام في مكتبه ، والآن . وخطرت ببالي على الفور عبارة ذكرها « تيم سيفرين » صاحب رحلة السندباد اذ يقول في أكثر من موضع عندما يتم انجاز امر من الامور التي يطلبها استعدادا لرحلته : هذه هي الطريقة العمانية في انجاز الامور .. الان . ولم اكن اعرف السيد عبد العزيز محمد الرواس الا من خلال حديث صديقنا المشترك الاستاذ مكرم محمد احمد عنه . وعن ذكائه وفعاليته وحماسه الزائد لمهامه ، وغيرته على رسالة وزارته واهميتها لوطنه . ولم أجد في كل ماقاله مكرم أية مبالغة حين رحب بي الرجل في مكتبه المتواضع الانيق . ومكتب اي مسئول في عالمنا العربي مرآة لشخصيته ، ومرآة لفهمه لمنصبه . والمكتب الذي دخلته مكتب عمل ، أن تميز بالاناقة والنظافة الراقية فهو يتميز بالبساطة والعملية الواضحة . والرجل الذي

التقيت به في شرخ الشباب يرتدى الدشداشة العمانية والعمة العمانية ويتحدث فى صوت خافت والابتسامة لا تغادر شفتيه . سألته وأنا آخذ مجلسى الى جواره فوق مقاعد جلدية بعيدة عن المكتب بعض الشيء :

ـ سيادة الوزير لماذا الشباب ؟

ونظر الى فى دهشة ، ثم ابتسم وهو يقول :

ـ فهمت .. أنت لم تلتق حتى الآن الا بالشباب . وبالفعل هم يمثلون القوة الضاربة في بناء بلدنا اليوم . لا تنس ، عمان بلد شاب ، وهي لهذا تحتاج الى الشباب والشباب المتجدد دائما ومع هذا فانت لم تزر كل مواقع العمل فى عمان بعد . ولو فعلت لوجدت الكهول أصحاب الخبرات فى كل مكان ، فنحن نحتاج اليهم ، ونحتاج الى خبرتهم وعلمهم وحكمتهم فى كل مكان ، فنحن شعب يعرف قدر آبائه جيدا وكذلك قدر أجداده ..

وسكت لحظة ثم ضحك ، وقال :

ـ أخبرنى ماذا تريد أن ترى ، ومتى ، فأنا افضل أن تضع برنامج زيارتك بنفسك .

ومضينا نتحدث عن زيارتى لعمان وعن الف ليلة وليلة ، وعن رحلة تيم سيفرين من مسقط الى الصين فى سفينة مصنوعة على نمط السفن القديمة ، تلك الرحلة التى سماها سيفرين رحلة السندباد . ثم انتقل الحديث الى هموم أعلامية وثقافية ولعلها لا تمس عمان وحده قدر ماتمس العالم العربى كله ، وختم الوزير الشاب المتحمس حديثه قائلا :

ـ فى توجهنا الاعلامى نحن ندرك تماما أن عمان جزء من العالم العربى .

وأثارت هذه العبارة همومى كرجل عمل فى الاعلام العربى أحلى سنى عمره وأخصبها . وسألت نفسى هل

يدرك العالم العربي فى توجهه الاعلامى أنه عالم عــربى واحد ؟ .. فى خضم الاذاعات التى تفرق ولا توحد ، وتخلق الفرقة والبغضاء بدل الحب والتعاطف ، والتى لا تتورع من أن تذيع الاكاذيب والاختلاقات ، وتضـخم المزاعم وتحتشد الافتراءات ، حتى أصبح المتلقى يبحث عن الخبر الصادق والذى يمس وجوده ومنطقته وأهله فى الاذاعات الاجنبية الناطقة باللغة العربيــة . والتي عرفت نقطة الضعف هذه ، فضاعفت من جرعة الصدق في اخبارها،كما ضاعفت من الاهتمام بالمتابعةالخبرية لكل حدث يقع فى كل جزء من أجزاء الوطن العربى،وأصبح المتلقي العربى ـ بين الاحداث الخطيرة فى منطقته ـ مرتبطـاً بالمؤشر الذى يثبت جهاز استقباله عند هذه المحطـات ليعرف الخبر اليقين . وليأخذ حقه الطبيعي فى متابعـة الحدث ، ومعرفة تطوره الحقيقي ، وردود أفعاله المحلية والعمالية على السواء .. وفى خضم الاذاعات التى تهتم بقضاياها الاقليمية الضيقة بحيث تغرق متلقيها فى صيغ متكررة مملة ، تكاد من كثرة تشابهها تصبح كلها خبراً واحداً ، أو عدة اخبار ثابتة تتناول الرسميات المحلية ، وتزيد من اغراق المتلقى فى تقوقعه ، وتنمى فيــه حس الانفصال الزائد عن الكل المكون لوجوده ، فاذا مابحث عن محطة عربية اخرى وجدها هى الاخرى غارقة فى محليات لا تهمه أو تعنيه ، فاذا ماكرر التنقل بين محطاته العربية المتعددة ـ وما أكثرها كما هذه الايام وما أكثرها تشابها فى الكيف ـ هرب منها جميعا الى العالم الرحب يأتيه عبر الاذاعات الغربية التوجه ، العربية اللغــة ، فغرف منها مايكفيه من زاد يربطه العالم من حــوله . والمدهش أيضا انه يربطه بعالمه العربى نفسه أكثر مما

تربطه اية اذاعة عربية اخرى . وفى خضم الاذاعات التى تقدم لمتلقيها مايرسمه لها المخططون لا ما يستجيب لحاجة المتلقى نفسه من معلومات ومعرفة ، ورؤية لتطورات العلم والفن والادب والثقافة بعامة فى دنياه والدنيا بعامة ، والمخططون يتصورون انهم يخلقون عقله ووجدانه وهم فى الحقيقة يحاولون تزوير هذا العقل وهذا الوجدان ، والمهرب مرة اخرى الى حيث لاحجر على المعرفة ولا محاولة للى الاعناق فى خطط ترسم للانسان عقله ووجدانه فى عصر نضج فيه الانسان ، ونضجت معه وسائل التقنية العصرية ، بحيث أصبح العالم وثقافته وادبه وفنه وفكره جميعا عند أطراف أصابعه التى يقلب بها مؤشر الراديو الى حيث يجد مايريد ، والى حيث يستريح عقله ويطمأن وجدانه ، ويرضى ضميره المتطلع نحو المعرفة الحقة التى تحترم نموه العقلى والوجدانى معا ..

هموم اعلامية كثيرة اثارتها كلمة الوزير عن التوجيه الاعلامى وعن الاستفادة من تجارب الاخرين . وخرجت من المقابلة المليئة بالمجاملة والرقة ، وانا احمل هذه الهموم معى افكر فيها ، واحس ان الوقت قد آن أمام المفكرين العرب المشتغلين منهم بالاعلام وغير المشتغلين بالاعلام ، لمواجهة هذه القضايا والبحث عن مخرج من الازمة التى وقع فيها الاعلام العربى .. وفى المساء كنت احمل هذه الهموم معى فى لقائى بالسيد سعيد بن ناصر القصيبى وكيل وزارة الاعلام الذى التقى بى فى مكتبه ليطلب الى أن أحدد ماأريد لاستطيع أن اجعل من زيارتى شيئا مجديا . وحددت اشياء كثيرة ، وأبدى الرجل الذكى الرقيق استعداده لان يضع برنامج زيارتى

وفقا لما حددت . وهكذا تقرر أن أزور باقى المتاحف فى مسقط ومطرح ، وان ازور قلعة نزوى ومدينة نزوى ، وان أسافر الى صلالة ، وان أزور فلج دارس ، كنموذج للافلاج فى عمان . كما وعد بتسهيل لقسائى ببعض أدباء عمان وبرجال الاذاعة فى مبنى الاذاعة والتليفزيون ، وبرجال الصحافة فى جريدة عمان ، وبرجال الثقافة ، وحدد لى بالفعل موعدا مع مدير القلاع وموعدا مع مدير المخطوطات .. ثم نحينا الحديث الوسمى جانبا وبدأنا نتحدث عن هموم المثقفين فى عمان . فاذا بنا نتحدث عن هموم المثقفين فى العالم العربى كله . كيف يمكن أن تصل الجريدة التى تصدر فى عمان الى المتلقى والقارىء فى كل مكان فى العالم العربى ليلقاها بنفس الاهتمام الذى يلقى به جرائده التى تصدر فى بلاده . وكيف يمكن أن يتواصل المثقفون العرب ثقافيا وهم لا يعرفون مايصدر من كتب جديدة وأبحاث علمية وابداعات أدبية فى الاقطار الاخرى من البلاد العربية ؟ بل كيف يمكن أن تكون رأيا عاما ثقافيا ونحن مختلفون فى مناهج التعليم وخاصة الجامعى ؟ ويكرر كل منا نفس ماقاله وفعله من سبقوه فى الميدان العلمى وهو يتصور أنه يأتى بفتح جديد . وبمعنى اوضح كيف يمكن أن نسير فى تواصل لا فى تواز ، وكيف يمكن أن نسير الى الامام لا ان نعود الى الوراء .. ؟ وانصرفت من مكتبه البسيط وانا احس اننى ازداد امعانا فى الرحلة الى الداخل . واننى كلما سرت فى هذه الرحلة خطوات أعادتنى هذه الخطوات الى هومنا فى الخمسينيات أيام الشباب البساكر ، زمان كنا نتكلم من اعادة النظر فى التراث ، واعادة النظر فى المسلمات التى جمدت حياتنا الثقافية بقيود التكرار والتشابه فى الابحاث حتى العلمية الاكاديمية منها ، وفى

النتائج التي تسفر عنها هذه الابحاث، فاذا هي لا تقدم جديدا ، ولا تدفع الفكر خطوة الى الامام . واذا نحن نعيش نفس المقولات التي ظلت مئات السنين تتردد من جيل الى جيل ، وكانت أزمتنا الكبرى حين عينا في التدريس فور التخرج في الجامعة أننا وجدنا ان مهمتنا ان ندرس نفس المناهج بل ونفس الكتب التي تعلمنا منها ونحن في المرحلة الابتدائية ، وكأن السنين لم تمض ، وكأن العالم لم يتغير . والمشكلة أننا كنا نحس أن العالم قد تغير بالفعل ، بل وتغير تغيرا خطيرا وواضحا ولم يعد تجاهله ممكنا .. ولذلك لم يكن انضمام جيلنا بكل الحماس لثورة ١٩٥٢ مستغربا ولا شاذا . وفي عمان من الواضح أنهم يعيشون بروح الثورة وباندفاع الثوار، وتمور في أعماقهم كل هذه الهموم وكل هذه القضايا . وتقفز امامهم كل هذه الاسئلة . الفرق انهم قادرون على الفعل ، وقادرون على ازالة المعوقات ، وقادرون على البناء . فهذه القيادات في هذه المراكز تعرف وتريد أن تعرف ، وتقدر وتحاول أن تكون قادرة ..

ورحلتي الى الداخل هذا اليوم ما يؤن لها بعد أن تتوقف فما أن وصلت الى الفندق حتى وجدت في انتظاري دعوة كريمة للعشاء في بيت مصري في عمان . وبعد قليل كنت في بيت الاذاعي الصديق محمد مرعي ، احد الابناء المكرمين من الذين عملوا معي في صوت العرب . وعلى الدعوة كان هناك من الاذاعيين الاصدقاء نبيس صلاح الدين وزكريا سليم وهم جميعا يعملون في عمان ، وكان معهم الصديق وجدي الحكيم والصديق يوسف مرزوق وكانا في عمان لاعداد برنامج غنائي تليفزيوني من اخراج يوسف مرزوق بمناسبة الاحتفالات بالعيد القومي . وكان مع يوسف طاقمه الكامل من مصورين ومهندسين

ومساعدين .. ومن رجال الاعـــلام الشاعر مصطفى الضمراني ملحقنا الاعلامي بعمان والاستاذ محمد العفيفي من الاخبار وهو يعمل في جريدة عمانية ، ومعهم الصديق العماني الشيخ هلال العامري من كبار رجال التليفزيون العماني في السابق .. وكان العشاء مفاجأة لي ، فكأنني عدت الى القاهرة فالسيدة زوجة الاستاذ محمد مرعي ، وهي اذاعية ايضا أعادتنا الى المائدة القاهرية بكل سخائها وعطرها . وقال الشيخ هلال :

ـ ما أسعدني بهذه الجلسة وسط كل هذه الوجوه الحبيبة ..

وأحسست برقة المجاملة ، ورقة الاستضافة ، فرغم اننا في بيت مصري الا انه آخر الامر بيت في عمان .

ونفس هذا المعنى هو ما أحسه الصديق محمد مرعي اذ رد قائلا :

ـ نحن جميعا في ضيافتك ياشيخ هلال .

وطرق الشيخ هلال العامري الحديد وهو ساخن ، فقال :

ـ هذه فرصة لنسمع فيها عن الاعلام كلاما صريحا ، فالكل هنا من رجال الاعلام ، وضيفنا اعلامي نعرفه .

ضحك مرعي وقال :

ـ ينقصنا الميكرفون لتكون جلسة مسجلة .

وفتح يوسف مرزوق باب الحديث بذكر مشكلاته التي يلقاها عند تصوير المواقع وعند اختيار خلفيات مناظره. وكان يتحدث بحماس زائد ، رغم انه كان عائدا لتوه من يوم عمل شاق . وظهر وسط هذا الحماس أن العمل بالنسبة له يوافق هوى في داخله ، ويصادف احساسا بانه يحقق انجازا حقيقيا يسعد هو له . وعندما سألته عن حماسه هذا قال :

ـ في كل مكان أحس بالجدية والصدق ، الناس هنا تذكرني بما كنا فيه من حماس في مصر في أواخر الخمسينيات .

وضحكت فقد خطر لي نفس الخاطر قبله بقليل ، وعاد يقول :

ـ وحماسهم لما يفعلون وينجزون ، واحساسهم بالفخر بما تصنعه أيديهم من حاضر ، ينتقل لا الي وحدي وانما الي كل العاملين من مصورين ومهندسي اضاءة ومساعدين ، فنجد أنفسنا نعمل باندفاع وكأننا في مباراة معهم أينا يفوق الآخر في حماسه للعمل .

وسأله الشيخ هلال :

ـ والصعوبات يا أستاذ يوسف ، الصعوبات ..؟

رد عليه وجدي الحكيم قائلا :

ـ كل شيء هنا مذلل ، فأنا كمنتج منفذ للعمل أعرف كل مايطلبه المخرج ، وأيا كان مايطلبه هذا شاقا وشاذا ، فهو يذلل ، ليس هناك شيء اسمه عقبات لا يمكن التغلب عليها . ولهذا فالعمل يسير بسرعة شديدة جدا . وتعاون كل الاجهزة شيء لافت ومسعد في نفس الوقت .

قال الاستاذ محمد مرعي :

ـ ماقاله الاستاذ يوسف مرزوق عن جو الخمسينيات صحيح . فنحن هنا نعمل من مدة طويلة ، ونحن نسير داخل الاذاعة على روح الود والتآلف ، وروح التعاون المثمر التي كانت تسود اذاعة القاهرة في الخمسينيات والستينيات ، كأنها رسالة وطنية واجبة ، لا مجرد عمل يومي ممارس . الابتكار دائما هو الرائد ، ومحاولة التفوق على الذات دائما هي السائدة .

وكان لابد لي أن أسأله :

ـ ماهي المشكلات التي تواجهونها في العمل الاذاعي هنا ؟

ضحك وهو يقول :

ـ هى نفس المشكلات التى كنتم تواجهونها فى بدايات العمل الاذاعى فى مصر مع فارق الامكانات البشرية . فتنقصنا كوادر صالحة للتمثيل الاذاعى التى تقف على مستوى المنافسة مع مثيلاتها فى الاذاعات الاخرى . ولهذا فنحن نضع فى البرنامج نسبة من المواد الدرامية المشتراه او المتبادلة . ونستطيع أن نقول نفس الكلام عن الكوادر القادرة على الكتابة الاذاعية سواء البرامج الخاصة والتمثيليات أو البرامج الثقافية . ونحن نكتب معظم المواد بانفسنا ولدينا هنا زميل مهمته الكتابة ، أعنى وظيفته أن يكون كاتبا ، وهو شىء جديد فى دنيا الاذاعات، ولكنها تجربة ناجحة . واعتقد أن دخول الجامعة من العام القادم الى دنيا الحياة سيجعل من الممكن سد مانحسه مين نقص بعد تخرج الدفعات الاولى من طلبة الدراسات الادبية . ونحن نبذل كل الجهد هنا فى تدريب الاذاعيين العمانيين ، وهم يحظون بكل رعاية من الوزارة، ويرسلون الى دورات تدريبية فى كل مظان التدريب الاذاعى فى العالم العربى وغير العالم العربى ، فالمعرفة رائد هام فى تكوين الاذاعى ، وتدريبه المستمر مسألة رئيسية فى نموه وتفوقه .

واشترك الجميع فى الحديث ، وتشعبت المناقشة وبرزت اكثر من قضية هامة . فامتداد السلطنة شرقا يحتم وجود محطة فى ظفار ، وهذا ماحدث . فمحطة ظفار تعمل فى البث الدائم للاذاعة الرئيسية ، وتذيع بعض المواد التى تبث على نفس الموجات الرئيسية .. ثم هناك هذا القرب الشديد من الساحل الايرانى الذى يجعل مسقط وما جاورها عرضة للغزو الاثيرى ، اذ كثيرا ما تسمع محطة الاهواز بوضوح شديد ينافس وضوح

المحطات العاملة العمانية . وهذه مسألة حلتها المواثيق الاعلامية الدولية ، ولكن ايران تعتبر نفسها في حالة حرب ، ولهذا فالاهتمام بالالتزام بهذه المواثيق يبدو غير جاد الى حد كبير ، وهذه القضية قضية هندسية أصدر وزير الاعلام توجيهاته بسرعة حلها ، وستحل فى القريب العاجل .

ثم هناك أخيرا ودائما مشكلة اللغة .. وكنت قد لاحظت أثناء استماعي لجهاز الراديو فى العربة التي تقلنى من مكان الى مكان ، ان اللغة الفصحى شديدة الفصاحة تستعمل بكثرة . وتنطق بنطقها التمثيلى الفخم الذى ثبتته مدرسة زكى طليمات فى طلبة معاهد المسرح فى العالم العربى ، والذى اعتاده كبار الممثلين الاذاعيين وخاصة فى مصر ــ بما فى ذلك استعمال الجيم المعطشة القرشية ، رغم أن أهل عمان ، وأهل اليمن ومعهم أهل مصر ينطقونها دون تعطيش . وسألت عن سر هذه الظاهرة ، واجابنى الاستاذ محمد مرعى بأن معظم هذه البرامج مسجلة خارج عمان ، وانهم يراعون الفصحى لتكون اللغة العامة التى يفهمها الجميع ، فعمان مليئة باللغات العامية المختلفة والمتباينة . ولست أرى هذا حلا . اذ أن للاذاعة لغتها الخاصة ، والبحث عن لغة الاذاعة أو اللغة الثالثة أمر حيوى ، والفصحى ضرورية الاستعمال حتى تبقى مفهومة فهى لغة القرآن الكريم ، ولكنها بالنسبة للمستمع ليست لغته اليومية المستعملة، وليست أيضا اللغة السهلة الفهم ، السريعة الوصول الى ذهنه وواعيته . فالفصحى المستعملة عادة فى مثل هذه الاعمال لغة قاموسية تحمل المعنى ولا تحمل الدلالة الانسانية التى لا يمكن للغة أن تحملها الا اذا كانت لغة حية ، استطاعت الفاظها أن تعيش عبر الحياة ، واستطاعت أن تحمل من التراكمات الانسانية والتجارب

المعاشة ، ما يجعلها تنبض بالظلال والإحــالات والرموز التى تثرى عقل ووجدان متلقيها ، وتســــهل على مستعملها القدرة على ترجمة فكره ممزوجا بعاطفته فى آن واحد . وفى الاعلام نحن لا نستعمل هذه اللغة الا فى التمثيليات التاريخية . وحتى هى فى هذا الاستعمال محل نظر ودراسة . وانما نحن فى الاعلام نســتعمل اللغة الصحيحة نحويا وصرفيا ، ولكنها اللغة العامة التى يستعملها المثقفون فى حياتهم اليومية . تلك اللغــة التى انتخبتها الحياة والاستعمال المستمر وحدهما . لغة تم نضجها على ايدى الكتاب والصحفيين والاذاعيين لفترة طويلة ، ونسميها اللغة الثالثة . وهى لغةمفهومة وجيدة التوصيل . . لا يتوقف سامعها عند لفظ لم يفهمه ، او تعبير قديم لا يألفه . فالاذاعة وجود فى زمان ، بمعنى ان الكلمة حين تقال لا يستطيع احد ان يستعيدها ليقف عندها معملا فكره ، وانما هى تمر وتعبر بلا عودة . ولو شغلت كلمة ذهن المستمع للحظة يحاول فهمها ، لفاتته باقى الكلمات ، وضاع منه المعنى الكلى من المادة المقدمة له . وعملية البحث عن لغة للاذاعة عملية هامة جدا ، فالصحة اللغوية اساس مطلوب ، والسلاسة اللغويةأساس مطلوب ، وبينهما او معهما لابد ان يتحقق التآلف الكامل باللغة كألفاظ وكأداء وكتوظيف ، بحيث تؤدى وظيفتها دون أن تشغل المتلقى بوجودها نفسه .

وقضايا وقضايا ، وهموم وهموم ، وداخل النفس يتكشف عما يشــغل النفس . نفسى . ونفس المثقف العمانى ، ونفس كل مثقف فى الارض العربية ، ومــرت الليلة فى هذا النقاش المثرى والكاشف فى آن ، وعــاد سندباد الفكر من رحلة اليوم متعبا مرهقا ، واغرق فى نوم عميق استعدادا لرحلة الغد الجــديدة فى يوم جديد .

عـُمان والتاريـخ

فى مرحلة الطفولة والصبا ، وفى مرحلة الشيخوخة والافول ، لانرى الاشياء الا رؤية حدية ، فهى اما بيضاء ناصعة ، واما سوداء فاحمة ، وبينهما تنعدم عنـــدنا الالوان .. فلا نعترف بالوان الطيف اما فى مرحلة الفتوة والرجولة الكاملة ، فنحن نعرف أن الدنيا عالم من الالوان ومن درجات الالوان ــ ونعرف أن هذه الالوان تتمـازج بعضها مع بعض فتخلق الوانا جديدة فى عالم لا ينتهى من الوضوح والقوة ، والغموض والضعف . وساعتها لانعترف بالترادف فى اللغة ، فليس من كلمة يمكن أن تحل محل كلمة ، لان المعنى الواحد درجات ، وكل كلمة تعطى نفس المعنى ، وهى ليست تؤديه هو نفسه ، وانما تؤدى درجة معينة منه ، ومن هنا فلها دلالتها المستقلة ومغـزاها الخاص ــ وفى الحالة الاولى نحن نريد المعلومة مبسطة ومتفقة مع قاعدة الابيض والاسود ولا لون بينهما . وفى الثانية نحن لانريد الحقيقة الا ممزوجة بالحس الانسانى ومتفاعلة مع مافى حياة الانسان من الوان متعـددة ، ودرجات فى الالوان متباينة . ومن هنا أيضا كان اختلاط الامر فيما ينقل الينا من أحداث ومعلومات عن شـعب من الشعوب أو امة من الامم .. فنحن فى حال لا نريد الا الحقيقة مجردة لاعمق فيها ولا تأويل لها ، لا نقبل مافقد تتحمله من تردد أو تغير أو اختلاط .

وفى الثانية نحن نحب هذه الحقيقة حية ممـزوجة

بمعنى تقلب الحياة واختلافها ، وبمعنى تغير الحيـــاة وتطورها ، وبمعنى الرؤية المتعددة للون الواحد ، فاذا هو درجات ودرجات ، كل درجة تحمل عاطفة ومغزى ووجدانا .. والعلوم المرتبطة بالانسان لا تعرف القوانين الحـية الصارمة ، ولكنها تعرف معها وجود هذا الكل الشـامل الذى يعود ليربط هذه الحقيقة الحدية بالحياة فاذا هى تمتلىء بالمتناقضات والاختلافات ، واذا هى وجه مـن وجوه الرؤية ، ولمحة من عطاء الانسان فى موقف ولحظة ما ، ولكنها ليست كل عطاء الانسان من وجوهه المختلفة ولحظاته المتعددة والمتجددة معا .

ويتقدم الفن ليكمل الصورة ، ويعطى البناء شـــكله المتكامل ، والفن من شعر وملاحم وقصص ومسرح انما هو المحاولة لتعميق الرؤية الحدية للتـاريخ ، واخراج النظرة من مرحلة الطفولة أو الشيخوخة ، لتظل دائما فى مرحلة الرجولة والنضج ، مرحلة الحيوية والتفـــاعل ، وتعدد الالوان ، ومحاولة البحث عن زوايا الصــــورة وماتحمله من وجدان وعطاء انسانى ثرى .. ولعـل علما من العلوم الانسانية لا يعانى دائما هذه التجربة قدر علم التاريخ . فالتاريخ رصد لحركة الانسان عبر الزمان وعبر المكان ، وهو بهذا علم طموح ، لأنه بهذا الرصد انما يصبح علم العلوم ، فهو يتحدث عن الانسان فى اطار من فعل المكان وفى اطار من فعل الاحداث ، وفى اطار من التفاعل بينه وبين غيره . وفى اطار من تاثره بحـــركة الحضارة الانسانية والنمو العمرانى . وقد ادرك المؤرخون العرب هذه الحقيقة فرصدوا الى جوار الاحداث التى تتعلق بالقادة او الملوك ، والى جوار التطـــورات التى تحدث للمجتمعات في داخلها ، والى جوار تشـــابك

المجتمعات المختلفة وتصادمها وتفاعلها ، رصدوا ماهو وليد خيال الانسان فى نظرته للامور والاحداث ، وماهو وليد تفسيره التلقائى لحياته وحياة الاخرين ، وما هو انفعاله بوقع هذا الوجود على وجدانه . فامتزج العلم عندهم بالمتراكمات الفولكلورية ، كما امتزج ببقـــايا الاساطير والملاحم : وزانه دائما وباستمرار عطاء الشعراء وابداع الرواة والقصاصين ، والمؤرخون العـــرب حين قبلوا كل هذا قبلوه اما راضين واما راغمين . اما الرضاء فجاء من طموحهم الى ذكر اول العالم وبدايات الاشياء . والى دخولهم بتواريخهم الى كل مجال من مجـــالات الحياة الانسانية ، الى خلق العالم وذكر تكوين الدنيـا والى تواريخ الشعوب التى تسكن حولهم والتى يعرفونها أن يسمعون عنها ، والى الحديث عن النبات والحيوان والبحار والنجوم والكواكب ، والى ذكر الخوارق والسحر وعادات الشعوب وطرائف واسمار هذه الشعوب ، الى الحديث عن النفس والروح والمادة والجوهر . الى الآراء والنحل والجدل والمذاهب . فهم لم يكونوا مؤلفـين تاريخيين وحسب ، وانما هم اقرب الى الراصدين لثقافات الشعوب وعاداتها ، الى جوار اخبار ملوكها وقادتها ، ومن هذا المدخل دخل الشعر الذى هو فن العرب يرصعون به كتاباتهم ، ويستشهدون به على صحة مقولاتهم . بل لقد كان الشعر والغناء وماصاحبه من ضروب الايقـاع والعرف مدخلا لواحد كالاصفهانى فى تاريخه لحيـاة العرب فى جاهليتهم واسلامهم وحتى عصره .

وأما الاضطرار فقد جاء لان التناقل الشفاهى للاخبار قد فرض نفسه وفرض طبيعته .. ومن طبيعة التناقل الشفاهى ان يرتبط بما يساعد على الحفظ ، ومن هنا كان الاعتماد على الشعر كوسيلة قولية الصق بالذاكرة واقرب

الى الحافظة . ومن طبيعة التناقل الشفاهى عدم الدقة ، والارتباط بموقف الناقل ورايه ومصلحته .

ومن طبيعة الناقل الشفاهي ايضا الاقتراب الشديد من ميدان الحكى والقصة ، ومن فنى الحكى والقصة وما يصاحبهما من أعمال الخيال وانطلاق المخيلة والرغبة في الحبكة والاختراع وجذب السامع وامتاع المتلقى .. والى جوار التناقل الشفاهى هناك محدودية الطاقة الانسانية ، وما تتعرض له من عوامل التقصير والاهمال، ويقول المسعودى فى مروج الذهب : « على انا نعتذر من تقصير ان كان ونتنصل من اغفال أو عرض لما قد شاب خواطرنا ، وغمر قلوبنا ، من تقاذف الاسفار ، وقطع القفار » الى أن يقول : « ثم مفاوضتنا فى اصناف الملوك على تغاير أخلاقهم . وتباين هممهم ، وتباعد ديارهم ، وأخذنا بمسلك مسلك من مواقفهم » ثم يقول مؤكدا أسباب الاختلاط والقصور « على أن العلم قد بادت آثاره ، وطمس مناره ، وكثر فيه العناء ، وقل الفهماء ، فلا تعاين الا مموها جاهلا ، ومتعاطيا ناقصا ، وقد قنع بالظنون ، وعمى عن اليقين » .. ولكن على الرغم من هذا الادراك الفطن لصعوبة المهمة ، وعلى الرغم ايضا من رجوعه الى العديد من المؤرخين المعروفين التى بقيت كتبهم لنا والتى طواها النسيان والاهمال فضاعت ، الا ان المسعودى قبل فى كتابه من الحوادث والاخبار ما أخذ عليه وعد من مثالبه ، ولعل أشد الناقدين له كان ابن خلدون الذى اخذ عليه ماحكاه عن جيوش بنى اسرائيل ، كما نقد حديثه عن ذى الاذعار من ملوك التبابعه فى جنوب اليمن إذ يعقب على ماأورده المسعودى من أخبار بقوله « وهذه الاخبار كلها بعيدة عن الصحة ، عريقة فى الوهم والغلط وأشبه بأحاديث القصص الموضوعة » ..

وينحى ابن خلدون المؤرخين عموما من تلقى الاخبار دون تمحيص ، وينصح بأن تعرض على قواعد السياسة وطبيعة العمران والاحوال فى المجتمع الانسانى لبيان هل توافق ماهو معروف عن العصر الذى تحكى عنه أم تخالفه، ويقول : « وكثيرا ماوقع للمؤرخين والمفسرين وأئمة النقل المغالط فى الحكايات والوقائع ، لاعتمادهم فيها على مجرد النقل غثا أو ثمينا ، لم يعرضوها على أصولها ، ولا قاسوها بأشباهها ، ولا سبروها بمعيار الحكمة والوقوف على طبائع الكائنات ، وتحكيم النظر والبصيرة فى الاخبار . فضلوا عن الحق وتاهوا فى بيداء الوهم والغلط ، ولا سيما فى احصاء الاعداد من الاموال والعساكر اذا عرضت فى الحكايات اذ هى مظنة الكذب ومطية الهذر ، ولا بد من ردها الى الاصول وعرضها على القواعد » ..

ونحن سنجد هذا الموقف من المؤرخين لعمان واضحا فى المقدمة التى كتبها الدكتور سعيد عبد الفتاح عاشور للمخطوطة التى حققها باسم « تاريخ أهل عمان » .. فهو يقف أمام الظواهر المتعددة التى يجدها عند المؤرخين العرب لعمان ، فاذا هى نفس هذه المزالق التى تعرض لها التاريخ عند العرب منذ البدء ، واذا هى محاولة لذكر الحقيقة مغلفة دائما بهذا الفهم الانسانى الذى يدخل بها فى عالم الوان الطيف المتعددة ، وفى عالم محاولة العثور على درجات اللون الواحد مهما دقت بينهما الفروق . فهو يقرر مرة « ان التاريخ يعبر عن الماضى ، يعبر عن أشياء حدثت فعلا ، يعبر عن سياسات وأوضاع وعلاقات وحروب ووقائع وأحداث جرت ، ولا مجال كبير للخلاف حولها .. يصور اناسا حكاما ومحكومين ـ قاموا بدورهم على مسرح الحياة البشرية .

منهم العظيم ومنهم الوضيع ، فيهم الامين القوى صاحب الهمم ، والخائف الضعيف المتقاعس .. ولابد من أن تتشابه صور التاريخ فى كافة كتبه وكتاباته ، وطالما يلتزم المؤلف بالحقيقة كاملة ، ويتحرى الاحداث غير ناقصة ، وينأى عن الاهواء وتعمد المسخ وافتعال التشويه .. » ثم يقرر مرة أخرى « نلاحظ فوارق بين الكتابات التاريخية عندما نتعرض لسوق رواية واحدة ، حتى لو كان مؤلفو هذه الكتب استقوا روايتهم من مصدر واحد . ذلك أن المؤرخين اللاحقين عندما يأخذون عن السابقين فانهم أحيانا لاينقلون نقلا حرفيا ، وأنما يعبر كل واحد منهم عن شخصيته وعقليته واتجاهاته الفكرية واحاسيسه ، وكثيرا مانقرأ رواية فى كتابين من كتب اللاحقين اخذاهما عن مصدر واحد سابق عليهما ، ولكننا نجد بعض الاختلافات فى العرض والتفاصيل ، أحدهما اطنب والآخر تعمد الايجاز ، أحدهما حرص على ان يذكر كافة الاسماء المرتبطة بالحادث من قريب أو بعيد ، والاخر اكتفى بذكر اسم أو اسمين ، وربما علق بعضهم على ماحدث برأى جديد يعبر عن وجهة نظره ، أو استقاء من مصدر آخر لم يطلع عليه غيره ، مما يجعل لكل كتاب طابعه ومزاياه » .. واذا كان هذا الحديث ينطبق على معظم الكتب التاريخية العربية فهو بالنسبة للكتب المكتوبة عن عمان وتاريخها واحداث ملوكها اكثر انطباقا وصحة .

وبادىء ذى بدء سنجد أن الاشارات عن تاريخ عمان فى كتب التاريخ الكبرى محدودة وغير كافية ، سواء فى ذلك كتب الطبرى او المسعودى او ابن الاثير وابن سعد أو اليعقوبى وابن مسكويه أو ابن خلدون والبلاذرى أو حتى ابن هشام الذى يتعرض لعمان فى حديثه عن

مرحلة دخولها الاسلام ، وايفاد عمرو بن العاص اليها من قبل الرسول الكريم . ويرجع الدكتور سعيد عاشور هذا الى أن المؤرخين العرب « سلطوا الاضواء على قلب الدولة الاسلامية ، وأفاضوا في وصف ماكان يجرى فيها من تيارات سياسية وحضارية ، ودون أن تحظى اطراف الدولة ـ فى المشرق والمغرب جميعا ـ الا بنسبة ضئيلة متفاوتة من عنايتهم » .. وربما صدقت هذه المقولة على جهود المؤرخين الذين عاشوا فى قلب الدولة الاسلامية ، ولكنها في الواقع لا تندرج على المؤرخين الذين اهتموا بتاريخ بلادهم قبل وبعد الاسلام ، كما فعل وهب بن منبه بالنسبة لتاريخ اليمن ، وكما فعل ابن خلدون بالنسبة لتاريخ المغرب . وكما فعل ابن تغرى بردى بالنسبة لمصر ، وكما فعل البيهقى بالنسبة لفارس ، اذ هنا يدخل الارتباط الشخصي بالمكان ، والعلاقة الحميمة التي تربط الكاتب باقليمه فيهتم برصد تاريخ هذا الاقليم فى اطار التاريخ الاسلامي العام .. والمكتبة العربية لا تكاد تعرف من الكتب المؤلفة فى التاريخ العمانى الا العدد القليل جدا . فهناك كتاب ابن رزيق المؤرخ العمانى وكتابه المعروف باسم الفتح المبين وقد طبع فى طبعته الاولى فى القاهرة . وعرفت القاهرة أيضا كتاب « تحفة الاعيان فى سيرة أهل عمان » للشيخ أبو محمد عبد الله ابن حميد بن سلوم السالمى . كما اشتهر كتاب « كشف الغمة الجامع لاخبار الامة » لسرحان بن سعيد الازكوى ، كما عرف أيضا كتاب « قصص واخبار جرت فى عمان » لمحمد بن عامر بن راشد المعولى ـ ويعتمد المؤرخ العمانى الكبير الشيخ سالم بن حمود بن شامس السيابى على هذه المراجع المعروفة فى كتابه الضخم « عمان عبر التاريخ » .. كما يعتمد أيضا على المؤرخين العرب

الموسوعيين ، فى تمحيص ومقابلة ماجاء فى هذه الكتب ، ويعتمد أيضا على مجموعة من المخطوطات التى لا يعرف كتابها ، وانما وجدت نسخ المخطوطات دون وجود الصفحات الاولى التى تحمل اسم المؤلف ككتاب تاريخ عمان ، وكتاب تاريخ أهل عمان الذى حققه الدكتور سعيد عبد الفتاح عاشور الذى لا يفوته فى المقدمة أن يتعرض لهذه الظاهرة وأن يعلل لها قائلا : « ان هذا التراث تعرض نتيجة لاحداث الزمان - لما تعرضت له بقية جوانب التراث الاسلامى فى شتى البلاد ، من الضياع والبعثرة والتشتت . هذا فضلا عما كان يصاحب الحروب المحلية والفتنة الداخلية من تخريب وافساد واحراق ، مما عصف بكثير من آثار التراث العمانى » ..

وعلى الرغم من أن الدكتور عاشور لم يتحدث عن الخلافات المذهبية بين المتشددين والمعتدلين داخل المذهب الاباضي والتى أدت الى الكثير من الحروب والفتن الا أن الاستاذ « اف . س . ولكنسون » فى أطروحته العلمية عن « تراجم علماء عمان » يلمح الى هذه الصلة الكبيرة بين الحركة العلمية فى عمان وبين تقلبات السياسة فيها ، فهو يقول فى رسالته التى ترجمها الاستاذ محمد أمين عبد الله : « ان التاريخ العمانى فى حد ذاته محدود الاطار الى حد لا يصدق ، لانه يعتمد على مجموعة من العلماء الاباضيين فحسب . وهؤلاء العلماء هم الذين حافظوا على ذلك التاريخ ، وهم يرون أن تسجيل الاحداث التاريخية ، حسب مفهومهم ، ينبغى أن يخضع للشريعة وللفقه الاسلامى ، أى تسجيل تاريخ وجود الجماعة الاسلامية نفسها فى جنوب الجزيرة العربية . وأما فيما يتعلق بالنشاط القبلى فيمكن والحالة هذه أن يكتب بكثير من التفصيل ، لان هذا

التاريخ مرتبط بشكل مباشر بتلك الجماعة . أما مايحدث خارج عمان حتى ولو كانت له علاقة بما يجرى داخلها فانه لم يكن يهم المؤرخين العمانيين فى شيء . لانهم يعتقدون أن ذلك من صنع « الجبابرة » أى السلطة غير الشرعية .. ومعنى هذا أن الموقف الذهبى دافع للمؤرخين لتسجيل حركة المذهب وأئمته ، وهو فى ذات الوقت منظار يحدد كيفية رؤية الاحداث ، وكيفية تفسيرها ، بل هو أيضا الميزان الذى يوزن به الحدث وقيمته وأهميته ، والميزان الذى يوزن به الرجال ، وتقدر افعالهم .. وربما كان هذا أيضا هو السبب فى أن المؤرخين من خارج المنطقة أهملوا هذه المؤلفات التاريخية فى كتابتهم للتاريخ الاسلامى العام ،ولم يهتموا بها الا فيما يتعلق بكتابة تاريخ عمان نفسها ، أو فى التعرف على الحركة الاباضية ورجالها وأئمتها ، ولعل هذا أيضا هو السبب فى تشابه الكتب ، اذ ينقل بعضها عن بعض بصورة تكاد تكون متطابقة . حتى ليقول الاستاذ عبد المجيد حسيب القيسي محقق الفصول التى طبعت من كتاب « كشف الغمة الجامع لاخبار الامة » للازكوى باسم « تاريخ عمان » : « مما يجدر ذكره فى هذا الصدد أن هناك كتابين آخرين فى تاريخ عمان يكادان أن يكونا صورة طبق الاصل من هذا الجزء الذى ننشره اليوم من كتاب « كشف الغمة » ، والكتاب الاول هو كتاب « قصص واخبار جرت فى عمان » من تأليف أبى سليمان محمد بن عامر بن راشد المعولى . والكتاب الثانى هو « تاريخ عمان » لمؤلف مجهول . وكل الفرق بين هذه الكتب الثلاثة هو أن « كشف الغمة » تقف أخباره عند العام ١١٤٠ هـ — ١٧٢٨ م . فى حين يمضى كتاب القصص والاخبار الى أبعد من هذا قليلا فيصل الى عام ١١٥٩ هـ — ١٧٤٦ م .

ويستمر تاريخ المؤلف المجهول الى أبعد من ذلك فيصل بأخباره حتى نهاية القرن الثامن عشر والى أيام السيد سلطان بن الامام أحمد بن سعيد أى الى حوالى عام ١٢١٥ هـ — ١٨٠٠ م . وهذا التطابق الكامل يوقع المؤرخين والباحثين فى حيرة شديدة عندما يعثرون على مخطوط يؤرخ لعمان ، فهل هو جزء من كتاب من هذه الكتب المعروفة ، أم هل هو مؤلف جديد يكتشف لكاتب لا نعرفه بعد ؟ وقد وقع الاستاذ عبد المجيد حسيب القيسي فى هذا الاشكال حين ناقش حقيقة نسبة الكتاب الى مؤلفه الازكوى اذ يقول : « والمعولى مؤلف كتاب « قصص واخبار » رجل معروف أرخ له المؤرخون العمانيون وذكروا أنه كان عالما وشاعرا ومؤرخا وفقيها ، وعددوا له بعض المؤلفات ، فى حين أن سرحان بن سعيد الازكوى ، الذى ينسب اليه كتاب الكشف شخص مجهول لم يرد له — كما قلنا من قبل — ذكر فى الاخبار . ولهذا فلا نرى من المعقول أن يسطو شخص له مقام المعولى على كتاب لغيره . ثم ينسبه الى نفسه وفى استطاعته أن يكتب مثله وأحسن منه . ولعل هذا يوحى لنا بأن المعولى نفسه هو مؤلف كشف الغمة ، والله أعلم»

والمسألة ليست مسألة سطو فليس فى نقل مؤرخ عن مؤرخ مايمكن أن نسميه بالسطو ، لان أحداث التاريخ واحدة ، وايرادها يعتمد على النقل عن مصادر سابقة للناقل ، ولكن المسألة هى هذا التحرج من التغيير ، وهو تحرج يأتى من أن النظرة التى ينظر بها المؤلف اللاحق والمؤلف السابق واحدة ، نظرا لانطلاقهما من موقف مذهبى واحد ، وقد لاحظ هذا الدكتور سعيد عاشور بحيث دفعه الى أن يقول عن المؤلف المجهول لكتاب « تاريخ أهل عمان » : « .. نجد مؤلف هذا الكتاب ، يقدر

مابطنب فى حلقات الازدهار وعهود المبرزين من الائمة وحكام عمان ، بقدر مايوجز أحيانا فى عصور التفكك والانحلال . » . ثم يقول : « ومع هذا ، ومع تشابه المعلومات التى جاءت فى هذا الكتاب مع ماجاء فى غيره من الكتب التى وقعنا عليها فى تاريخ عمان ، فاننا نكرر ماسبق ان أشرنا اليه من أن الخطوط العريضة فى التاريخ ـ تاريخ أية أمة او اية دولة أو اى فرد ـ ثابتة لا تتغير » .. وهذا اعتذار طريف لحقيقة لا تحتاج الى اعتذار ، اذ ان الاصل فى تأليف التاريخ هنا ، هو تاريخ الامامة بالدرجة الاولى .

والازكوى نفسه يوضح هذه الحقيقة حين يقول فى مقدمة كتابه : « وقد دعتنى الهمة الى جمع هذا الكتاب وتأليفه وتلخيص معانيه وتصنيفه فلبيتها أهلا وسهلا . وان لم أكن للتأليف أهلا ، وذلك لما رأيت أكثر أهل زماننا قد غفلوا عن اصل مذهبهم الشريف . واقبلوا على ائمة مذهبهم بالتعنيف والتعسيف ، ومالوا الى حب السادات ذى التشريف ، قد رغبت انفسهم عن قراءة الكتب التى خلفها السلف ليعرفوا المحقق ممن هو على شفا جرف هار فانهار به الى الثلف » .. الى ان يقول : « فصنفت هذا الكتاب ، وبينت فيه عذر اولى الالباب ، وجعلت ظاهره فى القصص والاخبار ، وباطنه فى المذهب المختار ، لان الناس لقراءة الاثر لايستمعون ، ولاستماع القصص عن اللغو يبتغون ، فملت الى رغبتهم لكى يكونوا مستمعين ، ولقراءته بصميم القلب ممطعين ، عسى انهم لاصول المذهب يعرفون ولاهل الحق بالحق يعترفون » .. فالامر واضح بين اذن لايحتاج الى مناقشة . فالتاريخ عند الازكوى وعند الاخرين من المؤرخين الماضيين مجرد احداث تشوق القارىء ليتمكن المؤلف

من غرس القضية الاساسية في نفسه ، والقضيه الاساسية هى تاريخ الامامة الاباضية ، وما يتعلق بهما من دفاع عن مواقف فهمت خطأ ، وابراز مواقف ذات اشراق وسمو ، ومن هنا لن يختلف التابعون مع السابقين في شيء ، فالنقل للأحداث والعبارات يتم بلا تحرج طالما ان هذه الاحداث تحقق للتابع نفس ماحققته للسابق من أهداف ورؤى .. وصاحب كتاب « تاريخ أهل عمان » وهو مؤلف مجهول . يقفز على فترات طويلة من التاريخ قد تمتد بضعة قرون ، ويعتذر عن هذا بقوله « .. فهذه مائتا سنة وبضع ، لم أجد فيهن تاريخ احد من الأئمه والله اعلم ، انها كانت سنتين فترة عن عقد الامانة ، او غاب عني معرفة أسمائهم » .. وهذا يعني أن انحلال الامامة لاسباب سياسية ، يسقط الفترة كلها . فلا يهتم المؤرخون باثبات الاحداث فيها ، أو محاولة معرفة ماتم فيها من حروب او قلاقل او نشاط انساني ايا كان شكله . فالذي يجذب المؤرخ الى الاحداث هو ارتباطها بالامامة وتاريخها ، وهو لا يجد حرجا أو غضاضة في ترك ماعدا هذا من أحداث تقع في نفس المنطقة ونفس الشعب .

ويذكر الاستاذ « اف . س . ولكنسون » فى رسالته عن تراجم علماء عمان ، عن الشيخ بن عبد الله بن حميد السالمي صاحب كتاب « تحفة الاعيان » أنه كان من الشخصيات البارزة فى عصره . وأنه كان صاحب نشاط سياسي ملحوظ ويقول : « وقد ورث من أستاذيه اللذين تتلمذ على أيديهما وهما ماجد بن خميس العبرى، وصالح بن على الحارثي . تلك التقاليد النضالية للعلماء والاباضيين العظام . ممن عاصروا القرن التاسع عشر ، كما لعب السالمي دورا فى اعادة الامامة سنة ١٩١٣ ،

ولابد من وضع هذه الخلفية المتميزة فى الاعتبار عند دراسة أو تقييم افكاره واعماله ، والتى كانت فى معظمها ترمى الى غاية واحدة : الا وهى بعث وتعميق الروح القديمة للشريعة الاسلامية بين العمانيين » . الا أن الاستاذ ولكنسون يستدرك ليؤكد أن هذا التقيد بالمذهب لم يمنع السالمى أن يكون « أدق عالم فى نظر كاتب هذه الرسالة » كما يقول ، ويدلل على دقته بقوله :
« ومن خلال تتبع الكاتب وتمحيصه لما ورد فى تحفة الاعيان ، اقتنع ، بالتزام السالمى بالنصوص الاصلية للمراجع التاريخية لعمان » .. والالتزام بالنصوص القديمة من مؤلف الى مؤلف ، جعل الدكتور سعيد عبد الفتاح عاشور لا يجد حرجا فى أن يحقق كتاب « تاريخ أهل عمان » لا على نسخ اخرى مخطوطة لنفس الكتاب . وانما على باقى كتب التاريخ العمانى . فهو يحقق النص الاصلى للكتاب معدلا له أو مقيما لعبارته من تحفة الاعيان للسالمى كما فعل فى أكثر من موضع ، فيقول فى الهامش « مابين حاصريتين من تحفة الاعيان للسالمى» فكأنه يدخل نص السالمى لايضاح وتصحيح النسخة المخطوطة التى يحققها . واستعان كذلك باضافات وتصويبات أضافها على النص الاصلى من كتاب « الشعاع الشائع باللمعان فى ذكر أئمة عمان لحميد بن محمد بن رزيق » وذلك من كتاب « الفتح المبين » لنفس المؤلف ابن رزيق .

هذا الموقف الموحد للمؤرخين العمانيين جعل التاريخ عندهم يرتبط ارتباطا كليا بالحركة الاباضية نفسها ، والواقع أن هذا شىء منطقى طالما كانت الاحداث نفسها فى عمان مرتبطة ارتباطا كليا بالحركة الاباضية .. ويقول ياقوت الحموى فى « معجم البلدان » عن عمان : « وأكثر أهلها فى ايامنا خوارج اباضية ليس بها من غير هذا المذهب

الا طارىء غريب ، وهم لا يخفون ذلك » ، وقد اخطأ ياقوت ، كما أخطأ معظم المؤرخين والكتاب باعتبار الاباضية احدى فرق الخوارج ، ولكن القضية تظل أن عمان مركز رئيسي للاباضية مما يدفع الدكتورة سيدة اسماعيل الكاشف فى كتابها « عمان فى فجر الاسلام » الى أن تقول : « الحق انه لايمكن للباحث أن يدرس تاريخ عمان الاسلامى دون أن يفهم الحركة الاباضية من حيث نشأتها وتطورها ونشاطها ، والمعروف أن المذهب الاباضي فى عمان أقدم من اسمه ، كما أن الاباضية فى عمان قديمة قدم الاسلام فيها ، وتعتبر عمان الوطن الام للاباضية فى العالم الاسلامى » .. فالاحداث والحياة التحمت مع المذهب الدينى التحاما عميقا ، والمؤرخون جزء من الاحداث والحياة ، وهم حين يرصدون هذه الاحداث وتلك الحياة متأثرون تماما بالمذهب والامامة . ولذلك فعندما تسقط الامامة لاسباب سياسية ،تسقط معها الفترة كلها من اهتمام المؤرخين مثل فترة حكم النبهانيين فيما بين القرنين الثالث عشر والخامس عشر ، ويقول الاستاذ ولكنسون « أما تاريخ عمان فى عهد حكم النبهانيين فيما بين القرنين الثالث عشر والخامس عشر فهو مجهول تماما ، وديوان الستالى « ابو بكر أحمد بن سعيد الخروصي » يشير الى أسماء أوائل الملوك النبهانيين الذين كانوا يحكمون البلاد من نزوى . وعن بعض الصلات التى كانت تربطهم بشعوب ساحل الخليج ، أما بعد تلك الفترة فلا توجد اية معلومات عن تاريخ عمان » .. وهذه الملحوظة تجدها فى كل فترة تضعف فيها الامامة وتنزوى ، ولا نعتقد أن المسألة ترجع الى ضعف المصادر او الى عدم معرفة الاحداث ، وانما هى ترجع الى هذا الموقف الثابت من المؤرخين ، ويقول الاستاذ ويلكنسون :

« ان عدم وجود تاريخ مدون عن تلك الحقبة من تاريخ عمان لايعني ان تاريخ أولئك الحكام لا يستأثر بأية اهمية، وانما على العكس من ذلك فهناك أدلة قوية على أن عمان فى عهد النبهانيين قد شهدت فترة ازدهار وتألق . غير ان النبهانيين كانوا يحكمون داخلية عمان بأساليب تختلف عن أسلوب الاباضيين ، وبهذا فقد اعتبروا جبابرة ، وبالتالى فلم يكن لهم دور فى تاريخ عمان » ..

اذا كان هذا الموقف من المؤرخين قد أدى الى تشابه اعمالهم من ناحية ، كما أدى الى حذف بعض الحقب من تاريخ عمان فى مدوناتهم من ناحية اخرى ، فلاشك انه كان وراء عزوف المؤرخين فى باقى الوطن الاسلامى عن الاخذ عنهم ، أو نقل مادونوه فى كتبهم الاوسع انتشارا . وبهذا أصبح تاريخ عمان شبه مجهول من عامة المسلمين ، وأصبحت عمان نفسها فى شبه عزلة لايعرف العالم الاسلامي عن الاحداث التى تجرى فيها ، أو التى جرت فيها عبر التاريخ الشيء الوافر الكثير . وقد أدى هذا الموقف أيضا الى أن المؤرخ المعاصر مضطر كما يقول ويلكنسون فى صدر رسالته « تراجم علماء عمان » الى اللجوء الى مصادر اخرى مكملة ، ويقول : « وبالتالى فانه يكاد يكون مستحيلا كتابة تاريخ عمان دون الرجوع الى المصادر الاجنبية العديدة ، والى الادلة التى كشفت عنها الحفريات والعملات القديمة المستخرجة » .. وهذا الموقف نفسه من المؤرخين قد أدى الى ضم حكايات تاريخية لم تتم فى عمان الى تواريخهم . فكتاب « قصص واخبار جرت فى عمان » للمعولى ينتهى بقصة « الحجاج ابن يوسف والصبى » وهي قصة يقول عنها محقق الكتاب الاستاذ عبد المنعم عامر : « هى قصة ينفرد الكتاب بذكر تفاصيلها . وتدور بين الحجاج وصبى دون

سن الحلم ، وتصور الحجاج بانه رجل اخرق ، تنقصه الحكمة والروية . وتغلب عليه القسوة والفلظة ». ويقول « ومع أن هذه القصة ليست من القصص والاخبار التى جرت فى عمان حتى يمكن أن تنتظم فى سلك الكتاب الا أن ذكرها دليل على كثرة ترديدها بين مجالس القوم فى عمان ، وهى تصور الحجاج بما يتمشى تماما مع مشاعر العمانيين نحوه ، وقد ذاقوا منه العسف وقـــاوموا بطشه » .. والحجاج وموقفه من الاباضية والاباضيين ذكرى مرة فى حلوق أصحاب التاريخ بعامة ، واصحاب التاريخ العماني بخاصة . ومن نفس المنطلق نرى كتاب كشف الغمة يهتم فى فصوله الاولى بما يتناول العقـــائد العربية قبل الاسلام : فالباب الاول منه « فى ذكر عبادة الاصنام واعتقادات أهل الشرك والضلال »، والباب الثاني « فى آراء العرب فى الجاهلية وماكانوا عليه » . ثم نجد أنفسنا فى الباب الرابع مباشرة أمام هجرة الازد من اليمن الى ارض عمان واجلاء الفرس عنها . ثم نقفو فى الباب الخامس الى ظهور النبى محمد صلى الله عليه وسلم .. وذكر العقائد العربية قبل الاســلام شيء هام للمـؤرخ المسلم الذى يريد اثبات فضل الاسلام على العرب . ولكن بدء تاريخ عمان بهجرة مالك بن فهم اليها يسقط المراحل التاريخية السابقة على هذا ، والتى لاتذكر المصادر الاخرى عنها الا انه يرجح انها استوطنت من هجـرات يمنية وعربية قديمة وأنها كانت على صلات بالحضارات القديمة فى العراق ومصر وفارس والهند ، وانها خضـــعت لغزو الاحباش ثم لغزو الفرس . فما قبل هجرة الازد لم تزد المصادر التاريخية العمانية على مجرد الاشارات ان وجدت أصلا ، وتهتم كلها اهتماما بارزا بالفترة التى تبدأ بهجرة الازد بعد انهيار سد مارب وطرد الفرس من عمان ..

هذا الموقف المذهبى من المؤرخين العمانيين قد ترك طابعه على التاريخ العمانى ، وعلى موقف المؤرخين المسلمين والعرب من عمان وتاريخها . ولكنه فى نفس الوقت قد حفظ لنا التراث الاسلامى العمانى من الضياع. فالحماس الدينى المذهبى قد جعل الكثير من العلماء ، على مر التاريخ يشغلون أنفسهم بتسجيل الاحداث ورصدها ، ولولا هذا الحماس مانقل الينا هذا التراث الغنى الذى يكشف عن حياة هذا الجزء الغالى من الوطن العربى . والذى ظل تاريخه مشوبا بالغموض الى أن نشطت حركة تحقيق تراثه ونشره ، واعادة احياء الكتب والمخطوطات الموجودة عنه فى مكتبات العالم ، وفى مكتبات عمان وقصورها وقلاعها . وهذا الحماس نفسه هو الذى ملأ كتب التاريخ العمانى بالقصص ، والاخبار ذات الطابع المشوق ، التى عمقت من عمق النظرة الى الشعب العمانى ثقافة وتاريخا معا . وجعلتنا مع الحدث التاريخى نلمح النبض الانسانى المتحمس أو الغاضب ، الفخور أو اللائم . فالتاريخ يقدم لنا وسط الدفء الانسانى لكتاب يكتبون بحب لانهم يكتبون من منطلق احساس برسالة هامة تهون من أجلها العقبات والصعاب . وأن كان لاصحاب علم التاريخ ملاحظات على هذه الاعمال ، فان لاصحاب فن الادب ، وأصحاب الدراسات الحضارية والاجتماعية راى مخالف ، لان الثراء الانسانى للمؤرخين العمانيين القدماء قدم لنا الصورة بالوانها المختلفة ، بل قدم لنا الصورة بدرجات متعددة من اللون الواحد . وهذا ما يعتبره أصحاب الفن وأصحاب الاجتماع ثراء هم يحتاجون اليه فى النظرة الى الانسان الانسان من خلال الحدث ، واستخراج صورة الفعل المرتبط بالوجدان بما هو مجال ضخم للاستلهام الفنى ، والدراسة

الجادة لحقيقة هوية الانسان فى عمان ، الذى هو شريحة من الانسان العربى بوجه عام . والمؤرخون العمانيون لم يخالفوا فى منهجهم منهج المؤرخين العرب الذين احتفلوا بالقصص والشعر ، والذين احتفلوا بمظان البطولة ينقلون أحداثها ذات الطابع الدرامى والذى زانه الخيـــال ، وحفل بالحبكة والحركة معا . فهم فى هذا جزء من كل ، وزاوية من صورة التاريخ العربى بصفة عامة ، وان زادوا عليها ، هذا الموقف المتعاطف الوجدانى ، الذى يحمل كما يقول الازكوى من الاحداث ، ظاهرا له باطن آخـــر مقصود ، ومن الوقائع مدخلا الى وجدان حى له هدفه ومغزاه .



فارس الأزد

"النداء المجهول"

قال معن بن مالك بن فهم ساخرا :

ـ لا احد يقترب من عظام الشاة وما بقى فيهـا من لحم ، والا فله الويل من مالك .

قال هناءة :

ـ كفى يامعن ، أنت تعرف طبع أبينا فلم كل هـذا الكلام الذي لا طائل وراءه ؟

قال فراهيد :

ـ والله ان معنا يهزل ـ فهيا اجمعوا مابقى من الشاة ولحمها ، وهيا بنا .

وهنا جاءهم صوت مالك بن فهم الاجش القوى يقول :

ـ نعود الى الديار ياقوم ، وليحمل كل واحد رحله مما غنم من الغزوة ، وليبق هناءة فى مؤخرتنا ومعـه عشرون فارسا حتى لا يدهمنا اصحاب المال قبل أن نصل الى الحلة ..

ضحك معن فى خبث وقال :

ـ لا يذكر الا الحملة والنصر ، وانا نسوق ابل القوم ومالهم ـ ولكنه ينسى عشاءنا وينسى الشاة التى أكلناها، وعند الديار يذكر كل شيء ، ويلوم من نسى عظام الشاة ولحمها المتبقى .

ضحك هناءة وهو يقول :

ـ هو يعرف اننا نعرف مايريد ـ فلماذا كل هـذا اللجاج ، انا سأحمل على رحلى عظام الشاة وبقـاياها .. فهيا أسرعوا خلف مالك ، وكفى كلاما خلف ظهره ..

ضحك فراهيد وهو يقول :

ـ لو دخل الحلة دون ان يحمل العظام واللحم لهذه

الكلبة لاصابه غم شديد ، هو يتفاءل بها ويحبها ، ولا يخرج أبدا الى غزوة الا وهو يحييها وهى تنبح ركبه وهو يغادر الحلة . ولا يعود أبدا الا وهو يحمل لهما نصيبا من العظام واللحم كأنما هى جزء منا وجزء من الحملة .

ضحك معن فى تخابث وهو يقول :

ـ لو نسيناها ، نسينا فى الفىء ، ونسى أن يعطينا سهامنا فى الغزوة ، ولهذا .. اياكم ان تنسوا كلبة الحى عند العودة .

قال هناءة فى حزم :

ـ هو يعطف عليها ويحبها ، وما يحبه ابونا نحبه ونرعاه ، فهيا بنا ، واحمل العظام واللحم فى صمت .. وحذار أن يحس أبوك انك لا تحب الكلبة .

ضحك معن ، وهو يلكز فرسه وقد حمل عليها عظام الشاة ولحمها المتبقى وقال :

ـ بل أنا أول من يلبى رغبات مالك ، وما مالك الا الازد ، وما الازد الا الاسد ، وما كل هذا الا نحن .. وما نحن الا هو .. به نحن الازد ونحن الاسود .. اتبعونى .

ومضى الفرسان يسرعون خلف معن وهو يبتعد بحمله الغريب من عظام وبقايا لحم ، بينما يرقبون العبيد يسوقون الغنيمة من ابل وخيل واغنام تأتى وراءهم فى رتابة واستمرار ، ووراء الجميع يسير مالك بن فهم على فرسه وقد شهر رمحه تحديا لمن يتبع خطاهم من فرسان وأعداء .

ـ ٢ ـ

حين اقترب الركب من المرابض ، تعالى نباح الكلبة . وضحك معن وهو يقترب منها ، ثم رمى حمله من عظام

ولهم اليها ، فاسرعت اليه تنبح ، ثم انقطع صوت نباحها وهي تنهمك فيما بين فكيها من عظام ولحم ...
وضحك فراهيد وهو ينزل عن فرسه ويقول :
ـ ما أسعدها بما تجد من لحم وعظام .
وترجل هناءة وهو يقول :
ـ هي تعرف أن هذا هو عطاء الرحلة وبقايا فوز مالك ..
وقبل أن تكمل كلماته جاءه صوت مالك الاجش صائحا من بعيد ، وهو يقترب مسرعا بفرسه :
ـ هل أكلت الكلبة ؟
وضحك الاولاد الثلاثة وهم يقودون خيولهم الى الخيام وقال معن :
ـ هي تعرف ان الاكل منك يا ابى ، ونحن لم نقصر في عطاء تريده :
وتعالت ضحكات الابناء الثلاثة وهم يخلعون السروج عن خيولهم ، بينما تقدم مالك بفرسه الى حيث كانت الكلبة تأكل فى نهم ما رمى اليها من عظام ولحم ، وترجل عن جواده ، وتركه بلجامه لمن يسوقه الى المرابض من أبنائه ، بينما تقدم نحو الكلبة يعابثها ، وهو يهمس لها فى تودد :
ـ ياغريبة هذا طعامك ، هذا نصيب اليوم ، انت بشرت به في الصباح ، وها نحن نعود بالجمال والمال والاسرى فى المساء ، وما كان لنا أن ننسى أنك البشرى ..
وحركت ذيلها ، وقفزت ، ثم قفزت فاذا هى عند يده الممتدة نحوها ، واخذت تلعق اليد ، بينما يربت على رأسها بيده الاخرى وفى عينه تبدت نظرات حنان ، وهى تنبح وتقفز وتحرك ذيلها ، ثم تجرى الى آخر المخيم وتقف ، وعواؤها رقيق حنون حلو رقيق ..

ـ ٣ ـ

جعل مالك بن فهم ينظر الى الكلبة ، وهى تلتقط

طعامها ، وتسرع به الى جرائها فى آخر المخيم فى حنو وزحمة ــ فلم يكن الكثيرون يعرفون أنها قد ولدت ، وانها تحاول أن تطعم جراءها من فضلات القوم . كان هو يجنبها هذا كله حين يعود بحمله من العظام واللحم من بقايا طعام القوم فى مخيمه .. وضحك مالك وهو يلتفت الى ناحيتها في حنان ، كم هى غريبة خائفة تائهة ، مثله .. منذ انهار سد مأرب ، وتفرق القوم والصحاب ، لم يعد زرع ولا ضرع ، ولم يعد هناك هذا الزاد الثـابت الاكيــــد ، تأتى به الارض ، وما تربيه على الارض من ضروع وماشية ــ كل شىء فجأة قد انهار ، كل شىء ضاع وذهب ، أمان الارض ، الاحسـاس الكامل بأن الغد يأتى بالطعام حين تمد الشجرات فروعها القصيرة من الارض السوداء ، فاذا هى ثمار وعطاء ــ ضاع السد ، وضاع معه كل امل ــ كم كان يريد ان يمد أرضه الســـوداء المعطاءة الى الشرق والى الغرب والى الشـمال والى الجنوب . فى البدء لم يكن أحد مثله يملك كل هــذه الارض السوداء المليئة بالثمار والعطاء ، وكان الـكل يحسدونه على ماتضفيه الارض عليه من ثروة ونوال .. ثم جاه .. ثم سطوة ، ثم انه مالك بن فهم ملك الازد جميعا ، يتطلعون الى نواله وعطائه ، ويعطيهم من هـذا النوال والعطاء ما يكفل له أبدا صدقهم فى مودته . وصدقهم فى حبه ، وصدقهم فى الولاء له .. ولكن منذ أن انهار السـد ، وضاعت الارض .. آه من الناس ، وآه من معنى الولاء والحب ..

كل شىء مرهون بالعطاء ، أنت حين تقدر تعطى ، والناس معك . ولكنك حين تعجز لا تملك انتعطى،والناس حينئذ عليك .هذه الكلبة فقط لاتعرف مقاييس الناس، بل هى لا تعرف الا معنى الحب والوفاء .. فى عينيهـ

يلمح آيات الحب حين ينظر اليها ، وحنان الرحمة حين تمتلىء نفسه بهمومها واحزانها ، ومعنى الامتنان حين يعود اليها كل مساء بطعامها وطعام جرائها .. ثم تهرع الى باب مضاربة تقف عند حافة خيمته هو ، يعرف منها الذى يقترب من الخيمة ،أهو احد اولاده ، أم هو احد رجاله ، ام هو أحد العبيد ، ام هو غريب تماما عن الحى والحلة .. صوت نباحها كان يحمل اليه كل هذه المعانى وهو داخل الخيمة ، بل لقد غدا يعرف من نبرات هذا النباح من هو القادم بشخصه ، فهى تهر بحنان وحب عندما يقترب من الخيمة ابنه هناءة ، بينما كان نباحها مخافتا ومرحبا عندما يقبل الى الخيمة ابنه فراهيد ، اما اذا كان المقبل ابنه معن فهى تنبح فى عنف وخوف ، وينتهى نباحها دائما بعواء غريب ..

جلس مالك على الصخرة الناتئة التى تعود أن يجلس عليها كلما أحب أن يخلو بنفسه وأفكاره ، وجعل ينكت الارض امامه « بخيزرانته » الطويلة ، وهويتأمل الشمس تمتصها الارض من بعيد وتبتلع قرصها فى بطء ولكن فى أصرار .. كانت هذه اللحظات من عمر اليوم تحمل الى قلبه ثقلا لا يعرف سببه ، كان هذا القرص المنحدر يحمل له رسالة مبهمة .. هو ليس يدرى حقيقة هذا النداء الغريب . فقط كان يحسه كالحقيقة الاكيدة الثابتة فى أعماقه .. غريب هنا هو فى هذا المكان .. غريب هنا وسط الضنك الذى يطبق على كل شىء ، غريب هنا وسط الصحراء التى تبتلع كل حلم ، وتبدد كل أمل . هو غريب هنا ، كل شىء فى داخله يصرخ بالتحدى ، والفعل ــ وأى تحد فى هذا المكان ، وأى فعل ؟ مجرد غارات لا طائل وراءها هنا أو هناك ، لا تعود الا بعدة نوق عجفاء لا تزيد على نوقه العجفاء فى

شيء .. الصحراء تمتص كل شيء ، تبتلع كل شيء ، حتى قرص الشمس تبتلعه في صمت ولكن في اصرار .

وأفاق مالك على هرير الكلبة ، وعجب حين أدرك أنها اطعمت جراءها وعادت تقعى عند قدميه دون أن يحس . والتفت أليها فهزت ذيلها في اطمئنان ، وعـــرف انه هناوه ، وحين رفع رأسه كان هناءه يقترب منه بجسده الشامخ وعوده المفتول ووجهه الشاب المليح ، وأحس بالحنان يفيض من قلبه الى وجدانه وشعوره كله .. واعتدل في جلسته ، واستند الى « الخيزرانة » في يده وهو يقول في صوت مليء بالحنان والدفء :

ــ مرحبا ياهناءة ..

ضحك هناءة ،وهو ينظف جانبا من صخرة مقـابلة لتلك التي جلس عليهـــا أبوه ، وقال وهو يجلس في استرخاء :

ــ لن أستطيع أن أفاجئك أبدا ، وهذه الكلبة عنـد قدميك ، فهي تشي لك بكل من يقترب منك .

ضحك مالك وقال :

ــ ما أحسب أنك جئت تحدثني عنها ..

قال هناءة في جدية :

ــ بل جئت احدثك عن بني اخيك عمرو بن فهم ..

اعتدل مالك في جلسته ، وقال :

ــ وماذا عنهم .. ؟

قال هناءة :

ــ هو أخوك ، وهم أهله ، ولن تقبل فيهم حـديث أحد .

ــ الا حديثك أنت يا هناءة ، فما عهدتك تكذب ابدا ولا تحمل لاحد في قلبك غلا أبدا .

هدأ هناءة ، وصمت وهو يأخذ نفسا طويلا من هواء

الغروب ، ثم يخرجه فى تؤدة واستمتاع وقال :
ــ ثقتك هذه فى ، وحبك لى ، ومعنى حبى انا الذى لا حدود له لك ، هو الذى يدفعنى لاتحدث عن اخيك عمرو ، عمى ــ وانت تحبه وانا احبه ، ولكن قومه لايعرفون معنى هذا الحب .
قال مالك ، وقد ابتدأ ينسى المساء والغروب وقرص الشمس الذى يغور تدريجيا عند الافق :
ــ وماذا عنه ياهناءة ..
تمهل هناءة قبل أن يجيب ، ومضى واقفا يضرب الارض بعصاه « الخيزانة » . وكأنما يعينه هذا على انتقاء الكلمات ، ثم قال :
ــ انهم يا أبى ينقمون علينا كل شيء ، أن قعدنا قالوا كسالي وقاعدين ، وان غزونا قالوا لصوصا وخارجين ، وان عدنا صفر اليدين تبادلوا الابتسامات الصفراء ، ونظروا بعضهم الى بعض نظرات العارفين ، وكأنما يؤكدون لانفسهم اننا ضعاف مستضعفون .. فان عدنا بما غنمنا ، كانت نظرات الحسد والحقد هى ما يشع من عيونهم ، ثم هرعوا اليك يطلبون انصبتهم فى شيء لم يبذلوا فيه عرقا ولا دماء ، وانت دائما تعطيهم ، وانا دائما امنع اخى معن من أن يجاهر باعتراضه على ماتعطيه لهم ..
واطرق هناءة كأنما لا يجد فى نفسه الجسارة على مواجهة عينى ابيه .. ووقف مالك ، وجعل يتحرك فى صمت حول الصخرة ، وحول ابنه . وحول الكلبة المقيمة عند قدميه ، وهو صامت لا يتكلم ــ وحين طال صمته ، قال هناءة فى صوت متخاذل :
ــ ما كان لى أن اتحدث فى أمر يخص اخاك عمرو بن فهم ،وقومه ــ فاغفر لى كلماتى وانسها .. وانى منصرف

.. ووقف هناءة ، فهرت الكلبة ثم نبحت . وحين تحرك هناءة ، وقفت الكلبة منتصبة وهى تنظر اليه وكأنها فى دهشة ، ومضت تنبح من جديد .

ضحك مالك بن فهم وهو ينقل بصره بين ابنه والكلبة، هو مطرق ، وهى متوقزة متحفزة ، وعاد يضحك من جديد . وتململ هناءة فى وقفته ، واستشعر الحرج أمام أبيه ، فلملم ثيابه وهو يقول :

ـ انصرف اذن ..

عاد مالك يضحك من جديد ، وتقدم الى ابنه يضع يده فوق منكبه وهو يقول فى حنان :

ـ بل تجلس معى وتتحدث ، فالغريبة ـ وهو الاسم الذى أطلقه على الكلبة هنا ـ تحس أنك تقول شيئا هاما لى ، وهى لا تريدك أن تنصرف ..

نظر هناءة الى الكلبة المتوفزة ، فاذا هى تتحرك بسرعة يمينا وشمالا فى توفز ، ثم تعود تقعى أمامه وتنبح ، وتنظر اليه بعينيها البراقتين ثم تنبح فى خفوت ، ثم تعود لتنتصب من جديد لتوجه نظرها الى ابيه وتنبح فى خفوت، ثم تقفز ذات اليمين وذات الشمال وهى تحرك ذيلها باستمرار ، ثم تنبح . وتقعى ناظرة اليهما ، وتصمت تماما .

قال هناءة فى ذهول :

ـ كأنها تتكلم !

ضحك مالك بن فهم وهو يقول :

ـ وهى تتحدث بالفعل . وتخبرنى أن ماتقوله هو الصدق ، وتقول الك لا ترع وتحدث ، وتقول لى لا تكذبه واسمع له .

تنهد هناءة والدهشة تتملكه ثم قال :

ـ هى كلبة الجار ، ومع هذا فهى ملازمة لخيمتك ،

تسمع عنها وتسمع عنك ، وتخبرك وتخبرها ، حيرتنى والله يا أبى .. كنت من قبل احس أن عطفك عليهـــا مجرد نزوة وعبث ، أما الان فأنا أحس أن هـذا الحيوان الاعجم يستطيع ما لا يستطيعه الانسان المبين .

ـ المخلص لو احببت أن تكمل الصورة .

ـ الكلبة ؟

ـ نعم يا هناءة ، من الحيوان ما أن اخلص لك كـان دليلك الى الصدق والحقيقة .. وهذه الكلبة ، هى ليست كلبتى ، بل هى كلبـــة جارنا ، ولـكنها تعـرف الصدق والحقيقة لا أحتاج معها الى كلمات لكى اعرف صدق قولها ، وهى فى حديثك هذا تقول لى انك صادق ، وانك تحمل الى النصيحة الصحيحة ، واننى يجب أن آخـذ كلامك مأخذ الجد .

ضحك هناءة فجأة ، ثم اغرق فى ضحكه ـ وصـــدمت أبوه فى دهشة ، وتمالك الابن نفسه فقد كان ضـــحكه المفاجىء هذا شيئا يخرج عن حدود الاداب ، تمـــالك نفسه ، ثم قال وهو ينكت الارض بعصاه الخيزران :

ـ ما أضحكنى يا أبى وعفوا حين ضحكت كل هــذا الضحك فى حضرتك ، هو أن هذه الكلبة تنبح عمى عمرو ابن فهم ، ورجاله وغنمه وابله ، ما أن تراهم قادمين حتى تسرع نحوهم وكأن هناك ثأرا بينها وبينهم ، فتنبحهم وتفرق أغنامهم ، وتوقع الاضطراب فى مالهم كله .

قال مالك :

ـ لاحظت هذا من قبل ياهناءة ـ ولهذا صدقتك ..

قال هناءة فى دهشة :

ـ صدقت الكلبة ، فصدقتنى ..؟

ضحك مالك بن فهم وهو يقول :

— ضمير العيران نقى طلق لا يعرف الكذب والنفاق ياهناءة ، وضمير هذه الكاتبة دلتى على سر قلقى فى هذا المكان ، ولكن كلمتك انت جسدته واوضحته ..

— فاذن ؟

— اترك كل شيء لميقاته يا هناءة ولا تتعجل الامور .

— ٤ —

هب مالك بن فهم من نومه مذعورا ، كان الحلم ثقيلا وكريها ، رأى نفسه يخوض فى بحر من دماء وسيفه فى يده ، وهو يندفع يندفع ، ويخوض فى الدماء اللزجة، التى تشد قدميه شدا ، فيجهد أن ينتزعها بصعوبة ، ويتقدم شاهرا سيفه ، وأمواج من الدماء تحيط به وتحتويه حتى تكاد تغرقه ، ولكنه يقاوم جذب الدماء لجسده ، يجذب الدماء لقدميه ، جذب الدماء لساعديه .. ويصيح ، ويصرخ ، وهو يتقدم وسط موج الدماء شاهرا سيفه صائحا ملوحا صارخا .. هو يتقدم دائما ، ولكن الدماء تتحول الى رمال ، فاذا هى تحوط جسده وتجذبه الى دوامات من رمال .. الرمال حوله ، الرمال تحوطه ، الرمال تشده شدا الى الارض ، وهو يصرخ ويلوح بسيفه ، ولا عدو هناك ، لا احد فى الافق ، لاشيء الا النجمة تلوح من بعيد ، وهو يندفع نحوها .. والرمال تشده ، وهو ينفضها عنه ، ويصرخ ، ومع صرخاته تتجاوب صرخات وصرخات ، وثغاء ابل ، وعواء كلب ، ينبح وينبح ، ثم ينبح فى اصرار ، وينبح .. وضحكات وصيحات ، ثم صوت سيف يتسيح فى عنف وقسوة ، ثم صوت خبطة كأن شيئا انهار .. كأن شيئا أصاب قلبه .. وعواء الم مرير .. مرير .. مرير .

ورفع مالك ماعليه من غطاء ، وأسرع يتقلد سيفه وهو يندفع خارج الخيمة . وواجهه نور الصباح الضئيل وقطعان تسرح مبددة ، وصيحات الرعاة ، وصرخة فارس

منتصر يقول :

ــ قتلت الكلبة ، أخيرا قتلت الكلبة .

وعواء اليم يتضاءل يصدر من مكان قريب .

وتلفت مالك حوله ، الفجر يغبشه الصباح ، وفرسان يسرعون ، وقطعان تهرع مهرولة ، وثغاء وصهيل ، وصيحات .. ولكن العواء الاليم هو هو ، يصدر قريبا منه .

واغمد سيفه ، ثم تقدم يتحسس بأذنه وسط غبشة الصباح مصدر العواء المتألم الباكى الحزين .

هناك عند الربوة كانت ، يلتوى بعضها على بعضها ووسطها سهم التصق باللحم والعظم ، وثبتها فى مكانها لا تريم ، تحرك قدميها فى عنف ، ومن فمها يصدر العواء الاليم .

وعلى الضوء الوليد وضحت صورتها ، متكومة ، متألمة تموت .. وتعوى فى خفوت .. والاطراف تتحرك فى عناء ــ وكل شىء يهمد ويهمد ــ والموت يزحف فى ثقة ، وهى تموت ..

واغرورقت عيناه بالدموع وهو يقترب من القتيلة ، أسيرة السهم المثبت فى الجسد المنهوك ، وهمس :

ــ ياغريبة ..

وحركت ذيلها فى ترحاب ، فى حب ، فى فتور ، وسكت الذنب ، سكت فى وداع الموت الحزين ، وبرقت عيناها وهو يمد يده الى جسدها والى وجهها ، وامتد لسانها يلعق كفه فى فتور ، وصمت ، وحزن ، وماتت العينان ، وكف اللسان ، وسكت الذنب الحزين ..

وانحنى مالك بن فهم يحتوى جسد الكلبة المتقلص والفاقد الحياة بين ذراعيه في صمت ، وقد اغرورقت عيناه بالدموع . وحوله يصخب فرسان ويصيحون ،

وتثغو ابل ، وتصيح ابقار ، وتصهل خيول ــ كل العالم توقف ، لا شيء الا هذا الجسد الذى همد ، ولن يعود الى توثبه بين سنابك جواده من جديد .. أحس أنه يبكي وأنه وحيد .. وضم الجسد الساكن الى صدره وبكى من جديد ..

وصاح صوت فتى صاخب وسط صهيل جواد ، ووقع سنابكه فوق الارض الصلبة ، كأن صاحبه يريد أن يهد الكون هدا :

ــ أخيرا قتلناها ، قتلنا الكلبة اللعينــة التى كانت تفرق أغنامنا وتزعج رجالنا وتخيف أطفالنا ..

لم يجب مالك بن فهم ، فقط رفع عينيه الى الرجل الطروب فوق جواده المتوفز ، كان الرجل أخاه عمــرو ابن فهم ، وكان يبتسم فى انتصار .. ويقول :

ــ لن يؤرقنا نباحها بعد الآن ..

وكأنما رأى مافى وجه مالك بن فهم لاول مرة ، فصمت .. وهدأت حوافر جواده فاستقر فوق الارض ... واختفت الابتسامة من وجهه ، وصمت .

وهرعت أقدام وأقدام الى حيث ركع مالك بن فهم ، ورأى وجوها ووجوها ، هناءة ، وفراهيد ، ومعن .. وآخرين ، كثيرين ، كثيرين ..

وتقدم فراهيد فربت على كتف أبيه وهو يقول :

ــ لقد ماتت ، قتلها السهم ..

وصاح عمرو بن فهم :

ــ مالك ومالها هى كلبة جارك ؟

ترك مالك الجسد الهامد ، ودعه الارض ، ثم وقف ، وتراجع الفرسان خطوة الى الوراء حين وقف مالك .. ونظر اليهم واحدا واحدا ، ثم همس :

ــ لا اقيم ببلد ينال عليه هذا من جارى .

وصمت القوم وكأن على رءوسهم الطير ، وقال فراهيد :

ــ هي ماتت ..

وقال مالك :

ــ ولا بقاء لنا هنا ، نرحل .

وقال هناءة :

ــ ولكن .. يا أبي ..

قال مالك :

ــ نرحل .. بلغ السيل الزبى ، ولم يعد فى قوس الصبر من منزع .. هذه نهاية المطاف .

قال معن :

ــ بل نقاتلهم ، ونرغمهم على الرحيل ..

ارتفع صوت مالك وهو يقول :

ــ لا .. نرحل نحن .. غرباء هنا نكون ، وغرباء أذلاء أن بقينا .. من معى ؟

ونظر الفرسان بعضهم الى بعض فى حذر ، وصاح فراهيد :

ــ كلنا معك ..

وصاح هناءة :

ــ بل كل رجالنا معك ..

وصاح معن :

ــ وراءك يا أبي ، ومعنا كل من ينحاز الينا من فهم ..

صاح عمرو بن فهم :

ــ ولكن ..

صاح مالك :

ــ لا لكن هناك ياعمرو .. اتركك مراغما ، وأترك مراعيك لك ولاهلك ولبنيك ، وضاقت النفس ، ولا مفر من الخروج .. من معى ؟..

وتجاوبت أصداء الصحراء بصيحات الفرسان تردد كلها :

ــ نحن معك يامالك ..

قال مالك :

ــ نحن الآن نشد الرحال ، وليتبعنى كل من يحب مالكا بن فهم ..

وصاحت فرسان ، وضجت رجال ، واحتدم جدل ولكن عندما ارتحل مالك كان وراءه آلاف من بنى فهم ، يرحلون لرحيله ، ويتحركون لحركته ، ويسافرون معه .. وعلى المقدمة مالك بن فهم ، ووراءه أبناؤه يقودهم هناءة ، وصهيل خيل وصيحات فرسان ، وضجيج جيش لجب يتحرك فى صمت وعناء .

ووقف الازد الباقون يرقبون الراحلين فى صمت ، وقد نكس عمرو بن فهم رأسه وحوله فرسانه ينظرون فى تعاسة الى جيش الراحلين ، وقد عم الجميع صمت حزين .

كل الرجال يومها ساروا مع مالك بن فهم ولم يبق فى المضارب الا الحزانى والتعساء ، والآكلون بنانهم أسفا .. فاليوم ، ومن هذا الرجل ، غادر مالك بن فهم الارض الضيقة الى أرض الله الواسعة ، اليوم هاجر مالك بن فهم بالازد بالاسود ، الى دنيا جديدة لن تضيق عن أحلامه وطموحه فى الارض السوداء والشجر المثمر وأحلام الغد العظيم .

فارس الأزد

"الرحلة الصعبة"

كان فراهيد يعود مسرعا يثير الرمال امام جواده .. ووقف مالك بن فهم في مكانه وحوله فرسانه ينتظرون مقدمه .. ووقف فراهيد امام ابيه وقد تغطى وجهه وامتلأ بالرمال . واحمرت عيناه . واغبرت لحيته ، ومد يده يربت بها على عنق جواده وهو يقول في صوت أجش تصدر كلماته من بين شفتين متشققتين خشنتين :

ـ لا ماء ..

همس معن من بين الشفتين المتربتين في حنق :

ـ اللعنة ..

قال مالك في هدوء :

ـ الثبات .. يامعن .. عد الى افراد القافلة وقل لهم نحن نسير على الطريق ومازالت أمامنا مراحل حتى نصل الى الماء .. وكن كما احب منك ، ثابتا هادئا ، واثقا ، مقنعا ..

ضحك معن وهو يحول رأس جواده ويقول :

ـ الكل عطاشى من أمس ، فما يضيرهم عطش يوم جديد ؟

ثم لكز جواده ، ومضى مسرعا الى صفوف الازد المتزاحمين وراء مالك بن فهم في رحلته المديدة نحو الشرق الجنوبي كأنما يرى في مرآة سحرية أن هذا قدره وقدر رجاله .. لا الظمأ ، ولا الجفاف ، ولا خوف الغد المجهول يمنع القافلة أن تسير ، أو يوقف الرحلة المتحركة دائما الى الامام .. لا شيء الا السير الى الامام والى الامام دائما .

عاد مالك يقول :
ـ الثبات .. الثبات وحذار من الخوف .. حذار من الفوضى .
قال فراهيد :
ـ كفى ماتثقل به على نفسك يا أبى ، لابد أن نجد الماء ، وسنجده ، المسألة كلها اننا نسير فى أرض جديدة علينا وهى فيما يبدو أيضا جديدة على أدلائنا .
قال مالك ؟ وهو يحرك فرسه ايذانا بالسير من جديد :
ـ بل نسير يافراهيد .. فليس أمامنا الا السير الى الامام .

لم يتوقف السير أبدا طوال الليل ، وكان السير لم يتوقف من قبل طوال النهار السابق له ، ولهذا كان الرجال متعبين ، وكانت الرواحل تكاد تستنفد آخر ما لديها من طاقة ، حين دخل الركب كله عند الفجر فى واد ضيق طويل ، تحفه الصخور من الجانبين ، تتعالى حتى تحجب الرؤية أو حتى تبلغ فى قممها الى حافة السماء .. وجاء صوت هناءة من أمام الركب :
ـ الى السلاح ..
وكان أول من سمعه مالك بن فهم الذى حدد له من قبل أن يكون فى مقدمة الجيش وطلائعه ، فصاح فى فرسانه وأولاده ورجاله :
ـ الى السلاح .
وتحولت مسيرة الركب الى جرى سريع تمتزج فيه أصوات حوافر الجياد مع صيحاتهم وقعقعات السلاح ، والكل يتأكد من أن سيفه فى جرابه ، وأن خنجره فى مكانه ، وأن رمحه في يده .

وقال هناءة ، وهو وفرسه يظهران مع غبشة الصباح:
ـ هذا الوادى لنا كمين مخيف ، فحذار .
قال مالك وابنه يقترب منه :
ـ ماذا تعنى يا هناءة ؟
قال هناءة ، وهو يربت على رقبة فرسه يدفعه الى الهدوء والاستكانة :
ـ هذا الوادى الضيق مهلكة ، وحولنا من كل مكان فرسان اغراب يحيطون بأعالى الوادى ، وما أن نكون فى جوفه ، حتى نصبح تحت رحمة سهامهم .
صاح مالك بن فهم وهو يشير الى فرسانه بالوقوف:
ـ كل فى مكانه ، وكل يحمل سلاحه ، ولاحركة ، ولا نأمة الا بأمرى .
ومن حول المقدمة التى دخلت الوادى ، ظهر الرجال الاغراب يحملون الحراب والسكاكين والدرق الجلدية العريضة الطويلة ، التى تحمى اجسادهم حتى أسافل الاقدام . من كل مكان ظهروا ، وكأن جنبات الوادى انشقت عنهم .. كل مكان تغطى حولهم بالرجال ، والسيوف ، والحراب ، والسكاكين ، والدرق .
ووجم الجميع فى أماكنهم ولم يتحرك أحد ـ وقال فراهيد :
ـ نحن محاصرون .
وقال هناءه :
ـ لو حرك أحد يدا لاصابه سهم من القمة أو من الجوانب .
وقال معن وهو يجيل طرفه حوله فى عصبية ، وفرسه يتحرك فى عنف ، وبده تمسك بسيفه فى تشنج :
ـ لو أمرت يا أبى لهجمنا عليهم هجمة رجل واحد ..
صاح فراهيد :

ـ حذار ، اى حركة فيها هلاكنا ، نهم يمتلكون كل القمم العالية فى هذا الفخ الذى وقعنا فيه .
قال مالك فى هدوء :
ـ لم ينطلق نحونا سهم واحد الى الآن ، ولو كانوا أرادوا قتالنا ماتركونا أبدا نجمع فرساننا فى هذا الوادى .. تنهد هناءه فى عمق وهو يقول :
ـ عضلات ظهرى تتقلص من زمن فى انتظار السهم الاول من هذه الايدى السمراء المتوفزة .
قال معن :
ـ لو أصابك هذا السهم لعرفنا حقيقة نواياهم ..
ثم ضحك فى عصبية ، وهو يقول :
ـ ولكنك محظوظ لن يرخموك بهذا السهم أبدا ..
ضحك مالك رغم الموقف العصيب .. وأشار بيده وهو يصيح فى الجمع حوله :
ـ أين زهير .. ارسلوا الى زهيرا .. وبسرعة .
وانفرج جمع الفرسان عن فارس يقود فرسه بسرعة نحو المقدمة . وانكشف الغبار عن الرجل المسن العجوز فوق جواده المعروق الذى لا يقل عنه اعياء من فرط تقادم السن وعناء الرحلة . ونظر اليه مالك وابتسم ، هذا الرجل قد جاب كل هذه البقاع ، بل ربما كان عرفها قبل أن يسكنها البشر . لا احد يعرف عمره بالتقريب ؛ فمنذ شب مالك وهو يراه حين يعبر خيامهم على نفس الجواد ، وبنفس هذا المظهر العجوز المتهالك ، ولكنه كان يخفى وراء هذا المظهر صلابة وقوة يعرفهما الجميع .. وقال مالك :
ـ يازهير .. انت الوحيد فينا الذى يعرف هذه الارض . فمن هم هؤلاء الناس ..
رفع زهير وجهه الحالك السواد ، وبرقت عيناه

الصغيرتان اللتان امتزج بياضهما بخيوط حمراء واضحة وقال فى صوت واضح :

ـ هم ناس هذه الارض يا ابن فهم .. وهم فيها من زمن طويل ..

سأله مالك :

ـ اتعرفهم ..؟

قال زهير العجوز ، وهو يجيل عينيه فى الجموع الحاشدة التى علت قمم الوادى الضيق ، والجموع الاخرى التى أغلقت طريق السير فيه امامهم ، وأخذ يتمتم لنفسه بعبارات مبهمة ، ثم عاد بنظره الى مالك وقال :

ـ نعم هم فيه من زمن طويل ..

وفجأة طوح بيده المعروقة فى الهواء وقد خلت من رمحه ، وصاح بكلمات لم يفهمها أحد من رجال مالك ، ولكز جواده الذى انطلق الى الامام فى سرعة لا تشى بهـا حالته ولا سنه . وصاح معن وهو يلكز جواده ليلحق به:

ـ سيقتلون الساحر العجوز .

فصاح به أبوه فى حزم :

ـ قف مكانك يامعن ـ قلت لا يتحرك احد الا بامرى .

وحد معن من سرعة جواده ، وهو ينظر الى أبيه فى دهشة ، ويعود الى جواره فى بطء ، وقال :

ـ ولكنه وحده .. ولا يستطيع أن يدافع عن نفسه ..

ضحك فراهيد فى مرارة وهو يقول ، وبصره يجول فى الجمع الغفير من الرجال الذى انفرج ليبتلع زهيرا وجواده ، ثم ينطبق مرة ثانية فى صمت :

ـ ومن منا يستطيع أن يدافع عن نفسه .. لقد صدق هناءه تماما ، انه فخ .. أوقعنا فيه التعب والعطش ، وانا لم ننم منذ ليال طويلة ..

قال مالك ، وهو ينقل عينيه بين أولاده :
ـ لو كان فينا أحد سينجو من هذا الفخ فهو زهير ، وان نجونا كلنا فبفضله .
ثم التفت الى فراهيد وقال :
ـ قل للرجال ان يعيدوا الرماح الى أماكنهـا ، وأن يسترخوا قليلا فيبدو أن امامنا وقتا ننتظر فيه عودة زهير .
واندفع فراهيد يخب بفرسه الى صفوف الازد يهدىء روعهم ، ويطلب اليهم أن ينفذوا اوامر أبيه ، بينما قال معن ، ومازال القلق يبدو واضحا فى نبرات صوته :
ـ أتحسب انه سيغيب كثيرا يا أبي ..؟
ضحك مالك ضحكة قصيرة وهو يقول :
ـ مازلت تحسب انهم سيقتلونه .؟
رد معن فى ثقة مفتعلة ، يشى صوته بأنه لا يحس له بصدى حقيقى فى أعماق نفسه :
ـ لو كانوا يريدون قتله ما انتظروا كل هذه المدة .. ولكن الامر كله يدهشنى . لو كانوا لا يريدون بنا شرا فلماذا حاصرونا ، ولماذا السلاح واعتراض الطريق ؟ وان كانوا يريدون قتلنا ، فلم الانتظار والصمت المريب : ولم رحبوا بزهير وسطهم .؟
خرج هناءة من صمته الطويل ، وقال متسائلا :
ـ لم اخترت زهيرا يا أبى لتسأله .. فما كان لزهير اى مكان فى القبيلة ، بل أحس أنه ليس من أزد ، وهو دائما كالشبح يظهر ثم يختفى بالاسابيع الطويلة ، يعود وقت ما يريد ، ويذهب وقت أن يعن له الذهاب ، لا يستأذن أحدا ، ولا يخبر احدا بشىء ..
وعاد معن يسأل فى اصرار :
ـ من هو يا أبى ..؟

ربت مالك على عرف جواده ، وسرح ببصره الى بعيد وهو يقول :
ـ هو منا ، وهو ايضا ليس منا ..
اندفع معن قائلا :
ـ لست أفهم يا أبي ..
قال مالك بن فهم :
ـ هو منا بحكم الجوار ، من زمن طويل جدا لا يذكره أبي الذى حكى لى عنه وعن قافلته التى ضلت الطريق ، ثم وصلت الى جوارنا وقد انهكها طول السير . فقد كانوا مجموعة من أهل الحبشة يفرون من ملك ظالم طغى وتجبر حتى ليأخذ كل عروس ليلة عرسها غصبا . وخرج زهير وزوجته الشابة واخوة له هاربين من وجهه حتى ضلوا الطرق المألوفة وانقطع عنهم زاد الماء . ولعبت الاقدار دورها فوصلوا الى ديارنا ، واجارهم أبى ، يرعون الى جوار مالنا ، ويردون منابع الماء التى نردها ، ويزرعون الحنطة والشعير فى قطعة أرض الى جوار غدير صغير .. ومن ساعتها وهو منا ، وان ظل منعزلا عنا بأهله . وولد له أولاد كثيرون ، ومرت به الايام ، وماتت زوجته التى غدت عجوزا قبل موتها ، ثم مات أولاده ولدا وراء ولد . وهو ساعة يبقى الى جوار الارض ، وساعة يرعى فى المراعى بأغنام قليلة ، وساعة يختفى فلا نعرف عنه شيئا ، ثم يعود حاملا صيدا هدية لابى ثم لى بعد أبى .. لا يكلم احدا ولا يضايق أحدا .. ولكننا كنا نلجأ اليه فى الملمات فهو يعرف الكثير من أمر الاعشاب وسرها فى التطبيب والدواء ، وهو يعرف الكثير من أمر الارواح الشريرة التى تركبنا بأمراض لا دواء لها ، وهو يستطيع ان يطردها بما يعرف من أمرها ، وما يعرف من أسرار .

ضحك معن قاطعا الصمت الذي ران عليه وعلى أخيه وقال :

ـ اليوم أحاطتنا ارواح شريرة تركبنا بظلها الثقيل ، عل مايعرفه زهير يطرد شرها عنا .

وقبل أن يجيبه أبوه ، علت همهمة بين القول ، وارتفع صوت فراهيد وهو يقول :

ـ هاهو يقبل ..

ونظر الجميع الى مدخل الوادى الذى احتشد بالجمع الغريب ، وقد انفرج هذا الجمع ليخرج منه زهير يسير على قدميه وهو يجر جواده العجوز المتعب ، وخلفه عملاقان لا يقلان عنه سوادا ، ولكنهما كان لا يستران جسديهما بشىء الا بمئزر يلتف حول خصر كل منهما ويتدلى فوق ساقيه .. ولم يكن أحدهما يحمل سلاحا ، كما أن مشيتهما كانت هادئة وئيدة لاتحمل عنفا أو تهديدا .. وتحرك مالك فترجل عن جواده ، وسار الى أمام دون سلاح متقدما نحو زهير ومرافقيه . والانظار من الجانبين تتعلق به وبهم .. ولاحظ مالك الابتسامة العريضة على وجه زهير المتغضن فدهش . فهو لا يذكر أنه رأى الرجل العجوز يبتسم مثل هذه الابتسامة أبدا .. وكان كلما تقدم ألى أمام ازداد احساسه بجو من الود يشع من المرافقين العملاقين . وما أن ضاقت المسافة بينهما حتى ابتدره زهير قائلا :

ـ يامالك بن فهم انت ورجالك وقومك ومالكَ فى أمان ، وهذا حبيش الى يمينى وحبشان الى يسارى يرحبان بك فى أرض الاجداد المقدسة ..

ولم يفهم مالكٌ ماذا يعنى الرجل العجوز بهذه الكلمات الملغزة . ولكنه حين وصل اليهم مد يده مسلما ، فتقدم

منه حبيش واحتوى كفه فى يده العريضة ثم مال يقبل كتفه الايمن ، ثم كتفه الايسر ، ففعل مالك مثله ، فقبله وقبل كتفه العارى الايمن ثم كتفه الايسر . وتقدم العملاق الثانى حبشان فحياه كما فعل زميله الاول .. وكان زهير طوال هذا الوقت يتمتم لنفسه وهو يتقافز سعيدا مسرورا ، فما أن انتهى السلام حتى تدافعت الكلمات من فمه الادرد مختلطة ومتداخلة ، واخذ يقول :

ـ انهم من أبناء عمومتى ، جاءوا هم أيضا من الحبشة من زمن ، واستقروا هنا حتى قبل ان أهرب بأهلى الى بلادكم . وما كانوا يقصدون بك شرا ، وانما هم كانوا يمنعونك أنت ورجالك أن تطأ خيولكم قبور ابائهم واجدادهم . فهذه أرض مطهرة ، لا يمشى فيها أحد الا راجلا . ولا يمر بها أحد الا ويقدم القرابين وينحر عند القبور القديمة تحية لارواح الاجداد . والا غضبت هذه الارواح فانتقمت منه ومنهم أيضا ، وأصابتهم بالامراض وركبتهم أرواح الشر ..

وكان العملاقان يتابعان قفزات زهير وكلماته ، وعضلات وجهيهما تتحرك فى تقلصات متتابعة كأنما يفهمان مايقول . وكانا يهزان رأسيهما من حين الى حين وان كان مالك يدرك تماما أنهما لا يفقهان من لغة زهير التى يخاطبه بها حرفا ، وحين انتهى زهير من حديثه قال له مالك :

ـ وما كل مظاهر العنف والاستعداد للقتال هذه ؟

صمت زهير ، وكأنما أدهشه أن يتحدث مالك عن شىء آخر غير الارواح ، وتلفت حوله فى حيرة ، ثم هز رأسه وقال :

ـ أحسب أن عدد رجالك وحشدك هذا قد أفزعهم . فأخذوا للأمر أهبته ، فلو استمر سيرك فى الوادى لاقترب من أرض المدافن ، وكان لابد أن يمنعوك ان سلما او حربا .

قال مالك :

ـ اذن كان وجودك معنا نعمة لاشك فيها ..

عادت الكلمات تتدافع من جديد من فم زهير الادرد . وهو يتصايح ويقفز ويتكلم فى وقت واحد ، وقال :

ـ نعمة .. آه نعم نعمة .. لى ولهم ولكم وللاجداد .

قال مالك :

ـ ماذا تعنى يازهير ؟..

قال زهير :

ـ قبل أن أخبرك عن معنى ما أقول ، تعال معى وحدك لترى القبور التى حرص القوم على منع خيولكم من الاقتراب منها .. وهناك ساجيب عن تساؤلاتك كلها ..

أشار مالك بن فهم الى ابنه هناءة الذى أسرع نحوه فوق جواده ، فقال له :

ـ سأذهب معهم وعليك أن تحفظ للرجال نظامهم وتماسكهم ، ولن اغيب كثيرا ..

وكاد هناءة يعترض على ذهاب أبيه وحيدا وسط هذا الجمع من الاغراب ، ولكنه رأى النظرة فى عينى أبيه تحذره من الكلام ، كما رأى السيف فى مكانه فى القراب المثبت بوسطه ، والخنجر مكانه فى منطقته ؛ فاطمأن الى انه يأخذ حذره وأن تظاهر بالهدوء والاطمئنان اليهم . فقال :

ـ أمرك يا أبى ..

ولكز جواده عائدا الى اخوته والرجال .. يعيد تنظيم صفوفهم وكأنه يدعوهم الى الراحة والاسترخاء ، بينما هو فى الحقيقة يرتبهم فى كراديس صالحة للهجوم السريع لو تطلب الامر ذلك .. بينما سار مالك الى جوار زهير والعملاقين ، فانفرجت صفوف الاغراب المتجمعين تفسح لهم طريقا الى نهاية الوادى .. وكان الجميع عراة الاجسام الا من المئزر ، فى أيديهم الحراب والدرق ، حفاة الاقدام ، سود البشرة ، شعورهم كثة تكاد تنتصب فوق رءوسهم وقد تشابكت من خشونتها وتلبدها بالغبار .. وكانوا من جميع الاعمار وجميع الاحجام ، منهم العجوز والكهل والطفل ، ومنهم القصير والطويل النحيف والعملاق الضخم ، وكانوا جميعا يتحدثون معا بهذه اللغة الغريبة السريعة ذات المقاطع المتلاحقة .. وكانوا يتقافزون فوق الصخور المكونة لجدران الوادى فى خفة وسرعة ، وكأنهم فى مهارة القرود وخفتها . ووسط جدار الصخر المتعالى الى اليمين انفرجت فتحة ضيقة تقدم العملاقان منها. وتبعهما مالك وزهير ووراءهم الجمع المتقافز الذى لا يكف عن الكلام والضجة .. وانفرجت هذه الفتحة عن واد فسيح تلمع رماله تحت أشعة الشمس المتوهجة التى بدأت تأخذ سمتها فى السماء الصافية . وكان الوادى يمتد على مرمى البصر وكأنه بحر من الرمال .. وجاءت كلمات زهير المتلاحقة كأنما تؤكد ما كان يجول فى خاطر مالك ، اذ قال وهو يشير بيده اثناء حديثه :

ـ هذا هو بحر الرمال .. هكذا يسمونه ، وهنا وادى القبور المقدس .

وكان زهير يشير الى فتحة اخرى فى جدران الصخر

يلجها العملاقان حبيش وحبشان ، بينما توقف باقى الجمع فى صمت كامل لا يتحركون . وشد زهير ساعد مالك فتبعه الى داخل تجويف كبير فى جدار الصخر حجب ضوء الشمس وحرها اللافح . وادرك مالك انه يعبر كهفا ضخما من تلك الكهوف التى يتناقل الناس حكاياتها برهبة وخوف ، ويحكون عنها الاقاصيص والمغامرات العجيبة .. وكان العملاقان يسيران وقد انتصبت قامتاهما دون اى انحناء ، ورفع مالك راسه يبحث عن سقف المغارة فتاهت عيناه فى طبقات الظلام التى تغطى سقف المكان ، بينما كانت أصداء وقع أقدامهم تتردد فى أرجاء المغارة فتزيد المكان رهبة .. ومن بعيد لاحت بقعة ضوء لامعة ، اخذت تزداد وضوحا ولمعانا كلما اقتربوا منها ... من الوادى فجوة تقود الى وادى الرمال ، ومن وادى الرمال فجوة تقود الى المقابر المقدسة .. كم يتفنن هؤلاء القوم فى الحفاظ على المثوى الاخر لاجدادهم .. ومدخل هذا كله تحرسه دائما كوكبة من الفرسان ليل نهار فى يقظة دائمة حتى لايقترب غريب .. وافاق مالك من تأملاته على صوت زهير يقول :

ـ هاقد وصلنا ..

ورفع مالك رأسه ليغلق عينيه بسرعة ، فقد عادوا فجأة الى النور المبهر ، حيث انفرجت فتحة الكهف النهائية عن منطقة صخرية واسعة ، مليئة بالكتل الحجرية المتراصة فى صفوف طويلة . كل كتلة حجرية تتكون من ثلاث قطع حجرية عارية مستطيلة الشكل ، وجنادل صخرية قائمة عالية الارتفاع تقوم على قواعد من الحجر .. تمتد هذه الكتل الثلاثية على خط مستقيم ، كل عامود يبعد عن الآخر قدر خطوة أو خطوتين ، ويتكون

كل خط من خمس أو سبع كتل متتالية تليها مجموعة من الاعمدة الصخرية المخروطية الشكل .
وكان المكان يسوده صمت رهيب ، هنا يرقد الجدود من اجيال واجيال .. والى هنا تساق الاجساد المتعبة انهكتها رحلة الحياة لتجد السلام النهائى تحت كتلة صخرية مستطيلة اخرى وتكوينها الثلاثى .. الشمس ، والقمر ، والزهرة .. الى جوار رمز الارباب المقدسة تساق الاجساد التى ضجت بالحياة فى الوادى لترقد فى استسلام الى جوار الآباء والاجداد تحت حماية الرموز الالهية ، وتحت وهج الشمس المقدسة نهارا ، وسلام ضوء القمر الفضى ليلاً ، تلمع فوقها توهجات الزهرة واعدة بحياة اخرى مليئة بالبهجة والسعادة والسلام ..
وتقدم العملاقان وتبعهما مالك وزهير ، ولم يكن فى هذه المقبرة الواسعة المخيفة غيرهم . وعند الجنادل انحنى العملاقان فى حزن ووقار ، ورفعا أيديهما الى السماء ، ثم الى الشرق ، والى الغرب ثم عادا يضعان اكفهما فوق صدريهما ، وقد تندت عيونهما بدموع حبيسة .. ثم مضيا فى همس اخذ فى الارتفاع ، يرددان اغنية جنائزية حزينة ، وزهير يتابعهما بعينيه ، وسرعان ماكانت شفتاه تستعيدان من ماضيه القديم نغم الاغنية وكلماتها ، وشيئا فشيئا امتزج صوته الصدىء بصوتيهما العميقين فى ابتهالة حزينة موقعة .. واحس مالك بالرهبة تتملكه ، وبغصة تملأ حلقه ، وبدموع غريبة تحاول أن تتسلل الى عينيه .. لم يكن مايحسه خوفا ، وانما كان هناك شىء كالحزن العميق الدفين يزيح كل مافى فكره ليتسلل الى عقله يملأ وجوده كله باحساس

مرير بالحزن .. ودهش مالك ، فما كان يعرف القوم الذين ثووا هنا ، وماكانت له بهم صلة قبل الآن .. ولكن احساس الحزن ملكه كله بحيث اندمج بقلبه فى أهزوجة الجناز التى ملأت بتنغيماتها الجو حوله .

وكما بدأت أغنية الجناز توقفت فجأة .. وعاد صمت كثيف يسود العالم الغريب الذى يقفون فيه .. واستلفت نظر مالك أشكال غريبة على الصخور الثلاثية فاقترب منها يتأمل فيها ، كانت كتابات بلغة غريبة تتخللها دوائر ومثلثات ، وأشكال صور لحيوانات .. وقال حبيش شيئا سريعا لزهير ، فقال هذا لمالك :

ــ هذه آثار ناقة صالح بن هود ..

وابتسم مالك وعاد يتذكر الحكايات الغريبة التى يرددها الناس فى سمرهم يحوطهم جو من الرهبة والغموض . وعاد حبيش يتكلم ، وعاد زهير يترجم حديثه قائلا وهو يشير بيده الى الجنادل :

ــ عند هذه الجنادل تنحر القرابين ، والقوم هنا يرحبون بما تقدم من قرابين لاجدادهم ..

أطرق مالك برأسه مفكرا ، كان هذا بلا شك هو حق الطريق .. الدية التى يجب أن تدفعها كل قافلة تمر .. فى البدء الحصار المهدد بالجموع المسلحة الكثيفة ، ثم هذا العرض المهذب بالسلام فى مقابل حق الطريق .. هل يستسلم لهذا التهديد ... أم يرفض ويدخل فى معركة بالسلاح ؟ وعاد يرفع عينيه فوقعت على صفوف القبور الطويلة المتراصة ، وعاد احساس الحزن العميق يملأ نفسه من جديد ، فأخذ ينقل نظره بين رفاقه وبين القبور ، وقال :

ــ وكم يحبون أن أقدم لاجدادهم ؟

عاد زهير يتحدث الى حبيش ، وأخذ حبيش يتشاور مع حبشان ؛ وظلت المداولة فترة طويلة ، كان من الواضح فيها أن زهيرا قد دخل معهم فى مساومة عنيدة ..
وأخذ مالك يتأمل المستطيلات الصخرية وهو يعجب من طولها البالغ ، هل كان الناس قديما فى مثل هذا الطول ان كل واحدة تتسع لثلاثة رجال يتمددون متعاقبين ..
وعاد ببصره الى حبيش وحبشان ، أن هذين العملاقين معا لا يملآن قبرا من قبور هؤلاء لو تمددا ورأس أحدهما عند قدم الآخر .. وحين صمت المتحاورون بادر زهير سائلا :
ـ هل هذه القبور تملأ بالطول ؟
وفغر الرجل العجوز فمه الادرد فى دهشة ، وعاد بنظره الى المستطيلات الصخرية ، ولمعت عيناه ، ثم ضحك وهو يقول :
ـ لا ، انما كان الاجداد فى مثل هذا الطول ، فقد كانوا ضخاما بحيث يملأ جسد الواحد منهم مثل هذا القبر ، كما أنهم كانوا يعمرون طويلا جدا ..
ثم صمت ، وأطرق الى الارض ، وهو يقول فى حذر :
ـ هم يطلبون الكثير ، ولكنى وصلت معهم أخيرا الى أن يكون القربان ثلاث نياق ..
قال مالك بسرعة وهو يبتسم :
ـ بل خمسة ، وسنذبحها فوق هذه الجنادل ، ونقضى ليلنا معهم ونرحل فى الصباح لو أنهم قدموا لنا فضلة ماء ترد عطشنا وعطش الابل والخيل .
ووجم زهير وهو يحملق فى وجه مالك بن فهم فى دهشة واكبار :
ـ ولكنهم لم يطلبوا غير ...

قاطعه مالك بقوله :
ـ هل لديهم ماء ؟ . .
قال زهير وهو ينقل نظره الى آخر الصفوف الحجرية المتراصة :
ـ هم لا يقيمون مقابرهم الا على الماء ، وهنا عين ماء من أعذب ماء الصحراء ..
انفرجت أسارير مالك بن فهم وهو يقول :
ـ هذا أسعد ماسمعت من أخبار . .
وكان زهير منهمكا فى الحديث مع العملاقين ، اللذين ماكادا يسمعان ماقاله زهير لهما حتى انفرجت أساريرهما بدورهما ، وأسرعا يصافحان مالكا ويقبلان كتفيــــه ، ويتواثبان ، وسرعان ما اختفيا عن ناظريه داخل الكهف وهما يسرعان بالانباء السعيدة للجموع الغفيرة المحتشدة فوق الجبل .

وادى الحيّات

- ٧ -

كانت أصداء الموسيقى تملأ الليل حولهم ، دقات الدفوف والطبول المكونة من جلود رقيقة للحيوانات شدت الى قطع فخار أو اخشاب مزينه بنقوش مصبوغة ، وأنغام قيثارات صنعت من قرون الظبيان الوحشية . ونفخ أبواق طويلة على شكل قرون الابقار . ومع كل هذا تدوى تصفيقات الرجال الموقعة ، ودقات أقدامهم وأقدام النساء اللاتى يرقصن معهم وسط الحلقة الضخمة التى جلس فيها رجال مالك ورجال الجبل جنبا الى جنب ، وأمامهم اللحوم فى أوان فخارية او فوق قطع ضخمة من أكتاف الابقار أو الجمال .. المكان كله يعبق برائحة زكية نفاذة تتصاعد من النيران المشتعلة فى كل مكان حول الحلقة ووسطها ، وقد رمي فيها القوم بلورات بيضاء داكنة كانت وهى تحترق تصدر هذا الدخان الازرق الذى يفوح بالرائحة العطرية الذكية النفاذة .. ومد مالك بن فهم يده الى « القربة » الجلدية المليئة بالماء الى جواره ، فرفعها يشرب من الماء فى حذر ، وقلص شفتيه وهو يبعد « القربة » عن فمه وهو يحس للماء ملوحة ولذعا ، ولكنه عاد يرفع الماء الى فمه من جديد ، فالماء هو الماء ، وفى مثل هذه الصحراء فان طعم الماء لا يهم كثيرا مادام صالحا لرد العطش القاتل .. وقال فراهيد وهو يرقب أباه وعلى شفتيه ابتسامة ساخرة :

ـ اهذا هو أعذب ماء فى الصحراء ، ترى ماذا

سيكون عليه الماء الذى ليس أعذب ماء فى الصحراء ؟

ضحك مالك وهو يغلق فم « القربة » الجلدية ، شد سيورها الجلدية المحيطة بفتحتها فتضيق وتغلقها باحكام :

ـ هكذا قال زهير ، وأحسبه يندم الآن على هذا الوصف الذى نقله عنهم بكل تفاخر !

تدخل هناءة فى الحديث قائلا بعد أن ابتلع مافى فمه من طعام :

ـ ان زهيرا يبدو وسطهم كطفل تائه يعود الى أهله وذويه ..

قال فراهيد :

ـ هذه اللغة التى يستعملها معهم ما أظنه استعملها منذ زمن طويل .

قال معن :

ـ هناك شيء جديد يحدث ، بعد حكاية الذبائح عند المصاطب على القبور ، ثم هذا الرقص الذى لاينتهى ..

انتبه الجميع الى حيث ينظر معن ، فاذا بالعملاقين حبيش وحبشان يسندان رجلا لا يقل عنهما طولا أو سواد بشرة ، وهو يسير بينهما منهكا لا يكاد يقوى على نقل قدميه .. وكان من الواضح أنهما لو تركاه لوقع وتهاوى الى الارض فى الحال . ووراء الجميع كان يسير رجل عجوز ، محنى القامة رث الثياب يحمل فى يده مشعلا متوهج الطرف . وما أن وصل هذا الحشد العجيب الى وسط الحلبة حتى ركز الرجل العجوز مشعله فى الارض كما تركز الحربة ، ثم رفع ذراعيه فى الهواء ، فصمت المغنون وكفت الموسيقى عن العزف ، ورفع الآكلون أيديهم عن الطعام ، وشخص الجميع بأبصارهم الى المجموعة التى وقفت وسط الدائرة ، وساد

صمت كامل قال معن :
ـ هذا الرجل مريض .
ودوى صوته فى وسط الصمت المطبـــق ، فأحس بالحرج ، ومضى يسعل فى خفوت بينما امتدت يد الى كتفه ، وهمس صوت زهير الذى تسلل الى جوارهم دون أن يشعروا به ، وقال زهير :
ـ صدقت هو مريض ، وهذا العجوز هو الطبيب ، وسيبدأ علاجه مما فيه ، ثم يعالج المرضى بعد هذا واحدا بعد واحد قبل أن يستأنف الجميع طعامهم ولهوهم من جديد ..
همس مالك بن فهم :
ـ وماذا به ..؟
وقبل أن يجيبه زهير ، ارتفع صوت حاد من وسط الحلبة فالتفت الجميع الى حيث وقف المريض ومن معه ، فاذا بحبيش وحبشان يرقدان الرجل على الارض ، وقد وقف العجوز خلف رأسه يصيح وهو يلوح بشىء فى يده فى الهواء ، ويرقص رقصات منتظمة ومن فمه ينثال سيل من كلام سريع متداخل متتابع .. ثم تقدم يعرى جسد الرجل ويمر بيده التى تحمل ما وضح أنه اناء فوقـه جمرة نار يرتفع منها دخان كثيف ، فـــوق الجســد المسجى أمامه من الراس الى القدم . ثم يتوقف ســيل كلامه المندفع فيردد حبيش وحبشان معا جملة عجيبة تتكون من مقطعين ،! ووراءهما يردد كل المتحلقين نفس الجملة .. ثم يعود الرجل العجوز يرقص من جديد حول الجسد المسجى وهو يمر بمبخرته فوق كل جزء مـــن اجزاء جسد الرجل المسجى أمامه وهو يردد هـذا الكلام السريع المتتابع فاذا سكت وتوقف ، عاد حبيش وحبشان يرددان الجملة ذات المقطعين ، ومن ورائهما يردد الجميع

نفس الجملة .. ولم يتمالك مالك بن فهم نفسه فلكز زهيرا بمرفقه وهو يقول :

ـ ماذا يقول هذا العجوز ، وماذا يردد الجميع ، وما الامر كله ..؟

قال زهير هامسا وصوته يضيع وسط صخب المتحلقين وهم يرددون الجملة ذات المقطعين من جديد :

ـ هذه حمراء الراية .. والعبارة التى يرددها الجميع كلمة « حمراء الراية » أما الطبيب فهو يتلو التعويذة التى تطرد العين .

وعاد الصياح من جديد يلفت نظر مالك بن فهم الى وسط الحلبة ، حين تقدم حبيش من المريض فقبل مكان القلب من جسده ، وأخذ المبخرة من يد الرجل العجوز ومضى يلفها فوق مكان القلب عدة مرات وهو يتلو التعويذة التى كان يقولها الرجل العجوز بصوت مرتفع ، فاذا ما انتهى منها صاح الجميع بالعبارة التى ترجمها زهير وهى « حمراء الراية » ، ثم أسلم المبخرة الى الرجل العجوز من جديد . ثم تقدم حبشان ففعل نفس الشىء واخذ يقبل مكان القلب من المريض وهو يتلو الرقية بدوره ، وعندما عاد الى مكانه ، خرج من المجاميع المتحلقة واحد ففعل مافعل العملاقان . وتلاه آخرون ، وكل شىء يتكرر كل مرة من جديد ، وينتهى دائما بنفس الجملة « حمراء الراية » ..

وقال زهير وقد أشتد الصخب :

ـ لقد أوشك العلاج على الانتهاء .. انظروا ..

وتقدم الى وسط الحلبة مجموعة من الرجال يحملون أقواسا وسهاما ، وأخذوا يصوبون قسيهم الى السماء ويطلقونها بينما تتعالى الصيحات من الجميع . وانحنى الرجل العجوز فقبل مكان القلب من جسد المريض ، بينما

حمله حبيش وحبشان واختفيا به في ناحية من الحلبة .

وقال فراهيد :

ــ قلت تطرد العين يازهير ، فهل هذا الرجل العملاق كله يخاف من العين ؟

قال زهير وهو ينظر الى فراهيد فى دهشة واستنكار :

ــ العين تهد الجبال أيها السيد فراهيد .. وهذا الرجل ليس به اصابة ، ولا يشكو من علة واضحة ، وانما هو مهدود الجسد لا يقوى على السير ، وكل مايفعله ينقلب الى ضد ما يريد منه ، ماذا يكون فيه الا انه محسود ، أصابته عين شريرة فأقعدته عن العمل وأصابته بالفشل .

كان فراهيد يجيب فى سخرية لولا أن مالكا بن فهم مس ذراعه فى رفق ، وهو يقول :

ــ هناك شيء جديد ..

كان المتقدم الى الحلبة رجلا وحيدا ، شديد البدانة ، ولكنه كان يسير متمايلا ، وهو يحرك رأسه الى اليمين والى اليسار ومن فمه يسيل لعاب كثير ، ووراءه كان يسير الطبيب العجوز وفى يده مبخرته وفى يده الاخرى حبل طويل .

وهمس فراهيد فى أذن زهير :

ــ أمصاب آخر بالعين ؟

قال زهير وهو يهز رأسه فى استنكار

ــ لا ، هذا مسته الارواح ، ألا ترى .. الحبل بيد الطبيب ؟

قال فراهيد فى دهشة :

ــ الحبل ؟ . .

قال مالك بن فهم فى حزم :

ـ صمتا يافراهيد ، ودعنا نر مايحدث .

وحين صمت فراهيد وتطلع الى وسط الحلبة ، كان الطبيب العجوز يشير بيده الى احد الجالسين فى أطراف الحلبة ، فقام واتجه اليه . واجلس الرجل العجـوز المريض البدين بعيدا عنه بعدة خطوات ثم أشـار الى الرجل القادم من الحلبة ومد له طرف الحبل فأمسك به .. وأخذ الرجل العجوز يقيس الحبل باصبعه وساعده ثلاثا ، ثم نكس راسه واخذ يتمتم بسرعة بكلمات متلاحقة غير مفهومة ، وما ان انتهى من كلماته حتى أمسك بحفنة من تراب فنشرها على الحبل ، ثم وقف حاملا مبخرته ، وأخذ يديرها حول رأس الرجل البدين وهو يتمتم بكلمات عديدة . ثم أخذ حفنة أخرى من تراب ورمى بها من جديد فوق الحبل المسترخى فى يد الرجل الاخر،ثم جمع الحبل ووقف مخاطبا المريض بجملة طويلة ، ثم احتضنه وقبل كتفيه ، وصاح صيحة كبيرة وهو يعود راقصا الى داخل الحلبة ..

وسأل فراهيد زهيرا :

ـ انتهى العلاج ؟

قال زهير :

ـ نعم ، لقد حدد له مكان خروج الارواح اليه عنـد نخلة الى جوار بيته ، وامره ان يأخذ تمرا وزبدا ويتوجه بها الى الشجرة عند غروب الشمس فيلقيها هناك فوق الرمال .. ويظل الى جوارها الى الصباح ، وفى الصباح تذهب عنه الارواح الشريرة ..

قال مالك وهو يلملم ملابسه وينهض :

ـ كفى ما رأيناه وهيا بنا قبل أن يأتوا بمـريض جديد ..

قال زهير فى دهشة :

ـ ألن تمكثوا الى نهاية الاحتفال ؟

قال زهير :

ـ فى الغد امامنا رحلة طويلة ، ولابد أن نستعد للرحلة قبل غروب الشمس ، فبلغ القوم شكرنا على حفاوتهم ، وحاول ان تستأذنهم فى أن نملأ أوانينا بشىء من هذا الماء الصالح الذى يشربونه .

ضحك معن بن مالك وهو يقول :

ـ أعذب ماء فى الصحراء ..

قال زهير ، وهو يقف لوقوفهم :

ـ ستصدق قولى هذا بعد أن تمضى فى الرحلة جزءا من الطريق .

ـ ٨ ـ

مع النسمات الاولى للصباح كان الركب قد اكتملت استعداداته ، الاحمال فوق الجمال ، والخيام جمعت فوق الرواحل . والرجال قد ركبوا خيولهم ، والعبيد قد انتشروا يسوقون الانعام ، وكوكبة من الفرسان قد سبقت القافلة تستطلع الطريق ، وكوكبة أخرى من الفرسان قد سارت بخيولها الى آخر الركب كله لتحرسه من المؤخرة .. واقبل جمع من رجال الجبل يحملون أحمالا من تمر وزبد هدية للقافلة ، وكاد مالك بن فهم يردهم فهو يعرف حاجتهم الى الزاد . ولكن زهيرا همس له :

ـ هذا تقليد يراعى هنا ، الضيف لابد ان يخرج بهدية ، والهدية بمعناها لا بقيمتها ..

فتقدم مالك من حبيش وحبشان وحياهما وقبل اكتافهما بعد أن قبلا هما كتفيه ، وامر بالهدية أن تحمل الى حيث توضع فوق الجمال .. ثم أشار بالتحية الى مضيفيه والجمع الذى احتشد لتوديع القافلة رغم ساعات الفجر الاولى التى تخرج فيها الى الصحراء من جديد .. ثم ركب فرسه ، وأشار الى القافلة لتبدأ سيرها : ومضى

يسرع ليكون فى المقدمة وحوله اولاده وزهير .. ولاحظ أن حبيشا وحبشان قد ركبا فرسيهما وصاحباه فى مقدمة الركب ، والتفت يسأل زهيرا عن امرهما . فقال له :

ـ هذه عادة أخرى تتبع هنا ، لابد أن يصاحبنا المضيف جزءا من الطريق ..

ولم يعقب مالك فقد شغله أمر انتظام الركب فى سيره، ومضى يرسل أولاده الى ناحية هنا ، وناحية هناك ، والركب يغذ السير .. ومع استمرارالمسيرة كان كل شىء ينتظم خطوة خطوة ، واخذ كل انسان مكانه كالمعتاد . وارتفع ثغاء الابل وصهيل الخيل يشق وجه الصباح الندى ، بينما كانت همهمات الرجال فى ندائهم للابل يبدو مرضيا وطبيعيا . ولكن مالك بن فهم كان يخشى هذه الارض الغريبة التى لا يعرف عنها شيئا ، والتى سمع عنها حكايات وحكايات .. القوافل الصغيرة التى ابتلعتها الصحراء ، اذ يسقط عليها أبناء القبائل كالصقور لا يبقون حيا الا الاناث اللاتى يرحن سبايا لهم ، أو يبعن جوارى أو اماء ، والا مافى القافلة من ابل وخيل وابقار فهى الفريسة التى يستهدفها الغزو والسلب دائما .. ولم يكن مالك يخشى هذا الهجوم الآن ومعه حبيش وحبشان يضمنان له أن يعبر أرضهم دون ازعاج من شباب القبيلة المغامر الذى يبحث فى غزواته عن الصيت قبل الغنائم .. كما أنه لم يكن يخشى كثيرا مثل هذا الهجوم بعد أن يغادر أرض حبيش وحبشان فهو فى عدد وفير ورجال كثيرين سيجعل مرآهم كل مغامر يفكر مرتين . ولكن كان يخشى على من يستخفه الطيش فيبتعد عن الركب وراء صيد ، أو طمعا فى بعض التحرر من سير القافلة الرتيب .. كم سمع عن بحار الرمال

المتحركة التى تبتلع الفارس وفرسه وتظل تمتصه وهو يغوص فيها حتى يختفى تماما ، ثم تعود الرمال الى شكلها الاول وكأن شيئا لم يحدث ، تلمع حبات رمالها تحت الشمس المشرقة وكأنما لتغرى فريسة جديدة .
سمع مالك الكثير من مخاطر هذه الأرض المخوفة ، بجفافها ، ورياحها ، وصخورها المدببة ورمالها الخادعة. رصدق ماسمع واصدر أوامره لرجاله للاحتراز من اخطار ماسمع .. ولكنه سمع أيضا أشياء كثيرة أشد هولا واخافه ، ولكنه لم يكن يميل الى تصديق كل ماسمع .. سمع عن الجن التى تسكن الكهوف ، وعن الارواح الشريرة التى تصيب الرجال والحيوان بالجنة والعمى . وسمع عن السعلاة والشق الذى يركب الفارس ويسوقه رغما الى حيث يأكل راسه ، ثم يترك جسده لجارح الطير ، وسمع عن قوافل القرود المتوحشة التى تعترض القوافل ، وترجم رجالها بالاحجار وتشق أوانى الماء وتخطف كل مايحملون من زاد ، وتتركهم للعطش والجوع والموت الاكيد .. لم يكن يحب أن يصدق كل هذه الحكايات التى يرويها السمار حول نيران المخيمات فى الليل ، فيصغى اليها من يسمعونها وقد تسمرت آذانهم عند كلمات هذه الحكايات ، يستزيدون منها ويستزيدون وان كان هو يرجعها دائما الى مبالغة القصاص وخيالهم، الخصب ، وحب قومه للتضخيم والمبالغة فى كل شىء ، فى الحكاية وفى المخاوف . وفى ادعاء الشجاعة والبطولة الفذة فى مواجهة هذه الاخطار .. فلم يرجع أحد ممن غاصت بهم رواجلهم فى الرمال السائخة ليحكى عما حدث له ، ولم يشاهد أحد واحدا ممن اكلت السعلاة

أو الشق رءوسهم حتى يسترجعوا حكايته ، ولم يعد أحد ممن تخاطفتهم الجن والشياطين أو القردة المهلكة ..

وأفاق مالك بن فهم من تأملاته على أصوات مضطربة تصدر من مقدمة الركب ، ثم رأى الجمال تتدافع ـ رغم محاولات راكبيها كبح جماحها ـ نحو الامام ، وقال فى فرح ..

ـ انه الماء ..

ثم لكز جواده ، ومضى يسرع الى الامام سابقا الجمال المسرعة ، وامله يتزايد فى أن يكون الركب قد صادف نهرا من تلك النهيرات الصغيرة التى تظهر وسط ثنيات الجبال ، تتدفق بمائها فترة قبل أن تجف وتنضب من جديد ، فقد أذاه هول الشرب من ذلك الماء الملح الذى حمله معه من الجبل . وما أن وصل الى مقدمة الركب حتى رأى الجميع وقد توقفوا عن الحركة، بينما تجمعت الجمال حول مجموعة من الشجيرات الخضراء تتكاثف حول غدير صغير ، بعضها يأكل من أوراق الشجر ، وبعضها يدس رأسه فى الماء يشرب فى شراهة ونهم .. وأحس فجأة بالعطش الشديد . ولكنه لم يكن يستطيع أن يبعد النياق ليشرب هو أو أحد الرجال . فالجمال أولا ، الماء من حقها قبل أى شىء حى فى الركب كله . ولكن أمله فى ماء النبع سرعان ماتبدد اذ رأى الجمال تتراجع بعد أن شربت طلائعها الاولى وتقف حائرة ؛ تشم مكان الماء بأنوفها الملوثة بالطين ثم تضرب الارض بأقدامها وتلف حول نفسها وتدور .. وأسرع نحوه هناءة المغبر الوجه يقول :

ـ انها واحدة من خدع الصحراء اللعينة ، وما أن شرب من الغدير بضعة جمال حتى نضب الماء وجف ،

والآن وقد شم الباقون رائحة الماء فلن نستطيع السير الا اذا سقيناهم ، وليس معنا من الماء ما يكفينا ويكفيهم .

صاح مالك وقد بدأ شيء كالغضب يملأ نفسه :

ـ استدع زهيرا .

قال هناءه :

ـ هو مع حبيش وحبشان يتحدثون بهذه اللغة الغريبة التى لا افقهها ، واظنه يسألهم عن نبع الماء التالى فى طريقنا . وهم يرسمون له على الرمال خطوطا متعرجة لا اول لها ولا آخر ..

قال مالك وقد بدأت نفسه تهدأ :

ـ ارسله الى حين ينتهى من الحديث معهما .. واطلب الى الرجال ان يسقوا الجمال مما نحمل من ماء ، بضع جرعات لكل جمل حتى لا ترفض السير بعد أن شربت طلائعها ، واعد تنظيم الركب ، فنسير مرة اخرى فور حديثى مع زهير ..

وانطلق هناءة يحمل أوامر أبيه ، وسرعان ماقاد كل راكب جمله الى ناحية ، وانزل قربة الماء ، يسقيه ويشرب ثم يعيد ربط القربة مكانها .. بينما رأى مالك زهيرا يتقدم نحوه ومعه حبيش وحبشان ، فترجل عن فرسه وامسك بمقوده وهو ينتظرهم فى صبر . وتبادل مع حبيش وحبشان التحية المعتادة بينما قال زهير بصوته العجوز المشروخ :

ـ توجد عينان للماء ، أقربهما ينصح حبيش وحبشان بتجنبها ، ويريدان منا أن نستمر بلا توقف حتى العين الثانية . وهذه لن نصل اليها الا بعد يومين او ثلاثة على احسن الظروف ، ولو أسرعنا فى السير ليل نهار بلا توقف او راحة ..

قال مالك بن فهم :
ـ والعين القريبة ..؟
قال زهير :
ـ يقولان ان الارواح الشريرة تسكنها ، وتسكن الطريق المؤدي اليها ، وأن من سار فيه مات وذهب بلا رجعة ..
ضحك مالك وقال :
ـ ليحددوا لك الطريق اليها ، فأنا لم التق بهذه الارواح الشريرة بعد ..
نظر اليه زهير وقد برزت عيناه المحمرتين ، وفرك كفيه فى عصبية ، ثم استدار يحدث حبيش وحبشان بتلك اللغة الغريبة التي لم يكن مالك يعرف منها حرفا . ولكنه لاحظ هذه الطريقة العنيفة والقلق فى وقت واحد التى اتسم بها حديث رجلى الجبل ، والتى كانت تزداد عنفا مع استمرار الحديث مع زهير .. وأخيرا رفع زهير يديه فى يأس ثم أنزلهما الى جانبه وهو يقول :
ـ لا فائدة هما يصران على أن السير الى النبع الاول ضرب من السير نحو موت اكيد ..
قال مالك :
ـ ليس أمامنا خيار ، ولنجرب حظنا مع هذه الارواح الشريرة .
وبدا أن رجلى الجبل قد فهما قرار مالك ، اذ التفت حبيش الى حبشان يحادثه ، ورد عليه حبشان ، ثم التفتا معا الى زهير ومضيا يتحدثان اليه بسرعة وهما يلوحان بذراعيهما فى عنف .. وحين انتهى حديثهما قال زهير :
ـ سينصرفان عائدين الى مضاربهما ، هما يقولان أن القبائل التى تسكن المنطقة التى سنعبرها تعادى

قبيلتهما وربما هاجمونا لمجرد الانتقام منهما فهمــــا يستأذنان فى العودة ..

ضحك مالك بن فهم ، وقال وهو يتقدم الى العملاقين يقبل اكتافهما فى تحية الوداع :

ــ صحبتهما السلامة ، واخبر معنا أن يعطى كلا منهما جملا مثقلا بالهدايا من أجود ماعندنا من زاد .

ثم رفع يده يحيى الرجلين وقفز الى جواده ، وهو يسرع الى مقدمة الركب ..

ـ ٩ ـ

كانت حركة الركب قد تثاقلت بعد السير الحثيث الذى ارغمهم عليه مالك بن فهم ، ومع هذا فلم يكن امامهم الا المزيد من الرمال الممتدة ، والمزيد من الارض الصخرية التى تؤذى اقدام الجمال والتى بدأ بعضها يترنح فى مشيته . كما امتدت أمامهم وحولهم مرتفعات جبليـة بعضها يصل بقمته الى السماء العالية وتلمع صـخورها بشدة تحت أشعة الشمس فتعيد عكسها شـــديدة الحرارة والقيظ لتلهب عيون الرجال ، وتبتز مـــــن اجسادهم القطرات القليلة الباقية مما فيها من عرق . والتصقت شفاه الرجال وهم يتطلعون حولهم فى قلق ، وينتظرون فى صبر موعد ايقاف القافلة لدقائق يبللون فيها شفاههم وشفاه رواحلهم من القطرات القليـــلة الباقية من المياه المالحة فى قربهم .. ورفع مالك رأسه الى السماء . كانت السحب متغيرة اللون ، بعضها قاتم وبعضها أحمر اللون ، وبعضها شديد الشفافية ، ولكنها تملأ السماء ، فهل هى نذير مطر ؟ ام هى مجــــرد سحب تساعد على حجب لهيب الشمس عن الارض تحت قدميه ؟ واحس ان الوقت قد آن للتوقف . وقبـــل ان يرفع يده ايذانا بوقوف الركب ، رأى زهيرا يســـرع

نحوه منحدراً من مشارف الركب وهو يصيح . فأسرع نحوه بجواده ، وقد أحس انه يحمل اليه امرا مثيرا . وكان زهير يصيح وهو يقترب منه :

ـ الوادى ، وادى الارواح ، هو أمامنا تماما .. بعده نبع الماء .

وأشار مالك بيده فتوقف الركب ، وترجل عن جواده وهو يسأل زهيرا :

ـ أين هذا الوادى ؟

قال زهير ، وصوته المشروخ يتحشرج ، وكلماته تخرج متقطعة :

ـ امامنا تماما .. هل نخترقه ام نتركه الى العين الآمنة ؟.

صاح مالك فى ضيق :

ـ كفى حديثا عن الخطر والامان . كل طريقنا مخاطر اختر خمسة من العبيد الراكبين وامتط جوادا واذهب معهم فاستكشف الوادى ، وحدد طريق الركب فيه .

صمت سيل الكلمات المتدفق من فم زهير ، وحدق فى وجه مالك فى استنكار ، ثم قال فى همس :

ـ انا ؟ ولكن ...

صاح مالك فى غضب :

ـ اذهب ، واختر العبيد ، واسرع بهم ، فقد كاد صبر الجميع أن ينفد ..

وقفز زهير مسرعا وهو يتلفت حوله فى خوف ، وكأنما يتوقع أن تنقض عليه قوى مجهولة فى أى لحظة ترفعه عن الارض وتقذف به الى السماء . وضحك مالك ، وهو يشير الى الرجال ليتوقفوا ، وحين اقترب من هناءة قال له :

ـ لنتوقف هنا حتى يعود زهير ، وأخبر الرجال أن يحصوا مابقي من ماء ، وليستعمل كل ما عنده بحذر شديد ..

نظر اليه هناءة فى دهشة ، وقال :

ـ لماذا ؟ والماء قريب ، ما أن يعود هؤلاء حتى يشرب الجميع ..

وكان يشير بيده الى مجموعة من العبيد يركبون الخيول ويسرعون يتقدمهم زهير حتى غابوا عن الابصار .

قال مالك :

ـ لو وجدنا الماء انتهى عذابنا ، أما أن عادوا مخفقين وقد نفد ماؤنا فقد هلكنا ..

ضحك هناءة ضحكة خشنة وهو يقول :

ـ فى نفسك شيء من حديث حبيش وحبشان عن الارواح الشريرة ..

!طرق مالك الى الارض وهو يقول :

ـ الحذر واجب يابنى ، أسرع الى الرجال بما امرتك به ، وارسل الى أخاك معنا .

ومضى هناءة مسرعا فوق جواده ، بينما تحرك مالك يقود جواده الى جوار صخرة عالية ، حيث جلس يرقب الحركة النشيطة التى دبت فى الركب كله .. لقد شاهد الرجال زهيرا ومن معه يتقدمون نحو الوادي ، كما سمعوا أوامر مالك . وامتلأت قلوبهم بالامل فى ماء عذب يحصلون عليه بعد قليل ، كما انتعشت نفوسهم لهذا الماء القليل الذى سيبللون به شفاههم المتشققة الآن .. ورغم نشاط الحركة الا أن مالكا كان يحس فيها اثر الاجهاد ، والعطش ، والقلق الذى بدأ يدب فى نفوس الرجال . وتحرك فى بطء يمتطي جواده ، ويسير على

مهل يتفقد مايفعله الرجال ، وينظر فى قربهم التى كادت تخلو ، ويرقب في اشفاق ارادتهم القوية فى تنـــاول الماء فى حذر ، واعطاء الرواحل جرعات محســـــوبة تلتقطها فى شفاهها فى شراهة ، ثم تهز رءوســـها في احتجاج صامت حين يبعد الرجال الماء عنـــها .. وفجأة ارتفعت صيحة من امام ، وتلاحقت صيحات الرجــال . وحين التفت مالك وجد زهيرا فوق جواده يجــرى به نحوهم وكان شياطين الجن تتبعه ، وخلفه رجلان يترنحان فوق جواديهما والجوادان يتبعان جواد زهير فى جريه ، بينما بدا من طريقة جلوس الرجلين فوق جواديهما كأنهما لا يريان شيئا . وكان احدهما بالفعل يضع يديه فوق عينيه وهو يصرخ ، ويترنح ، والجواد يجرى به بكل سرعة ..

غمز مالك بطن جواده بعقبيه واندفع يجرى نحو زهير وهو بصيح في الرجال ان يلزم كل مكانه . وحين وصــل الى حيث اوقف زهير جواده وجواد الرجلين الاخرين . وجدهما يتهاويان الى الارض ، وكل منهما يغطى عينيه وصراخهما يصم الاذان .. قفز مالك من فوق جواده وامسك زهيرا من كتفيه يرغمه على الهدوء وسأله :

ــ ما الامر ؟

صاح زهير :

ــ الارواح الشريرة ، الارواح الشريرة ..

وعاد مالك يرجه فى عنف وهو يصرخ فيه :

ــ اهدا واحك ماحدث .

قال زهير ، وقد اعاده صوت مالك العـــالى الى هدوئه :

ــ كنت وراءهم تماما .. هم حين رأوا الوادى انحدروا اليه مسرعين فسبقونى الى دخوله . وقبــــل ان يخطو

جوادى خطوة داخل الوادى سمعت صراخهم . ثلاثة سقطوا على الارض بلا حراك ، وجرت خيولهم مجفلة الى عمق الوادى ، وسرعان ماسقطت هى الاخرى تضرب الارض بأقدامها فى نزع الموت ، اما هذان فقد ترنحا فوق جواديهما وهما يصرخان ، ثم قفز جواداهما نحـــوى مجفلين . وحين رأيتهما اسرعت اجرى أمامهما خـوف هذا الموت الذى يتخطف الناس .

كان فراهيد قد انحنى فوق الرجلين وهو يصيح فى الرجال أن يأتوه بماء ، ورفع رأسه الى ابيه قائلا :

ــ لقد عميا ، لا يريان ..

اضطرب الرجال وارتفعت أصواتهم القلقة الخائفة ، وكل يتلفت حوله فى رعب ، وتقدم معن بالماء فى أناء فى يده ، فرش فراهيد منه على وجهى الرجلين ، وبلل شفاههما وقطر فيها قطرات من الماء . وســكنت حركة الرجلين ، ثم قال الاول فى صوت مرتجف :

ــ الحيات .. صغيرة لا تزيد على شبر فى طولهــا ، لا تراها أبدا ، ولكنها تجمع رأسها مع ذيلها وتقفز فتطول الرجل على جواده ، وتنفخ لتعمى ، أو تنهش فتقتل ..

وسمت الصوت الخافت المتردد ، وقال فراهيد فى حزن :

ــ لقد مات .

وجاء بعده صوت معن فى أسى يشوبه الغضب :

ــ وهذا ايضا قد مات .

وصاح زهير ، وكل صوته رعب :

ــ هى الارواح تحيط بالرجال وتتخطف أرواحهــم وتعمى أبصارهم .. كل الوادى ملىء بالارواح تتقــافز على السائر من كل مكان لاتخطىء أبدا .

صاح فيه مالك في حزم :
- اصمت يازهير .
ثم التفت الي أولاده قائلا :
- ليظل الرجال هنا ، واتبعوني لنرى ماذا حدث للآخرين ..
صاح زهير :
- ولكن الارواح .. الارواح .
ولم يعبأ به مالك وانما سار بفرسه مسرعا ووراءه اولاده نحو المنعطف المؤدى الى الوادى ، بينما ساد صمت عميق كل الركب وخيم وجوم على الصحراء . وسكت كل حى حتى الابل والخيول . وحين وصل مالك وأولاده الى حافة الوادى طالعتهم القصة المخيفة الحزينة ؟ على امتداد البصر تناثرت جثث الرجال الثلاثة وجثث خيولهم، وفوقها تتقافز حيات رفيعة صغيرة ، كأنما لا تكتفى بما أحدثت من بلاء فهى تجمع راسها مع ذيلها وتقفز لتلدغ الجثث وتنهشها كأنما لتميتها من جديد ..
واطرق مالك برأسه وهو يقول :
- لهذا حذرنا حبيش وحبشان من سلوك الوادى ، وادى الحيات ، حيث لا يعود احد أبدا .. انه وادي الموت الاكيد ..
قال فراهيد :
- وهى أرواح شريرة خبيثة ، ولكنها تجسدت فى هذه الحيات ..
قال معن :
- ارواح أو لا ارواح ، هذه المئات المئات من الحيات لن تدع أحدا يعبر الوادى أبدا ..
استدار مالك بجواده وهو يقول :

ـ لا فائدة من وقوفنا هنا .. هيا بنا ..

وحين وصـــل مالك الى الركب الذي تبعثر رجاله ورواحله في كل مكان ، نظر اليهم في حزن ، ثم قال :

ـ اجمعوا كل شيء ، ولنسر من هنا في الحال ، فلابد أن نقطع الطريق الطويل نحو عين الماء الثانية ..

وبقلوب مثقلة مضى الرجال يجمعون الرواحل ويصيدون للركب نظامه ، بينما تقدم زهير من الجسدين ومعه بعض العبيد يحملونهما الى حيث يودعونهما بطن الرمال الى جوار وادى الحيات المخيف . وكان زهير يهز رأسه وهو يقوم بمهمته الكريهة ويهمس :

ـ امامنا يومان ، أو ثلاثة وسط هذا الجحيم ... ولا ماء .



فــارس الأزد
"الأرواح الشــريـرة"

كان لابد من اتخاذ القرار بعد أن أجله مالك بن فهم أكثر من مرة ، نعم لابد من ذبح بعض الجمال لاستخراج مافى أجوافها من ماء لاستنقاذ حياة الرجال ... كــان يعرف أن كل رجل فى الركب يعتبر ناقته أهم من أى شىء فى الوجود ، وان احدا منهم لن يضحى بحياة جمله حتى لو كان المقابل هو ضياع حياته هو نفسه .. ومن هنا كان لابد أن تكون الجمال التى ستذبح من جمــاله الخاصة هو .. ورغم ان هذا الامر كان يضايقه بل ويؤلمه، الا ان تأخيره أكثر من هذا يعنى سقوط بعض الرجــال صرعى العطش ، فقد مرت ثلاثة أيام منذ غادر الركب وادى الحيات المهلكة ونفد كل مامعهم من ماء منذ يومين، وهم لم يتوقفوا عن السير لحظة ، لا نهارا ولا ليلا .. وما كان نسيم الليل الرقيق الا ليزيدهم عطشا واحساسا بالجفاف الذى يسيطر على أجسادهم .. كانت الجمال تستطيع أن تحتمل هذا العطش لايام أخرى قادمة ، اما الرجال فقد وصلوا الى نهاية قدرتهم على الاحتمـــال والصبر . وبدأ الاعياء الشديد يظهر على حركتهم ، كما بدأت تظهر فى عيونهم نظرات غاضبة مشاكسة لاتظهر الا فى وجوه الرجال وقد وصلوا الى نهاية مرحلة الاحتمال والى أبعد مدى يمكن ان يوصلهم اليه الصبر ..

أوقف مالك جواده ورفع يده ، فتوقف الركب في كسل وفتور ، وأشار بيده الى معن ، فأسرع اليه فوق جواده فى استرخاء وضجر ، وقال مالك حين وقف معن أمامه :

ـ لابد مما أخرناه حتى الآن ..

صاح معن وفي صوته رنة غضب وتحد ، ما كانت تكون هناك لولا مايحسه من ظمأ وضيق :

ـ أترك أبلى فى حالها ..

قال مالك فى هدوء وصبر :

ـ لن تضار ابل أحد .. اذهب واختر عشرة من البعير ممن تتوسم فى جوفهن الماء الوفير ، وخذ معك عددا من العبيد ، وابعدوهن تماما عن القطيع ، وانحروا الابل واستخرجوا الماء ووزعوه بالعدل على الرجال ..

ثم ابتسم فى مرارة وهو يقول :

ـ ولا تنسى أن تجعل لكل واحد نصيبا من اللحم .. اعنى الشواء فلا ماء عندنا لطهوه ..

انفرجت أسارير معن المقطبة ، وقال وكأنما يعتذر عن خشونته فى خطاب أبيه :

ـ هذا شيء مؤلم .. لو استمر الحال هكذا فستفنى ابلك ، ثم ابلنا ، ثم نفنى نحن بعدها .

قال مالك ، وملامح وجهه لا تنم عن شيء مما يدور فى خاطره :

ـ واذبحوا من الاغنام من أوشك أن ينفق .. ولاتنسوا نصيب الباقى من بعض الماء ..

ضحك معن فى سخرية مرة وهو يقول :

ـ الاغنام ، منذ جفت ضروعها وهى فريسة للجوعى من الرجال ، ولا أحسب انه قد بقى منها الكثير ..

أطرق مالك للحظات متأملا كلمات معن ، ثم رفع رأسه وقال :

ــ اختر في الصباح الباكر مجموعة من العبيد ، وتقدم الركب بأسرع ماتستطيع أن تحملك الخيل المجهدة ، واستكشف لنا هذا الماء الذى تحدث عنه زهير ..

قال معن وشبح ابتسامة يبدو فوق شفتيه :

ــ زهير ، انه يترنح من شدة العطش والاعياء ... ولكنه مازال من اكثرنا احتمالا للعطش والطريق ، فى الغد سأصحبه معى وان لم نصل الى هذا الماء الذى تحدث عنه سأعصر جسده عصرا لاستخراج كل ما بقى فيه من ماء وأوزعه على الرجال ..

ثم ضحك فى خفة ، ولكن مالكا لم يضحك .. فلو لم يفعل هذا لفعلته الشمس والصحراء القاتلة .

ــ ١١ ــ

كان صوت الغناء خافتا ورقيقا ، ومليئــا بالشجن والحزن . وكانت نسمات الليل الرطبة تعطر الجو بمــا تحمله من روائح الشواء مختلطة بدخان نيران الحطب المتناثرة هنا وهناك ، وقد بدأت جذواتهـــا تخبـــو تدريجيا ، وان بدا المخيم كله واضحا تحت أشعة القمر الرقيقة التي تنير فى رقة تزيد الشجى والاسى الذى يملأ قلوب الرجال . كان مالك اقل الرجال نصيبا من الماء المر المذاق الحاد الرائحة الذى حمله معن ومن معه من عبيد يوزعونه على كل من فى المخيم ، وكان نصيبه من الشواء أقل من نصيبه من الماء .. فما كان يحس فى نفسه حاجة حقيقية الى الطعام ، انما الماء فحسبه مايبلل شفتيه ، ويبعد عنه احساسه الحاد بالظمأ .. فما كان فى نفســه هو هذا الشجن الذى يجد صداه فى الاغنية المنبعثة من آخر المخيم ، وهو هذه الرقة التي يصبها ضوء القمر

صبا في وجدانه ، فتهدأ أفكاره ، وتسير على مهل ، ويسترخى في جلسته ، وظهره الى صـــخرة يحس بصلابتها تتجاوب مع عضلات ظهره المشدودة القوية .. ماكان في نفسه هو هذا الحنين الى مافارق من مرابع صباه وشبابه ومطالع رجولته .. يخرج مشـتاقا الى المغامرة وبحثا عن الغزو والظفر ، ويعود محملا بما كسبه سيفه ، تتبعه الاموال والعبيد والسبايا والاسارى . اما الاموال فيوزعها على كل محتاج فى قومه ، ليعلو قدره وينبه ذكره بينهم ويتقدم تدريجياالى مقام الزعامة فيهم . وأما العبيد فينضمون الى رجاله وخدمه وحاملى عدته وسلاحه ، ورعاة غنمه ونوقه وخيله . وأماالسبايا فمن وقعت فى قلبه انضمت الى نسائه عزيزة مكرمـة ، ومن افتداها أهلها عادت اليهم . والاسارى ليس لهـم الا الفداء أو العبودية حتى يفتدوا أنفسهم بالعمل أو بما يجمعون من عطايا واحسان هو أول من يساهم فيها .. سالمة لم تكن من السبايا فقد كانت ابنة عمه ، يعرف لها قدرها وتعرف له قدره ، كانت هى سيدة بيته ، لها فيه الامر والنهى على كل النساء . هى التى توزع عليهن المال والنوال ، وهى التى ترتب أمور طعامهن ، وهى التى تحـــدد مايخصـــهن من الجوارى ، وهى التى ترتب لهن منازلهن ، وتراعى أموالهـــن ، وهى أيضا التى تفض ماينشب بينهن من نزاع وخصومة ، وما أكثر الخصومة بين النساء .. ولكنها مع هــذا لم تنجب له ولدا .. وكان يحس الاسى فى عينيها دائمـا وهى تخب فى سيرها بسرعة فى أنحاء الحلة والجهـامة تعلو وجهها ، والكل يقف لمقدمها ، ويسكت عن حديثـه عند مرورها . لم تكن ابتسامتها الا له وحـــده ، والا

لاولاده الذين كانت تعطف عليهم جميعا ، بل لعلها كانت تغدق عليهم من حبها مايعوضها هذا العقم الذى ابتليت به .. ولكن ماذا يفعل ..؟ قالوا لابد من الفداء عند مذبح « الزهرة » وصحبها معه ، وساروا وحدهما الى المعبد القديم فى بطن الجبل . وأمام المذبح فى واجهته مثلث من حديد فى جوف مربع ، ذبح ما قالته الكاهنة من كباش .. قدم الزبد والتمر والنبيذ ، وضمخت الكاهنة رأس سالمة وبطنها وثدييها وقدميها بدماء الذبائح . واطلقت البخور الحاد الرائحة ، وتمتمت ورقت وصرخت ، ورقصت حول المذبح .. ولم تحمل سالمة ، وانتهى كل ذلك الى لاشىء ، ولم ترض الزهرة ربة الخصب والعشق والنبيذ .. ولم يطلع على رحلتهما هذه أحد .. حين رجعا منها ظلت سالمة ثلاثة أيام لا تغتسل من دم الذبائح ، وكل ليلة تمر فوق مجمره مليئة بالبخور المحترق الذى أهدتها اياه الكاهنة ، وعند ظهور الزهرة فى السماء كان دائما مضجعهما .. ولكن كل هذا انتهى الى لا شىء .. وذهب بها الى كاهن الوادى الاحمر حيث تسيخ الاقدام فى الرمال الحمراء ، وتضج الدنيا باللون القانى حين تصعد الشمس الى كبد السماء فتغمر كل شىء بوهجها ، وتعكس الرمال حمرتها على كل شىء .. وأمر الرجل أن يؤتى اليه بثور فى جبينه علامة بيضاء ، وخمس جديان سود الوبر ، ليطرد الارواح الشريرة .. وأعطاها تميمة تعلقها تحت ثيابها ، وشرابا تشرب منه عند لحظات الفجر الاولى ، وحفنات من تراب ترميها فى عين الماء عند كل غروب .. وأحضر الراقصين والعازفين ، وظل يرقص وحوله العازفون والراقصون حتى غابت الشمس ، ثم ذبح الثور والجديان ،

ووزع لحومها على الراقصين والراقصات ، وعلق جلودها فوق عيدان منتشرة حول خيمته .. واختفت اللحوم والجلود والانعام الاخرى التى طلبها وساقها اليه مالك كأجر له وللراقصين .. وانتهى كل شيء .. ولم يحدث أى شيء .. وشربت كل ماوصفته النساء العجائز ، واغتسلت بكل انواع الغسول التى أوصت به النساء المجربات ، ولم يعد هناك أى أمل . والنظرة الحزينة تزداد عمقا ، والنفس الجريحة تطل من العينين الواسعتين ، وهو يحس بألمها فيتألم معها فى صمت ، ويزداد اكراما لها لمكانها منه ومن ماله ومن عبيده ونسائه ورجاله . وكانت كل واحدة من امائه ما أن تلد حتى تعفى من الخدمة ويخصص لها الجوارى والعبيد والمال والخيمة الخاصة والمؤونة المعلومة ، وتخرج من عداد الاماء الى عداد الحرات .. وحين جاء فراهيد ، ولدته وضاحة من قبيلة من قبائل الشمال ، فرحت سالمة لمقدمه أكثر من فرحه أو فرح أمه التى حررها بمجيئه .. لم تكن تغادر الطفل الا حين ينام الى صدر أمه ، أما طوال النهار فهى مشغولة به وبنظافته ورضاعته وضحكه وبكائه ولعبه . وفى أول الامر كانت وضاحة تتضايق من هذا كثيرا ، ولكنها بعد حين أحست أن سعادة سالمة حقيقية وأن حبها لطفلها صادق ، فلم تملك الا أن أحبتها هى الاخرى الحب كله . وعندما جاء هناءه ولدته أمنه التى أسرها من قبائل الشاطىء ، أصبحت فرحة سالمة فرحتين ، وسعادتها سعادتين .. ثم جاء معن بن عفراء أمة مولدة أسرها وسط الصحراء من قافلة كانت تضمها أسيرة مع أخريات .. وكان معن هو الطفل الوحيد الذى ينفر من سالمة ، ولا يستجيب لعطفها ومداعباتها ، كان ببريع

الغضب ،حاد الصوت ، كثير البكاء . وكان يعرف أن امه لم تكن سعيدة بوجودها فى الحلة بعيدا عن ناسها وأهلها الذين تقطعت كل وشائج الصلة بينها وبينهم .. كانت عفراء دائمة الجهامة والنفور ، لا تختلط بغيرها من نساء الحلة ، وتجلس حاملة طفلها فى حجرها ، ساهمة الى بعيد ، كأنما تناجي أطيافا بعيدة لماض مجهول لا أمل فيه .. هو يحس الآن باحساسها هذا ، النظر الى ماض بعيد لا أمل فى العودة له ، فقراره بالرحلة نهائى مهما حن قلبه الى الارض التى شاهدت سعادته وغزواته وحبه وأمله .. ولكنه لا يستطيع أن يبعد هذا الحزن الهادىء الذى يمر به فيغلفه فى ضباب من وجدان مبهم لا يستطيع تحديده ومعرفته .. بعد هؤلاء الاولاد الذين كبروا الآن واصبحوا سواعده القوية فى رحلته ، وفى أموره كلها ، جاء أولاد كثيرون وبنات كثيرات .. مات منهم عدد لا يذكره ، كان الطفل ما أن يشب عن الطوق حتى تتخطفه امراض غريبة .. يسعل ويسعل ، ثم يبصق دما ، شهرا أو شهرين ولا ينفع فيه تطبيب أو دواء ، ثم يذهب ، ليصاب غيره ويموت بدوره — ويمتلىء جلد الطفل بالادران ويحمر جسده كله، وتتوهج جبهته كأن تحتها نارا محرقة ، وتزوغ العينان ، ويرتعش الجسد الصغير ، ويفرز الجسد افرازاته الخضراء المقيتة ، وأيام قليلة ويمضى كغيره .. وكان حزنه على مرض الاطفال يفوقه دائما حزن سالمه عليهم والمها لهم ومعهم ، ثم فجيعتها فيهم حين يموتون . واكثرت من التعاويذ ومن الاحجبة ، ومن تقديم القرابين لهياكل الآلهة فى كل مكان .. ولكن الموت كان دائما يتربص هؤلاء الصغار من البنين والبنات معا .. وهو يحس

تجاه بناته بنوع من الرحمة يملأ قلبه ويطغى على مشاعره كلما خطر وجه واحدة منهن بباله .. فما اشد حياة البادية على الفتاة وما أقساها عليها .. ولكنه يعرف أن قوته وعزوته ، تجعل امنهن وسلامتهن شيئا مضمونا، ولو أن هذه الصحراء اللعينة لا تقدم الضمان لاحد ولا لشيء .. واحدة فقط هدأت نفسه لموتها ، وان كان في القلب غصة وفي الصدر زفرات .. تلك هي شفق أخت هناءة ، ولدت عمياء . وكانت الحقيقة مفجعة وواضحة ولا تبديل فيها . كان كلما رآها تقطعت نفسه حسرات ، وكانت أمها آمنة منذ ولدتها لاتكف عن البكاء شفقة عليها وحسرة لها ، فلما انتابها الهزال المخيف والاسهال الدائم عزلت نفسها الى جوارها ليل نهار ، ليس معها في محنتها في ابنتها الا سالمة القوية التي حاولت قدر الجهد مقاومة الداء الوبيل ، ولكنهم كانوا يعرفون أن المقاومة لا تجدي ، وسرعان ماذوت الصغيرة وماتت . ويحس مالك دائما في نفسه نوعا من الغضب لانه وجد في موتها راحة وخلاصا لها .. وليلتها بكت آمنه «شفق» طفلتها الذاهبة ، وبكى هو ، نعم بكى وانشج كالطفل على صدر سالمه التي تهدهده ، وتربت على جبهته وشعره بأصابعها اللدنة الطويلة حتي نام ..

كان صوت المغني قد خفت ، واخذت سحابة تزحف علي وجه القمر فتحجب نوره ـ وسادت لدعة باردة هواء الليل ، فرمى الغصن الذي كان ينكت به في الارض ، وقام متثاقلا ، الى هناك ، الى حيث مرقد سالمة في زاوية من المخيم ـ وهو يحس وقع اناملها الطويلة اللدنة فوق جبهته ، بل فوق قلبه ـ وأحس راحة وهدوء يسيران إلي نفسه ، فرفع راسه وابتسم في هدوء ـ وأسرع في

مشيته ..

— ١٢ —

ارتفع صوت صياح من أمام الركب ، أعقبته أصوات خيول تجرى نحوهم مسرعة . فلكز مالك بن فهم فرسه وأسرع يلقى القادمين نحو الركب ووراءه هناءه وفراهيد.
وصاح هناءه فى فرح :

— وجدوا الماء ..

وأمامهم كان معن ومعه زهير ووراءه العبيد ، وعلى وجوههم علامات البشر . وما أن أوقف معن فرسه أمام فرس أبيه حتى قال فى انفعال :

— شاهدنا قطيعا من الابقار الوحشية ، وحين اقتربنا منها جفلت .

قال مالك بن فهم :

— هذا يعنى وجود ماء ، فالقطعان لا ترعى بعيدا عن الماء ..

قال زهير وهو يلوح بيده :

— ليس هذا هو المهم . فالماء قد يكون الى جوار القطعان وقد يكون بعيدا عن مرعاها .. وانما المهم هو أننا وجدنا غزلانا برية أجفلت حين أحست بنا ، ولكن آثار حوافرها واضحة على الرمال وفوق الصخور ، ونستطيع بالتأكيد بتتبعها أن نصل الى مورد الماء الذى كانت تشرب منه ..

قال هناءه وقد أصابته عدوى انفعال الجميع :

— فماذا ننتظر هيا بنا اذن ..

قال مالك ، وهو يرفع يده طالبا منه الانتظار :

— نحن فى أرض غريبة ، والاندفاع قد يوردنا موارد التهلكة . ليذهب عبدان ممن يعرفون تتبع الاثر وراء آثار

القبيان . واتبعهم يامعن على مبعدة ومعك زهير وباقى العبيد . وسنسير نحن وراءكم على مهل . فان وجدا الماء وردناه بعد أن نعرف الارض ، ونترك الحراس حول أموالنا ونسائنا ..

قال زهير وهو ينظر الى مالك فى اعجاب :

ـ نعم الرأى يامالك . فالحذر أكيس للمرء فى ارض يجهلها .

قال مالك بن فهم :

ـ مازلت أذكر أن حبيشا وحبشان قد قالا أن الارض تسكنها قبائل لا يؤتمن سلوكها .

صاح معن بمن معه من العبيد ، واندفع بهم الى الامام . وسرعان ماانفرد عبدان يسبقان الجميع عدوا . وحول زهير رأس فرسه نحو معن ورجاله ، وقال وهو يتركهم فوق فرسه المندفع :

ـ سنلزم الحذر ، وسنجد الماء ..

وبينما كان وقع سنابك الجياد يبتعد عن مالك وأولاده قال فراهيد :

ـ ساذهب ومعى بعض الرجال لنصطاد من هـذه الابقار الوحشية .

قال مالك :

ـ لا وقت للصيد الآن ، فـلا اريد أن يشى شيء بوجودنا ، وقد عرفنا مظانها ، وحين نصل الى الماء ، سنخرج للصيد ، أما الآن ، فأجمع الرجال ورتبهم استعدادا لاى خطر وافصل النساء ، وضع عليهن حرسا قويا ، وليضم العبيد الابل والانعام بعضها الى بعض فى مجموعات صغيرة وليحرسوها فى انتبـاه ، فقلبى يحدثني بأننا مقبلون علي خطر ...

احنى فراهيد رأسه فى اذعان ، ثم أطلق فرسه عائدا الى الركب ينفذ اوامر أبيه بينما قال هناءه :

ـ لم اشهدك على كل هذا الحذر من قبل يا بى ..

قال مالك :

ـ انه الحلم القديم عاودنى بالامس .. والفـــارس المتمرس يابنى يحس توفز جسده توقعا للمعركة قبـل حدوثها فيتأهب لها ..

ـ ١٢ ـ

كان أول مابشرهم باقترابهم من الماء صهيل الخيل ، ونشاطها المفاجىء ، ورغبتها من أن تسرع بالجرى الى أمام . وكان الرجال يجدون صعوبة كبيرة فى كبـــح جماحها . ثم جاء دور الابل التى اخذت تزيد وهى تضرب الارض باقدامها تريد أن تنطلق رغم محـــاولة الرجال التحكم فى حركتها .. وصاح مالك بن فهم :

ـ حذار أن تسـمحوا للخيل أو الابل بأن تفلت أزمتها ان الماء أمامنا لاشك .. ولكن الزموا الحذر ..

واخذ الرجال يهدئون رواحلهم ، وأخذ العبيـــد يحكمون أزمتهم على مقاود الابل .

وكان أول نذير لهم بالخطر الذى يتهددهم ، صـــياح فراهيد الذى كان يتقدم الركب مع مجموعة من الرجال . فقد توقف هو ومن معه فجأة ، وترجلوا عن جيادهم ، وبدا انهم يتأملون شيئا فوق الارض عند الحافة المختفية عن الانظار من رابية تعترض الطريق . وأسرع مالك بن فهم يحث جواده على الركض ، ووراءه هناءه وكوكبة من الرجال الى حيث جثا فراهيد ومن معه ، متحلقين حول جثتين .. ورفع فراهيد رأسه ونظر الى أبيه وقال فى صوت متوتر :

قتلاهما العبدان اللذان كانا يتعقبان الاثر ،لقد ماتا .. قتلا شر قتلة ــ انظر ..
كان الجسدان العاريان مليئين بالسهام ، حتى غطت السهام كل جزء فيهما .. تقلصات العضلات التى توقفت وقفة الموت تنبىء بالآلام الرهيبة التي عاناها قبل أن يرحمهما الموت ، وعاد فراهيد يقول :
ــ سهم واحد كان يكفى ، ولكنهم لم يوفروا اسهامهم .. انه انذار رهيب لنا .
وقال هناءه ..
ــ من هم .. ولماذا البدء بالشر ونحن لم نفعل لهم شيئا ..؟
وأبعد مالك بن فهم عينيه عن الجسدين المتقلصين وهو يقول :
ــ وأين معن وزهير ومن معهما من باقى العبيد ..؟
وساد الوجوم الجميع ، وأخذ الرجال يتبادلون النظرات المتسائلة الحائرة .. وقال مالك :
ــ ادفنوا العبدين بسرعة . وليعد كل الى مكانه . إما انت يافراهيد فاجمع خمسمائة رجل وأسرع بهم الى يمين هذه الربوة فى دائرة واسعة ، فاذا مارأيت أعداءنا فحاذر أن يروك ، وحاول أن تكون الى يمينهم وخلفهم تماما . وأنت ياهناءه اجمع خمسمائة رجل وتحرك بهم الى اليسار ، وافعل نفس ما أمرت به أخاك وكن الى يسارهم وخلفهم تماما . وعندما يصل كل منكم الى مكان يطمئن الى حسن موقعه فيه ، يرسل أحد العبيد ليخبرنى بمكانه ..
ثم التفت الى الرجال من حوله وقال :
ــ لتسرع مجموعة الى مؤخرة الركب خلف النساء

والاموال ، وليسر الباقون ورائى فى نصف دائرة ، ولا يفعل أحد شيئا حتى آمره ..

واسرع هناءه وفراهيد يختاران رجالهمـــا ويغادران الركب ، بينما تحرك حرس المؤخرة الى مكانه ، وحمل العبيد الجسدين لدفنهما ، بينما أخذ الفرســـان ينتشرون فى نصف دائرة واسعة خلف مالك بن فهم . ثم امرهم مالك أن يتحركوا فى بطء وحذر آلى الامــام وأشعة الشمس تلمع فـــوق أسنه رماحهم المشرعة ، وخيولهم المدربة قد كفت عن نزقها وكأنما انتقلت اليها عدوى الحذر من الرجال ، فمضت تنقاد لهم فى طواعية وتتحرك فى يسر ونظام ..

— ١٤ —

عرف مالك بن فهم العبد حين رآه ، كان نجاح عبد فراهيد ، فقال له :

ــ ماذا لديك يانجاح .؟

قال نجاح وهو يلتقط انفاسه بصعوبة بعد أن قطــع المسافة من مكان فراهيد الى الركب ركضا :

ــ انهم ألوف ياسيدى ، ولكنهم لم يرونا ، ونحن الآن خلفهم ، وهم متحلقون حول مجرى ماء واسع عريض يلمع ماؤه تحت أشعة الشمس .

نظر مالك الى وجه العبد المغبر ، وشفتيه المتشققتين من الظمأ ، وضحك قائلا :

ــ سرعان ماسيصبح الماء لنا يانجاح . اسرع الى سيدك وقل له حين يرى سهما واحدا مشتعلا يشق كبد السماء نحوكم فعليه أن يمطرهم بالسهام من قسى كل الرجال ثم يهجم عليهم مرة واحدة . ولتحدثوا الكثير من الجلبة والصياح ..

أطرق العبد نجاح برأسه ، ثم أسرع يجرى كفحل الابل ، وهو يخب خبا . وتتبعه مالك بعينيه فى اعجاب . فهذا العبد حين يسرع يلحق بالابل وربما يسبقها أيضا ، كأنه هبة ريح أو نسمة هواء . والتفت مالك الى الرجال فانتقى أحدهم وأشار اليه ليتقدم نحوه ، ثم قال له حين اقترب منه :

ـ اشعل خرقة الى سهمك واستعد اطلاقه ناحية فراهيد ورجاله حين أشير اليك .

وما كاد ينتهى من حديثه معه حتى جاء العبد الثانى لاهثا ، وكان مالك يعرفه ايضا ، فهو من اشجع العبيد وأسرعهم وأخلصهم لابنه هناءه . كان وقد ولد معه فى يوم واحد ، ومنذ ولادته وهو لايفارق هناءه فى صيده او لهوه أو مرانه الدائم على ركوب الخيل والطعن بالرمح والرمي بالنبل والقتال بالسيف ــ وحين أقترب منه العبد وضاح قال :

ـ لقد نفذنا أمرك ياسيدى مالك ، وسيدى هناءه في انتظار اوامرك .

ساله مالك :

ـ هل رأيتم قتلة العبدين ..؟

قال وضاح :

ـ هم عند غدير كبير وفى عدد كبير جدا . وهناك شيء كنت لا أود أن أخبرك به لانه سيحزنك ولكن سيدى هناءه أمرنى أن أحكي لك عنه .

بدأ الاهتمام على وجه مالك بن فهم ، وهو يسال العبد وضاح :

ـ فما هذا الامر ياوضاح .. ؟

سكت وضاح لحظات ، ثم طرق برأسه ليبعد عينيه

من عيني مالك .. وقال :
ــ سيدى معن والسيد زهير والعبيد الثلاثة الباقون.
ــ مالهم ؟
ــ أسرى هؤلاء القوم . فقد أمرنى سيدى هنــاءة فتسللت على حذر الى قربهم ، ورأيت سيدى معن ومن معه مقيدين الى أوتاد متينة بالارض أمام فلج المــاء الذى يتحلقون حوله ..
واطرق مالك فى عبوس وضيق . أن يقتل الفارس فهذا امر يحتمله الصراع ، اما الاسر فهو مذلة لا يقبلها الفارس فهى عار عليه .. وكانما قرأ وضاح ما يجول فى رأســه اذ قال بسرعة :
ــ لا اظن معنا ومن معه أتيحت لهم فرصة القتال ، أحسبهم أخذوا من كمين غادر كما أحسب من قتــلا بالسهام لم يعرفا ماذا أصابهما ولا من هاجمهما ، فقــد أخذا من كمين أيضا ، فقد لاحظت أن احدا منهما ماكان يمسك سلاحا فى يده استعدادا لقتال حين فاجأهمــا الموت .
لمعت عينا مالك فى اعجاب وقال لوضاح :
ــ لقد لاحظت هذا أنا أيضا وكتمت الامر عن الرجال، ولهذا أمرت بالاستعداد واليقظة .والآن قل لهناءه يلزم الحذر ، وحين يشاهد سهمين مشتعلين يطلقان ناحيته فليطلق رجاله سهامهم مرتين على جموع الاعداء ، ثم اهجموا عليهم بالرماح والسيوف ، والان وقد تسللت اليهم فهل تعرف أين مضاربهم ..؟
قال وضاح وهو يمسك بعود يخط به فى الرمــال موضحا قوله :
ــ انهم لا يسكنون الخيام ، وانما هناك عند هــذا التل

وفي حضن الجبل عدة كهوف واسعة تتناثر امتعتهم وخيولهم حولها ، أما أغنامهم وأبقارهم وجمالهم فهى ترعى الى الغرب من هذه الكهوف ، وليس هناك من يحرسها الا مجموعة صغيرة منهم .

ـ أسرع وأخبر هناءه بأوامرى ..

وحين انطلق وضاح يحمل أوامر مالك ، أخذ مالك ينادي على رجاله ويعهد الى كل منهم ومعه مجموعة من العبيد بمهمة من المهام قائلا :

ـ سالم عليك عند بدء القتال بالهجوم علي الكهوف ، لقد وضح وضاح مكانها بهذا الرسم فوق الارض ، ولتأسروا الجميع واقتلوا من يقاتلكم .. وأنت ياحمود حاصر أموالهم ونوقهم واقتل الحرس وابعد بها بعيدا واترك خلفك مجموعة من العبيد يعوقون بالسهام كل من يتعقبكم ، ولكن لا تهجم على المراعى الا بعد أن تبدأ المعركة وانظر الى رسوم وضاح على الرمال لتعرف المكان فتقصده مباشرة ودون تعويق .

وماكاد مالك بن فهم ينتهى من حديثه حتى علت أمامه غبرة ضخمة انفرجت عن رجال عديدين يحملون القسى والسهام والحراب والسيوف ، ويقفون فى صفوف متراصة تملأ الصحراء أمامهم تماما .. وكأنما انبتت الصحراء رجالا فقد غطتها جموعهم التى كانت تتزايد كل دقيقة تمر .. التفت مالك الى سالم وحمود قائلا :

ـ أسرعا انتما لتنفذا ماامرتما به .

ثم أشار الى الرجال قائلا :

ـ أريد مائة من حملة القسي من امهر الرماة هنا عند حافة هذا الجبل ولينتظروا أوامرى .

ثم أشار بيده فتقدم الرجال خلفه ، ومضى هو يسير

بجواده ببطء متقدما نحو الجموع أمــــامه ، يتفحص أجسادهم العارية تماما الا من أزار عند الوسط ، ملابس رجال الجبل ، وشعورهم طويلة يضع كل واحد عصابة حول رأسه ينسدل من تحتها شعره الكث المغبر . كانت بشرتهم سمراء ، لوحتها الشمس وان لم يكونوا فى سواد جلود قوم حبيش وحبشان .. وكان يتقدم الجمع رجل ضخم الجثة لا يحمل سلاحا ، وانما يحمل فى يده عصا خشبية ضخمة تصلح فى مثل يده هراوة مميتة عنــد القتال . وحول أعناقهم قلادات تتدلى منها قطع معدنية أو أحجار لامعة تخطف الابصار . وفجأة انفــرجت الجموع المحتشدة وراء الرجل الذى يتقدمهم ، وظهــر مجموعة من الرجال يسوقون الاسرى أمامهم فى عنف ، وكان معن وزهير والعبيد الثلاثة قد ربطت أيديهم خلف ظهورهم ، ووضعت حبال حول أعنــاقهم .. وتنحى الرجل الغليظ الجثة ليرمى الرجال معن ومن معــه الى الارض ، ثم تقدم مجموعة يحملون الحراب ووضع كل واحد منهم حربته فوق صدر واحد من الاسرى .. وكان المعنى واضحا .. وأخذ مالك يتأمل ابنه والرجال ، لم يكن فيهم جرح واحد ، اذن فقد أخذوا بغدر كما قال وضاح .. وانتبه على صوت الرجل السمين وهو يصيح فى صوت جهورى عال ، وكان يقول :

ـــ أيها المغامر بالمجيء الى الارض المجهولة ـــ لايمر أحد من هنا دون اذن منا .. وهؤلاء رجالك أسرناهم لتعرف أننا قادرون على منعك وكل من معك .. فلا عبور على ارضنا الا بشروطنا ..

التفت مالك بسرعة الى الفرسان حوله وقال فى صوت منخفض :

ـــ أخبروا الرجال حاملى القسى أن يطلقوا ســهامهم

على حاملى الحراب ، وليطلقوها ليقتلوا فحياة معن وزهير ومن معهما تتوقف على دقة التصويب ، ومن السهم الاول . ولتكن العلامة أن أطلق انا أول سهم ، ولحظة يطلقون سهامهم ليطلق حامل السهم المشتعل سهمه ناحية فراهيد ، وليطلق آخران بسهمان مشتعلان ناحية هناءه ، واتبعونى حين أهجم ..

وحين انهى كلامه كان الرجل الغليظ الجثة يتقدم وحده الى أن قطع منتصف المسافة بينه وبين مالك بن فهم ، ووقف مستندا الى هراوته ، وعاد يقول بهذا الصوت الجهورى العالى :

ـ لقد كنا نراقب ركبكم من فترة طويلة ، ونعرف ماتعانون من عطش شديد ، والماء عندنا ، ولكن كل شيء بثمن ، وسنسمح لكم بالشرب من ماء الفلج العذب مقابل مامعكم من انعام وبعير وخيول وأسلحة ..

قال مالك مخاطبا اياه لاول مرة :

ـ تأخذون كل شيء ..؟

ضحك الرجل الغليظ فى خشونة وقال :

ـ نترك لكم الحياة .. ألا يكفى هذا .. ستشربون وتستردون قواكم المنهوكة ، لو منعنا عنكم الماء لمتم عطشا بلا أدنى شك ، ولكننا سنسمح لكم بالشرب والحياة ، وهذا كثير جدا .

قال مالك وهو يحدد مكان الرجل الذى يقف فوق ابنه معن مصوبا الحربة الى قلبه :

ـ اتركوا لنا السلاح والركائب وخذوا الباقى ..

ضحك الرجل الغليظ مرة اخرى وعاد يقول :

ـ نحن فى حاجة الى كل مامعكم من خيول وابل وسلاح ، فعبدة النيران اللاعين فى جوارنا يغيرون علينا

بأفيالهم وخيولهم ولسنا كفؤا لهم ، أما لو كان معنا خيلكم وابلكم وسلاحكم لاستطعنا أن نجليهم عن عمان وأن نعيش نحن فى خيرها .. ثم أنتم كفره مثلهم ، أنتم تعبدون النجوم والاصنام ، وهم يعبدون النيران ، فأنتم أعداؤنا مثلهم تماما ..

قال مالك بن فهم وقد حرك قوسه ليكون بين يديه :

ـ ليس بيننا وبينكم عداء أيها الرجل ، نحن لانعرفكم من قبل ، ولم تدر بيننا حرب ، ولم يجر قتال .

قال الرجل الغليظ بصوته الجهورى الخشن :

ـ لا مكان هنا الا لنا ، فقد ورثنا الارض ، لاننا شعب الله المختار ، خصنا بكل الارض ، وجاء جدنا سليمان على جناح الريح يحمله الجن فوق السحاب ، فشقوا لنا بأمره هذه الافلاج ليكون الماء لنا وحدنا هنا .

استطاع مالك أن يخرج سهما من جراب السهام دون أن يلفت اليه الانظار ، وقال وهو يعدل من وضعه ليصبح فى منتصف القوس :

ـ جن سليمان .. وانتم من نسله ..؟

قال الرجل :

ـ نعم من نسل عابر بن شالخ أول من ملك فى الدنيا ، صاحب الصحيفة ، وأبو هود النبى ، ومن نسلهما داود وسليمان وهو من ملك الانس والجن . وأنا الملك الآن ، أنا متشولح ..

قال مالك بن فهم :

ـ ان كنتم من نسل من حكم الجن فانا أحكم الانس ، انظر :

واشار بيده نحو السماء فالتفتت كل العيون حيث اشار ، وثبت مالك السهم فى القوس ، وقبل أن يلتفت

احد اطلقه فأصاب قلب الرجل الواقف فــوق معن فسقط قتيلا لتوه . وانحدر معن من مكانه ، بينما ضج الرجال بالصراخ وصيحات الحرب ، واندفعت فى السماء سهام مشتعلة ، واحدة عن يمين واثنان عن يسار ، وضرب الرجال فوق الرابية بسهامهم حراس الاسرى ، وصرخ مالك :

ــ ورائى يارجال الازد ..

واندفع كالسهم المارق الى حيث وقف الرجل الغليظ الذى أدهشه كل هذا الذى يحدث فجأة ، فضربه بعقب رمحه فارتمى فاقد الوعى ــ وعدل مالك رمحه وانقض به فى صفوف العابرانين الذين أخذتهم صيحة فراهيد ورجاله من ناحية ، وهناءه ورجاله من ناحية ، بينمــا ارتفعت الصرخات من عند الكهوف ، وصاح العبيد من عند المرعى ــ وأسقط فى يد رجال متشولح فــرموا السلاح وقد سقط منهم القتلى بالعشرات ، ووقعــوا الى الارض يركعون فى استسلام .. واسرع مالك يفك قيود معن وزهير ومن معهما من الرجال . بينما شــق فراهيد وهناءه طريقهما الى حيث وقف أبوهم فوق رأس متشولح الذى افاق من ضربة الرمح ووقف فائر العينين تائه البصر يتلفت حوله فى دهشة وذهول .. وقال مالك ابن فهم :

ــ لقد انتهى أمرك يا ابن ملك الجن والانس . لقــد بغيت وطغوت فحق عليك العقاب . ولا مكان لك هنا ، وماحكمت به علينا ، نحن نحكم به عليك ، تغادر أنت وقومك هذه الارض الى الشمال .

قال متشولح وهو يترنح فى وقفته :

ــ الى الشمال .. هذه ارض مخوفة قاحلة .

قال مالك :

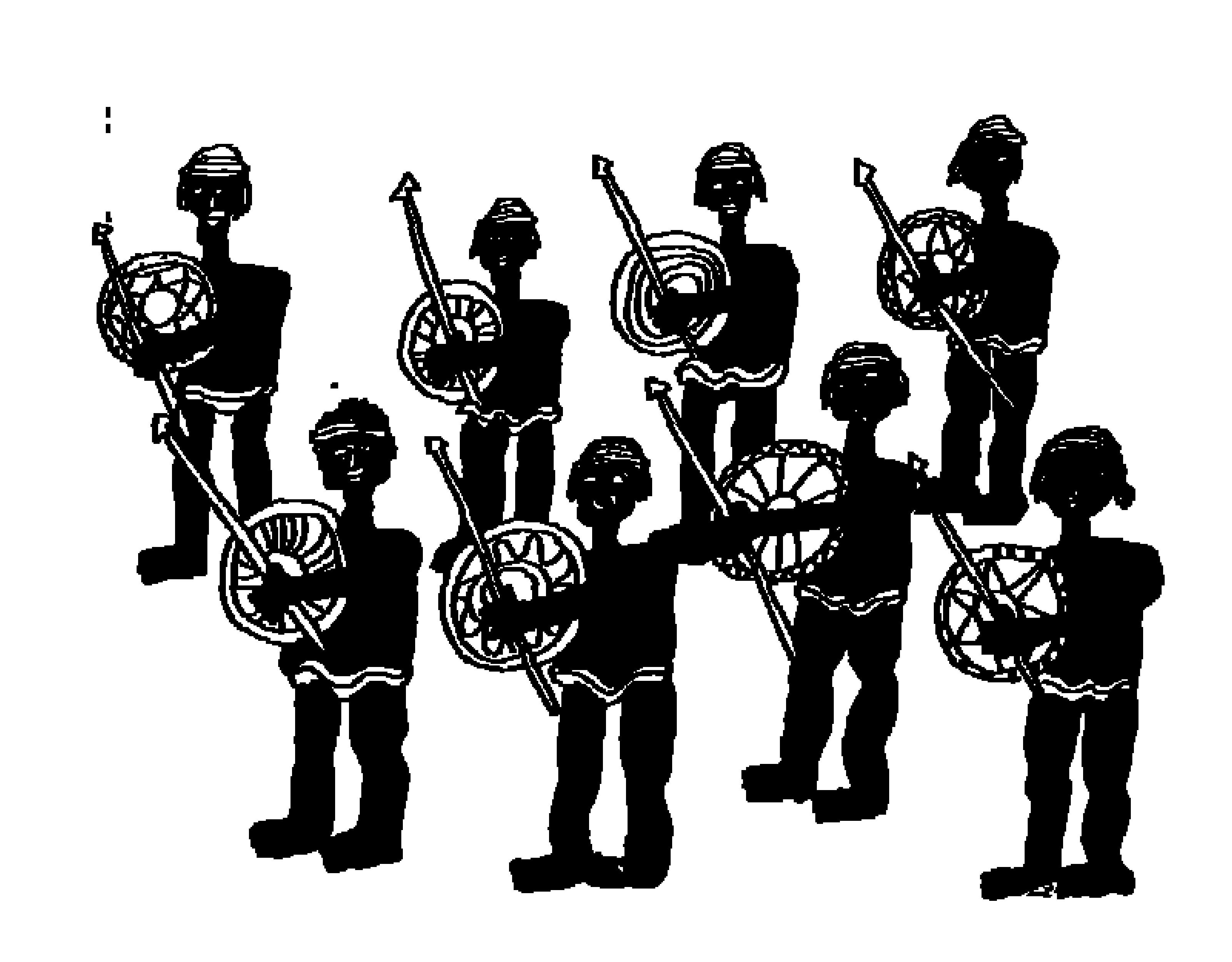
ـ لقد انتهى أمرك لحظة غدوك برجالي ، وتصورت انك تتحكم فى وفى طريقي ، ومثلك لايساوم ولايساوم : فأنت اما منتصر فتزهو على العالم كله وتدل بقوتك ، وتنسى دينك ونفسك ، واما مهزوم تلزم جدك وتخضع لمن هزمك .. ولكني ساكون أرحم منك ، فاحمل نساءك وجرحاك على الرواحل وخذ من الرواحل مايحملك عبر الصحراء ، وخذ من الماء والانعام كفايتك .. ولكن اترك سلاحك وامض .

قال متشولح :

ـ بلا سلاح تتخطفنا الامم !

قال مالك :

ـ هذا قدرك ، ولا تطمع فى كرمى اكثر من هــذا .. فسيدبر فراهيد أمر رحلتك ، ولتغادر بانسل عــابر هذه الارض ولن تعود اليها ابدا .



فارس الأزد
"تحرير عُمان"

كانت أصوات الغناء الطروب تنبعث من كل مكان فى المخيم الذى أقامه الرجال حول الفلج العـذب الماء . وكانت دقات الطبول وأصوات المزامير وتصفيقات الراقصين تشيع روحا من البهجة والفرح . فقد شرب الجميع واغتسلوا واكلوا واخذوا بعد كل هذا يطربون ويرقصون ويمرحون .. وكانت النساء تشاركن فى هذه البهجة كلها ، فهذه هى المرة الاولى التى يسمح مالك بن فهم للجميع بأن يمارسوا الحياة الطبيعية التى كانوا يمارسونها فى حلتهم السابقة .. وشاركت أصواتهن الرقيقة العذبة أصوات الرجال الخشنة فى الغناء والضحك والمرح . واخذ الاطفال يجرون هنا وهناك وهم يتلاعبون ويتضاحكون . وكان مالك بن فهم يتأمل هذا وشعور من العجب والدهشة يملؤه .. لقد مر هؤلاء بأيام كان تصور صدور الضحكة عن احدهم تصورا مستحيلا .. فعل العطش والتعب والعناء فيهم فعله . أما الآن وقد توفر الماء العذب ، وشربوا واغتسلوا فقد تغير الحال وتبدل .. وغدا الرجال الكبار الذين علتهم الجهامة فى الايام الاخيرة للرحلة كالاطفال مرحا وانطلاقا، بل لعلهم كانوا يفوقون الاطفال فى مظاهر البهجة والسعادة التلقائية التى تصدر عنهم .. وتمتم مالك

لنفسه ، وهو واقف امام قلج الماء يتامله :

ـ وكلنا أطفال حين نسعد ، لا تثقل علينا السنين الا في لحظات العناء والشقاء ..

جاء الصوت المشروخ الذى طحنته السنين من ورائه قائلا :

ـ صدقت يامالك ... نسوا اعمارهم جميعا وعادوا اطفالا ..

قال مالك :

ـ نحن معشر البدو لا ننسى لحظات البهجة أبدا حين تتاح . ننسى العناء لحظة الراحة ، وننسى الجوع لحظة الشبع ، وننسى العطش لحظة الرى ..

قال زهير ، وهو يمد بصره الى الكلج ومائه المترقرق تحت اشعة الشمس الباكرة :

ـ ماكنا نحتمل مانفرضه الصحراء علينا من عناء ان لم نكن قادرين على استقطار لحظات السعادة من شقائها وتعسها .. انظر الى هذا الماء لكانني اريد أن ابتلعه كله . لحظة سمحت لنا باستعمال مائه ، دفنت راسي فيه ، واخذت أعب بكفى منه عبا ، وهو لا يريد أن ينتهي ، كنت اريد أن شرب كل قطرة فيه .. ولكنني ما أخذت حاجتي منه ، حتى أحسست بالرى ، وظل هو موجودا متدفق الماء ، مستمرا فى الجريان .. ان الحياة لا يمكن أن يستوعبها احد مهما احس بالظمأ الى استيعابها كلها وحده .. بل هى ألتى تستوعبه آخر الامر حين يحس أن حاجته ضئيلة ضئيلة الى جوار ثرائها وتدفقها الدائم ...

ضحك مالك بن فهم وهو يتأمل الوجه الشديد السمرة الملىء بالتضاغين والتجاعيد التى حفرها الزمن ، وقال :

ـ انها تعلمنا الحكمة يازهير ..

قال زهير :

ـ من اراد منا أن يتعلم علمته ، ومن نسي أن يستفيد من التجربة عبرته دون أن يضيف الى مايعرفه شيئا . لك هذا الشره الغريب متشولح له كل هذا الماء ، وكل هذا المرعى ، ومع هذا يتربص بالعطاشى والمتعبين ليسلبهم مالهم وسلاحهم مقابل جرعات ماء ، ومن يدرى ربما كان يفكر في أن يتعقبنا بعد ان نسلم اليه سلاحنا ليقتلنا جميعا ونحن عزل لا نملك لانفسنا دفاعا أو مجالدة ..

قال مالك :

ـ سيظل متشولح ينتقل من ارض الى ارض الى نهاية الدنيا ـ ما أن يستقر بأرض حتى يطغى ويتجبر ، ويركب اهلها بالذل والأذى والتعذيب ، حتى يثوروا عليه ويطردوه منها ذليلا مهانا ، ليحل بارض جديدة ، ويبدى من الخضوع والمسكنة والذلة مايمكنه من مقادير الارض ومقادير أهلها ، فيعود سيرته من جديد ..

قال زهير ، وهو يشير بيده الى الارض حولهم :

ـ كان هنا فى جنة حقيقية ، الماء والمرعى ، وكهوف الجبل يأوى اليها .

قال مالك بن فهم :

ـ والعبيد ، الم ترا انهم كلهم من البدو أصحاب الارض الاصليين ، لقد غزاهم واستحل أهلهم واستعبدهم

قال زهير وهو يتطلع الى وجه مالك :

ـ هذا صحيح يامالك .. كلهم من البدو ، أعراب مثلنا ، ومع هذا استحل هذا الافون وقومه أرضهم ومالهم واعناقهم .. ماذا ستفعل بهم ؟

قال مالك :

ـ لقد أمرت فراهيد أن يجمعهم وان يعيد لهم ارضهم كما كانوا يملكونها فى السابق ، وان يقسم عليهم من الابل والانعام مايقيم حياتهم من جديد ، وطلبت اليه ان يحضر لي شيخهم فانا اريد ان اعرف المزيد عن هذه الارض وعن هؤلاء الذين تحدث عنهم متشولح ..

قال زهير :

ـ تعنى عبدة النيران الذين يستعبدون اهل عمان ..

ـ اياهم اعنى ...

ـ ١٦ ـ

كان الرجل عجوزا منحنى الظهر ، ولكنه كان قويا مفتول العضل ، حاد النظرات . فى وجهه وداعة ، وعلى شفته ابتسامة دائمة ، يتحرك وهو يتكلم وكأنما الحيوية المتدفقة فى جسده العجوز لا تدع له مجالا للسكون .

نظر الى مالك بن فهم وهو يبتسم ، وقال :

ـ اخ عزيز حل ارضا عزيزة ، فاعزها وكرمها .

ابتسم مالك ردا على ابتسامة الرجل ، وقال يسأله :

ـ أمو تاجون ... ؟

قال الرجل :

ـ بفضل بسالتك أيها الفارس .. أنا زاهر بن مسعود وهذه الحلة اسمها برهوت ، وأنت الآن فى أرض حضرموت ، وأمامك عمان تريد منك أن تحرر اهلها كما حررتنا ، وأن تخرج منها من اغتصبوها وركبوها بالنهب والسلب والغطرسة والتعالى ..

أخذ مالك بن فهم يتأمل العجوز ويعجب للتضاغين العميقة التى حفرت الاخاديد فى وجهه ، وقال :

ـ سماهم متشولح عبدة النار .

قال الرجل وهو لا يكف عن الحركة فى مكانه أبدا ،

يحرك ساعديه ، وقدميه وعضلات وجهه دائما :
ـ صدق في هذا ، هم يعبدون النار حقا ، وعلى مسيرة قريبة من هنا ستجد بيوت نيرانهم التي أقاموها هنا ، وهم الفرس ، جاءوا عبر البحر ، فلا يفصـــل بين ارضهم وهذه الارض الا البحر ، وهو هنا ليس عريضـــا كالبحر الذي يقع في الجنوب ..
سأله مالك بن فهم :
ـ وكيف ملكوا أرض عمان ؟
ـ العدد والعدة والمراكب المسلحة والافيال ..
صاح زهير يقطع حديثهما لاول مرة :
ـ الافيال .. لقد سمعت عن مثل هذه الحيـــوانات وفعلها في القتال ، ولكني كنت أظن الحديث عنها من قبيل السمر والخرافات ..
قال زاهر بن مسعود ، وهو يشير الى فراهيد بيده :
ـ لقد أخبرت السيد الفارس الشاب بكل هذا الامر من قبل ، انها حيوانات مهولة ضخمة يركبونها وقـــد صانوا جسدها بالحديد ، ويرمون من فوقهـــا بالنشاب والرماح ، ويدفعونها فتخترق صفوف المقاتلين ، وتصيب الخيل بالذعر والهلع ، فهي تمد خرطومها الطويل تحيط به الفرس وترفعه هو وراكبه في الهواء ثم تقذف به الارض ليتمزق هو وفارسه .. لا ، لم يكن لاحد منا قبلا بها ، فانهزمنا ، واستولوا على عمان كلها من صحار الى نزوى الى مسقط ومطرح الى قلهات ..
قال فراهيد الذي صاحب زاهر بن مسعود عند قدومه الى أبيه :
ـ لا تخيفنا هذه الافيال ، فلكل داء دواء ،وسنستطيع أن نهزمها ومن يحتمون بها ..

صاح زاهر وهو يرفع يده فى الهواء محذرا :
ـ لا تقلل أيها الفارس الشاب من شان هؤلاء الفرسان فقد رأيت منهم من يعدل العشرات ، فلهم فى الحرب مهارة لا ينكرها الا الاحمق ، ولا اظن فيكم من هو كذلك وهذا فعلكم بمتشولح ورجاله ، وقد كنا نحسب انهم قوة لا تقهر ..
ضحك مالك بن فهم ، وهو يقول :
ـ لا توجد على الارض قوة لاتقهر ايها السيد زاهر . فكل قوي هناك من هو أقوى منه وأشد بطشا . والآن وقد استراح القوم واستقروا ، فوجهتنا عمان .
قال فراهيد :
ـ هذا ماانتظرته منذ مجيئنا الى هنا .
قال مالك :
ـ قل لهناءه يهيىء الفرسان والمحاربين . اما انت يافراهيد فاختر الفين من الفرسان وتقدم أمام الركب حتى تدخل عمان ، فعسكر هناك ، واجد اختيار مكان معسكرك ، وارسل امامك بالبصاصين يعرفون مواطن القوة والضعف فى أعدائنا ، وانتظر حتى نصل اليك بجموعنا . ولا تحارب الا اذا اضطررت الى ذلك ..
قال فراهيد :
ـ هذا ماسافعله فى الحال ، فالرجال مستريحون والخيل متاهبة ، ونحن نتعطش الى الانتقام ممن اذلوا أهلنا من سكان عمان .
قال زاهر بن مسعود :
ـ ساذهب ونخبة من رجالى معك لندلك على الطريق، ولنكون عيونك على عدوك فنحن نعرف الارض ومظان الماء ، وسيخبرنا أهلونا فى عمان بكل ماتريد أن تعرفه

عن قوة الفرس وتوزيع جنودهم .

وانصرف فراهيد ومعه الشيخ العجوز زاهر بن مسعود وهو يتوفز حركة وحيوية ، وتتبعهما مالك بن فهم بعينه متأملا ، وهو يقول :

ـ لا تكاد تعرف أيهما الشاب وأيهما العجوز .

قال زهير :

ـ الناس هنا يتوفزون حيوية أيا كان عمرهم ، وهم مقاتلون أشداء رغم ابتساماتهم وطيبتهم .

قال مالك :

ـ هذا ماتوسمته فهذا العجوز يحمل بين جنبيه قلب أسد .

اطرق زهير برأسه لحظات ساد فيها الصمت ، ثم رفع رأسه قائلا :

ـ قوم حبيش وحبشان أول الامر ، ثم قوم متشولح بعد ذلك ، والآن الفرس .

قال مالك :

ـ لم يتعرض لنا طوال الرحلة أي إنسان من أحياء العرب من معد وعدنان ، ماكنا نمر بأحيائهم حتى نلقى منهم السلام والترحاب .

ضحك زهير وهو يقول :

ـ ربما لان عددنا كان يهولهم ، فأنت تسير فيما يزيد عن ستة آلاف فارس غير العبيد والنساء ، فمن له بمجالدة مثل هذه القوة الا من يستخف بها ولا يعرف قدر العرب في القتال .

قال مالك بن فهم :

ـ ربما كان الامر هو هذا ، وربما أنهم كانوا يدركون أننا نسير الى وجهة أخرى وأننا لا نناصبهم العداء ، ولا

نطمع فى أموالهم وارضهم .. واهلنا يازهير لا يقـاتلون الا من ابتدوهم بالعدوان والبغى ..

ومن بعيد لاح هناءه يسرع نحو أبيه ، فقال مالك :

ـ هذا هناءه قد جاءنا بأخبار الاستعداد للرحلة ، وما اظن الا ان فراهيد فى طريقه الى استكمال مسيرته نحو عمان .

ـ ١٧ ـ

عندما وصل الركب الى الشحر ، أمر مالك بن فهم أن يستريح الجميع - وان يذهب العبد نجاح ليـأتى بأخبار فراهيد ومن معه من فرسان . وما استقر الركب كل فى مكانه وهم جميعا فى حالة تأهب واستعداد حتى أسرع هناءه الى أبيه الذى كان يعتنى بجواده كعادة الفرسان .. وقال :

ـ لقد عبأت كل الرجال واطمأننت على خيولهـم وسيوفهم وحرابهم وقسيهم .. والفرسان أخرتهم الى آخر الركب أما الراجلون فهم يسيرون فى المقـدمة . والنساء والاطفال حولهم الحرس الاشداء ، أما المال والانعام فهى فى حراسة العبيد فى مجاميع صغيرة حتى لا تجفل ، وحتى يسهل التحكم فيها . ولكن هناك أمرا يضايقنى وما كنت أحب أن أخبرك به لولا أنه لابد أن تعلم .

التفت مالك الى هناءه مستفسرا ، فقال هناءه :

ـ ان مهرة بن حميدان بن الحاف بن قضاعة بن حمير يريد أن يتخلف بقومه هنا ، وان ينزل معهم الشـحر ، ولا يكمل معنا المسيرة ، فقد أعجبه الكلأ والماء هنا ، ومن فى الشـحر من الاعراب قلة ولن يضيرهم نزوله بأرضهم ، بل لقد تكلم مع شيخهم بالفعل وحصل على موافقته أن ينزل بأرضهم دون قتال .

أطرق مالك بن فهم متأملا ما أخبره به هناءه ، وادرك سر قلقه وتخوفه ، ثم رفع رأسه الى ابنه وابتسم فى وجهه المقطب العابس ، وقال :

ـ ان مهرة بن حميدان ليس من اتباعنا أو من رجالنا ، انما هو حليف من الحلفاء الذين ساروا معنا يبتغون من هذه المسيرة خيرا ، ولست أملك أن آمره بشيء ..

قال هناءه فى اصرار :

ـ انه وقومه معنا على الخير والشر ، ولولانا ماوصل الى هنا ، ونحن مقبلون على معركة ولابد أن يشارك فيها ثم يفعل بنفسه وقومه مايشاء .

قال مالك :

ـ لا أرغم احد على الاشتراك فى حرب لايريدها .

استمر هناءة فى جدله قائلا :

ـ لو أن كل واحد وصل الى مايريده من منتجع ففصل رجاله واعتزلنا فيه ، لما بقى معنا من نحارب به من الرجال .. ولو سمحت لمهرة لما استطعت أن تمنع الباقين ..

قال مالك فى اصرار وحزم :

ـ أترك هذا الامر ياهناءه والتفت الى ماكلفتك به ..

وقبل أن يرد هناءه ، أقبل العبد نجاح يجرى وهو يثير الغبار حوله ، وقبل أن يتوقف عن جريه أو يستأذن فى مخاطبة مالك كأن الكلام يتدفق من فمه كالسيل :

ـ هؤلاء الفرس جمع حاشد ، يسكنون فى كل القرى والثغور ، ولهم معسكرات محتشدة بالخيل والابل ، وقد رأيت هذا الحيوان المهول ـ الفيل .. عليه من الدروع مايعجز الجن أنفسهم عن الحركة ..

ثم توقف وجال ببصره بين مالك وهناءه ، وتلعثم

قليلا ، ثم عاد يقول وقد هدأ اندفاعه فى الكلام :

ــ سيدى فراهيد يقرؤك السلام ياسيدى مالك ، وهو والرجال بخير . وقد رآنا القوم فارسلوا طلائعهم نحونا ، الا انهم لم يهاجمونا ، ونحن بناحية الجوف وهم أمامنا بعساكرهم التى أخذت تحتشد وتتكاثر . وبالامس أرسل قائدهم يسألنا ماذا نريد ؟ فأمهله السيد فراهيد حتى يرسل اليك فتجيبهم بما تشاء ..

قال مالك ، وهو يربت على عرف فرسه ، ويشد الركاب ليحكمه :

ــ سأحمل له الجواب بنفسى .

ثم قفز على ظهر جواده الذى دار دورات قبل أن تستقر حوافره المتوفزة فوق الارض ، واستدار الى العبد نجاح يسأله :

ــ ألم تعرفوا اسم ملكهم أو قائدهم يانجاح ؟

قال نجاح :

ــ قالوا أن ملكهم فى بلاد فارس وهو الملك دارا بن دارا ابن بهمن بن اسفيديار ، وأن المقدم عليهم فى عمان هو المرزبان عامل هذا الملك ونائبه هنا فى عمان ..

قال مالك :

ــ أسرع الى فراهيد وقل له اننا فى الطريق فلا يتحرك من مكانه فى الجوف .

ثم التفت الى هناءه قائلا :

ــ نظم الرجال للسير سيرا حثيثا الى حيث معسكر اخيك ورجاله ، واتبعونى .

وبدأت رحلة الازد الى تحرير عمان .

ــ ١٨ ــ

لم يكن مالك يتوقع هذا المنظر الذى طالعه عندما وصل الى معسكر فراهيد ورجاله . فأمام الرجال

اصطف الفرسان صفوفا متتالية لا يحصرها عد ، واسلحتهم ودروعهم تلمع تحت أشعة الشمس . وخيولهم تصهل وهى لا تكاد تستقر تحت الفرسان . ثم رأى الافيال وعليها دروعها وفوقها الهوادج المليئة بالرجال والسلاح . فأوقف فرسه يتأمل هذا المنظر الهائل الذى يبعث الرعب فى القلوب . وقال معن الذى كان يركب الى يمينه :

ــ ماكل هذا الزرد والحديد ، وانظر الى رماحهم الطويلة ، وهذه الافيال . انهم لا يحاربون الا وكل الظروف فى مصلحتهم . .

قال مالك بن فهم :

ــ فبماذا تخرج من هذا يامعن ؟

قال معن :

ــ انهم يفضلون السلامة ، ولا يقامرون بالتعرض للأذى . وليس مثل هؤلاء من يصمدون لنا .

قال مالك بن فهم وهو يرقب أبنه فراهيد يتقدم نحوه بجواده :

ــ لقد أصبت يامعن . . ان منظرهم مخيف ، وهذا المنظر جزء من سلاحهم ، فان لم يحمل الرعب الى قلوب الرجال فقد كسبنا نصف المعركة .

قال فراهيد حين وصل الى أبيه واخويه اللذين يقفان خلفه :

ــ نحن نقف هكذا منذ الامس ، هم يستعرضون قوتهم وأسلحتهم وافيالهم ، ونحن نتفرج عليهم ، وقد عادوا اليوم فأرسلوا رسولا جديدا يسألنا ماذا نريد . .

قال مالك بن فهم وهو يجول ببصره بين رجاله المتطلعين فى دهشة الى جحافل الفرس أمامهم :

ـ أرسلوا الى هذا الشيخ زاهر بن مسعود ، ومعه زهير فلى حديث معهما ..

ثم التفت الى معن قائلا :

ـ وراء هذا الجبل أوقف تقدم النساء والابل والانعام والرعاة والعبيد .

ثم قال لهناءة :

ـ تقدم بالراجلين من المقاتلين وليلبسوا الدروع وليخففوا من السلاح الا من القسى والسهام والسيوف

وقال لفراهيد :

ـ تراجع بفرسانك واترك للرجال أن ينضموا الى باقى الفرسان خلفهم ..

وبدأ معسكر مالك بن فهم يموج بالحركة ، وتغير مكان المقاتلين .. وظهر عددهم وكأنه يفوق حقيقته عشرات المرات ، وجوه تظهر ، ووجوه تختفى ، والفرسان يتراجعون ، والرجالة يتقدمون ، وحركة فى آخر الصفوف ، واخرى على الجانبين . وبدأ جنود الفرس يتبادلون النظرات القلقة لاول مرة منذ رءوا فرسان فراهيد ، فما كان هؤلاء الا قلة ، وما كانوا الا كغيرهم من الفرسان العرب الذين لايعرفون الا الهجوم المباشر والسريع ، والذى يمكن تحطيمه بسهولة أمام سيل السهام وهجوم الافيال ، واسنة الرماح الطويلة التى تطولهم قبل أن يصلوا الى حامليها .

وفى ناحية من المعسكر اجتمع مالك بن فهم بأولاده وزهير والشيخ العجوز زاهر بن مسعود ، واجال فيهم مالك عينيه الحادتى النظرات ، وقال :

ـ هؤلاء لا يؤخذون بسهولة ، وعلينا أن نفاجئهم بطريقة قتالنا التى لا يتوقعونها . واشغلوا الرجال

بالحركة الدائمة ، وساخاطبهم قبل بدء القتـــال . وسيتولى فراهيد الميمنة ، وهناءه الميسرة وأكون أنا فى القلب . أما معن فمهمته حماية المؤخرة وفيها النســاء والمال والعبيد ..

قال فراهيد :

ـ وكيف تقسم الرجال ؟

قال مالك :

ـ كل واحد منا على رأس ألفى فارس .. أما الرجالة فيرأسهم زهير هنا ، ومهمته امطار أفيالهم وخيلهم بالسهام؛ فاذا ماهجم فرسانهم تنحى هو ورجاله وتركوا لنــا مواجهتهم ، وأعادوا تشكيل انفسهم وراءنا ، فاذا تراجعنا من أمامهم فجأة ، أصبحت الرجـالة وسـهامهم فى مواجهتهم من جديد .. ونكرر هذا حتى نكسر هجومهم.

ثم التفت الى زاهر بن مسعود ، وقال :

ـ أنت تعرف الارض هنا أيها الشيخ ، فأى مكان آمن للنساء والمال ؟

قال زاهر وعيناه تتألقان اعجابا بمالك ، وجسـده كله يتحرك فى توفز :

ـ ستهزمهم ، أعرف انك ستهزمهم .. فهم لم يواجهوا من يعرف معنى الحرب مثلك ، حقا يا أخوان ، الحرب ذكاء وخبرة ومهارة قبل أن تكون شجاعة وشـطارة واستهتارا بالعدو ..

قاطعه مالك قبل أن يسترسل فى حديثه المتـدفق قائلا :

ـ سألتك عن مكان آمن للنساء والمال ؟

سكت زاهر بن مسعود فجأة ، وبدا شكله مضحكا وهو يحاول أن يسترد أنفاسه اللاهثة ، ثم قال :

ـ الجوف ، حيث يكون مالك ونساؤك فى امان ، والماء هناك وفير ، والمرعى جيد ..

قال مالك :

ـ اذهب مع معن ودله على هذا المكان ، وأنت يامعن لا تشترك فى المعركة ، ولكن صن ما معك ...

ثم قال :

ـ والآن لنرسل الى الفرس جوابى ، قولوا لهم ان مالك بن فهم يقول : لابد لى من النزول فى قطر من عمان وان تساوونى فى الماء والكلأ والمرعى ، فان تركتمونى طوعا نزلت فى البلاد وحمدتكم ، وان ابيتم اقمت على كرهكم ، فان قاتلتمونى قاتلتكم ، فان ظهرت عليكم قتلت المقاتلة وسبيت الذرية ، ولم اترك أحدا منكم ينزل بعمان ابدا ...

صاح زهير :

ـ نعم القول .. حقا ان القول ماقال مالك ..

ـ ١٩ ـ

جاءت رسالة المرزبان كما توقعها مالك بالرفض المتعالى المهين ، وقرب الليل جاءه زاهر بن مسعود بأخبار عيونه من أهل عمان ، قال :

ـ الفرس يحتشدون فى صحراء سلوب بالقرب من نزوى .

قال مالك فى حزم :

ـ لقد اطمأننا على النساء والمال ، ولن نتركهم حتى يدهموننا ، سنرسل اليهم حيث يحتشدون لتكون المبادأة منا ، ونرحل الآن ، وفى الحال .

قال فراهيد :

ـ وهؤلاء المحتشدون أمامنا من فرسان .

قال مالك :

ـ ماوقفوا الا لتضليلنا حتى يتم للمرزبان تعبئة جنوده ، أقتحموهم الآن فورا ، وهيا بنا نسير ..

ولم تصمد مجموعة الفرس أمامهم ، بل تراجعت وانكشفت ، وبدأ زحف الازد الى صحراء سلوت واستمر طوال الليل . وفي الصباح شاهدوا طلائع الفرس أمامهم فأخذ الجيش الازدي مواقعه كما رتبها مالك ، وأمر الجميع أن يرتدوا الدروع ، وخرج على فرسه الابلق ، وعليه درعان عليهما غلالة حمراء ، وتكمم على رأسه بكمة حديد ، وتعمم عليها بعمامة صفراء ، والرجال وراءه قد تقنعوا بالدروع والبيض ، والجواشن ، لا تظهر منهم سوى الاحداق . ودار مالك برجاله المصطفين يتأمل أسلحتهم وخيولهم ، ثم وقف أمامهم وظهره الى العدو الذي كان يرتب صفوفه ويعد كتائبه ، وقال لهم بصوته الهادىء الواثق القوي :

ـ يامعشر الازد أهل النجدة والحفاظ حاموا عن نسائكم وذبوا عن أولادكم ، وأصدقوا عهدكم ، ولايهولنكم عدوكم .. وطنو أنفسكم على الجلد والصبر فان هذا اليوم له مابعده .

ثم أشار فتراجعت الفرسان كما رسم لهم ، وهو في القلب ، وعلى الميمنة فراهيد،وعلى الميسرة هناءه ، بينما تقدم الرجالة وعلى رأسهم زهير .. وما أتم الازد تحركهم حتى انبعثت صيحة عظيمة من صفوف الفرس ، وهجم رجالهم تتقدمهم الافيلة ولهم ضجيج وعجيج . وصاح زهير برجاله فأمطروهم بوابل لا ينقطع من السهام وقد ركزوا سهامهم على الفيلة المتقدمة ، فصاحت الفيلة وهي ترمي من عليها من رجال ورجعت هاربة الى عسكر المرزبان ، فأحدثت فيهم الفوضى وصدمت خيلهم ووطأت

رجالهم . وما أن عمت الفوضى صفوف الفرسان حتى صاح مالك برجاله ، فانقضوا كالسيل على الصفوف المضطربة وقد أشرعوا رماحهم وسلوا سيوفهم وهم يتصايحون بنداء الحرب والقتال .. وتضارب الرجال بالسيوف والرماح ، وسقط القتلى والجرحى من الجانبين ، وامتزج صياح الرجال بصهيل الخيل بقعقعة السلاح ، وثار الغبار حتى احتوى الفريقين ، والفرس يتراجعون فى اضطراب ، والمرزبان يرسل فرسانه هنا وهناك ليعيدوا للصفوف تماسكها من جديد . ثم رفع مالك رمحه فى يده فوقف فرسانه ، وأشار اليهم فتراجعوا جميعا ، بينما تقدم الرجالة من جديد وأمامهم زهير ينظم صفوفهم . وما أن شعر الفرس بتراجع الازد ، حتى صاح المرزبان فى رجاله فتقدموا فى أربعة كتائب على كل كتيبة واحد من الاساورة الشداد وأمامهم فيل ضخم يرسل الرجال فوقه السهام ويلقون الرماح ، وتلقاهم زهير مع الرجالة بوابل من السهام من جديد ، ثم تراجع مع رجاله ليفسح المجال أمام الفرسان ..وهجم مالك بن فهم من القلب وفراهيد من الميمنة وهناءه من الميسرة ، بينما زعقت بوقات الفرس ، واشتد قرع طبولهم ، وتعالى صياح فرسانهم . والتقى الجمعان فى موقعة جديدة مهولة ـ وقصد فراهيد الى الفيل فضربه على خرطومه بحربته ثم أشرع سيفه يطعنه من جديد ، وصاح الفيل ودار وهو يرفع أقدامه فهجم عليه هناءه فعرقبه ، وضرب قوائمه المرفوعة فى الهواء ، فسقط الفيل صارخا ، وامتلأت قلوب الفرس بالرعب ، ورجال مالك يضربون بالسهام حتى تقصدت وبالسيوف حتى تكسرت وبالرماح حتى انحطمت .. وكاد الفرس يولون

الفرار كالمرة الأولى ، الا أن المرزبان تقدم على جـواده وقد كساه الزرد والحديد وصاح برجاله ، فتراجـــع الاسارورة الاربع بالرجال قليلا ، بينما توقف مالك برجاله فى اماكنهم ، وصاح المرزبان بكلام كثير ، فمال مـالك على زاهر بن مسعود والذى كان يركب الى جواره وسأله عما يريد ، قال زاهر :

ـ انه يطلب ان يبرز الفرسان فارسا لفارس .

قال مالك :

ـ اجبه الى مايريد ..

وما انتهى زهير من حديثه ، حتى تحرك فرأهيـــد وهناءه كل منهما يريد الخروج ، فمنعهما مالك بن فهم وهو يخرج الى الميدان ، فبرز اليه واحد من الاساورة الاربع ، وكان رجلا ضخما عملاقا يركب على فرس كبير الجسم بادى القوة ـ لم يمهل مالكا بل عاجله بطعنة من رمحه ، تنحى عنها مالك ، وضربه برمحه بدوره فتلقاها الفارس على درقته ـ واستهل كل منهماسيفه ومضـيا يصولان ويجولان ، والكل قد حبس انفاسه فى ترقب ، حتى ارتفعت صيحة عظيمة من مالك اذ ضرب غريمــه بسيفه فاجتث عنقه وأطاح برأسه . واخذ الفرس يخب الى صفوف الفرس ، والفارس بلا رأس يترنح فوقه الى أن سقط عن جواده .. واندفع الفارس الثـانى وهو يصيح بلغته صيحات عالية ، وضرب مالكا برمحه فتلقى مالك الضربة على درقته ، ودار به جواده حتى خـادع غريمه ، فضربه على عاتقه فقطع السيف فى جسده حتى وصل الى الفرس التى يركبها ، فجفلت وخر راكبها على الارض قتيلا والدم ينبجس من جسده . وقبل أن يعتدل مالك على ظهر جواده ، هاجمه الفارس الثالث وضربه

فجرحه ، وظهر الدم على كتفه وترنح فوق فرسه .
وتعالت صيحات الفرح من صفوف الفرس . وهاج فراهيد
وكاد يخرج لنجدة أبيه لولا أن منعه هناءه الذى راى اباه
بعتدل فوق فرسه ويندفع مسرعا نحو الفارس الذى
استدار استعدادا لضربة ثانية ، ولم يمهله مالك فضربه
على مفرق رأسه فقد سيفه البيضة التى تحمى الراس ؛
وتهاوى الفارس وسقط صريعا . وداد مالك وقد أخذ
حذره ليلاقى الفارس الرابع ، ولكن هذا أستدار بفرسه
وولى راجعا الى صفوف الفرس . وصاح المرزبان وقد
رأى مصرع فرسانه وهروب أحدهم ، واندفع الى وسط
الميدان وهو يلعب برمحه ويجرى بفرسه ، ويصرخ بقوة . .
واتجه اليه مالك ، وقد أشرع رمحه من جديد ، ودارت
بينهما مبارزة لم يشهد أحد مثلها من قبل .. واشرأبت
الابصار فى كلا المعسكرين ، وقلوب كل جند عند قائدها
وفارسها ، تتتبعه فى قتال الجبابرة هذا ، وأنفاس الرجال
متعلقة بحركات الفارسين والفرسين ، تارة يظهران من
من وسط الغبار المنعقد حول سنابك جواديهما ، وتارة
تخفيهما سحابة الغبار الداكنة التى يثيرها الجوادان ـ
والضربات تتوالى ، ومظاهر الفروسية تتبدى والشجاعة
الفائقة فى مواجهة الخصم تظهر . والقتال قد طـــال
بينهما ، لا يكاد أحدهما يتفوق على الاخر ، فكل ضربة
ماهرة لها رد أكثر منها مهارة ، وكل مناورة بارعة لهــا
مناورة لا تقل عنها براعة .. وفجأة اشرأبت الاعنـــاق
حين دوت صرخة عالية من وسط الميدان ، وانفــرج
الغبار عن مالك بن فهم يحمل رأس المرزبان فوق رمحه ،
بينما كان الجسد الهامد المحطم يرقد تحت قدميه ..
وارتفعت صيحة ذعر من بين صفوف الفرس واندفعوا

نحو مالكَ ، بينما صاح هناءه واندفع نحو أبيه ، وأسرع فراهيد يهاجم الفرس المهاجمين ، ودار قتال عنيف يائس لا يعرف رحمة او هوادة ، وكثر القتلى والجرحى ، وامتلأ الميدان بالانات والصرخات وصهيل الخيل فى احتضارها الاخير ..

ووسط كل هذه الاصـــوات المتداخلة ارتفع نفير الابواق ، وتطلع الجميع الى حيث ظهر رئيس الاساورة الرابع الذى فر من أمام مالك ، وكان يتقدم منكسا رايته وبغير سلاح نحو مالك . فأمر مالك رجاله بالـكف عن القتال ، وخرج اليه وحده يلقاه ومعه زاهر بن مســعود الذى أخذ يترجم بينهما . قال الفارس :

ـ كفى حربا فنحن نريد الصلح .

قالَ مالكَ :

ـ تخرجون من عمان بكل نسائكم وخيلكم وسلاحكم .

قال الرجل وترجم عنه زاهر :

ـ ان مصالحنا هنا كثيرة ، وأعمالنا متعددة ، فلو أمهلتنا عاما خرجنا الى بلادنا بلا عودة .

قال مالك وهو يعرف أن الحرب لو طالت أكثر فلن يحرز فيها نصرا حاسما وهو فى مثل هذا العدد القليل :

ـ انه عام اذن على أن تدفعوا دية القتلى وتعـودا الى صحار وماحولها من شـــطوط ، ونبقى نحن فى عمان .

واطرق الفارس برأسه فى اذعان ، فعاد مالك بفرسه الى رجاله ، بينما دوى النفير من جديد وأخـذ الفرسان الفرس يتحركون منسحبين نحو الثغور .

ـ ٢٠ ـ

دارت الايام دورتها مسرعة حتى لم يحس الازديون

لمرورها وقعا ، فقد شغلهم العالم الجديد الذى طالمهم بثرائه العظيم وامكاناته الهائلة . فالجبال المغطاة بالخضرء الدائمة والاشجار المثمرة كفلت لابلهم وانعامهم المرعى الخصب . والبحر بعطائه المستمر وصيده الوافر زودهم بالطعام الذى لا ينضب .. ورغم تمسكهم بتقاليد حياتهم التى اعتادوها الا ان الكثيرين منهم اخذوا يطوعون انفسهم على عطاءات الارض الجديدة .. ولكن هذه الايام فى دورتها كانت تحمل لهم قلقا يتزايد كل يوم . فعيونهم التى تأتيهم بالاخبار من الثغور تشى بأن الفرس لا ينوون الارتحال ، بل لعلهم يصنعون كل شيء يؤكد بقاءهم : أو نياتهم المبيتة على الاستمرار فى الارض التى غنموها يوما بالسيف ، واجلوا عن معظمها يوما آخر بالسيف .

وفي الخيمة الكبيرة التى اقيمت الى جوار فلج عريض لاقامة مالك بن فهم ، جلس مالك وحوله كبار رجاله وأولاده يتشاورون فى أمر هذه الاخبار التى تأتيهم من الثغور المحتلة ، وكان زهير يقول :

ـ انهم يطمسون الافلاج وليس هذا فعل من ينتوى البقاء .

فصاح زاهر بن مسعود فى غضب :

ـ هذه الافلاج حفرها لنا سليمان بن داود ، فكيف يردمونها .

قال مالك بن فهم :

ـ حتى انت يازاهر تتحدث عن حفر سليمان رجن سليمان لهذه الافلاج !

قال زاهر فى اصرار :

ـ كلنا هنا نعرف أن سليمان بن داود اقام بعمان عشرة أيام حفر فيها عشرة آلاف فلج . وهى التى يطمسها

هؤلاء البغاة الآن :
قال معن معترضا :
ـ انا لا أفهم كيف يطمسون موارد الماء ان كانوا يريدون البقاء . لقد قال عيوننا أنهم ارسلوا يطلبون المدد من ملكهم فى بلاد فارس .
قال زاهر بن مسعود :
ـ والمدد قد جاءهم بالفعل ، فعندما وصلت رسل فرس عمان الى الملك دارا بن دارا بما حدث ، غضب غضبا شديدا ، ودعا بقائد من أعظم قواده ومرازبته وعقد له على ثلاثة آلاف فارس ، وقد وصلوا بالفعل بالسفن الى البحرين ، ثم ساروا الى عمان ، وقد رصد الرجال وصولهم وسيرهم . وهم على وشك الوصول الى ثغور عمان .
قال مالك بن فهم :
ـ وهذا مادعانى الى دعوتكم هنا اليوم فأرسل اليهم برسالة أذكرهم بالعهد بينى وبينهم .
قال فراهيد :
ـ لقد وصل فى قومنا الازد كثيرون بمالهم ورجالهم ، عمران بن عمرو بن ماء السماء وولداه الحجر والاسود ، وربيعة بن الحارث بن عبد الله بن عامر الفطريف وأخوته .
قال هناءه :
ـ لقد أمن القوم الى عمان ، وما اظن ان احدا منا سيتراجع عن اخراج الفرس منها .
قال معن فى حدة :
ـ لقد طلبوا عاما للخروج بأموالهم ونسائهم والعام انقضى أو أوشك .

قالَ مالكَ بن فهم منهيا الحوار الدائر :

ـ ولابد لهم من الخروج ، أرسل لهم يازاهر رسالتى اليهم مع كوكبة من الفرسان كاملى العدة والعتاد ، وقل لهم فى رسالتى : لقد وفيت بما كان بينى وبينكم من العهد وتأكيد الاجل وأنتم بعد حلول عمان ، وبلغنى انه قد أتاكم من قبل الملك مدد عظيم وأنكم تستعدون لحربى وقتالى ، فأما أن تخرجوا من عمان طوعا والا رجعت عليكم بخيلى ورجلى ، ووطيت ساحتكم ، وقتلت مقاتلتكم ، وسبيت ذراريكم ، وغنمت اموالكم .

قال زاهر :

ـ سأرسل الرسل فى الحال ..

وقالَ معن :

ـ لن يخرجوا طوعا ، لن يخرجوا الا كرها .

قال زهير :

ـ ما طمسهم للافلاج الاليوهمونا بازماعهم الرحيل حتى نأمن البهم ، ثم يعيدون فتحها بعدالانتهاء من أمـرنا . وما اظنهم الا غطوها بما يخيل أنه تدمير وطمس ..

قال مالك بن فهم :

ـ لن يخدعنا احد بحيلة كهذه ..

قالَ معن فى اندفاع :

ـ فما فائدة الانتظار اذن ، الرأى ان نباغتهم بالهجوم دون انذار .

قال مالك فى حزم :

ـ ماكنت انقض عهدا عاهدته لأحد ألا بعد ان اعطه فرصة الوفاء بما عاهـــد .. ولكنى من الآن آمركم بالاستعداد للقتال ، وليتول فراهيد أمر اعـداد الرجال لمعركة حاسمة (*)

كان القتال ضاريا لا هوادة فيه ، وكانت موجات هجوم الفرس تتكسر امام بسالة مقاومة الازد وصمودهم الشجاع . وكانت قد مرت ثلاثة أيام على بدء المعركة التي رد فيها الفرس على رسالة مالك بن فهم اليهم . فبدلا من ارسال رسول برد خطابه ، هجم فرسانهم فجأة على معسكر الازد ومواقعهم . ولم يؤخذ الازد على غرة وان أحدث الهجوم المفاجيء اضطرابا في صفوفهم أول الامر .. وتراجع الرجال عن مواقعهم المكشوفة الى مواقع أشد صلاحية لرد هجوم الفرس الشرس ، ووقع عبء المعركة كله على الفرسان الذين أبلوا أحسن البلاء ، صال مالك وأولاده وفرسانه وجالوا ، واذاقوا الفرس طعم حرابهم وسيوفهم ، ووقع ضرباتهم ، وفعالية صولاتهم ، الا أن المعركة ظلت تدور على نسق واحد ، هجوم من الفرس مع مطالع الشمس ، وصمود للأزد حتى الغروب ثم ينفصل الجمعان . وفي هذا اليوم الرابع للقتال كان زهير ومعن قد استقرا على أمر فاتحا فيه مالكا في الليلة الفائتة ، ووافقهما عليه على الفور . وتمت ترتيبات قتال اليوم على أساس ما اتفق الجميع عليه ، فاستمر مالك وفرسانه يصدون موجات هجمات الفرس المتوالية حتى ارتفعت الشمس في كبد السماء ، وأشتد وهج الحر ، واجهد الكر والفر الرجال والخيل معا ، فأشار مالك الى فرسانه فتراجعوا منهزمين أمام الفرس ، الذين اندفعوا وراءهم وقد أعمت أشعة الشمس عيونهم فلم يروا ألكمين المنصوب ، اذ ماكادت ساحة القتال تخلو من فرسان الازد حتى انهالت على الخيول المهاجمة والافيال المندفعة سهام مشتعلة من مرتفع على حافة

ساحة القتال ، وصهلت الخيول وصرخت الافيـــال وتساقط الرجال صرعى وهم يحاولون كبح جمــاح خيولهم فى اندفاعها السريع الى أمام ، ولكنهم ماكادوا يملكون زمام رواحلهم حتى انقض عليهم معن من خلفهـم على رأس العبيد المسلحين بالحراب والسيوف والهراوات.

وارتفعت الصيحات فى صفوفهم الخلفية وساد الهرج . وفجأة عاد الفرسان المنهزمون يهجمون فى موجتـــين متلاحقتين واحدة من يمين ، وواحدة عن يسار ، بينما نزل زهير ورجاله من فوق التل يهاجمون القلب المكشوف لصفوف الفرس .. وانقلب الحال على فرسان الفرس، فولوا صارخين منهزمين ، ومالك على رأس فرسانه يتبعهم فى هجوم مميت ، وتفرق الفرس فى كل ناحية ، والازد يطلبونه أينما ولوا ..

ووسط المعركة التقى مالكَ الذى ضــمخت الدماء دروعه وسيفه ، بمعن الضاحك الوجه ، وزهير المعفـر الجبهة ، وكل قد تلوث سلاحه بالدماء .. وقال مالك ..

ــ أحسن رجالتك يازهير ، وصدقت خطتك .

ضحك زهير وهو يقول :

ــ لقد عودتنا أن يكون الامر شورى بيننا ، فشجعنا هذا على ماعرضناه عليك أنا ومعن من أمر .

قال معن ضاحكا وهو يهدىء من ثائرة فرسه المتوفز الحركة :

ــ الفكرة كلها فكرة زهير يا أبى ، وقد وافقته عليها فقط ، لم أضف شيئا الا رئاسة العبيد ..

ضحكَ مالكَ ويقولَ :

ــ لم يعودوا عبيدا من اليوم يامعن ، بل هم احرار لهم من الاحرار ما للاحرار من حق ، وعليهم ما على

الاحرار من واجبات ..
صاح زهير فرحا :
ـ هذا فعل السادة الاماجد يامالك بن فهم ، اليوم كتب لك فعل يذكره الناس من بعدك .
ضحك معن وقال :
ـ وماذا ستفعل بهؤلاء الاسارى من الفرس الذين يتساقطون فى أيدينا بالمئات . والسبايا من النساء والاطفال والعبيد ..
قال مالك :
ـ الكل فى السجون اما العبيد فلهم مالعبيدنا من حقوق ، اما السادة فسنرى فيهم امرنا ..
ثم استدار بفرسه وانطلق يقود رجاله لانهاء معركته الاخيرة التى حررت عمان ، وأعادتها ارضا دائمة للعرب.

— ٢٢ —

قال المؤرخ سرحان بن سعيد الازكوى العمانى فى كتابه « كشف الغمة الجامع لاخبار الامة » :
« وتحمل بقية الفرس فى السفن وركبوا البحر الى فارس ، فاستولى مالك على عمان ، وغنم جميع أموال الفرس ، وأسر منهم خلقا كثيرا ، مكثوا فى السجن زمانا طويلا ، ثم أطلقهم مالك ومن عليهم بأرواحهم وكساهم وزودهم ووصلهم فى السفن الى ارض فارس . ملك عمان وما يليها من الاطراف ، وساسها سياسة حسنة وسار فيها سيرة جميلة . وله ولاولاده فى مسيرهم الى عمان وحربهم الفرس أشعار كثيرة وشواهد تركتها طلبا للاختصار » ..
انتهى كلام سرحان بن سعيد الازكوى العمانى .

هموم فولكلورية

في الصباح التقيت بالصديق الفنان الاستاذ يوسف الشاروني واحد من المع القصاصين المصريين منذ الستينات ، وواحد من الاصدقاء الذين ظلت حبال الصداقة والفن والبحث ممدودة بيني وبينهم على مر السنين .. وكان يوسف هادئا مبتسما كعادته ، ولم الحظ عليه مر السنين . كان الاستاذ سعيد منصور الخبير في المديرية العامة للاعلام هو الذي رتب لناهذا اللقاء ، وكان الاخ نجيب رجب هو الذي اخلى لنا أحد الصالونات العديدة في المديرية لنتحدث معا بحرية . وكنا بالفعل لم نلتق من زمن ، أي منذ غادر القاهرة حاملا عصاه مرتحلا هنا وهناك ، مرة يدرس ، ومرة يترجم ، وهو في كل هذه المرات دائم الكتابة ، دائم الاطلاع والبحث .. وكان يوسف منذ البدء مهتما بالتراث العربي بعامة والقصصي منه بصفة خاصة . وقد دارت بيني وبينه مناقشات حميمة في مكتبي حول نتائج دراساته ونتائج دراساتي . وكان دائما الطلعة الذي لا يتوقف عن الاستزادة وطلب كل شيء في مظانه دون كلل أو تعب . قال يوسف ونحن نأخذ مجلسنا فوق اريكة فاخرة :

– لا يدهشني أن نلتقي هنا ، فأنا أسبقك منذ سنوات في التعرف على عمان وتراثها ، وكنت واثقا

ان طريقك لابد أن يقودك الى هنا ان آجلا أو عاجلا .
وضحك وهو يقول :
ـ ماأخبارك مع مالك بن فهم ؟
وحين بدت الدهشة على وجهى قال وهو مستمر فى ضحكته الهادئة العميقة :
ـ كنت اعرف انك ستعثر عليه ، وانك ستقف عنده . لو لم تسع أنت اليه لسعى اليك بنفسه ، وهى معادلة مدهشة ، ولكنها ليست مجازا تأكد ، فهو شخصية كشخصية سيف بن ذى يزن ، وان كنا لا نعرف عنه الا الجانب التاريخى ، عكس سيف الذى عرفنا عنه الجانبين التاريخى والشعبى معا .
قلت وأنا أستعيد تجربتى مع هذه الشخصية الفريدة فى تاريخ عمان ، بل وفى تاريخ العرب بعامة :
ـ فى كتاب الأزكوى وتاريخ أهل عمان ، وحكايات حدثت فى عمان ، وغيرها من مظان التاريخ العمانى القديم تتكرر القصة بنفس الطريقة ، بل بنفس الاسلوب ، بل بنفس الالفاظ التى استعملت فى كل قصة ، وهذا يعنى ان القصة منقولة من مؤلف واحد ، أو نقلت من مؤلف الى مؤلف دون تعديل ما ، وان كان هناك بعض الحذف عند واحد ، واضافات طفيفة عند آخر ، أرجعها كلها الى طبيعة النسخة التى نقل كل منهم عنها .
ضحك يوسف وقال :
ـ نحن أمام مصادر تاريخية استقت من مصدر واحد ربما ، ولكنها تظل فى حدود العمل التاريخى .
قلت :
ـ قد يبدو هذا فى ظاهره صحيحا ، الا أننى أميل الى اعتبار مادون مادة تاريخية مختلطة بالمادة الشعبية،

قام جامعها ومصنفها الاول بحذف الابداعات الشعبية منها ، والاكتفاء بالمادة الخبرية قدر الامكان . ودليلى على هذا قول الازكوى فى كتاب « كشف الغمة لاخبار الامة » فى نهاية ذكر رحلة الازد الى عمان : « وله ـ يعنى لمالك بن فهم ـ ولاولاده فى سيرهم الى عمان ، وحربهم الفرس اشعار كثيرة وشواهد تركتها طلبا للاختصار » فالنص صريح هنا على حذف الشعر والشواهد الكثيرة . والشعر كما تعلم يقوم بمهمة ضابط الايقاع فى السير الشعبية ، لانه يذكر الحفظة للسيرة والرواة بالمظان الروائية الهامة التى يدخل فيها الخيال ، وتبرز أهمية الشعر فى التعبير عن رؤاه ، وعن مجال الحركة الوجدانية عند ابطال هذه السير .

قال يوسف الشاروني فى بطء من يحاول أن يتذكر شيئا قرأه من زمن

ـ اذكر أن هناك فى بعض الروايات المذكورة حول رحلة الازد شعرا كذلك الشعر الذى قاله مالك عندما اخذت ابله تتلفت نحو أوطانها الاولى عن مسيرها ، والشعر الذى قيل فى تسمية عمان ، والشعر الذى قيل فى مقتله بسهم ابنه سليمه .

قلت :

ـ هناك فعلا بعض ابيات متنثرة هنا وهناك ولكنها كما قلت شاهد على ماحدث أكثر من كونها كل ما قيل من شعر ، فالازكوى يقول فى صدد مصرع مالك « فقال مالك حين أصابه السهم قصيدة طويلة انتخبت منها هذه الابيات » ثم يورد مجموعة من الابيات ربما كان هدفه منها اثبات البيت التى سار مسرى المثل فى المأثور العربى كله وهو « اعلمه الرماية كل يوم .. فلما اشتد

ساعده رماني » .. ثم يذكر أبياتا فى رثائه لابنه هناءه ، كما يورد بيتين من الشعر على لسان سليمه بن مالك فى ذكر حنينه الى عمان التى تغرب عنها .

قال يوسف :

ــ هذا صحيح وافتراضك هو الاقرب الى الصواب .

قلت مكملا الفكرة مما وعته الذاكرة من القراءات حول الموضوع :

ــ هناك شاهد رئيسى فى كشف الغمة يؤكــد أن حكاية مالك بن فهم كانت تتداول على السنة الرواة ، اى أنها كانت تروى كما تروى السير الشعبية العربيــة الكبيرة ، فهو يقول فى ذكر تآمر أهل « كرمان » على ملكهم حين مكنوا منه سليمة بن مالك بن فهم: « وكان فيهم من بيت الملك وهم قوامه ونظام ملكه ولكن كثر عليهــم ظلمه وكرهوه ، وأرادوا قتله راحة لهم ، فانظروا أيهــا السامعون فى عاقبة الظلم والجــور أدى الى أن يقتله اقرباؤه ، ولو عدل لاحبه البعداء والادنياء ، وتمنوا له طول العمر والنصر على الاعداء » ..

قال يوسف :

ــ هذا اقرب الى اسلوب السير الشعبية بالفعل ، والسجع الموجود فى آخر الفقرة يساعد على الحفظ والتداول ولست ادرى لماذا لم تصل الينا عن مالك سيرة شعبية كاملة ؟

قلت :

ــ يروى برترام توماس صاحب كتاب «البلادالسعيدة» عدة قصص عن أبي زيد الهلالي وعن دياب بن غانم سمعها من بعض أفراد قبيلة الهلالية الذين يقطنون ــ كمــا يقول ــ فى نهاية منطقة الربع الخالي ، وقرب المنطقة

التي نسميها الآن دولة الامارات ، أى فى شمال عمان . والمدهش أن الهلالية أساسا هى سيرة التغريبة ، أو سيرة رحلة بنى هلال من منطقتهم هذه الى تونس . ومع هذا فان تغريبة مالك بن فهم أو رحلته من اليمن الى عمان يقفز عليها من أوردوا قصتها قفزا ، فالجزء الخاص بتغريبة الازد لا قيمة له ، لانه يرد كمجرد أخبار عن الرحلة ، واحسب أن هذا الجزء كان حافلا بالاحداث والمغامرات كعادة السير الشعبية بعامة ، وكما حدث بالنسبة للهلالية القريبة المنبع جغرافيا وبشريا من رحلة الازد أو تغريبتهم .

قال القصاص يوسف الشاروني :

ـ هذا الحوار يصلح لبدء دراسة هامة ومقارنة بين السير الكاملة والسير المجهضة ، وانا اعتبر سيرة مالك ـ ان أخرجناها من حيز الخبر التاريخى التى وردت به فى كتب التاريخ العمانى ـ سيرة شعبية مجهضة ، أو مختصرة ، وبمعنى آخر مظلومة .

قلت له متابعا مابدأته من حديث :

ـ وكما تمر الرحلة فى السرد لها دون حوادث ، فان الحوادث التى أعقبت الرحلة تذكر بسرعة رغم ماتحويه من مظان العقد الدرامية الثرية ، ومجالات القص التى يحبها الروائيون العرب ، ويقفون عندها وقفات طويلة متأنية مليئة بالشعر والاحداث والقصص الجانبية المتعددة ، وكلها تسوق بالضرورة الى طرح لقضايا فنية انسانية ثرية وعميقة فى آن واحد .

قال الصديق يوسف الشارونى :

ـ الحكايات العمانية التى جمعتها حتى الآن ثرية بالفعل بالقضايا الفنية والانسانية ..

قلت له :

ــ هناك اشارة في أخبار مالك بن فهم أنه المقصود بقوله تعالى « يأخذ كل سفينة غصبا » وستجد الازكوي يجادل الروايات الاخرى التى تحاول أو تضع غيره من ملوك عمان مكانه فى تفسير هذه الآية . وعلى كل حال فان هذه الاشارة تحكى عن حياة حافلة فى البحر ، وعن مغامرات متعددة جعلته المسيطر على الخليج ومشارفه سيطرة بحرية بحيث أصبح قادرا أن يأخذ كل سفينة غصبا .. فأين هذه الحكايات وماهي وكيف ضاعت ..؟ كل هذه الاسئلة تحير اى دارس للأدب الشعبي ، واى قارئ لاخبار مالك بن فهم . ثم ان هناك قصة علاقة زواج بينه وبين ابنة جار ازدي آخر له ، هو مالك ابن زهير الذى يقول عنه المؤرخون القدماء « وكان عظيم الشأن وكاد أن يكون مثل مالك في العز والقدر ، فخشي مالك أن يقع بينهما تحاسد ، وأن تقع بينهما حرب فخطب منه ابنته فزوجه على ان تكون لاولادها منه التقدمة والكبر على ساير الاولاد من غيرها . فأجابه مالك بن فهم الى ذلك وتزوجها فولدت له سليمة بن مالك ».. وهذا هو كل القول الذى يغطى هذه الفترة المليئة بالتنافس والحب والخطبة والزواج ، ثم مولد سليمة الذى يقدم على كل الابناء الذين شاركوا مالك رحلته ،وقادوا جيوشه وحاربوا جنبا الى جنب الى جواره .

قال الاستاذ الشاروني :

ــ هذه مواطن لايمكن أن يغفلها القصاص الشعبى ابدا ، رغم أن المؤرخين اكتفوا بجملة واحدة اذ ذكروا انه ملك عمان سبعين سنة وانه مات وعمره مائة وعشرون سنة . ومثل هذه الحياة كفيلة من اى قصاص

بجهد ثري وبعطاء فني كبير ».
قلت :
ـ وحادثة موت مالك بن فهم نفسها موضوع لعمل درامى من النوع التراجيدى المثير .
قال الصديق يوسف :
ـ قالوا أنه مات مقتولا بسهم خاطىء أطلقه عليه أحب أبنائه ، سليمة الذى جاء به من هذه المراة الازدية بنت مالك بن زهير ..
قلت مستعيدا الاحداث ، وما ذكرته كتب وأغفلته بعض الكتب الاخرى :
ـ قبل حادثة القتل هذه ، يذكرون حب مالك لابنه سليمة ومدى حظوته عنده ويقول الازكوى « كان سليمة أحب اخوته الى ابيه واحظاهم لديه واكرمهم عليه وارفعهم منزلة عنده ، وكان يعلمه الرمى حتى احذقه وصار حاذقا ماهرا فحسده اخوته لمكانه من أبيه ، وكانوا يطلبون له عثرة مع ابيه فلم يجدوا له عثرة » .. فأين هذه المساحة من الحب ومن التنافس ومن الغيرة ..
ـ تهتم بسليمة هذا اهتماما خاصا فيما يبدو .
ـ رغم أن شهرة مالك بن فهم قد طغت على شهرة ابنه سليمة ، ألا أننى أحس أن سليمة هو البطل الرئيسى فى مثل هذه السيرة الشعبية لو وجدت . فحياته تبدأ ومعها سيل من العواطف الانسانية المتضاربة والمتباينة ، فهو يثير غيرة أخوته منذ البدء ، ثم يقتل أباه خطأ ، ثم يهرب من انتقام اخوته منه وخاصة أخيه معن ، ويدفع هناءه الدية عنه ويحفظ دمه ، الا أن تهديد معن له لم ينقطع ، فيخرج راكبا البحر الى بر فارس ، وهناك يقتل ملك كرمان بحيلة تذكرنا بحيلة الزير سالم فى قتل حسان اليمانى ، ثم يستولى على القلعة وعلى الملك وعلى

الزوجة ايضا ، ويحكم كرمان ويقيم علاقاته مع اخيه هناءة فى عمان . وولد له عشرة أولاد كلهم ذكور ، فاذا مامات اختلف أولاده فزال ملكهم بفارس .

قال الصديق يوسف الشاروني :

ـ هذه سيرة أخرى تبدو من ناحية البناء متكاملة :

قلت :

ـ انت تعرف ان من عادة السير الشعبية أن تمهد للبطل بتتبع نسبه ، والوقوف عند البطولات الموجودة فى حلقات النسب هذه ، وخاصة السير الشعبية اليمنية . فسيرة سيف بن ذى يزن تبدأ فى فصولها الاولى بتتبع رحلة ابيه ذى يزن من اليمن الى الحجاز ، وانتصاراته فى معاركه ، وبنائه لمدينة يثرب التى سميت باسم وزيره المؤمن سرا والرافض لعبادة النجوم ، ثم كسوته للكعبة قبل أن يموت ، وهزيمته لليهود ، ثم كيف دسوا عليه زوجة هى قمرية أم سيف التى تقتله بدس حسكة مسمومة فى فراشه . وبعدها تبدأ السيرة تتركز حول سيف ثم حول أولاد سيف من بعده . هذا المنهج يبدو متبعا فى حكاية مالك بن فهم ، وابنه سليمة . بحيث أكاد احس ان الجزء الخاص بمالك مجرد مقدمة لسيرة شعبية عربية تدور حول سليمة ويكون هو بطلها ومن بعده أولاده .

صمت الصديق الشاروني لحظات يتأمل كلامى ، ثم هز رأسه موافقا وهو يقول :

ـ ربما كان فى كلامك هذا مايصلح منطلقا لبحث موسع في هذه السيرة ، وخاصة وأن رحلة مالك وهزيمة الفرس فى عمان تمهد لانتقال سليمة الى بلاد فارس وانتصاره عليهم هناك ، وهو منهج قومى متبع فى كل السير الشعبية العربية التى عرفناها ، أن يتحول البطل من

البطولة الفردية ، الى أن يكون بطل قبيلة تقوم باخضاع باقى القبائل العربية ، ثم تتزعم هذه القبائل فى معركة قومية ضد عدو خارجي .. ولكن اذا كان افتراضك صحيحا فأين هذه السيرة ..؟

قلت :

ـ عندى امل كبير ان يكون هناك من يحفظون اجزاء منها من بين الاحياء اليوم . ولو استطعنا أن نعثر عليهم ربما استطعنا أن نقوم بالدور القديم الذى قام بها مجمعو السير الشعبية العظماء القدامى . والا فستظل المدونات الحالية مجرد شواهد على بقايا عمل عظيم درس وضاع .

قال الاستاذ يوسف الشارونى :

ـ لقد شوقتنى الى بذل المجهود فى هذا الميدان .

قلت له :

ـ فاذا اضفت الى كل ما أثاره حديثنا هذا من قضايا حول هذه السيرة ، والعلاقة بينها وبين السيرة الهلالية ، والعلاقة بينها أيضا وبين سيرة سيف بن ذي يزن ، فان هناك علاقة لاشك فيها بينها وبين سيرة حمزة البهلوان . فسيرة حمزة سيرة فارس عربى يغامر فى بلاد فارس مرة مع كسرى ومرة ضد كسرى ، حقيقة تتركز هذه الاحداث فى شمال الجزيرة حول مالك النعمان بن المنذر ، وهذه الدول الفاصلة بين أرض العرب وارض الفرس ، واعنى بها دولة الحيرة ، الا ان التشابه فى الموضوع مع هذا يبقى قائما ..

ضحك الاستاذ الشارونى وهو يقول :

ـ لقد نجح صديقنا الكبير الاستاذ عباس خضر ان يحول اسمها فى صياغته المعاصرة لها الى اسم حمزة العرب ، وفى هذا الجيل اشتهرت بهذا الاسم . وهذا

يريك مقدار أهمية راوى العصر ، ومدى تاثيره على النص الشعبى القديم ، فقد يصل الامر الى احداث تغيير جذرى فيه ، والاستاذ عباس راى أن كلمة البهلوان الفارسية وهى تعنى البطل تلقى بظلال فارسية على حمزة بطل السيرة ، ففضل تسميته حمزة العرب ليعيد الانتماء العربى كاملا الى بطل السيرة .. ورغم أن راوى العصر محق فى الصياغة التى تلائم عصره الا اننى شخصيا اتحرج من هذا .

قلت له :

ـ لقد رأيت لك صياغات معاصرة لبعض الحكايات الشعبية العمانية ، ومنها مانشر فى العربى مؤخرا بعنوان القمر والقصر ، ولاحظت فعلا ارتباطك بالصياغة الشعبية ومحاولة الابقاء على طابع الحكى القديم .

قال الاستاذ الشارونى :

ـ لاشك أننى أتدخل فى السرد ، ولكنى بالفعل أحاول ان التصق بالنص قدر الامكان .. وهناك كما تعرف ، اتجاه فى أدب القصة العالمى كله الى العودة الى هذه المنابع ، والى تقليد أصالتها وتلقائيتها ، فما بالك وهى هنا عندنا بصورتها الاصلية دون حاجة الى بذل وعناء لتقليد نموذج بعينه .

قلت :

ـ لاحظت أن الحكاية الشعبية التى تختارها من الموروث العمانى لها ارتباط بالموروث العربى بعامة ، وبالانسانى بشكل أعم ، فقصة الحية التى تسمم الطعام والكلب الذى يحاول أن ينقذ صاحبه متكررة فى حكاية عن النعمان بن المنذر ، ولها شبيهات فى أكثر من موروث شعبى عالمى .

قال :

ـ آخر الامر فالموروث العمانى الشعبى جزء مـن الموروث العربى بعامة . وتكرار الوحدات الفولكلورية أمر انتهى اليه الدارسون من زمن . وقد حددوا مجموعات « التيمات » أو الوحدات الفولكلورية المتكررة فى المأثور العالمى الشعبى كله . وأصدروا بهذا الموسوعات والفهارس بعد أن نبذوا فكرة انتقال التراث وهجرته . وان كانت فكرة الهجرة والانتقال مازالت واردة فالامتزاج الثقـافى الشعبى بين شعوب العالم حقيقة لا مفر من الاعتراف بها والتسليم بآثار الارتباط الثقافى والغزو السـياسى والهجرات الجنسية والحروب والتجارة والتصـاهر والامتزاج . وكلها عوامل فاعله فى تداول الوحـدات الفولكلورية وانتقالها .

قلت :

ـ حديثك هذا يعيدنى الى حكاية سليمة بن مـالك ابن فهم الامير العربى الذى دعاه أهل كرامان الفـرس الى حكمهم ، والذى تولى الحكم طـاردا الحـاكم الفارس زمنا طويلا . فهى تذكرنى بحكاية وردت فى الشاهنامة للفردوسي . كما وردت فى العديد من كتب التراث الفارسى والعربى على السواء ، وهى حـكاية الضحاك الذى دعاه الفرس فى رواية الفردوسى للشاهنامة الى حكم فارس بعد أن طغى ملكهم الاسطورى جمشـيد وبغى وكفر . ويحكى الفردوسى أن مرداس كان ملك العرب وكان ملكا صالحا وكان له ابن اسمه بيوراسب وبيور معناها عشرة آلاف واسب هو الفرس ، وكـان يلقب بالضحاك ـ ظهر له ابليس واشترى منه نفسه ، فقتل أباه واستولى على الملك . ثم طلب لكمنه ابليس أن يقبل منكبيه ، فلما سمح له بتقبيلهما ظهرت على منكبيه حيتان ، كلما قطعتا عادتا من جديد ـ وقال الحكماء أنهما

لابد أن يأكلا من ادمغة الناس حتى لايضطربا ويتأذى منهما الملك ، فاستباح أرواح الناس لتغذية الحيتين . وفى فارس استبد جمشيد ومرق عن الدين ، فخلع امراء فارس طاعتهم له ، وتفرقوا ودب فى البلاد الفساد ، حتى اجتمع أمرهم على تمليك الضحاك العربى ، فقبل الأمر وملك على فارس ، واطاعه ملوكها وأمراؤها . ويقول الدكتور عبد الوهاب عزام فى حاشية الشاهنامة ان الضحاك كان تمثال العداوة بين الايرانيين والاشوريين ثم الكلدانيين ولكنه يتحول فى الشاهنامة عربيا وينسب الى اليمن . وأن العرب جعلوا بعد ذلك من الضحاك ملكا من ملوك تبابعة اليمن . وحكوا عنه أساطير كثيرة ..
الصورة قريبة من الناحية الشعبية ، وامكانية تداخل البطل هنا وهناك اكثر قربا . والقصاص الشعبى فى الأدب الفارسي لابد أن يكون قد استند الى حادثة تاريخية فى نسبته العربية للضحاك الحميرى اليمنى . ومالك بن فهم اتى من اليمن وابنه سليل الحميريين ، والمكان والزمان عند القصاص الشعبى أشياء نسبية ، وعوائق وهمية ، لا تحول دون تحركه الروائى بحرية كاملة في ابعادهما دون أن يجد فى هذا غضاضة ، ودون أن يكون فيه مأخذ عليه ولا على عمله القصصى ..

ضحك الصديق يوسف الشارونى الذى كان يتتبع حديثي باهتمام زائد ، وقال :

ــ أنت تفتح بهذا كله بابا طريفا للدراسة المقارنة للموروث الشعبى القديم . وقد اثبتت دراسات عديدة حدوث هذا التزاوج والامتزاج بين الموروثات الشعبية فى آداب مختلفة ، فلماذا لا تصدق هذه الفرضية هنا ايضا . ولكن المسألة لا تزيد عن الفرضية النظرية ، فليس لدينا من قصة سليمة بن مالك الا هذه الصفحات

المتعجلة السريعة فى كتب التاريخ العمانى .

قلت مكررا بعض الافتراضـــات التى ســــبق ان طرحتها :

ـ ليس أمامنا الا البحث عن بعض المعمـــرين الذين يحفظون من الموروث الشعبي مايمكن أن يقودنا الى بعض بقايا هذه الاعمال الشعبية . وكـذلك اعادة قـــراءة المخطوطات التى تتعرض للتاريخ القديم وربما تكون الاحداث قد افلتت من أيدى الرقباء على مر الزمن وبقيت لـــا لم نكتشفها بعد .

قطع علينا حديثنا دخول القهوة العربية والتمرالعمانى . فضحك الصديق الشارونى وقال :

ـ نحن ضيفان ، ومع هذا يبدو الامر وكأن أحـدنا صاحب دار والثانى ضيفه .

رددت ضاحكا :

ـ بل ان العمانيين يحرصون دائما أن يكون كل ضيف لهم صاحب البيت .

عاد يقول :

ـ لا اظن ان رحلتك هذه على قصر مدتها ستنتهى دون المزيد من القضايا الفولكلورية المثارة .

صافحته بعد أن شربنا القهوة ، وقلت مودعا :

ـ أرجو هذا مخلصا ، فكل جديد سيفتح لنا ابوابا جديدة لنزداد اقترابا من روح الانسان العربى عبر تاريخه ومن خلال موروثه الشعبى .

***

وقد صدق الاستاذ الشارونى فى نبوءته ، فما كدت أصل الى الفندق ظهرا حتى وجدت فى انتظـــارى صديقا قديما لم أره منذ سنوات طويلة . ولم يـكن وجوده مفاجأة ، فقد كنت اعرف انه فى عمان من زمن ،

وأنه لو عرف أنني موجود بها لكلف نفسه مشقة البحث عني ، ولقائي ، فالصديق الشاعر أبرهيم شعراوى من هذه النفوس التى تخلص الود وتعرف للصداقة حقها . وكانت ابتسامته العريضة تملأ وجهه الاسمر النوبى اللامح ، وقبل أن اتكلم بادرنى صاخبا :

ـ كيف أنت .. تأخرت ، تأخرت .. لقد سبقناك الى كنوز المعرفة الشعبية هنا ، فأحزم حقائبك وأرحل .. فى هذه المرة انت جئت متأخرا ..

ضحكت وانا أصافحه واقبل وجنتيه السميكتى الجلد وقلت :

ـ أنت كما هو لم تتغير ياابراهيم ، العناء فى عينيك ، والحب فى قلبك ، ولسانك سليط أبدا ..

قال وهو يجرنى جرا الى جانب بعيد من صالة الاستقبال فى الفندق الضخم :

ـ لقمة العيال وضمناها فلا خوف على مصدر الوجبة التالية ، وكسوة العيال ومكفولة والحمد لله ، وابتعدنا عن المعذبين ممن يملأون الوسط الثقافى بضجيجهم ولا طحن ..

سألته معاتبا :

ـ وانت هنا فى طحن ؟

قال وقد تهللت أساريره فاختفت معالم السنين من على وجهه وبدا بسماحته الطفلة من جديد :

ـ انا اكتب الشعر والقصة ، ولى برنامج اذاعى فى اذاعة عمان ، ثم انت تعرف أننى اتجهت الى الكتابة للأطفال ، شعرا ونثرا على السواء .. فانا هنا فى طحن دائم .

أسعدنى ما اسمعه منه فأسوا مايصيب الفنان أن يتوقف عن الانتاج ، وما يقوله يعنى ايضا أن عمان الحديثة تسعد

بيئة أدبية تسمح للفنان ان يستمر وان ينوع وان يجدد، وأن يكتشف . وكأنما كان يقرأ ما يدور فى خاطرى اذ قال :

ـ الحركة الادبية وسط الشباب حركة يقظة وواعدة ، ولهم منتدى يقيمون فيه ندواتهم الادبية ، كما أن كتبهم تلقى ترحيبا من أجهزة النشر . الا أن كبار الادباء من الشيوخ لا يحسون بالاندماج مع هذه الحركة ، فهناك مسألة التجديد ، والاغراب والغموض ، وهى القضايا التى تبعد كبار الادباء عن انتاج الشباب فى كل عالمنا العربى .

سألته :

ـ هل من المتيسر اللقاء بهذا المنتدى ، وببعض شيوخ الادباء .

قال بسرعة :

ـ اطلب من مرافقك وسيعد لك ماتريد ، فهم هنا لا يبخلون على ضيوفهم بشىء .

ثم أردف قائلا بعد سكتة قصيرة :

ـ ألشعر النبطى هنا له جلساته وله احتفالاته الخاصة ، والشعراء فيه عديدون ومجيدون ، والاذاعة والتلفزيون يهتمان به اهتماما كبيرا باعتباره ابداعا شعبيا مميزا .

سألته :

ـ اليس فى وجودك هنا فرصة لدراسة هذا الشعر ، وجمع مجموعة منه تبرز خصائصه المميزة ..

قال ضاحكا :

ـ هذا ما افعله بالفعل ، وانا ابحث خاصة عند الشعراء الذين يعيشون فى القرى والجبال فهؤلاء يملكون الفن التلقائى ابن الفطرة والموهبة ، والحامل لتراث كبير من

السمات والخصائص المميزة والمتوارثة ، ولو انى أعرف انك لا تعتبر هذا الشعر شعبيا بالمعنى العلمى للكلمة .

قلت :

ـ هو عندى شعر عامى محلى ، لا يرقى الى مستوى العمل الشعبى الا اذا استمر عبر الزمان ، وخرج من محدوديته البيئية الى شمولية التلقى والتداول فى عمان كلها ، فاذا ماتجاوزها تحقق له ان يكون شعرا شعبيا عربيا لاعمانيا وحسب . ونحن نخلط بين الشعر العامى والشعر الشعبى فى كل وسائل الاعلام العربية ، ونطلق كلمة الشعبى هنا اطلاقا طبقيا ، وهذا يغير من مفهومها العلمى تماما .. فالشعر الشعبى هو الشعر المتداول عند الشعب كله بحيث يصبح من مأثوراته المتوارثة ويثبت عبر الزمان وعبر المكان أيضا ، سواء كان مكتوبا باللهجة العامية أو بالعربية الفصحى .. والشرط الثانى أن ينسى قائله ، ويضيع المبدع فى زخم التداول الشعبى بحيث يصبح النص الشعرى ملكا للمجموع الذى اختاره للتداول وأبقاه ولم يلتفت الى قائله ، اذ وجد هذا المجموع نفسه فيه ، وغدا النص الشعرى ينسب الى المجموع كله لا الى فرد بذاته .

قال الصديق ابراهيم شعراوى :

ـ ستظل هذه القضية قضية خلافية فأثر وسائل الاعلام غلاب ، وهم يسمون كل شىء يأتى من الطبقات الفقيرة وغير المتعلمة شعبيا ، وهى تسمية كما قلت انت طبقية لا علمية .

قلت له :

ـ المسألة ليست قاصرة على وسائل الاعلام ، فالمصطلح نفسه قد اضطربت مفاهيمه عند الادباء والكتاب انفسهم . بل ان بعض المتخصصين فى الدراسات الشعبية

يستعملونه بنفس المعنى الذى تستعمله به وســائل الاعلام وتفرضه على المفاهيم العامة للناس .
قال :
ــ هذا صحيح وهناك كتب مؤلفة عن الشعر الشعبى والشعراء الشعبيين ، وحقيقتها جمع لانتاج شــعراء العاميات المحلية ودراستها ودراسة الشعراء انفســهم والتأريخ لهم .
قلت :
ــ هذا أدخل فى دراسة الادب العامى ، لا الادب الشعبى فهذا الشعر يعبر عن قائله وحده ، ودراسته لا يمكن أن تتم الا اذا تعرفنا على الشاعر وظروفه وبيئته ووسائله الفنية ، والدراسة ستعرفنا بالشاعر وشعره ولغتــه وقاموسه ، ولكنها لن تقدم لنا شيئا عن الشعب نفســه الذى لا يكشف هذا الشعر عنه أكثر مما يكشف الشعر الفصيح الذى نعرفه من خلال قائله أيضا .
قال الصديق أبراهيم شعراوى وهو يتأهب للنهوض ومغادرتى :
ــ أعدك أننى سأحاول جمع الباقى الموروث من مأثور قولى متداول ، وهذا فى الحقيقة كثير جدا هنا ، ودراسته ستقودنا الى معرفة لماذا بقى فى ضمائر الناس ، وكم يكشف من خصائص الانسان العمانى عبر التاريخ ..
ثم صافحنى وهو يقول :
ــ اثقلت عليك ولو اننى أعرف أن موضوع حديثنــا يشوقك ، وارجو أن نلتقى مرة اخرى .

***

لم تتحقق أمنية الصديق أبراهيم شعراوى حتى الان، رغم أننا تركنا الموضوع مفتوحا وصالحا لمزيد من الجدل والقول . الا أن المساء كان يحمل لى مزيدا من قضــايا

الفولكلور التى تتعقبنى فى كل مكان . فقـد دعانى الاخ الاستاذ محمد سالم المرهون مدير الاعلام على العشاء ، في قاعة الطعام الفاخرة بالفندق ضمتنا جلسة حميمة شارك فيها الاخ الاستاذ غازى عبد الله من العـــلاقات العامة والاخ الاستاذ نجيب رجب عوض المرافق لى فى هذه الزيارة ، كما ضمت هذه الجلسة الصديق الشاعر مصطفى الضمرانى ملحقنا الاعلامى فى عمان ، والاستاذ عصام رفعت رئيس تحرير الاهرام الاقتصادى الذى كان فى زيارة مثلى لعمان ، والصديق القديم الدكتور يوسف شوقى الذى يقيم من فترة فى عمان يقوم فيها بمهمة على غاية الاهمية والدقة . فقد أنشأ ما أسماه مركز الفنون التقليدية ، ومن هنا كان مدخلنا الى الحديث طوال سهرة العشاء عن الفولكلور من جديد ـ فقبل أن يصل الطعام الذى اختاره لنا الدكتور يوسف ـ وهو بالمناسبة خبير لا يجارى فى مسالة انتقاء الاطعمة ـ كان الجدل قد بدأ حول هذا المصطلح الجديد الذى اختاره للجمع الميدانى الذى يقوم به من أنحاء عمان كلها للموسيقى والرقصات الشعبية المعروفة والممارسة . ولانواع الازياء والحلى ذات الطابع المحلى المميز .. فقد اختار المجمـع اللغوى فى القاهرة تسمية المأثورات الشعبية ، واختار رجال علم الاجتماع مصطلح الثقافة الشعبية ، كما اختار رجـال الادب كلمة الموروث الشعبى . الا أن الجميع اتفقوا على استعمال الكلمة العالمية التى أخذت سمة الشيوع رغم اختلاف اللغات التى تستعملها وهى كلمة الفولكلور ، ليصبح المصطلح صالحا للاستعمال على المستوى المحلى والعالمى معا . قال الدكتور شوقى مجادلا :

ـ الســـت معى ان الفنون التقليدية تعطى نفس المعنى ؟ .

تدخل الصديق عصام رفعت قبل أن أجيب قائلا :

ـ تقليدية من التقليد أم من التقاليد ؟

وقال الشاعر مصطفى الضمرانى :

ـ لو كانت من التقاليد لكانت التقاليدية ، أما وهى تقليدية فهى من التقليد اى المحاكاة ..

قلت :

ـ اعتقد ان الكلمة مترجمة عن معنى كلمة تقاليد الانجليزية والنسبة العربية اليها هى التى وقع فيها الخطأ ..

قال الدكتور يوسف :

ـ هذا صحيح ، ولوانى لاأرى اى خطأ فى النسبة ، فنحن نعنى الفنون المتوارثة التى هى سمة للتقاليد المتوارثة المعروفة من قديم . وهى لا تكون بهذا المعنى الا اذا قلد فيها الابناء آباءهم ..

قلت :

ـ ربما كان هذا صحيحا ، ولكن المصطلح يوقعنا فى دوامة من المحظورات . وما كان أجدى لنا أن نختار واحدا من المصطلحات المستقرة والواضحة الدلالة . وعلى كل حال فان الفن التقاليدى ليس بالضرورة هو الفن الشعبى المقصود بالمصطلح . فالتقاليد قد يحتفظ بها بحكم سيادة طبقة ومعنى ، لا بحكم شيوعها عند الشعب وتعبيرها عن روحه ووجوده . والتقليد او المحاكاة قد تكون لشىء هجر ولم يعد سائدا لمجرد طرافته أو غرابته لا لدلالته على روح الجماعة ونبضها .

قال الدكتور يوسف فى حماس :

ـ ان ماجمعته يمثل الفنون التى يعيشها الشعب الى الآن ، وزيارة الى المركز ستثبت بالتسجيلات الصوتية والفوتوغرافية مدى ما أمكننا تسجيله من فنون عمان

التي مازالت تمارس في كل جهات عمان على أختلاف طبيعة الفن وطبيعة الثقافة وطبيعة الحياة ..

تدخل الصديق محمد سالم المسرهون قائلا بأدبه الرفيق :

ـ في الحر وفي البرد ، في الصيف وفي الشتاء ، ظل الدكتور يوسف شوقي ينتقل من مكان الى مكان ومعه معداته وأجهزته ، لا يثنيه شيء عن اتمام مهمته في كل مكان وتحت كل الظروف .

وقال الاستاذ محمد غازي :

ـ لقد كان ولا يزال الدكتور يوسف صورة للدأب والاخلاص والجدية الكاملة في عمله الذي اخلص له وأحبه وحقق فيه هذا الانجاز الضخم .

ضحك الدكتور يوسف وقال :

ـ وانا اعتبره هدية للبلد التي أحببت ، لعمان .

تدخل الاستاذ عصام رفعت في نبرة هادئة في الحديث قائلا :

ـ انا كرجل اقتصاد أحس أن الأعوام القليلة الماضية قد حملت لعمان تعرفا حقيقيا بامكانياتها الاقتصادية الهائلة ، وأنها أستطاعت أن تخطط لتوظيف هذه الامكانيات توظيفا فعليا في بناء انسان اليوم وانسان الغد على السواء . ولكنني كرجل اقتصاد أيضا أعرف انه لا يمكن البناء من فراغ ، وأنه لابد من وجود الجذور العميقة في التاريخ وفي الارض لكي يكون البناء المشاد مستمرا وباقيا ، ورغم عدم تبحري في العلوم الادبية فانني احسب أن علوم الموروثات ، أيا كانت تسميتها ، هي المهاد الحقيقي الذي يقام عليه اساس اي بناء ، ومن هنا كان اهتمامي بالقضية المطروحة ، فهل ما حققه هذا المركز يكون لبنة مافي هذا الاساس ، او تعرف ماهي معالمه .

قال الصديق الشاعر مصطفى القمراني :
ــ لقد زرت هذا المركز وعرفت الى حد ما حقيقة الجهد المبذول فيه ، وفى المادة المجموعة والمسجلة والمصورة ، وهي كلها تشهد بأن هذا الجزء من حياة عمان قد سجل بأمانة وصدق .

قلت :

ــ لقد مررت مرورا عابرا بالمركز ، ولكن ماقاله لى الصديق يوسف شوقى عن جهده يعكس الصورة التى تم بها جمع ماهو قائم الآن من فنون شعبية تؤديها الفرق الشعبية الموجودة فى عمان ، والتى مازالت تحفظ هذه الالحان والاغانى والموروثات الشعبية القديمة . وهو جهد لاشك عظيم وكبير ، وكان لابد منه حتى لا تضيع هذه الاشياء الموجودة الان فى غمار الغزو الاعلامى الاذاعى والتلفزيونى التى تعرضت له هذه الفنون فى اجزاء الوطن العربى فزورت وضاعت صورها الممارسة والفعلية الآن .. وحلت محلها فى أداء الفرق الشعبية فنون تزاوجية ، زاوجت بين الباقى من الموروث الشعبى ، والسهل والملفت من ألاعمال الجديدة للاذاعة والتلفزيون

قال الدكتور يوسف شوقى :

ــ لاحظ أن الكثيرين من الملحنين والمؤدين بل وكاتبى الكلمات انفسهم يلجأون الى هذا الموروث نفسه فى محاولة للاستفادة من سيرورته وشيوعه . فهم يسطون على بعض الالحان أو الكلمات ويكملونها من عندهم ويعيدون طرحها على المتلقى باعتبارها من نتاجهم من ناحية ، وباعتبارها نتاجا شعبيا من جهة اخرى .

قال الاستاذ عصام رفعت :

ــ هذا واضح فقد أصبحت كلمة شعبى تطلق على فرق الرقص والموسيقى المتطورة والتى تعرض فى أحدث

المسارح وتستخدم أحدث وسائل العرض وتقنياته .
قال الشاعر مصطفى الضمرانى :
ـ اللجوء الى الموروث فى الشعر والاغنية امر مألوف ووارد ، فنحن نستمد من تراثنا وجودنا الحضارى والثقافى ، واعتقد أن هذا وارد أيضا بالنسبة للحن والاداء فى الرقص مثلا .
قال الاستاذ المرهون :
ـ حتى فى الازياء ، فنحن نتمسك بأزيائنا المتوارثة لانها بنت البيئة من ناحية ، ولانها زينا القومى من ناحية أخرى .
قلت :
ـ من هنا كان فرق بين الجمع الشعبى الفولكلورى للموروث ، وبين تسجيل ورصد ماهو قائم بالفعل عند مرحلة زمانية معينة فى شعب بذاته . فالبحث الفولكلورى يهتم بالممارسات الفنية التلقائية العفوية التى لم يدخلها التثقيف والتهذيب ووسائل المدنية الحديثة . فهذه الوسائل تضيف البعد المنظم الذى هو نتاج عقلية بذاتها ، وليست هى وليدة الحركة الجمعية .
سأل الصديق عصام رفعت :
ـ وكيف يكون الجمع الفولكلورى اذن ؟
قلت :
ـ هناك حامل التراث ، أى ابن البلد الاصيل نفسه الذى يمارس موروثه الفولكلورى ممارسة تلقائية ، سواء فى استخدام أدوات البيئة فى صناعاته ، وفى ممارسة بقايا عادات وطقوس منحدرة اليه ويحفظها ويزاولها كأشياء طبيعية فى المناسبات والازمنة التى توارث الاحتفال بها فيها ، او فى ترداد محفوظه من أغانى العمل أو الافراح أو الاحزان أو المناسبات ترديدا محفوظا

بشكله التلقائى الذى انحدر اليه . من هنا يبدأ البحث الفولكلورى ، والتصنيف الفولكلورى . ثم نبدأ بعد هذا كل أعمال الدراسة والمقارنة وتطبيق مناهج ووسائل البحث الفولكلورى العلمية . أما اللجوء الى راوى التراث أى محترف روايته وتناقله فهذا لابد فيه من تحديد الزمن والظروف وتثبيتهما ، لاننا نجمع الصورة المتطورة من الموروث على ايدى المحترفين ، وبما وصلوا اليه من تطور الآن ، أى لحظة الجمع . وهى مهمة خطيرة وهامة ولكنها ليست كل المهمة .

وهنا جاء الطعام فسكتت الكلمات ، واستطعنا أن نسمع أصوات الموسيقى الخفيفة المتسللة الينا من أرجاء المكان ، وغدا صوتنا البشرى نشازا مع الطعام المنتقى والموسيقى الناعمة ، الا أننى قلت للأخ سالم المرهون :

ــ أظن اننى سأتمكن من زيارة مسقط غدا ؟

ضحك وقال :

ــ لا ، رحلتك غدا الى نزوى ، وبعدها الى صلالة . أما مسقط فباقية هنا بانتظارك .

وانصرفت الى طعامى وأنا أعجب من تصاريف القدر فها أنا على باب مسقط لا يفصلنى عنها الا طريق قصير ، ومع هذا فأنا بعيد عنها فى هذا الفندق الفاخر ، وستبعدنى عنها رحلتان نائيتان واحدة بالسيارة الى نزوى ، وواحدة بالطائرة الى صلالة .. ولكنى تعلمت دائما أن كل شىء بميقات .

نزوى .. مدينة العِلم والأقدار

المدن كالناس .. تولد لنجم ساطع ، او تولد لنجم خاب . وتولد للشقاء والعناء ، فاذا هي في القمة ، أو اذا هي في القاع . واذا هي تعرف الشرف والسؤدد ، واذا هي تتعرض للمهانة والعذاب .. ولكنها أيضا كالناس أن صدق معدنهم صدقوا . وان كان معدنهم زيفـــا اندثروا مهما تألق وجودهم للحظات ، ومهما أحدثوا من ضجة واثاروا لاهتمام لا يستمر الا الى حين ، ثم اذ هم صفحة من وجود انطوى بخيره وشره ، لا يعاد لها نشر أو احياء .. وكم من مدن تألقت في عصر وازدهـــرت ثم اندثرت تماما الى لا عودة ــ وكم مـــدن سـميت بالمـــدن الاشباح شهدت الثروة والجاه والمجد ، وامتلأت بيوتها وازقتها بالاطماع والطموحات والعنف ، ثم لم تبق منها الا اطلال تحكي ان حياة كانت هنا ، وان حياة انسحبت من هنا والى الابد .. ونزوى مدينة عرفت القمـــة ، وأن تكون مركز الحياة ومركز الاشعاع . نزوى هي المدينة التي دارت فيها المعارك الملحمية لمالك بن فهم في اخراجه للفرس من عمان . وهي المدينة التي شهدت أحـــداث الائمة من عصر الجلندى وعبر تاريخ طويل ، من احتوى نزوى فقد سيطر على القلب من عمان . ووقفت نزوى مدرسة علميةدينية كبيرة لايضاهيها الا مدرسةالرستاق .

وعلى مر الزمن عاشت نزوى كل أحداث الفتنة والمعارك، وكل أحداث النصر والازدهار . وكانت أبدا كلمة العلم والدين والمذهب .. فقد جعل آخر بنى الجلندى نزوى عاصمة حصينة كما يقول السالمى فى تحفة الاعيان . وحين انكر الاباضيون على الامام محمد بن ابى عفان فى حوالى عام نيف ومائة وسبعين أخرجوه اولا من نزوى ثم عزلوه. ثم كانت حاضرة الامامة بعد هذا الى أن سلمت نزوى الى جيوش الخلافة العباسية فى عهد المعتضد العباسى . ويعقب سرحان بن سعيد الازكوى في كتابه كشف الغمة الجامع لاخبار الامة على هذه الواقعة بقوله : « وما كان قتالهم وحربهم بينهم الا طلبا للملك ورغبة فى الرياسة ، وكل منهم يود أن يكون الملك بيده أو بيد من مال اليه بوده، فسلط الله عليهم من هو للملك أطلب منهم ، أفسدوا دينهم فنزع الله عنهم دولتهم وسلط عليهم عدوهم ، وكانت دولة الاباضية قد ملكوها الى أن خرجت من أيديهم مائة سنة وثلاث وستين سنة الا شهرا واثنى عشر يوما والله أعلم » .. هى قصة المدينة والناس . والناس يفقدون مكانتهم وسلطانهم أن هم أستسلموا لاطماعهم وشهواتهم ، وأعمتهم لحظات الان ، عن حقيقة الغد . ونسوا فى غمرة السباق نحو الملك والسلطة ، أن غيرهم يتربص بهم ، وان فرقتهم هى سقطتهم فى بئر النسيان والتبعية والذلة .. وانهم حين يضيع ريحهم يضيع معهم ومعه كل ما آمنوا به من مبادىء ، وما اعتنقوا من قيم ودين .. والمدينة تعز بفرسانها ، وتذل بذل رجالها ، ولكنها تبقى وهم يزولون .. تبقى شاهدا على تقلب أحوال الناس ، وتقلب الاقدار بأحوال الناس . فى نزوى كان الملك والسيادة ، وفى نزوى كان العلم والريادة ..

كانت هذه الخواطر تدور برأسي والسيارة تنزلق فوق الطريق الاسفلتي الناعم الذى لا تحس فوقه لحـركة السيارة السريعة أي اهتزاز ، وقال الصديق طارق فودة :

ـ السيارة كأنها تطير .. هذا طريق رائع ..

ضحكت وانا اقول :

ـ أول شاهد على التحرك نحو الحضارة قيام شبكة الطرق التى تحقق الاتصال والعمران ، وتؤكد وحدة المكان ، وتختصر البعد الزمانى بين الناس .

وكان الاستاذ طارق رفيقى فى هذه الرحلة الى نزوى وكان رفيقنا الثالث من الارجنتين ، جاء اندرو جراهام بول مندوبا عن مجلة « الغرب » التى تصدر بالانجليزية فى لندن ، ليزور عمان ويكتب عن عمان وحركة النهضة الجديدة الشامخة فيها .. ولكن الكتابة عن نهضـة أمة عريقة لابد أن ترتبط بالتعرف على معالم العـراقة والأصالة فيها ، ولذلك كان فى طريقه معنا الى نزوى . وقال طارق :

ـ اذا كان على الطرق فما أكثرها هنا ، لقد شـاهدت الطرق المرصوفة فوق الجبال وفوق الاودية أيضا ، وكلها فى مثل هذا الانسياب .

ثم ضحك وهو يوجه سؤالا بالانجليزية لرفيقنا الثالث قائلا :

ـ مارأيك يامستر اندرو ، هل لديكم فى الارجنتين مثل هذا الاهتمام بالطرق .

ضحك أندرو ، فأوضحت ضحكته عن شباب تخفيه اللحية والنظرة الجادة وقال :

ـ ماتعيشونه هنا نعيشه هناك ، نفس الصراع مـن

أجل أن نستعيد وجودنا ، وأن نبدأ من جديد ..
ثم ضحك ضحكة خشنة وهو يقول :
ـ الدول التى تريد أن تكون صاحبة القرار فى أمرها عليها أن تصنع الكثير .
نظر الى طارق فودة وقال :
ـ نتحدث عن الطرق فينقلب الحديث الى السياسة .
ضحكت وأنا أقول :
ـ أليس هذا هما مشتركا أيضا ..
تركنى طارق والتفت الى حمود السائق قائلا :
ـ ياحمود تركوك معنا وحدك .. فأصبحت السائق والمرافق والدليل ..
هز حمود محمد سائقنا الاسمر رأسه وهو يزيد من سرعة السيارة ويقول :
ـ لا مشكلة .. لقد زرت نزوى مرارا ، وكل شىء معد لكم ، وهناك فى كل مكان نذهب اليه من سيحكى لكم ماتريدون من حكايات حول القلاع والحصون ، فنزوى هى مدينة الحصون القديمة .
عاد صديقنا الارجنتينى يسأل :
ـ فى أى المناطق نحن .؟
ترجم طارق سؤاله الى حمود ، الذى هز رأسه وهو يشير بيده الى الاراضى الممتدة حولنا وقال :
ـ نحن فى الجبل الاخضر . ونزوى قلب الجبل الاخضر .
قال أندرو وهو يستمع باصغاء الى ترجمة طارق فودة لاجابة حمود :
ـ من عمق التاريخ نزوى .. اسمها يتردد كجزء من عطر الشرق القديم . مدينة الصناعات الموغلة فى

القدم فى الفضيات والنحاسيات .. فصناعات الفضة والنحاس من نزوى شهيرة من عمق التاريخ يوم كانت صناعات الفضة والنحاس هى قمة الترف والوجاهة فى بيوت العالم القديم .

قلت اسأل حمود :

ـ هل مازالت نزوى تصنع الفضة والنحاس باحمود .. ؟

هز حمود راسه وهو يتابع الطريق بعينيه ، وقال :

ـ أشغال الفضة ، والاوانى النحاسية ، والمحضيات وأشياء كثيرة أخرى .

وسكت لحظات كأنما يستجمع أشياء قديمة ، ثم تنهد فى أسى وهو يقول :

ـ ولكن مجد هذه الصناعات كان فى الزمان الماضى ، فالمراة عندنا اليوم تفضل الذهب والحلى الذهبية على الفضية والحلى الفضية .. وبدأ أصحاب المهارات الموروثة يتركون الصناعة القديمة ، صناعة الاباء والاجداد الى أشياء أخرى أكثر رواجاً ، وجذب التعليم وجذبت الوظائف الكثير من ابناء الجيل الجديد ، ولكن لا يزال هناك مشايخ الصنعة المهرة القدماء يزاولون صناعتهم فى صبر ودأب .

سأل الاستاذ طارق فوده وقد شد حديث حمود انتباهه :

ـ اذا كانت المراة العمانية لا تلبس الفضة فلمن يصنعونها اذن ؟

ضحك حمود وهو يقول :

ـ مازال البعض منا يتمسك بالفضة ، وريال ماريا تريزا القديم مازال يتوسط القلادة التى ترتديها نساء

كثيرات .. ثم لا تنسى السياح الاجانب وهم يشترون من هذه المشغولات الفضية الكثير ، وبعضهم يعتبر ان زيارته لعمان لا تكتمل الا اذا حصل على هذه المشغولات الدقيقة بنقوشها القديمة . ثم البدويات عندنا لا يعرفن حلية الا اذا كانت فضة ، فالفضة عندهن ترتبط بأشياء سحرية تقيهن الشياطين والعين وتجلب لهن الخير والخصب والسعادة ، وأشياء أخرى كثيرة ..

وكان حمود يضحك ، ويهتز جسده الصغير كله فى ضحكته الصادرة من القلب ، ولفت هذا نظر اندرو فطلب من طارق ان يترجم له ماقاله حمود ، ويفسر له سبب ضحكه . وأخذ طارق يترجم وأخذت أنا أتأمل فى حديث حمود .. الفضة هى معدن القمر ، والقمر هو المعبود القديم فى الجنوب ، ورموز القمر موجودة فى كل الزخارف القديمة .. والشعائر العبادية القديمة قد تحولت بعد أن طردتها الاديان السماوية الى مجرد عادات اجتماعية متوارثة نسى أصلها ، ونسى ارتباطها الدينى القديم ، ولكنها ظلت وستظل الى زمن طويل تتوارث وخاصة بين النساء فتشكل معنى الحلية عندهن التى لا تؤدى وظيفة الزينة وحدها ، وانما هى ايضا تؤدى وظائف سحرية قديمة أخذت شكل التقاليد الموروثة التى تلقنها العجائز لبناتهن فيمارسنها فى الزينة والملبس وعند الظروف المجتمعية والحياتية بشكل تلقائى وفطرى . ومن هنا كانت هذه الاهمية عند البدويات اللاتى لم تمس تقاليدهم الاجتماعية بعد رياح التغيير بشكل جذرى .. والنحاس ..؟ معدن السحر القديم ؟ وخرجت من تأملاتى على أصوات الضحكات التى يتبادلها رفيقاى مع حمود ، وكان طارق يضاحك حمود

قائلا :

ـ عندما تتزوج البدوية التى تروقك ستشترى لهـا الشبكة من الفضة ، أليس كذلك ياحمود ؟

هز رأسه فى دهشة ، ورد قائلا وقد غابت عنه فكاهة طارق :

ـ ولكنى متزوج ، وسعيد فى زواجى ولا أفكر فى الزواج من جديد ..

وقبل أن يكمل طارق معابثاتـه مع حمـود ، قلت لحمود :

ـ والنحاس ياحمود ، هل انقرضت صناعاته هـو الآخر .. ؟

صمت حمود لحظات وهو يركز كل عنايته فى قيادة السيارة ، ثم قال بعد حين :

ـ أذكر أن الأوعية فى بيوتنا كلها كانت من النحاس ، أعنى نفس الأوعية التى كانت تصنع فى بيوت الاغنياء من الفضة الخالصة كالاكواب والاطباق والاباريق والطاسات ، كما أن الصوانى واوعية الطبخ كانت كلها من النحاس .. اما الآن فقد دخلت بيوتنا الادوات الحديثة ولم يعـد النحاس مكان الا فيما ندر .. ومع هذا فمازال النحاس يصنع ويشكل بنفس الرسوم والأشكال والزينـات القديمة ـ وكما حدث بالنسبة لصناع الفضة المهرة ، حدث نفس الشيء بالنسبة لصناع النحاس المهـرة ، مجموعة من الحرفيين الكبار فى السن لايزالون يزاولون المهنة بنشاط ، وفى سوق نزوى ، وفى كل أسواق عمان مازال النحاس ومشغولاته يحتل مكانا هاما ، ولكن الذين يهتمون به جدا هم السواح الأجانب .

حين ترجم طارق كلام محمود الى أندرو ، سـألنى

أندرو :

ـ عرفت قبل أن أصحبكما ان طارق هنا صحفى ، وانك باحث فى التراث ، فهل تستطيع أن تخبرنى عن هذه الصناعات أهى وافدة ، أعنى بعد الاسلام ، جاءت مع الحضارة الاسلامية ، أم هى قديمة . ومن أين تأتى هذه المعادن ؟

صمت لحظات أتأمل الطريق والسيارة تسرع بنا وكأنها تطير ، ثم قلت :

ـ المسألة لاتحتاج الى باحث متخصص فى التراث ، فقد اصدرت وزارة التراث القومى والثقافة فى عمان سلسلة من الكتب الصغيرة تتضمن الابحاث التى صدرت عن عمان وبالذات عن الابحاث الاستكشافية التى قامت بها الجامعات العالمية حول مظان الاثار ، وما أسفرت عنه عمليات التنقيب والحفر والدراسة ، وتتضمن هذه السلسلة ـ وبالمناسبة أسمها « تراثنا » ـ التقارير العلمية والاكاديمية عن الحفائر ومنها أبحاث عن التعدين القديم فى سلطنة عمان قامت به شركتا بروسبكشن ومارشال عمان اكسبلوريشن بالاتفاق مع السلطنة وذلك فى عام ١٩٧٣ أى فى بدايات نهضة عمان المعاصرة ، التى نشهد آثارها الآن فى كل مكان . وقد كتب هذا البحث مجموعة من الدارسين ذكروا أن الذى لفت انظارالشركتين الى اهمية الاستطلاع حول التعدين القديم فى عمان ، بحث لعالم أثرى هو الدكتور « جيوفرى بيبى » الذى ذكر فى كتابه « البحث عن دلمون » وصف ألواح فخارية عثر عليها فى « أور » تذكر شحن عشرين طنا من النحاس حوالى عام ١٨٠٠ قبل الميلاد من « مجان » الى « أور » ، وذكر أن موضع مجان فى جبال عمان . ويقول الدارسون

ان نتائج الكشف والتنقيب قد أيدت نظرية دكتور « بيبى » تأييدا كبيرا « ففى أثناء برنامج التنقيب الجارى عن المعادن فى سلطنة عمان تبين لرجال شركة بروسبكتشن المحدودة مواضع بقايا ما لا يقل عن ٤٤ موقع تعدين قديم » ..

صاح طارق فى دهشة :

ــ من عام ١٨٠٠ قبل الميلاد .. أى منذ مايقرب من اربعة آلاف سنة ..

وقال زميلنا الارجنتينى فى دهشة :

ــ مواقع تعدين ، تعنى مواقع عمل ، لا مجرد مواقع تدل على وجود المعادن ..

قلت مبتسما لدهشتهما :

ــ لقد تأكد لدى الباحثين فى الشركة ان عملية التعدين كانت تتم فى هذه المواقع ومعها عملية الصهر اذ كان يجلب اليها فحم الخشب اللازم ، ويتم التعدين على حفر صغيرة وخنادق وقصبات أو انفاق تحفر عند شواهد وجود المعدن على سطح الجبل . وأكد الكتاب أن النفايات المعدنية الموجودة فى بعض هذه المواقع تحتوى على قدر عال من النحاس .

قال طارق فوده :

ــ لابد أنها تحتوى على قدر عال من المعدن الخام والا ماتمكنوا من الحصول عليه بكميات صالحة للتصدير وهم يستعملون وسائل بدائية لهذه الغاية .

بعد لحظة صمت ، قلت له :

ــ قدم المستشرق هارولدبيك الى مؤتمر المستشرقين السابع عشر المنعقد فى اكسفورد عام ١٩٢٨ بحثا قال فيه « من اعظم مشاكل العالم القديم اثارة للاهتمام

صناعة أستخراج المعادن ، ويبدو أن أول المعادن التى استعملت هما الذهب والنحاس ، ونحن نشعر أنه اذا أمكن ان نعرف من أين حصلت الشعوب المتمدنة الاولى على خامات معادنها فان الطريق ينفتح أمامنا كى نعرف من هى الجماعة التى كانت أول من توصل للاكتشاف الهائل بأن النحاس يمكن صهره وصبه فى قوالب » .

قال أندرو :

ـ لا أظن أن كل هذا العناء الذى يبذل فى معرفة من الاول فى اكتشاف هذا الشىء ، أو ذاك مفيد فى شىء . فالبشرية قد عرفت التعدين فى مرحلة ما وانتهى الامر .

تحمس طارق فودة فقال :

ـ بل هى قضية هامة جدا . فمعرفة الاصول الاولى للحضارات شىء هام فى ذاته ، ثم هو شىء هام فى معرفة فضل السابقين ، ورفع عقدة التفوق التى تحسها بعض الشعوب اللاحقة فى مضمار التحضر تجاه الشعوب الاعرق والاكثر سبقا . وربما الاحق بفرص اكثر عدالة فى حياة اليوم .

ابتسمت لحماس طارق واحمر وجه أندرو بينما قاطعنا صوت نسيناه تماما ، هو صوت حمود يسأل عن حلية هذا الحديث كله . وتذكرت أن حديثنا دار بالانجليزية .ان حمود بهذا لم يكن طرفا مشاركا فيه ، ولا مستمعا اليه . وعجبت من ظاهرة الالف وماتحدثه من آثار ، فحمود منذ أول الرحلة أمام عجلة القيادة فهو بالنسبة لنا موجود بالحتم ، وكنا نلتفت اليه كل لحظة سائلين مستفسرين ، ولكن حين انهمكنا فى الحديث والاقتباس والتذكر نسيناه تماما . وتنهد طارق فوده وقال :

ـ يبدو انني فى هذه الرحلة اصبحت مترجمها الرسمى اسمع ياحمود ..

ومضى طارق فودة يترجم لحمود الحديث الذى دار بيننا ، واندرو يلاحظ كلماته بعينيه وأذنيه كأنما يحاول أن يفهم ماتقوله الكلمات التى سبق أن سمعها بالانجليزية .. ومضى الطريق بنا والسيارة مسرعة وطارق يترجم وحمود يستمع .. وحين انتهى طارق من ترجمته التفت الى أندرو قائلا :

ـ يقول التاريخ ان السومريين قبل عام ٢٠٠٠ قبل الميلاد استخرجوا النحاس وعدنوه بل وصنعوه أيضا فى منطقة مابين النهرين ، والعلاقة بين بلاد مابين النهرين وهذه المنطقة علاقة وطيدة جغرافيا وتاريخيا على السواء . وعرف المصريون فى نفس الوقت تقريبا أو قبل هذا عمليات التعدين للنحاس والذهب وعمليات التصنيع أيضا . ومحاولات البعثات العلمية والصناعية هنا هى محاولات للبحث عن بقايا معادن لم تكتشف للمعاصرين بعد ، ولا اظن العلم وحده هو السبب ، فهذه المعادن تشكل ثروات ضخمة يطمع أصحاب التفوق الحضارى اليوم فى السبق اليها فى مظانها .. وكالمعتاد سيشاركون أن أمكن أو ينهبون ان استطاعوا ..

قلت لطارق فوده :

ـ أندرو من الارجنتين ياطارق وليس من الولايات المتحدة ولا من أوروبا ولا من روسيا ، ومع هذا فبلاده تتعرض لنفس المحنة ..

ضحك أندرو وقال :

ـ أن لم يكن أكثر ..

قلت لحمود :

ـ الا تعرف ياحمود مكان جبل المعادن . لو عثرت عليه

لسبقت المنقبين الامريكان والانجليز اليه ولغدوت من أصحاب الثروات الضخمة الى آخر العمر ..

التفت طارق الى متسائلا :

ــ ماجبل المعادن هذا ؟

قلت :

ــ تناقل الناس من زمن قديم أن العمانيين القدماء كان لديهم جبل كامل من المعدن ، هو الذى يوفر لهم النحاس وغيره من المعادن الاخرى ، ومن قديم والناس يبحثون عنه ، وقد ذكره سارجون الاكادى فى لوحة تنسب اليه ، واللوحة وجدت فى آشور عام ٢٧٥٢ ق.م ،ذكرها أيضا معدن معاصر هو « سترجى . م ليس » الذى ذكر أنه عثر على جبل المعادن فى وادى « عاهن » داخل صحار .

صاح طارق فودة :

ــ وماذا تنتظر ، هيا ياحمود الى عاهن هذه ولتنتظر نزوى قليلا :

ضحكت وأنا أقول له :

ــ وادى عاهن موجود هنا ، ولكن الخرائط الجغرافية الحالية لا تحدد جبلا اسمه جبل المعادن ، وكل النحاس الذى عثر عليه فى هذا الوادى بقايا نفايات قديمة قرب قرية اسمها الميدان . ثم لا شىء بعد هذا ، فقد سكت الودى عن سره ولم يبح به لاحد حتى الآن .

وبدات علامات الضيق على وجه طارق وهو يلتفت نحو اندرو ويترجم له الحديث الدائر ، بينما ضحك حمود ضحكة رقيقة وهو يقول :

ــ الحالمون كالاخ طارق كثيرون ، ولكن من تراهم

هنا كلهم من الاجانب يحسبون أن عيونهم سترى مالا تراه ، وأن أيديهم ستصل الى مالا نصل اليه ، انظروا هذه نزوى أخيرا ..

والتفتنا جميعا الى أمام فاذا السيارة تدور لتخرج من الطريق الاسفلتى الى ميدان يعود بنا عبر التاريخ الى دنيا من الحياة الخصبة بالبراءة والسماحة والسلام .. دورة السيارة هذه نقلتني فجأة الى بلاد السندباد ، ولكن السندباد البرى هذه المرة لا السندباد البحري . شجرة ضخمة عالية وسط الميدان وحولها مجاميع من الناس والحيوان في وقت واحد . سوق هى متحرك صاخب مليء بالرجال يرتدون الدشداشات العمانية وفوق رءوسهم العمه العمانية ومعظمهم ملتحون ، وبعضهم يمسك فى يده عصيا رفيعة من الخيزران . ومجاميع من النساء يرتدين السواد ، وتغطى الملابس السوداء وجوههن واجسادهن كلها . وأطفال فى عيونهم حكمة الشيوخ ، ووسطهم وحولهم اغنام وماعز وابقار صغيرة ، بعضها حديث الولادة صغير الحجم بشكل يبدو مدهشا لواحد مثلى لم ير الابقار الا وهى فى تمام نموها .. وكان من الواضح أن حركة البيع والشراء على اشدها ، وأن الكل منهمك في مساومات ومزايدات . وقال حمود وهو يوقف السيارة :

ـ هذا سوق الماشية .

ساحة فسيحة ، الشجرة فى وسطها والناس والماشية حولها ، ومجموعة من الناس تجلس القرفصاء ، والتجار يعرضون عليهم الماشية . وقال حمود :

ـ فى يومى الخميس والجمعة من كل اسبوع يقام هذا السوق والبيع بالمزاد ، وهم كما ترى يبدءون بالاغنام والماعز

وينتهون بالابقار . هل تحبون الرؤية عن قرب ؟
قلت وانا أنزل من السيارة والآخرون يتبعونني :
ــ بل هذه الرؤية من هنا تكفينـــا .. ولا تعاملنا كالسياح ياحمود ، ففي بلادنا هذه الاسواق تقام في كل مدينة وكل قرية ، وفي الاحياء المتطرفة من العاصمه . نحن هنا نعيش تجربة مكررة سبق لنا أن مارسناها في طفولتنا وصبانا .
وقال طارق وهو يضحك في سعادة :
ــ في قريتنا كنا نذهب الى سوق الثلاثاء ، كان هو يوم المتعة والجرى والعبث ، نمثل حكاية المســاومات مع التجار ، ونبيع أشياء وهمية ونشد ضفائر البنـات الصغيرات ..
قلت له ضاحكا وانا أشير الى الشجرة الضخمة والحياة التي تدور حولها :
ــ حاول هذا الآن .
فتيات صغيرات كثيرات كن يمرحن ويلعبن في براءة وحرية حول الرجال وحول الماشية وحول الشـــجرة ، وخاصة حول جذع الشجرة حيث وقفت مجموعة كبيرة من الماعز حول حافة البئر هناك .. ومن ناحية تصيح واحدة من النسوة بصوت آمر فتكف فتاة عن العبث والجرى وتعود مطأطأة الرأس الى حيث وقفت امها امام قفة كبيرة مليئة تعرض مابها للبيع .. وقال حمود الذى أغلق السيارة وجاء يقف الى جوارنا :
ــ البدويات يحضرن الى السوق كل ماينتجن طوال الاسبوع وستجد قلوب النخيل وعسل النحل وشمعه ، والجبن والزبد وكل شيء تتصوره ، الى جوار ماينسجه الرجال والنساء بأيديهم من السعف .

قال أندرو وترجم طارق :
ـ لنذهب الى السوق القديم .
ضحك حمود وهو يقول :
ـ هو وراء ظهرك تماما .. وهنا مدخل من مداخله الاربع ، فهيا ندخل منه فهو المدخل الرئيسي .
من عل تلوح القلعة كأنها تحتضن الباحة والسوق ، وأشجار كثيفة تحيط بها وتحجب جسدها عنا .
والجامع بواجهته المطلية مفتوح الباب يستقبل المصلين الذين يستعدون لصلاة الظهر ، وعربات كثيرة من أحدث الانواع وقفت هناك ـ ورجل يمر فوق حمار ـ والاصوات تتعالى من ورائنا ـ ومجموعة من السواح ينزلون واحدا واحدا وواحدة واحدة من حافلة كبيرة ، ومدخل ضيق ـ ويبدأ احساس بالعتمة والظل ، فالسوق مسقوف يحجب سقفه أشعة الشمس الحارقة فى الخارج ، ونسمات رقيقة محملة بعطور الشرق القديمة تملأ الطريق الضيق تطل من ناحيتيه الحوانيت متجاورة متلاصقة ، حولها وفى مقدمتها الوان من البضائع الشرقية والوان الملابس والتحف والمصنوعات والمشغولات المعدنية .
بعض الدكاكين عالية المدخل ،اى أنها ترتفع عن أرض الشارع الضيق قدر سلمة كاملة ، وتمتد الدكان كلها فى هذا الارتفاع ويجلس على حشيات فيها أصحابها او عمالها أو يقفون يعينون الزبائن على الارتقاء اليهم للتفرج على مايعرضون ، وابتساماتهم مليئة بالترحيب والرقة ، وعيونهم تبرق ذكاء وملاحية ، ولحاهم تخفى وجوههم الصابرة الدءوبة .. وكان النازلون من الحافلة قد تدفقوا بقمصانهم الملونة وسراويلهم القصيرة ، وكلماتهم المتتابعة وضحكاتهم الكثيرة يملأون السوق حولنا ،

وكاميراتهم تلتقط صورة طريفة هنا ، ومنظرا اعتبره صاحبها غريبا هناك ..

وكانت حوانيت الفضيات والمشغولات الفضية تحتل الجزء الاكبر من دكاكين السوق ، ومضى أندرو يتفقد مجموعة من القلائد والسلاسل والعقود .. وخرج لنا كهل مبتسم أنيق في جلبابه الابيض الناصع وعمامته الملفوفة بعنايه ، وذقنه التى اختلط فيها البياض بالسواد ، ورحب بنا ودعانا الى الدخول . لم أكن مستعدا لشراء شيء ، ولكن طارق فودة كان قد اخبرني انه لا يذهب الى مكان في العالم الا ويحمل لزوجته وأولاده شيئا من انتاج هذا المكان كهدية ، فتشجعت وأنا اتجه الى المحل وراء أندرو وطارق المتحمسين ، بينما نظر الى حمود ابتسامة العارف وهز رأسه ، كان يعرف انني مثله لا قدرة لي على شراء شيء .. وأشار بيده وقال :

ـ السوق مليء بكل شيء من كل مكان في عمان ، اللبان من ظفار والحلوى من مسقط ، والعطور والروائح من عبر البحار .

وضحك ، وتتبعت اشارات يديه .. الجالسون حول السوق وأمامهم أكوام البضائع ، والجالسون فوق عتبات الحوانيت محملة بمئات البضائع من كل صنف ،الاقمشة والجلابيب والطواقي والشيلان ، والعطور وأكوام وأكوام من النباتات المختلفة اللون والرائحة والصنف . وجاء صوت طارق يصيح بنا من داخل الحانوت ، فدخلنا ، قال طارق :

ـ الحاج خميس هنا يحكي لنا عن كنوزه الفضية هذه ، وأحب ان تسمع معنا ، وسأترجم للاخ أندرو ترجمة فورية وأمرى الى الله .

ضحك الحاج خميس ، وازدادت البشاشة فى وجهه وهو يقول :

ــ كنت أقول لصديقكما هنا أن الحلى الفضية عند الاسر البدوية رصيد مالى يقتنيها الرجل أو المرأة لاللزينة وحسب وانما لتنفع فى وقت الحاجة .

قال أندرو وترجم طارق ، واستمع الحاج خميس :

ــ لست أجد فى معظم المعروض الا قطعا جديدة فى الصياغة وفى النقش ، ألا توجد قطع من الحلى القديمة هنا ؟ .

ضحك الحاج خميس وهو يقول :

ــ صديقكم الاجنبى يبدو هاويا وفاهما ، ففى الحقيقة أن معظم الاسر التى كانت تملك قطعا من الحلى تحضرها لترسلها الى الصناع ليعاد صهرها وصياغة قطع جديدة منها ، فقد أصبح الناس فى عمان يميلون الى الانواع الحديثة من الحلى . ولكن القطع القديمة موجودة ومطلوبة، وهذا الطلب هو الذى يرفع ثمنها ارتفاعا هائلا . ونزوى مشهورة بالحلى ذات الاشكال الهندسية والتى تشبه الماسة والمتميزة بالنقوش والزخارف الجميلة .

واخذ يعرض علينا أساور وخواتم وحلقان وخلاخيل زخارفها دقيقة وجميلة ، وتدخل الاشكال النباتية والزهور وأوراق الشجر بكثرة فى هذه القطع الجميلة . ولاحظت أن بعض الاساور ليست كاملة التدوير وانما تشكل قوسا يلتقى طرفاه عند خط مستقيم ، وبعض الحلى توجد بها شرائط أو مشابك وتذكرت على الفور الحلى اليمنية التى رأيتها فى صنعاء ، وعندما أبديت هذه الملاحظة للحاج خميس قال :

ــ معظم التصميمات الحديثة والحلى المطعمة بالاحجار

الكريمة بالفعل انتقلت الينا من صنعاء ، أو هكذا سمعت المسنين من أهل الصناعة يقولون . ولكن صناعة الفضة في عمان عريقة جدا ، وتشتهر كل مدينة باجادة نوع معين منها . فما ترونه هنا من حلى تشتهر بها نزوى ، أما الرستاق فتشتهر بالاساور المطعمة بالفصوص والمختومة الخارج ، أما الحلى المشكلة بزخارف مشتقة من الورد فتشتهر بها عبرى وابرا .

سأل طارق فى فضول الصحفى الذى تفتحت شهيته على موضوع طريف :

ـ ولكن ماهى الاحجار الكريمة التى يكثر استعمالها فى الترصيع ، فلا أظن مسألة الماس هذه تتوفر للكثيرين ؟

ضحك الحاج خميس وهو يقول :

ـ نحن فى عمان نرصع الحلى بأحجار كثيرة ، ولكن المألوف والجارى استعماله هو المرجان الطبيعى أو الصناعى حيث نرصه بين الخرز الذهبى والفضى كما نستعمل قطع الزجاج الملون أو البلاستيك . والترصيع ليس كل الزينة المستعملة فى الحلى ، فهناك الحفر بالنقوش ، والحلى المخرومة أو المشبوكة فتبدو الحلية وكان عليها كرات بارزة أو حبيبات ..

قال حمود مقاطعا الحاج خميس :

ـ أليس لديك المدرد ، لتريهم اياه ..

أشار الحاج خميس الى واجهة زجاجية مليئة بالعقود الفضية تنتهى بميداليات وسبائك عليها آيات قرآنية ، وبعضها ينتهى بريال فضى هو ريال ماريا تريزا ، وبعضها عليه تعويذات أو أحجبة ، وقال الحاج خميس :

ـ هذه أحسن هدية للفتيات والشابات منهن بصفة

خاصة ، فهى الى كونهاحلية ، تمنع الحسد والعين . وتقى من شرور كثيرة ..

ضحك طارق وهو يقول :

ـ أهذه تحلية للبضاعة ، ياحاج خميس ؟

قال الحاج خميس :

ـ هذا شيء متوارث يسهر فى صناعته مجموعة من أقدم الصناع واشهرهم . والناس يعتقدون فى قيمة المدرد ..

سأل اندرو وترجم طارق :

ـ اليس هذا ريال ماريا تريزا ؟

قال الحاج خميس :

ـ هو ريال مارياتريزا الذى يتدلى من بعض السلاسل الفضية ، وهذه السلاسل والعقود تصنع من فضة هذا الريال . وفضة الريال قاعدة وأساس لتسعير قيمة الفضة ونسبتها فى أى حلية .

قال طارق فوده بعد أن ترجم أجابة الحاج خميس لاندرو :

ـ ماهى حكاية ريال ماريا تريزا هذا ، انه اشهر حلية فى اليمن ، وها أنا أجده أمامى هنا .

قلت له :

ـ احكى لك انا عن هذا الريال . فاسمه مأخوذ من امبراطورة النمسا التى توفيت عام ١٧٨٠ وستجد هذا التاريخ مسجلا على جانب الريال ، وقد صدرت هذه العملة أولا عام ١٥٢٥ . ولكن الريال الحالى تم صكه لاول مرة فى مدينة فينا فى عام ١٧٥١ لايجاد عملة مقياسية لعملية التبادل التجارى ـ وبحلول القرن التاسع عشر أصبح هذا الريال العملة المتداولة فى أجزاء

كثيرة من العالم وخاصة فى افريقيا واليمن وعمان وبعض البلدان الاستوائية . وقد تم صك ٤٥ مليون قطعة منه خلال الاثنى عشر عاما الاولى من القرن الحالى . وفى عام ١٩٧٤ ارتفع سعر الريال النمساوى من نصف ريال عمانى الى ٤ر١ من الريال وهذا مقياس عالمى لارتفاع سعر الفضة فى العالم .

عندما ترجم طارق لاندرو حديثى ضحك وهو يقول :

ـ من أين كل هذه المعلومات ؟

قلت له :

ـ هناك كتاب رائع فى موضوع الفضيات عموما من سلسلة تراثنا التى حدثتك عنها الفته روث هولى وقد صدر بالعربية باسم الصناعات الفضية فى عمان .

قال :

ـ سأحاول الحصول على نسخته بالانجليزية عند عودتى الى مسقط .

واشترى اندرو واشترى طارق فودة ، وخرجت انا وحمود نتأمل على باب متجر قريب قطع قماش زاهية الالوان تشبه الشرائط الطويلة تنتهى بذيول ملونة ، وقال حمود يشرح لى :

ـ هذه هى المحضية ، والنساء تخيطها فى حواشى العباءات ، وهى صناعة يدوية ..

وفى الداخل كان رجل ملتح منهمكا فى عملية النسيج على نول يدوى صغير والى جواره شاب صغير السن ، هو الذى التفت الينا وفى عينيه تساؤل .. فقلت لحمود :

ـ هيا بنا فقد غادر صديقانا أخيرا محل الصائغ ..

وانضما الينا ، ومضينا نجول فى السوق المسقوف ،

ارضه نظيفة وهواؤه رطب ، وروائحه مميزة تختلط فيها التوابل بالعطور ، لتشكل هذه الرائحة الخاصة التى تميز أسواقنا الشرقية الشعبية .. واستغرقنى ما أشاهد حتى لكزنى طارق منبها اياى وقال :

ـ اين ذهبت بخيالك ..؟

قلت له :

ـ الى أسواق بغداد القديمة التى وصفتها ألف ليلة وليلة ، والى أسواق القاهرة ودمشق وصنعاء ، وكأنى وأنا اسير هنا اسمع موسيقى شهر زاد لكورساكوف ، وأتلفت حولى باحثا عن السندباد الحمال .

ضحك طارق فوده وهو يترجم كلماتى لاندرو الذى سأل :

ـ وما السندباد الحمال ..؟

قلت :

ـ الحمال عنصر هام فى مغامرات ألف ليلة وليلة ، هو الذى يحمل البضائع من السوق الى المنازل ، مهمته ان ينتقل من مكان الى مكان ، ومهمته أن يدخل البيوت حاملا حمله الذى أجر على نقله من السوق ، ومن هذا المدخل تدخل الليالى الى أسرار البيوت ، واسرار الحكايات التى تجرى خلف أسوارها . وحين يستريح حمال الليالى ذات يوم قائظ الى جوار بيت كبير تفوح من حديقته الروائح الجميلة ، ويهب منها نسيم عليل ، يلتقى بصاحب البيت الذى هو السندباد البحرى ، واذ بالحمال أيضا اسمه السندباد ، ولكن السندباد الحمال أو السندباد البرى ، وتبدأ حكايات رحلات السندباد ، ويحكى مغامر البحار لمغامر الاسواق ، يحكى من يكتسب الخبرة والمعرفة من جولاته التى لاتنتهى فى البحار

المجهولة ، لن يكتسب الخبرة والمعرفة من جولاته التى لا تنتهى داخل أروقة السوق المعروفة وحوانيته .

ضحك أندرو وقال :

ـ وهل وجدت السندباد الحمال ؟

قلت له :

ـ من يدري ربما كان اي واحد منا ، فنحن نحمل معنا أثقالنا وفضولنا الدائم .

صاح طارق فودة :

ـ نسيت نفسك ، فلا تنسينا أنفسنا .

ثم التفت الى حمود وسأله :

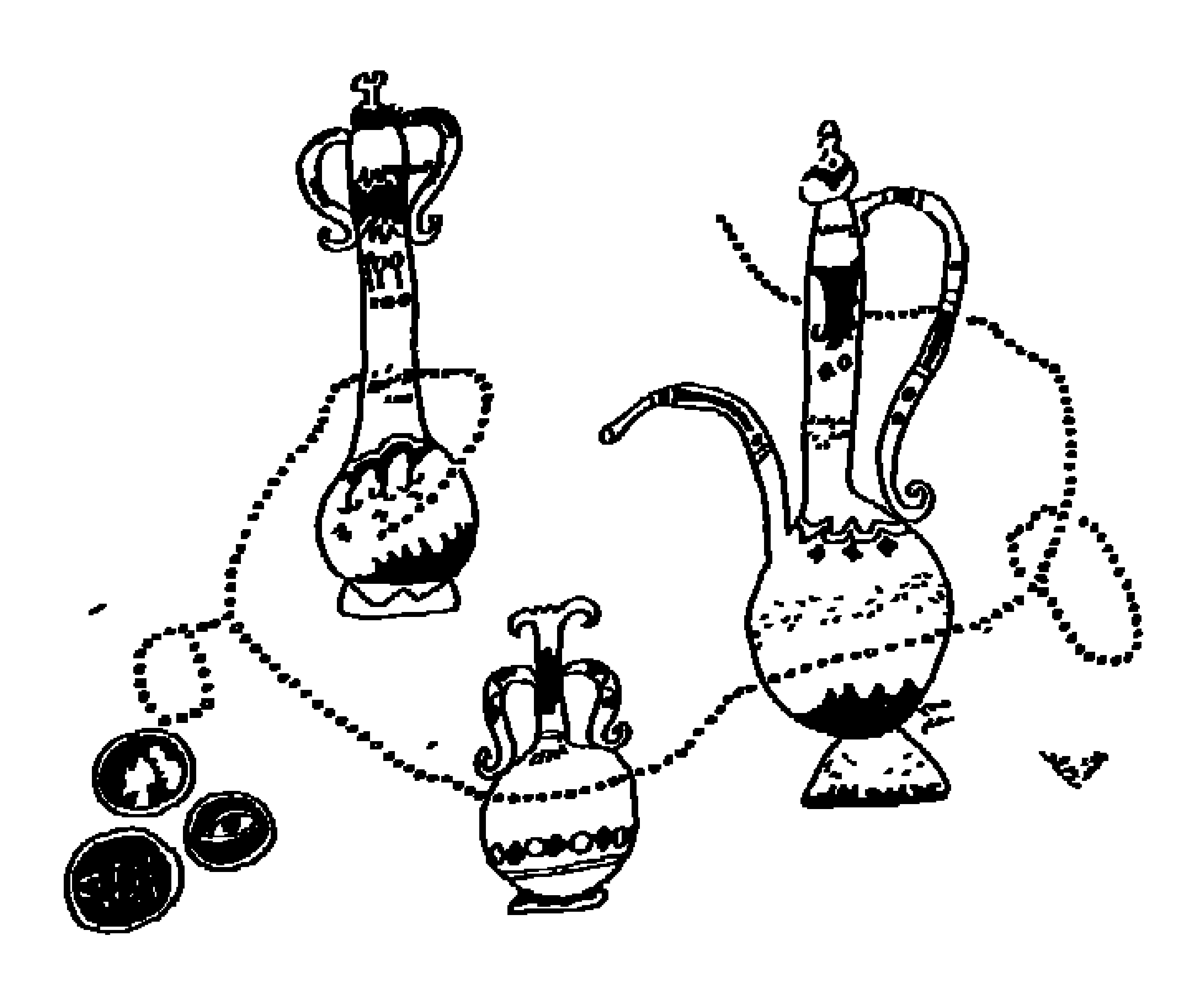
ـ ماهى خطوتنا التالية ؟

قال حمود :

ـ قلعة نزوى . أو حصن جبرين ..

قلت وأنا أعود الى دنيا الواقع ..

ـ هيا بنا اذن الى قطعة التـــــاريخ الفذة وأسرارها التراجيدية ..



الرّجُل والقلعة

دارت بنا السيارة في الطرقات الضيقة المتعرجة لنزوي ، حولنـــا بيوت تطل من خلف أسوارها رءوس الاشجار ساكنة لا يحرك اغصانها أو أوراقها نسـيم ، فالقيظ يحكم حلقاته حولنا ، والشمس ترهق وجودنا بضوئها المبهر وحرها الكثيف . ثم وقفت السيارة في باحة ضيقة أمام الجدران الصخرية العاليـة للقلعة ، وقريبا من بابها الضخم المغلق ، ماعدا فتحة صغيرة في أسفله تشكل بابا صغيرا خشبيا عنده حارس يمسـك بندقية قديمة ويلبس الملبس العماني المألوف ، ووجهه الحاد التقاطيع لا يخفى صرامة النظرة في عينيـه ، وترحيبة الابتسامة فوق شفتيه .. وقال حمود ونحن ننزل من باب السيارة ، ونتجه الى باب القلعة الصغير :

ـ هذا حصن جبرين أو قلعتها أو قصر السلطان ، فله كل هذه التسميات .

قال طارق فودة :

ـ أي سلطان ؟

هز حمود رأسه كأنه لا يصدق أن هناك من لا يعرف اسم سلطان قلعة جبرين :

ـ هذا قصر الامام بلعرب بن سعيد .. وهذا أيضا قبره ..

وحين ترجم طارق لصديقنا الارجنتيني أندرو حديث

حمود ، هز رأسه بدوره وهو يقول :
ــ قلعة وقصر وقبر معا ..

ثم سكت وسكتنا وحمود يحيى الحارس فيرد عليه التحية ، ثم يبرز له خطابا يسمح لنا بالدخول.، ويسمح لنا أيضا بدليل يحدثنا عن هذه القلعة القصر المقبرة .. ودخلنا الى ممر صغير مسقوف ينتهى بنا الى فتحة تظهر منها باحة الحصن ، واحسسنا بنعمة البناء العربى القديم ، حيث لا يوفر الظل وحسب ، وانما يتيح ايضا نوعا من الرطوبة تمس الهواء فتجعله منعشا .. واقترب منا رجل فى حدود الشباب ، ممشوق القوام حليق الذقن وابتسامته مليئة بالترحيب والبشاشة .. وكان فى يده خطاب حمود الرسمى ، وهو يقول :

ــ مرحبا بكم فى قلعة جبرين ، انا دليلكم الى القلعة واحب قبل ان نبدأ جولتنا أن نتعارف ، فأنا عمرو بن على بن سيف الحميمى ..

وقدم كل منا نفسه اليه فصافحنا جميعا ، وطلب منا ان نتبعه ــ ومن جديد وقفنا تحت الشمس الحارقة بعد أن غادرنا الممر المعتم بعض الشىء ، وأشار دليلنا بيده وهو يشير الى المدخل الاخر بعد الباحة وهو يقول :

ــ من هنا مدخل القلعة

ثم اشار الى يساره حيث تقف عنده مبان قديمة متداعية وقال :

ــ وهنا تقع اسطبلات الخيل ومخازن المئونة ،ومساكن العبيد ، وثكنات الجنود ، وأجنحة الخدم . وحيث أشار تتجه عيوننا فى تطلع وفضول ، كأنما نريد بهذه النظرات أن نعود الى الزمن الذى كانت فيه هذه الساحة تموج

بالخيول والرجال ، وتعج بالحركة والنشاط ... والآن لا شيء الا هذه الشمس الحارقة تلفح هـذه البقايا المتهدمة من المخازن والغرف التى تمتد الى يسارنا لمسافة طويلة ..

وتبعنا دليلنا عمرو بن على يسبقنا الى داخل القلعة ، وقال عند الباب :

ـ بنيت هذه القلعة منذ حوالى ثلاثمائة وخمسين عاما اذ بناها الامام سلطان بن سيف بن مالك اليعربى المتوفى فى عام الف وتسع وخمسين هجرية ، ويقال انه بناها من غنائم غزواته فى بلاد الهند ، وقد لبث فى بنائها اثنتى عشرة سنة ، ثم عمرها ابنه الامام بلعرب بن سلطان وحولها حصنا وانتقل اليها من نزوى فجعلها مقر اقامته الدائم ...

وكنا نتحرك فى ممر طويل ينتهى بباحة واسعة ، والهواء منعش لا يعتوره أى اثر من روائح البيوت المهجورة والقلاع القديمة . لاشك أن يد التجديد قد امتدت الى هذه القلعة فأعادت لها رونقها وبهاءها .. بل اننا لاحظنا وجود أثاث جديد وان كان مصنوعا بالطريقة التقليدية القديمة ، كأن اليد التى جددت تريد أن تعيد القصر بصورته القديمة فى القرن السابع عشر الميلادى ، بأثاثه ومفروشاته المتوارثة القديمة .. وصعدنا سلما طويلا وقائما بشكل حاد ، وكأننا نصعد جبلا فوق ممر ضيق لا يتيح لمن يصعده الامان والراحة .. وامتد السطح أمامنا لامعا تحت أشعة الشمس تحيط به هذه الفتحات الضيقة التى لا تسمح الا بفوهات المدافع القديمة التى تحمى الحصن من المهاجمين ، وحول بعض الفتحات كانت بعض المدافع ترقد ساكنة صدئة والى جوارها قنابلها المعدنية

المستديرة . وعلى مدفع منها قرأت اسم سعيد بن سلطان ابن سيف منقوشا بوضوح . وقادنا دليلنا الى فتحة بئر عند حافة السطح ، وقال :

ـ هذه الفتحة تطل مباشرة على مقدمة المدخل ، وهناك سبع فتحات عند مختلف مستويات الحصن تطل من خلال بئر كهذا على فتحة المدخل . وكل فتحة تطل أيضا على سابقاتها ، ولهذا فكل من يقتحم المدخل معرض للقتل ، وان نجا عند باب فهو لن ينجو عند الابواب الاخرى التى تحرسها الفتحات الموجودة عند الابواب التالية لها .

ثم عاد يقول كلماته مترجمة الى الانجليزية حتى تصل الى رفيقنا أندرو ، بينما كان طارق فودة يبتسم فى راحة وينظر الى فى انتصار ، فهناك من يتولى عنه مهمة الترجمة الآن ـ وكان وجه أندرو يمتلىء بعلامات الدهشة والعجب كلما مضى دليلنا فى حديثه بانجليزيته السليمة ألتى تشوبها هذه اللكنة العربية المميزة .. وأشار طارق الى فتحه فى ناحية من السطح يعلوها حاجز خشبى وتخترقها أعمدة من حديد أفقيا وقال :

ـ هل هذا مخزن أو مخبأ .. أو ماذا ؟

ضحك دليلنا وهو يقترب من الحاجز ويرفعه لتبدو تحته غرفة عميقة كبئر ، ملساء الجوانب كهاوية وقال :

ـ هذا سجن من يحكم عليهم بالاعدام . يرمون هنا بعد تعذيبهم ، ولا ينفذ فيهم حكم الاعدام حتى يعترفوا .. ساعتها يريحهم الموت السريع من عذاباتهم البطيئة والمخيفة فى هذا الجب ..

واقشعر بدنى ، وانا انظر الى الفتحة الملعونة ، وعمرو ابن على يعيد الغطاء الثقيل الى مكانه فى صعوبة ، ثم

يدفع المزلاج بقوة ليصدر صوتا صدئا وهو يستقر في المكان المخصص له .. واحسست بهذا الصوت يضغط على قلبي ضغطا ، وانا اتخيل نزلاء هذا الجحر الملعون ، وهم يحسون به يغلق كل امل امامهم ، ليتركهم في معاناتهم الاليمة والاخيرة حتى ليتمنون الموت يرحم عذابهم ومعاناتهم .. وكنت اعرف الكثير عن تاريخ هذه الحقبة من وجود نزوى وقلعتها ، ولذلك لم أسأل ، ولكن طارقا سأل ، ولكن أندرو سأل ، احدهما بالعربية والاخر بالانجليزية ، وتحركت عينا عمرو بن علي بينهما في حيرة ، فقلت له :

ـ لا داعي لان تجيب بلغتين ، الانجليزية تكفيهما معا ..

وابتسم وقد استقرت حيرته ، ثم مضى يقول :

ـ لم تكن القلاع والحصون تبنى في هذه المرحلة من تاريخ عمان عبثا ، فهذه مرحلة القلاقل والاطماع والغزوات .. كل قبيلة تريد الأمامة فيها ، فكل منها تتربص بالاخرى الدوائر .. وكل أسرة من كل قبيلة كانت تريد أن تسود هي باقي أسر القبيلة ، فهي تنتهز كل فرصة لتغير ماهو قائم لصالحها ، ولتدفع برجالها الى أماكن الصدارة والرياسة ثم الامامة ان أمكن .. بل ان الامام ما أن يموت أو يخلع أو يهرب حتى يتصارع أبناؤه فيما بينهم حتى الاطفال منهم .. ومن وراء أصحاب الحق تتدافع أمواج من المنتفعين والوصوليين والطامعين .. فالبلاد غنية وثرواتها كثيرة ، وتجاراتها رائجة ، وأساطيلها تجلب الخير عبر البحار .

قال أندرو :

ـ تحكي كتب التاريخ ان فترة القرون الوسطى في

أوروبا كانت تعاني من نفس الاعراض ، ولهـذا كثرت فيها أيضا القلاع والحصون ، وتصارع أصحاب النبل والملك ، وكثرت الفتن فى القصور ، والدسـائس ، والسموم والاغتيالات والمؤامرات ..

وقال طارق :

ـ نحن هنافعلا نعود الى زمن مخاض البشرية وهى تستعد بكل الآلام والمحن لتلد الحضارة المعاصرة ...

قال عمرو مكملا حديثه :

ـ الامام سلطان بن سيف الذى بنى هذه القلعة اشتهر بالفتوحات والتجازات ويقول عنه مؤلف كتاب « تاريخ أهل عمان » : « واعتمرت عمان فى دولته وزهـرت . واستراحت الرعية فى عصره وشكرت ، ورخصت الاسعار وصلحت الاسفار ، وربحت التجارة ، وسدت « أى وفقت » الاثمار » ..

قال طارق :

ـ مثل هذا السلطان لماذا يخشى على حياته فيبنى مثل هذه القلعة ؟

قال عمرو :

ـ بالعكس لم يكن الامام سلطان بن سيف يخشى على حياته من أحد فقد عرف عنه أنه لم يكن محتجبا عـن الناس وكان يخرج الى الطريق بلا حراسة ويجلس مع الناس ويحدثهم ، ويسلم على الكبير والصغير والحـر والعبد .. وأحبه الناس جميعا ، ومات ميتة طبيعية فترحم الناس عليه وعلى عهده ، ولكن بناء القلاع كان لحماية الدولة نفسها حيث هى مركز من مراكز المقاومة، وبؤرة تحرك العساكر ضد الاعداء ..

قال أندرو الذى كان يتابع حديث عمرو الذى كان يتحدث بالانجليزية :

ـ ولكنى أحس أن هذا المكان يحفه جو المأساة ..
ضحك عمرو وهو يقول :
ـ هذا صحيح تماما ، واحساسك فى مكانه ، وقد سمعته من الكثيرين من الزوار .
قلت :
ـ المكان دائما يشي بسره ، وينقل الى الناس بطريقة خفية غير مفهومة مايخفيه من معان وعواطف وذكريات ، كأن له لغة ما يتحدث بها ، لغة لا نعرفها ، وان كانت تصلنا بنبض المكان وسره ..
قال عمرو :
ـ روح المأساة التى تعمر هذا المكان جاءت بعد موت الامام سلطان بن سيف ، وبدء النزاع بين أولادة على خلافته فى الامامة ..
قال طارق :
ـ قصة مكرورة ومعادة ..
قال عمرو وهو يتحرك نحو درج السطح الذى ينزل بنا الى داخل القلعة :
ـ ننزل معا لنتفرج على القلعة او القصر ، واثناء تجوالنا ساحكى لكم الحكاية ..
وبدأنا ننزل الى داخل القصر وراءه ، واحب هنا ان استعمل لفظ القصر .. فهنا حجرات واسعة رحبة جيدة الاضاءة والتهوية رغم سمك الجدران الصخرية .. حجرات راحة السلطان ، وحجرات نوم النساء .. وصناديق ملابسهن وزينتهن .. وقاعات مخصصة لجلسات الحكم والحل والعقد ، وأخرى لجلسات المحاكمة . وقاعة رحبة هيئت كمسجد يتسع لعشرات المصلين ، والمنبر فى وسطه .. وبين الطابق والطابق حجرات

صغيرة ولكنها رحبة بها فتحات تصل الى بئر القصر ومنها يرفع الماء الى هذه الحجرات التى جهزت كحمامات تفى بحاجات أهل القصر وزينتهم . كل شيء ينقلنا الى عصور كان القصر هو كل شيء فى حياة نسائه . لا تكاد احداهن ترى العالم خارجه الا فيما ندر - وواضح أن النساء فى هذا القصر كمن يعشن عيشة راغـبية ، فالخادمات والجوارى متوفرات ، والخدم والعبيد يحضرون من خارج القصر من هذه المساكن التى رأيناها داخل سور القصر ، ومخازن الطعام مليئة ووفيرة ، وأماكن الاغتسال والزينة متوفرة ، والقصر رحب يسمح بالزيارات والتنقل ، بل أن لهن سجنا خاصا بهن ، فعند زاوية السلم العريض فى طابق حجرة ضيقة ذات باب قصير سميك الخشب ، وعند زاوية ثانيـة من السلم العريض فى طابق تال حجرة أخرى شبيهة فى ضيقها وبابها ، واحدة مخصصة لسجن النساء ، والثانية مخصصة لسجن الرجال .. وواضح أن هذه السجون تخصص للمحبوسين فى جرائم عادية ، أما الجرائم التى تنتهى عقوبتها بالاعدام فقد رأينا سجنها المخيف فى أعلى المكان ..

وبينما كنا نتجول ونرى ونتأمل كان عمرو بن على بن سيف الحميمى يتحدث ويحكي ، وقال :

- لقد حول بلعرب بن سلطان الامام الذى نصب بعد أبيه الامام سلطان بن سيف هذا القصر الى حصن منيع ، وانتقل فأقام فيه هو وزوجاته وحاشيته وحرسه ، اذ وقعت بينه وبين أخيه سيف بن سلطان فتن متعددة راح ضحيتها عدد كبير من أهل عمان ، اذ أصابت اموالهم وتجاراتهم بالضرر والتلف . كما تعرض العلماء

والفقهاء والمشايخ وأصحاب الرأى وأهل الورع لعقوبات كثيرة . فقد خرج سيف على أخيه وانحاز له العلمــاء واتهموا بلعرب بأنه انحاز الى آراء السفهاء ، وقبل أقوال من لا رأى لهم ـ ودارت المعارك بين الاخوين ، وخرج بلعرب من نزوى الى الشمال وعاد مرتدا اليها فمنعـه أهلها من دخولها فتراجع الى هذا الحصن وانزوى فيه . ولكن أخاه سيف حاصر الحصن ، وظل يضرب الحصن محاولا دخوله ، وأهل الحصن يدافعون عنه فى بسالة واستماتة ، وقد حوى سيف كل الملك ، ولم يعد لبلعرب الا هذا المكان ، ولم يعد له من نفوذ الا داخل هـذه الجدران ، ومات بلعرب فى الحصار .. وأصـبحت هذه القلعة مدفنه ، فكأنه لم يملك فى حياته وموته الا هى ..

قال طارق :

ـ مات هنا ودفن هنا ..

اشار عمرو بيده الى سلم يقودنا الى ماتحت مستوى الارض من القلعة ، وقال :

ـ أتبعونى نزور قبره

وقال طارق :

ـ ونقرا الفاتحة على روحه .. فقد استضافنا هنا فعبر بنا التاريخ الى دنيا من الاحداث والمعارك .

قلت مستعيدا ماقرأته عن هذه الفترة .

ـ يذكر المؤرخ الكبير حميد بن رزيق أن هذه هى الفترة التى انتعشت فيها عمان وازدهرت فى ظل المعارك الدائمة ضد البرتغاليين من ناحية ، وضد الفرس من ناحية أخرى ... وخاضت عمان معاركها الباسلة ضد أعداء الخارج وضد قلاقل الداخل معا .. ويذكر المسعودى أن ربابنة

السفن العمانية كانوا يرتادون بحار الصين والهند والسند وأفريقية الشرقية واليمن والبحر الاحمر والحبشة كما كانوا يقطعون أطول الطرق البحرية التجارية في فترة القرون الوسطى .. ويقول أنهم الذين الفوا القصص والحكايات التى انحدرت منها قصص السندباد ..

قاطعني طارق قائلا :

ـ مغامرات وحروب ودسائس ومعارك ، وتناحر .. ولابد من حكايات الحب والعواطف ، هذه الدنيا تستهوى قلب الكاتب ، ثم تستهوى أصحاب الفن الشعبى ايضا ..

قلت وحديثنا بالانجليزية حتى يتمكن اندرو من متابعتنا :

ـ ما حكاه لنا الصديق عمرو هنا حقائق تاريخية صلدة اى انها احداث وقعت وارخت ، ودونت كجزء من تاريخ هذه الارض ، ولا دخل للفن أو الخيال فيها ... صحيح أنها تصلح مادة لاعمال فنية عديدة ، وخاصة تلك التى تقترب من التراجيديات الضخمة كالمسرح مثلا ، الا أن هذا لم يحدث حتى الآن .

قال اندرو :

ـ انها ثروة مخبوءة تنتظر من يمد يده ليغترف منها، انا احس في هذا المكان بأصداء الحياة التى ملأته ، السلطة والقوة والمال والنفوذ والسعادة والحب ، ثم اليأس والمرارة والهزيمة والحزن .. كأنما بنى هذا المكان ليكون مخزنا لكل ماقى الانسان من نوازع وعواطف واحزان ...

قلت :

ـ عجيب أمر مانسميه بصنع الاقدار ، يذكــر المؤرخون أن بلعرب الذى ننزل الى قبره الان كان كريما جوادا الى أن وقعت الفتن التى حصرته داخل هذا القصر او القلعة أو المقبرة حتى مات .. من يدرى ماذا كــان سيستطيع ان يحقق لعمان لو استمر له الامر ، وقــد ترك له أبوه دولة مزدهرة وشعبا متحدا قويا ، لا احــد يعرف الآن الاجابة على هذا السؤال .. ولكن الغـريب أن اخاه سيف دخل تاريخ عمان ، بل والتاريخ العربى كله من أوسع الابواب . فقد استطاع سيف أن يوحــد عمان كلها تحت لوائه ، كما استطاع أن يحقق السـلام والعدالة فى ربوعها ـ واستطاع أيضا ان ينتزع مــن البرتغاليين بعض مااغتصــبوه من افريقيا فخلص منهم ثغور ممباسا والجزيرة الخضراء وزنجبار وبته وكلوة ـ وكون أسطولا قويا مزودا بأقوى المدافع فى عصـــره يفرض سيطرته على البحار حوله حتى ليقول المؤرخون أن نفوذ عمان فى الخليج قد غدا نفوذا غير منـازع . ويقول المؤرخ الانجليزى هاملتون « ان العمانيين قــد فرضوا بهذا الاسطول هيبتهم على الساحل كله الى البحر الاحمر » ..

قال طارق فى دهشة :

ـ كأننى اسمع أصوات المدافع ، وصرخات المقاتلين ، والمح لمعان الاسلحة واندفاع المقاتلين فوق الاشرعـــة يتقاتلون على حواف السفن الصاخبة بالقتال .

وقال اندرو :

ـ انها لوحة منقولة عن روايات القراصنة فى جــزر الهند الغربية ..

ضحكت وانا اقول :

ـ لقد وجدت الاحداث الرومانسية هناك من يكتب عنها ، وجدت الروائيين الذين انتزعوها من صـــميم التاريخ ليعطوها عطر الفن ونبض الحياة الدائمـــة .. كلماتهم أعادت الحيـــاة الى هـــذا الوجود المتشابك الملتحم الثري بالعطاء الانسانى ، والطموح الانسانى ، والبطولة الانسانية ، وان استطعنا أن نقول بوحشـية الانسان الطامع الجشع .. ونحن هنا فى ساحل الخليج وفى جزر الهند الشرقية عشنا منذ زمن يسبق هذا الزمن بكثير كل أحلام المرحلة الرومانسية التى عاشتها الانسانية ـ عشنا الاحلام الكبيرة فى اكتشاف ثروات العالم ، والتعرف على ماتجهل من ارض ، والاخذ بيد الشعوب التى تخلفت فى مضمار التقدم فدخلنا بالاسلام الجزر النائية وأعماق الغابات والصحراوات ـ واقمنـا القيم ، وحاولنا قدر الامكان تحقيق المعـرفة والعدالة والحرية ، واستنطقنا الطبيعة أسرارها المخبوءة ـ وهنا فى عمان حفرت الافلاج وزرعت الارض واستجلبت لها النباتات من كل انحاء العالم . وشقت الطرق وعبرت وصولا الى الشمال والشرق والغرب ، واكتشفت وسائل الملاحة البحرية ، ووصلت سفن عمان كل العالم المعروف بعضه ببعض فى مغامرات جريئة عبر البحار قهـرت المجهول واتاحت حق التواصل الانسانى والحياة المتعاونة المشتركة .. ومع كل هذا لم تتقدم كلمات الابداع الفنى لتسجيل هذا كله ، بل تقدم الرجال وتراجعت الكلمات، وغامر الرجال ولم تغامر الكلمات الا فى العطاء الشعبى المرفوض من أصحاب السلطة والحل والعقد والقـــوة والتأثير ..

قال أندرو :

ـ لقد وجد الوجود الحضارى لانسان الغرب على الكلمات ـ لقد تقدم الكتاب والمبدعون والكنانون فصاغوا صراع انسان الغرب كلمات بقيت وخلدت ، وتحولت الى عطاء لاصحاب الفرشاه والازميل ، ثم لاصحاب الكاميرا والميكرفون ، ومع كل هؤلاء لاصحاب النغم والموسيقى .. لولا هذه الكلمات مااستمرت مسيرة حضارة الغرب فيما اعتقد ..

كان على وجهه سؤال حائر ، وكان السؤال فى عيون الآخرين أيضا ، وجعلت أتأمل كلامه ، وأدور به فى وجدانى وعقلى ، وأعرضه على كل ماعرفت ودرست من مقولات وعطاءات ، ووجدت نفسى آخر الامر اقول فى صوت هامس ، كأنما أخشى أن يسمعه احد غيرى :

ـ لقد قهرنا الكلمات فى شرقنا العربى فقهـــرنا استمرارنا الحضارى .. هذا هو الامر بكل وضوح وجلاء وبعد كل عناء السنين فى البحث عن السبب فى تخلفنا وتقدم الغرب .

قال طارق فودة ، وكلماته تخرج متأنية مفكرة :

ـ لقد كنا أول الحضارات التى صنعها الانسان بيده وفكره ، وكنا أول المكتشفين للمعـــادن واستخراجها وصناعتها واول من قهر المسافات .. ثم كنا مهبـط الديانات السماوية ـ ثم توقف كل شيء فجأة حين تصور حكامنا أنهم أوصياء على الانسان فى بلادهم . فلا فكر الا لهم ، ولا رأى الا لهم .. للناس التجارة والزراعة ، ولهم الفكر والامر .

أكملت قائلا :

ـ وحين هزم الحكام هزم معهم كل شيء ، وعاد حكام جدد يبدءون من جديد ليهزموا من جديد ، والتواصل

الفكرى قد انقطع حين حرم على النـــاس تحت كل الشعارات أن يستمر تواصـــلهم الفكرى وبنـــاءهم الحضارى .

قال أندرو متسائلا فى دهشة ؟

ـ ولكن كيف حدث هذا ؟ ومتى ؟ ولم ؟

عدت أغوص فى أعماقى من جديد وأنا أحاول أن بحث عن اجابة ، وقلت محاولا التفكير بصوت عال :

ـ حدث هذا عندما هزمنا عسكريا ، ثم سارع أبناء الغرب الى ارسالنا الى عصور الجهل والانحطاط الثقافى والفكرى . ثم سارعوا أيضا الى وضع الحكام الذين يرضون هم عنهم فى مقاعد القيادة لاجـــزاء أمتنا التى فرقوها ومزقوها .. وشغلوا هؤلاء الحـكام بأحداث يومهم ، وبالصراع من اجل البقاء فى السلطة ، والبقـاء لهم ومن يلتفون حولهم فى العز والجاه والمال والسلطان . ولكى يبقى هؤلاء كان لابد من قهر الشعوب ، والشعوب تقهر حين تتحول الى مجرد أدوات بقاء ، تقهـر حين تسلب القدرة على التعبير ، وحين تسرق منها الكلمات . وجاء ملك وسلطان وذهب ملك وسلطان ، والشـعب يغوص فى أعماق الجهالة رويدا رويدا ، وكل جيل يحاول أن يبدأ من جديد لا يجد أمامه الا التكرار والحشـــو والشروح والتعليقات والتعقيبات والمزيد من العودة الى ماض موهوم .. فمضى وانتهى ، وأعداؤه ينطلقون بمـا سجلوا من صروح الكلمات ، تنقل احساسهم الحضارى من جيل الى جيل وتنميه وتزكية .

قال طارق :

ـ صمتنا فقد وصلنا ، وهنا جرم لا كلام فيه ، فقـد حل فيه السكون والصمت ..

كنا بالفعل قد وصلنا الى الحجرة السفلى المعتمة ، فى قاع الحجرة قبر فوقه شاهد عريض ، وكأنما دلى الجسد الى هذا القاع فى عمق اعماق القلعة التى حرست حياة صاحبه ثم ضمت رفاته آخر الامر ـ وعند كل جانب كان يقف رجل ملتح فى يده بندقية ، وقال واحد منهما حين حل بنا الصمت ونحن نقرأ الفاتحة وكفوفنا مفتوحة امام وجوهنا :

ـ هنا يرقد الامام بلعرب ، عاش طيبا وكريما ، وحين يئس من عدل الناس طلب الموت ، وجاء بنفسه الى هذا المكان حيث حفر قبره ، ورقد فيه ، ثم ودع أهله ، وطلب الموت واستجيب طلبه ومات .. وجسده يرقد هنا فى سلام ..

تبادلنا النظرات فى صمت ، وكل منا ينهى قـراءة الفاتحة ويدور بكفيه المدودتين ليمسح وجهه .. وأندرو ينظر الينا فى صمت واحترام .. وقال عمرو بن على :

ـ هنا تنتهى زيارتكم لقلعة جبرين .. ومن هنا نتوجه الى خارج القلعة ..

وغادرنا المكان المعتم ، ومايحمل من معان وأحداث .. وعندما عادت الشمس الحارقة تلفح وجوهنا من جديد عند باب القلعة ، قال أندرو :

ـ كنت تريد أن تقول شيئا هناك ، وأسـكتك منظر المقبرة وحديثها المرير ..

قلت :

ـ لست أدرى أيهما الفائز ؟ هذا الذى خسر المعـركة واستقر هنا فى جبرين فى حسرة ضياع الملك ، أم ذاك الذى دفن فى الرستاق بعد أن ازدهى على الدنيا بنصره على أخيه ، ثم بمعاركه العنيفة مع أعدائه فى الداخـل

والخارج ، وثرواته الجمة التي جمعها عبر الفـزوات والفتوحات والانتصارات ..

وسكت لحظات ، فقاطعنى صوت حمود الذى لم يتكلم ابدا طوال الجولة ، كان يقول :

ـ الموت حق ، والمبنى بقى وصاحبه راح ، والعبرة لمن اعتبر ..

بالقطع لم يكن يجيب على سؤالى فقد كان حـديثي بالانجليزية ، ولكنه كان يجيب على سؤال في أعماقه هو أثارته هذه الجولة فى ربوع التاريخ والحياة والموت .. وقال طارق :

ـ صدقت ياحمود ، أكثر مما تظن ..

وسأل أندرو وقد أحس من لهجتنا أن ماقاله حمود قد هزنا ، فترجم له طارق ، وأطـــرق أندرو وهــو يهمس :

ـ هذا فضل بقاء شواهد الحياة والعظمة ، عرفناها نحن فى كلمات الفنانين ، وعرفتموها أنتم فى التـأمل فى الصخر الباقى الاصم ..

قلت :

ـ وبقينا نحن فى سكون هذه القلاع الحصون القصور المقابر .. أما أنتم فقد عاش الانسان فيكم بكل مغامراته وتجاربه ، آلامه وأحزانه .. دون ممنوع ودون خوف ، ودون توقف .

جنّ سُليمان

كان الصمت يلفنا ونحن نتحرك بالسيارة التي ابطأت من سيرها كثيرا من شارع ضيق الي شارع ضيق . وعلى الجانبين حواجز من ابنية طينية تطل من ورائهـا الاشجار سامقة متعالية ، وقطعت الصمت السائد داخل السيارة وأنا أتنهد كأنما انزع نفسي من مكان بعيد غاصت فيه ، وقلت :

ـ في يوم حار قائظ كهذا ، جال السندباد البرى ببغداد وقد أمضه حمله وأتعبه ، وسال عرقه واشتد عناؤه وجف ريقه ، حتى وصل الى حائط كهذا بعده بستان تطل اشجاره مثل اعالى هذه الاشجار ـ وعند الباب هبت عليه نفحات من نسيم معطر بما فى البستان من زهور وثمار ، مرطب بما في البستان من عيـون ومياه جارية ، فأنزل حمله وأراح ظهره الى جوار الباب ـ وجاءته أصوات غناء وموسيقى عذبة فدخل الى البستان يدفعه الفضول ، وشوق الى ماحرمه من متع الحياة .. ويراه سـندباد البحـرى فيدعوه الى مجلسه الزاخر بالحياة ، رفاق وخلان وجوار وعبيد ، وموائد محملة بالطعام الفاخر والشراب الصافى والفاكهة والبقول .. ومن ساعتها وسندباد الحمال يجلس الى مائدة السندباد البحرى يسمع منه حكايات سفراته ومغامراته ، ويخرج من عنده محملا بالعطايا ليعود اليه مع المساء الجديد ..

ضحك صديقنا الارجنتيني اندرو وقال :
ـ نحن فى حركة دائمة عبر الزمان كأننـــا نركب آلة الزمان تعود بنا مرة الى العصور الوسطى ودنيا القلاع والحصون وحروب البحار وعوالم القراصنة ، وتعود بنا مرة أخرى الى دنيا سندباد ومغامراته ، وجو الليالى الساحر وحكايات بغداد المليئة بالاسرار والغموض .
قال صديقنا الصحفى طارق فودة :
ـ بل نحن فى دنيا من الصور المتحركة ، يجب أن تدب الحياة هنا بكل عطرها القديم ، وتتحرك آلات التصوير السينمائى لتصور الدرامات والتراجيديات وقصـص المغامرات والحب ، ودنيا البعض الذى عاش هنـا زمنا وولى ..
قلت والسيارة تقترب بنا مـــن مبنى ضخم يزداد ضخامة كلما اقتربنا منه :
ـ تقصد أن نعيد التواصل الحضارى عن طريق الفن الحى المستمر والمتلاحم ..
قبل أن يجيبنى أحدهما قال سائقنا ودليلنـا حمود :
ـ هاقد وصلنا .
ونزلنا من السيارة ، ليحتوينا صمت فرضه المبنى الهائل المهجور الذى يواجهنا ، وقال دليلنا وهو يغلق باب السيارة ليقف معنا :
ـ هذه قلعة بركة الموز ..
ثم صمت .. كان كل شيء امامنا وحولنا يدعـو الى الصمت .. الصحراء تحيط بنا وفراغ هائل حولنا ، وأمامنا سور ضخم يحيط بمساحة هائلة ، وفى النهاية هناك عند الناحية الاخرى من حيث تقف مجموعة من المبانى العالية المليئة بالابراج وفتحات المدافع ، ودرجات

من المصاطب يتحرك فوقها الجند .. ودخلنا قلعة بركة الموز .. القلعة المهجورة المتروكة لفعل الزمن والرياح وعبث العابرين ، وخيال الشعراء ، واقلام الدارسين ، ورؤى الفنانين الذين يتخيلون فى كل بقايا انسانية نبض حياة لا تموت ...

قطع صديقنا أندرو حبل الصمت قائلا ، وفى صوته رهبة وتردد :

ــ لسنا هنا أمام القصر القلعة ، وانما نحن أمام المعسكر القلعة ..

وقد صدق أندرو فى ملاحظته ــ فرق ضخم بين حصن جبرين وبين هذه القلعة ، فهناك قصر بنى كحصن منيع ، أما هنا فهذه قلعة هيئت لحركة الجنود ، لكى ترسل السرايا الغازية ، وتسيطر على كل المنطقة التى تحيط بها ، وترد كل هجمة مضادة تستهدف الجنود والسلاح .. حكاية تمركز عسكرى ، ربما كان برتغاليا اثناء الهجمات البرتغالية البربرية على المنطقة .. وربما كان عمانيا أيام الزهو العسكرى العمانى يرد الفرس من ناحية ، والبرتغاليين من ناحية ، والبدو الطامعين من ناحية ثالثة .. كم من جنود تحركوا بخيولهم هنا يهزون البيارق ، وتلمع رماحهم فى اشعة الشمس اللافحة ، وتهتز خيولهم وتهز الارض بسنابكها ، ثم يدوى الامر فيتحرك الجمع فى نظام الى خارج القلعة لغزو جديد ، أو لرد غزو وشيك .. وكل القلوب تتعلق بالجند الراحلين تتوقع نصرهم ، وتتوقع عودتهم فى قلق وتضرع وأمل فى أن يعود الراحلون .. لعلها كانت قلعة للرجال من أجل عمان ، ولعلها أيضا كانت قلعة للغزاة من البرتغاليين الذين اقاموا قلاعهم بعد

الغزو على الثغور وفي الاعماق .. وسألت جميد عن هذا الامر ولم يكن يعرف اجابه ، وقال طارق بوده وهـو يتامل القلعه ويجول ببصره فى انحائها الخاوية :

ــ الاقرب أن تكون هذه القلعه من بناء الاوروبيـين فأوروبا مليئة بأمثالها ..

قلت له

ــ ليس هناك احتمال مستبعد طالما نحن لا نعـرف الحقيقه عن يقين ..

وترجمنا لاندرو حديثنا فقال :

ــ وما الذي جاء بأوروبا وقلاعها القديمة هنا ... هذه القلاع كانت تملأ اوروبا في العصور الوسطى .

قلت له وأنا اقلب البصر فى المساحه الواسـعه التى تشكل ساحة القلعة المعسكر .

ــ انها القصة القديمة المعادة والمكررة ، قصة الاطماع التي لا تقف عند حد ، والتى يتوارثها الابناء عن الاباء ، وينفذ كل جيل جزءا من التحرك الاستعمارى ، فاذا بالحلقات تتابع واذا بالفخ يفتح واذا بالحصار يحكم ، واذا بأوروبا هنا بالسلاح والدماء والقلاع أيضا . تنهب الثروات وتهزم الرجال وتحطم كل المعانى فى الحـق والعدالة أو فى الحب والحرية ..

قال أندو :

ــ الست تتحامل قليلا أو كثيرا ؟

قلت له :

ــ انها الاطماع ياصديقى ، انه عالم جديد فقير ينظر الى ثروات العالم القديم الغنى بكل التطلع الشره والرغبة العازمة في أن يملك ويدمر ، ويحل هو محل أصـحاب الثروة والمكانة .. والخداع والرشوة والخيانة أسلحة

تستغل فى يسر وسهولة ، وكذلك التعذيب والارهاب والقسوة أسلحة لا يجد أحد غبارا فى استخدامها .

قال اندرو :

ـ لعلك تتكلم بمرارة عن مرحلة المعارك الصليبية ، هذه ياصديقي كانت مراحل رومانسية فى تاريخ العالم القديم ، وكان السلاح يرفع باسم الدين ، وكان الغرض هو وقف زحف المد الاسلامى على أوروبا المسيحية ..

قلت فى مرارة :

ـ لقد قلتها أنت ، كان السلاح يرفع باسم الدين هذا صحيح ، ولكن الهدف لم يكن الدين فى شىء ، وانما الهدف كان المال ومصادر الثروات ومفاتيح كنوز العالم القديم . ولعل حدثا لا يكشف عن هذا كله قدر الاحداث التى تعرضت لها هذه المنطقة بالغزو البربرى البرتغالى يقوده المتعصبون البرتغاليـــون الذين ما أن توصلوا الى اكتشاف رأس الرجاء الصالح حتى بدأت أسوأ فصول الاستعمار وأكثرها دموية . واذا كان هنرى الملاح ملك البرتغال يعتبر عبقريا شجاعا فى أوروبا ، فهو هنا يعتبر سفاحا غليظ القلب ومعدوم الضمير ، فوراء أوامره تكمن عمليات سفك الدماء والتعذيب والسـلب والنهب . ونفس الاكاذيب حول فاسكودى جاما الذى يعتبر فى أوروبا أحد المستكشفين العظام . وينقل لنا وندل فيليبس صاحب كتاب « تاريخ عمان » عن مؤلف مجهول لكتاب « الرحلة الاولى لفاسكو دى جاما » قوله: « استجوب الكابتن ميجور « دى جاما » اثنين من البربر من أهالى « موزمبيق » أحضرهما الى سطح السفينة ، وذلك بالقاء زيت يغلى على جلدهما لكى يعترفا بأى خيانة

موجهة ضدنا » .. ويؤكد أحمد بن ماجد أن البرتغالين حصلوا على خدماته ومعلوماته عن الملاحة في المنطقة بطريق « الغش الدنيء والخداع » وقد نص على هذا في كتابه « البرق اليمنى » . ويقول ويندل فيليبس « ان روايات المعاصرين وشهود العيان عن معاملة البرتغاليين للعرب والوطنيين الآخرين سواء فى شرق افريقيا او الهند او عمان ذاتها هى سجل طويل يثير التقزز لجرائم وحشية ارتكبت دون مبرر » ومن هذه الجرائم حرق الناس وهم احياء ، ويورد ويندل فيليبس حكاية السفينة « فريوم » التى أسرها المكتشف الاوروبى « الشريف » وكانت تحمل حجاجا الى مكة ، اذ سجن هؤلاء الحجاج فى عنبر السفينة ، ثم أشعل فيها النار « وأغرقت بما تحمل من بشر لا حول لهم ولا قوة ، وهم يصرخون وينوحون طلبا للرحمة ، بينما كان دى جاما يمتع نفسه بهذا المشهد الذى ابصره من خلال كوة السفينة دون أن يبدو عليه اى تأثر .. » وفى حكاية أخرى يستولى دى جاما على عدة سفن عربية ، ثم يأمر بقطع ايدى وأنوف كل البحارة . ووضعهم فى سفينة صغيرة ، ووضع أحد البراهمة الذى كان رسولا اليه من ملك هندى يصحب هذه السفن ــ بلا أذنين وانف ويدين، وأمر بوضعها على هيئة سلسلة حول عنقه وذلك بعد أن منح الامان لهذا الرجل ، ويستمر صاحب الكتاب قائلا : « وكتب « دى جاما » رسالة على ورق نخيل للملك يطلب منه أن يعد طبقا من الكارى بما أحضره الراهب لكى يأكله . وبعد أن « عامل » كل الهنود الحجاج بهذه الطريقة ، أمر بتقييد أقدامهم معا ، اذ لم يعد لهم ايادى يفكونها بها .. وحتى لا يستخدمون اسنانهم

لفك قيودهم امر بتحطيم اسنانهم ضربا بالهراوات ، وأسقطوا الاسنان فى حلوقهم ، ثم وضعوهم بهـــذه الصورة على ظهر السفينة وقد تكدس بعضهم فـــوق بعض واختلطت دماؤهم المتدفقة بغزارة ، ثم امر دى جاما بمد حصائر واوراق شجر جافة فوقهم ، وان تفرد القلوع كي تحملهم السفينة الى الشاطىء .. واشعلت النيران فيها بعد ذلك ، وكان فى السفينة مالا يقل عن ٨٠٠ مسلم ، وكذلك ارسلوا السفينة الصـــغيرة نحو الشاطىء بدون حرق وهى تحمل البرهمى ومعه كل الآذان والايادى المقطوعة » . ويذكر ويندل فيليبس حال سفينة أخرى وقعت فى الاسر وقد استسلم كل من فيها ، واعلنوا خوفا من التعذيب انهـم سيعتنقون المسيحية .. ويقول ويندل فيليبس : « وعندئذ امر دى جاما بأن يقوم قسيس بتعميدهم بالماء المقدس ، وراح القسيس يرتل مراسم الصلاة الربانية وهم يرددون وراءه وبعد أن تم ذلك ، علقوهم بعد خنقهم حتى لا يشعروا بضرب السهام » ..

قال أندرو ، وهو يسرح ببصره فى الساحة الواسعة وكأنما يسمع فى فراغها أصوات عذابات قديمـــة ، وصيحات توسل ، وضراعات تطلب الرحمـــة دون جدوى :

ــ هذه صورة مخيفة ، الا تعتقد ان الخيال قد لعب دورا فيها ؟

قلت له :

ــ لقد حرص المؤرخون الاوروبيون أنفسهم على ذكر قسوة « دى جاما » حتى ليقول ويندل فيليبس معقبا على الحادثة التى رويتها لكم « لم تكن تلك مجرد حالة

واحدة غير عادية ، بل تمثل سياسة برمتها .. وتظهـر طبيعة الملاح والغازى « الـــكبير » فى ذلك الخيالى فى قسوته ، حيث أمر ذات مرة بقطع شفتى شخص مـن البراهمة ، وهو مبعوث من الساموريين فى كلكتا ، حتى تبدو أسنانه ، ثم أمر بقطع أذنى كلب كان فى السفينة ، وربطهما وخاطهما بغرز عديدة فى وجه البرهمى بدلا من أذنيه » ..

قال طارق فودة :

ـ اذا كان هذا هو موقف المؤرخين الاوروبيين فلماذا سكت المؤرخون العرب ، أن شيئا من كل هذا لم يعرض فى كتب التاريخ عندنا ؟ لا الكتب المدرسية التى كانت تقدم لنا فاسكودى جاما كبطل تاريخى عظيم ولا غيرها من كتابات المؤرخين المطروحة للتداول العام .

قلت :

ـ لم يسكت المؤرخون القدماء ، وفى القرن السادس عشر كتب الشيخ زين الدين فى كتابه « تحفة المجاهدين » يعلق على سلوك البرتغاليين قائلا : « كم من النســـاء الشريفات ممن وقعن فى الاسر بهذه الطريقة ، احتجزن وانتهكت أشخاصهن لانجاب أطفال مسيحيين ، ربوا على معاداة دين الله ، وتعلموا اضطهاد المسلمين » ولـكنى اظن ان سيطرة الاوروبيين بعد احتــــلالهم لبلادنا على مقدراتنا العلمية والثقافية جعلتهم يتجاهلون فى كـل ما كتبوه لنا ، هذه الصفحات الســوداء مـــن تاريخ استعمارهم المقيت لبلادنا .

قال أندرو وهو يشير لنا لنتبعه فى تفقد بقايا القلعة المهدمة :

ـ ربما كان هذا القائد متوحشا أو مريضا ولـــكن

هذا لا يعني أن نتهم الجميع ، ولا تنسوا أن المسألة مسألة حرب ، ومنهزم ومنتصر ..

قلت :

ــ تاريخ هذه الحقبة يحفل بمجموعة من القواد المتوحشين والمرضى كما تصفهم ، فمنهم الدوم فرانسيسكو داالميدا الذى يصف ملك ممباسا المهزوم انتصاره الفاجر ويقول : « قد جاء هذه البلدة بقوة وحشية بالغة حتى انه لم يترك رجلا أو امرأة ، كهلا او شابا .. بل وأصغر طفل .. حتى أولئك الذين فروا من ضراوته .. وهو لم يكتف بقتل الرجال وحرقهم بل وأسقط حتى الطيور فى السماء . وأن رائحة الجثث فى البلدة بلغت حدا شنيعا حتى اننى لا أجرؤ على الذهاب الى هناك ، كما لم استطع التأكد أو تقدير مدى مانهبوه من ثروات فى البلدة » .. ويقول ويندل فيليبس « وبعد عامين ، قام هذا الرجل داالميدا ، الذى أصبح نائبا للملك « البرتغالى » فى الهند ، باطلاق أسراه من فوهات المدافع أمام « كانا فور » محييا البلدة بشظاياهم » ويقول فى موضوع آخر « كانت مجرد لمسة البرتغاليين تعنى الموت » وكتب مؤرخ من « كلوا » يقول : « ان الذين يعرفون الحقيقة يؤكدون أن البرتغاليين كانوا رجالا فاسدين غير شرفاء ، جاءوا للتجسس على البلاد لكى يستولوا عليها » ..

ضحك اندرو ضحكة قصيرة حزينة ، وهو يهز رأسه ويقول :

ــ نحن فى الارجنتين نعتبر أنفسنا من نسل نبلاء الفرسان الاسبان والبرتغاليين بالطبع ، ولكن ..

قاطعته بسرعة قائلا :

ـ حديثى لا يتهم شعبا يا أندرو انما هو يوجه أصابع الاتهام لفعل تم فى مرحلة . وقام به مجموعة من الرجال لهم مفاهيمهم الخاصة ، لست أعتقد أن المسيحية كانت أحد مصادرها ، فليس فى المسيحية مايزعم أن المسيحيين هم شعب الله المختار ، وغيرهم من الشعوب تعامل معاملة الحيوانات والوحوش ، فلا الاسبان ولا البرتغاليون مسئولون عن هذه الجرائم كجنس ، ولا المسيحية مسئولة عن هذه الجرائم كدين ..

قال الصديق طارق فودة :

ـ واضح أن هؤلاء الغزاة كانوا يتخذون الدين مجرد ستار ..

قلت :

ـ بدأ الامر بالمراكز العمانية فى افريقيا وفى عام ١٥٠٧ ميلادية قام الفونسو البوكيرك اسوأ رجال البحر البرتغاليين ، بقصف ونهب وتدمير مسقط كلية تقريبا . وسمى هذا القرصان باسم « الفونسو البوكيرك العظيم » فى كتاب الفه ابن غير شرعى لى . وهو فى هذا الكتاب يصف المعركة غير المتكافئه التى خاضتها حامية المدينة ببسالة ضد السفن المجهزة بالمدافع الثقيلة ، ويقول فى نهاية وصفه للمعركة اليائسة « بعد أن أمر الجنرال المنتصر باشعال النار فى المدينة .. « أمر ثلاثة من رجال المدفعية بهدم دعامات المسجد بالبلط ، وكان مبنى كبيرا جميلا ، وقد أقيم الجزء الاكبر منه بالاخشاب المنقوشة ببراعة ، والجزء الاعلى من الجص المنقوش .. وأصبح لدى رجالنا كثيرون من المسلمين « العمانيين » رجالا ونساء ، أسرى لا يريدون منهم شيئا ، ولا يستطيعون حملهم معهم ، ولهذا أصدر الفونسو البوكيرك أوامره

بقطع آذانهم وجدع أنوفهم ، واطلاق سراحهم بعد ذلك .. » ..

قال اندرو وعلامات الاشمئزاز واضحة على وجهه :

ــ لا احترام لشيء اذن لا للانسان ولا للفن ولا لشيء .. كيف مر كل هذا دون عقاب .

قلت :

ــ لا نستطيع ان نقول ان هذا كله مر دون عقاب ، لقد حارب العمانيون ببسالة وثاروا أكثر من مرة ، وخلال ربع قرن كامل ظلت المناوشات قائمة .. كما أن مصر ظلت تشن بأساطيلها البحرية هجمات منتظمة ضد البرتغاليين أيام قنصوه الغورى آخر السلاطين المماليك الذى فقد أسطوله فى هذه المعارك الدائمة . ولكن مصر عادت فى سنة ١٥٥٠ ترسل أسطولها البحرى من السويس الى مسقط أثناء حكم العثمانيين ، واستطاع قائد هذا الاسطول « بيرى ريس باشا » تحرير مسقط . ومع هذا عاد البرتغاليون الى عمان مرة أخرى واستمرت المعارك بين الاهالى والاساطيل الاسلامية من ناحية وبين الغزاه من ناحية أخرى ربع قرن آخر . الى أن يقوم الامام ناصر ابن مرشد فى عام ١٦٢٠ بطردهم من كل أنحاء عمان ماعدا معاقلهم وأبراجهم فى مسقط ومطرح وصحار . وبعد هذا استولى سعيد بن خليفة على قلعة الميرانى ، وسقطت مسقط فى أيدى الامام سلطان بن سيف الاول .

قال طارق فودة وهو يتنهد فى راحة :

ــ دارت الدائرة اذن ، وغدا الغازى مغزوا .

قلت :

ــ نعم لقد بدأ الاسطول العمانى فى عهد أولاد سلطان بن سيف الأول فى غزو مستعمرات البرتغاليين

فى شرق افريقيا وفى اجلائهم عنها .
قال أندرو :
ـ أليس هو بانى قلعة جبرين التى كنا نزورها منذ قليل ؟
ضحكت وأنا اقول :
ـ ان هذه القلعة القصر هى التى فجرت كل هذا الحديث ، لا هذه القلعة المعسكر التى تقف فيها الآن .. لقد اختلف الاخوان بلعرب وسيف بن سلطان على الملك ، وانتهت القصة كما سمعنا من حارس القبر بابتهال بلعرب الى الله أن يموت فمات وترك الامر لاخيه سيف الذى اصبح اعظم حكام اسرة اليعاربة على الاطلاق ، والذى حرر كل عمان ، ثم حرر أيضا المستوطنات العمانية فى افريقيا ..
ضحك أندرو وهو يقول فى صوت ساخر :
ـ وهل مرت حروبه دون أهوال ومظالم .!
صمت لحظة قبل ان أجيبه :
ـ لا حرب بلا أهوال وكوارث ، ولكن فرق أن تحارب لتتحرر ، وبين ان تحارب لتنهب وتسلب ـ وعلى كل حال فان سلوك العمانيين فى حربهم فاز بالكثير من الثناء فبينما يقول هاملتون فيما ينقل عنه ويندل فيليبس « ان العمانيين لم يقتلوا أى رجل عمدا .. وكانوا يستخدمون الاسرى بأدب » يؤكد ويندل نفسه أن العرب كانوا يدمرون الحصون ولكنهم كانوا يتركون الكنائس .
تدخل حمود لاول مرة فى حديثنا الذى كان يتابعه فى اهتمام وان لم يكن يصله منه شىء لانه كان يدور كله بالانجليزية وقال :
ـ طال وقوفنا هنا وأمامنا زيارة أخرى قبل العودة ..

ودعنا الساحة الواسعة بكل الذكريات التى أثارتها وركبنا السيارة وراء سائقها ، ودارت بنا السيارة لتعود الى الطريق الرئيسى وتندفع الى الامام .

سأل طارق حمود :!

ـ أنحن نعود .؟

قال حمود :

ـ نعم نحن فى طريق العودة وسنمر على فلج دارس لتشاهدوه ، ثم نعود الى مسقط .

قال أندرو :

ـ من يصدق أن هذه الارض الساكنة الهادئة شهدت احداثا صاخبة مثيرة كالتى حكيت عنها .

ثم ضحك وعاد يقول :

ـ من يدرى ربمـــا كان أحد جدودى ضمن هؤلاء البرتغاليين الذين زاروا هذه الارض وتركوا وراءهم كل هذا الصخب الذى بقى عبر التاريخ .

قلت له :

ـ لقد حاول المؤرخون طمس هذا الذى تسميه صخبا لننساه نحن على الاقل ، ولكن ذاكرة التاريخ لاتنسى أبدا ؛ وذاكرة الشعوب أيضا لاتنسى .

قال طارق :

ـ لابد أن هناك العديد من الحكايات الشـــعبية حول هذه المعارك .

قلت :

ـ لا يمكن أن تمر مرحلة كهذه المرحلة من مراحل التاريخ دون أن تترك آثارها فى الفن الشعبى ، ولو بحثنا جيدا ، وجمعنا مابقى فى ذاكرة الحفظة من كبار السن فلابد أن نحصل على ذخيرة كبيرة من الحكايات الشعبية،

والاغانى والاشعار ، وربما الامثال والحكم ايضا .
قال طارق فودة :
ـ أحس ان شيئا كبيرا قد فاتنا بضياع هذه الحكايات الشعبية :
قلت :
ـ كلما ازددت اقترابا من هذه الارض ، كلما زاد احساسى باننى اقف فوق كنز مدفون ، دفنه الزمن ونسيه الناس .. ولكن أين هو هذا الكنز وكيف نبدا البحث عنه .. هذا هو السؤال .
قال اندرو :
ـ قبل أن تؤكد وجود الكنز لابد من وجود دليل يرشدنا الى صحة وجوده .
قلت :
ـ ان كتب التاريخ مليئة بحكايات المغامرات والمغامرين وحكايات البحار وعجائبها وقراصنتها والمهالك التى يتعرض لها البحارة فيها وعلى السواحل وفى الجزر المنتشرة فيها .. وسواء كان المؤلف عربيا أو اجنبيا فهو لا يستطيع ان يتخلص من بقايا غريبة وشاذة لابد انها من نسج الخيال الشعبى ، او على الاقل من بقايا متحورة عما وعته الذاكرة الشعبية ، وفى الف ليلة وليلة وفى رحلات السندباد البحرى بالذات بقايا من الممكن أن نعود بها الى هذه المرحلة الصاخبة من تاريخ المنطقة ، وكتب الرحالة والجغرافيين تحفل ببقايا شعبية كثيرة ، ولكن كل هذه الشواهد مفرقة تدل على وجود الكنز ولكنها ليست الكنز نفسه .
كانت السيارة قد وقفت بنا فى سهل فسيح منبسط تتناثر فيه الاشجار شديدة الخضرة ويلعب فى أجزاء

منه صبية صغار ينطلقون بكل براءة الطفولة ومرحهـا وضحكاتهم تعلن وجود الحياة ، وتعلن أيضا دفء الحياة.
ونزلنا من السيارة نحرك أقدامنا لنعيد الدم الى جريانه بعد احتباسه من جلستنا المتقلصة فى العربة . وكان حمود يشير بيده الى مجرى مائى بهيج يمتد أمامنا لمسافة طويلة وماؤه النقى يلمع تحت أشعة الشمس ويقول :
ـ هذا فلج دارس .
صاح طارق فودة وهو يسرع بمشيته الى جوار الفلج تأمل ماءه الرقراق :
ـ كأنه ترعة أو مصرف ، من أين يأتى الماء ..؟
قلت له :
ـ الافلاج كلمة قد تطلق على الممر المائى ، ولكنها هنا تعنى هذه القنوات التى ينبع ماؤها من مياه جوفيـة ، فهى آبار وممرات مائية أيضا .
طلب أندرو أن نترجم له كلامنا ، فعاد طارق يقوم بمهمة الترجمة . وحين انتهى قال أندرو :
ـ كنت أعجب للخضرة الدائمة لهذا البلد فليس هناك نهر معروف يسقيها ، ولكن هذه الافلاج اجابة كاملة عن السؤال الذى حيرنى كثيرا .
قال طارق :
ـ نحن فى منطقة البلاد السعيدة التى عرفت بزروعها وجناتها من قبل التاريخ المدون ، والتى نشأت فيهـا حضارة من أعرق الحضارات القديمة . وحين عجـزت الطبيعة أن تقدم النهر صنع الانسان السدود وحفر الآبار ثم صنع هذه الافلاج العجيبة ..
قلت :

ـ لقد كان من أمجاد الائمة في عمان بناء الافـلاج أو حفرها بمعنى أصح ، ويعتبر هذا حدثا هاما عند المؤرخين ربما أهم من بناء القلاع . فيذكرون للامام سلطان بن سيف بناءه لفلج البركة ، كما يذكرون لسلطان بن سيف انه اجرى سبعة عشر فلجا فى أماكن متعددة من عمان . وحين هزم الفرس وخرجوا من عمان كان أول مافعلوه هو ردم ماكان موجودا منها ، واضطر الازد بعد انتصارهم أن يعيدوا فتحها من جديد .

قال طارق وهو يتأمل الفلج والصبيه يلعبون الى جواره ويتقافزون بين ضفتيه :

ـ اذن فهذا هو الجزء البارز من المنبع ، وبعد قليل يغطى الماء سقف ثم يختفى كل شيء فى باطن الارض .

قال أندرو :

ـ بالفعل ان الفلج بهذا ظاهرة هندسية مدهشة .

ضحكت وأنا اقول :

ـ كثيرون دهشوا من الافلاج حتى القدماء فنسبوها الى عالم الخوارق .

ضحك طارق وهو يقول :

ـ دخلنا فى الادب الشعبى مرة أخرى .

قلت :

ـ هناك دبلوماسى انجليزى رحالة اسمه برترام توماس الف كتابا عنوانه « مخاطر الاستكشاف فى الجـــزيرة العربية » وقف مثلنا مندهشا أمام ظاهرة الافلاج فسأل شيخ قبيلة تقطن الى جوار احد الافلاج « من الذى بنى هذه الافلاج المائية ؟ » ويحكى قائلا « فأجاب سالم دون تردد : ان الذى بناها هو سليمان بن داود .. ولكني قلت : ان الملك سليمان لم يأت الى هذه المنطقة ، خاصة

وان انظمة هذه الاطلال تعود الى قرون سابقة .. فضحك الشيخ من قولي وقال : الله يسلمك ، لقد جاء الملك سليمان الى هنا في موكب على اجنحة الريح ...
فعدت أسأله : ولكن من الذي قام ببناء هذه الافلاج ؟ ومن هو العنصر الذي قام ببنائها ، الفرس أم العرب ، أم غيرهم ؟ فقال : الله أعلم ، ربما كان من صنع الجان وليس من صنع أشخاص مثلي ومثلك » ..

ضحك اندرو وهو يقول :

ـ الملك سليمان مرة واحدة ؟!

قلت :

ـ الملك سليمان في المأثور الاسلامي مرتبط بالخوارق عامة وبالجن خاصة نظرا لما ذكره القرآن الكريم عما حباه الله به من سلطان على الجن والرياح والهوام والطيور ومعرفته بلغات الوحوش والحيوانات ، ولهذا فلا تخلو حكاية من حكايات الجان في الاعمال الشعبيه العربية من ذكر لسليمان ، وللجن الذي حبسه في القماقم ورماه في أعماق البحار . فلا عجب ان يرتبط عمل خارق كهذا بالجن ثم بسليمان .

قال طارق :

ـ ولكن اذا كانت حكاية سيدنا سليمان هذه تنطبق على الافلاج القديمة ، فماذا عن الافلاج الجديدة وخاصة التي بناها الائمة مثل من ذكرت أسماءهم ..

قلت :

ـ الاجابة هي « العوامر » ..

قال اندرو في دهشة :

ـ العوامر ؟

قلت :

– نعم ، العوامر قبيلة تخصصت فى حفر الآبار والافلاج في شمال عمان ، وهناك آخرون مثلهم ، ولكن العوامر اشتهروا فى التخصص فى الحفر تحت الارض . وفى بحث بقلم « جى . س . بيركس ، وسالى . ى ليتس» يقول الباحثان « العوامر قبيلة قائمة منذ زمن بعيد قاعدتها قلعة العوامر قرب أزكى وديارهم فى الشرقية ، وأهم مواطنهم ادم والعيون والمضيبى » ويحكى هذا البحث الطريف قصة الافلاج منذ البدء فى التفكير فيها . فالامر يبدأ «بباصر» والباصر رجل له خبرة بمعرفة مواقع الماء تحت الارض . ومعظم التبصر بمواضع الماء طلبا لتحديد الافلاج يفعله باصرون يزورون منطقة البئر الام ويتفحصونها ، ويقول البحث « وينقل الباصرون خطواتهم في المكان يتفحصون تشكيلات وجه الارض ، ويدققون النظر فى الاعشاب البرية والتربة تدقيقا بالغا ، ويقال « أن من الدلائل المهمة وجود شجر السمر والسدر ، وان تكون – ان وجدت مائلة » ..

قال أندرو :

– فى بلادنا يستعملون العود أو القضيب .

وقال طارق :

– ونفس الشيء بالنسبة للبدو فى بلادنا .

قلت :

– أن الباصرين هنا عادة أكفاء لانهم لا يحددون وجود الماء وحسب ، وانما يحددون عمقه كذلك . وهناك باصرون مشهورون من غير العوامر ، غير أن العوامر يكادون ينفردون باستعدادهم لحفر الافلاج وتمد يدها فى الصخر الاصم . وهم يشتغلون فى فريق من ٤ الى ٦ أشخاص ويراوحون بين فترات عمل تحت الارض وفترات على

سطح الارض يرفعون اثناءها الانقاض من حفر الخندق. ويطرحونها على أكوام النفايات . فهم يمددون مجرى الفلج تحت الارض فى نفق ، والعمل يتم دائما فى وضع القرفصاء ويستعمل فيه مطرقة وازميل ، ويتم ببطء شديد وعناية كاملة .

قال أندرو :

ـ حقا ان ارادة الانسان تغلب كل الصعاب . من النبع الجوفى يجرى نهر نفقى داخل الارض ليظهر الى السطح ثم يعود الى الباطن مرة اخرى ، ويسقى الماء الزرع والناس ويبعث الحياة فى الصحراء القاحلة من جوف الصخر الصلد الاصم .

ضحك طارق وقال :

ـ اتعبتمونا حديثا ، كفى وهيا بنا فقد اتعبتنى الشمس .

ومضينا مع حمود الى العربة ، وقال وهو يقودها :

ـ سنتوقف لتناول الطعام فى الطريق فأمامنا حتى مسقط مسافة طويلة .

قال طارق :

ـ أين ياحمود ، وهنا وديان بلا قرى ؟

ضحك حمود وهو يقول :

ـ بل القرى كثيرة فى طريقنا ، وهناك فندق جميل حجز لنا فيه طعام الغداء ..

وأدهشنى هذا التنظيم الدقيق لامور الرحلة فقلت :

ـ كان مقدراً من قبل اذن أن ننتهى من جولتنا فى موعد الغداء .

فقال وهو ينطلق بالعربة التى اخذت تطوى الطريق مسرعة :

ـ هذه رحلة يحرص عليها كل زوارنا .. ولهذا فقد اعدنا حساباتها من زمن .

وشملنا صمت طويل لم يقطعه الا وقوف السيارة عند مدخل فندق انيق ـ وحين نزلنا كانت حرارة الشمس قائظة ، وفى الداخل كان هناك مسبح صغير يتبخر ماؤه بشكل واضح بحيث أحسست بارتفاع نسبة الرطوبة وكأننى أمام حمام تركى قديم .. واسترحنا عنـــد المسبح ، ثم نزلنا الى قاعة الطعام ، وهناك كانت مفاجأة جديدة ، كان كل الطعام هنديا ، وكان كل العاملين من الهنود .. وكأننا مع الرطوبة الخانقة والموسيقى الهندية والملابس الهندية والطعام الهندى الحريف قد انتقلنا فجأة عبر المحيط ، ووصلنا الى قلب مدينة من الهند ، وضحكت وانا اقول :

ـ لقد قهرنا المحيط دون أن نتحرك .

ضحك طارق وهو يقول :

ـ هذه علاقة فى عمق الزمن ..

وقال اندرو :

ـ نحن فى نهاية الشرق الاوسط وعلى مرمى من الشرق الاقصي فلا عجب أن يمتزج الاثنان عند نقطة حية نابضة بهذه الموسيقى وهذا الطعام الحريف ، ما كـانت متعتى بالزيارة تكتمل من غير وقوفى عند هذه النقطة .. وانسانا الطعام باقى الكلام ، وحملتنا السيارة بعده الى أطراف مسقط حيث الفندق الفاخر الكبير .

أرض البخور المقدس

منذ وصلت الى عمان والحديث يدور حول السفر الى صلالة ، فهذا الجزء من عمان يشكل جزءا أساسيا من التراب الوطنى من ناحية ، وجزءا هاما من عمق التراث العربى القديم من ناحية أخرى . فصلالة عاصمة ظفار الجناح الغربى من الارض العمانية ، وظفار هى ارض اللبان والجبال المخضرة أبدا ، ومراعى الابقار والاغنام .. وهى أرض المزارع الخصبة المعطاء لزاد دائم من الخضروات والفاكهة ومنها الثمار الغريبة فى عالمنا العربى كجوز الهند — وهى نقلة الى عالم أخضر ووديان مخصبة وسط وعورة الجبال الشامخة وضنك الصحراء القاحلة . وفى الصباح أخبرنى الاخ محمد سالم المرهون اننى سأسافر عصرا الى صلالة بالطائرة ، وأن ادارة العلاقات العامة قد أخطرت مدير العلاقات العامة فى صلالة بأمر رحلتى .. وطلبت أن أقضى فترة الصباح فى زيارة لادارة التراث ، فعلى قدر مايمثل الحاضر من أهمية ملحة فان كنوز الماضى المجهول حتى الآن مازالت تمثل عندى طموحا غاليا .. وحملتنى السيارة الى ادارة التراث ، وهناك التقيت بالشيخ محمد سعيد الوهيبى الذى رحب به وباهتمامى بكنوزه الثمينة ، ثم صحبنى الى مكتبة المخطوطات فانتقلت فجأة الى عالم قديم أحبه : عالم الاوراق التى لم تبح بسرها بعد ، والتى تقف

شامخة مدلة بنفسها مذكرة بالجهود المضنية الشاقة التي تمثلها والتى تقف تعبيرا عنها . وأخذنى الاستاذ صالح المصرى عبر الارفف المنظمة ، ركن للمصاحف ، وآخر للتفاسير ، وثالث للأحاديث ، ورابع للفقه ، ثم هـذا الركن الكبير الضخم لكتب التاريخ .. كم عقـول أضنت نفسها بحثا واطلاعا وجمعا للمعرفة – وكم من قلوب أوقفت نبضها كله على رصد هذه المعرفة المحصلة بكل المشقة والعناء ، وتدوينها فى كتب تبقى لاجيال قادمة جماع معرفة وحصيلة علم ، وثمرة خبرات وجهود البشرية ، ويستمر الانسان ويبقى فى نمو دائم .. هذه الوريقات المتلاحمة والمتساندة هى اختراع الانسـان الحاسم ضد الموت .. فعن طريق هذا التناقل الدائم لخبرة الإنسان قهر الانسان الفناء ، وبقى فى عمليـة استمرار وتواصل – القادمون الجدد يكملون طـريق الحياة من حيث أنتهى السابقون من آبائهم وجدودهم . ومن هنا كان حنق البرابرة الجهلة على المكتبات والكتب، آلاف الالوف من الكتب تعرضت للحـرق والاغراق والتدمير لحظة يخفت صوت الحضارة فى ضمير عصر ، ولحظه يسود ظلام الفكر وجود أمة .. أحرقت اساطيل الرومان مكتبة الاسكندرية ، ودمرت جحافل التتار مكتبة بغداد ، وأقام الجهلة فى العصور الوسطى المحارق فى الميادين يرمون فيها الكتب وسط طقوس وثنية مقدسة – وهنا فى عمان تحكى كتب التاريخ عن الكتب والمخطوطات التى ضاعت وسط الهجمات على الحصون والقصـور ، وكيف استهدفت هذه الهجمات البشر كما استهدفت تماما الكتب والمخطوطات ... وحين غزت أوروبا المنطقة منذ القرون الوسطى ، والغزاة لا تقف أطماعهم عنـد

خيرات الارض وكنوزها المعدنية ، ولا تقف عند السيطرة على المكان وجغرافيته ، وعلى قهر اهله وتسخيرهم في بناء ثروات الغزاة ، وانما امتدت أطماعهم لتشمل كنوز التراث بكل أنواعه وأشكاله ، وكما امتلأت متاحف الغزاه بما في المعابد والمقابر والقصور من تحف ومشغولات وكنوز الفن الراقى الرفيع ، ونتاج الصناعة والعلم القديم ، امتلأت ايضا المكتبات فى أوروبا بكل المنهوب والمسروق من كنوز التراث المكتوب ، المدونات القديمة على البرديات والرق والاخشاب والحجارة ، والمخطوطات على أنواع الرق والاوراق التى حرصت رغبة الاستمرار والبقاء على ايجادها فى كل مرحلة من مراحل تاريخ المنطقة .. واستطاع أهل المنطقة بحسهم الحضارى ان يصونوا تاريخ الانسان من أعرق العصور وحتى مراحل تميزهم الحضارى ، ثم أتى غزاة الغرب فدمروا واحرقوا ثم نهبوا وسرقوا ـ واصبح اى باحث منا يحاول أن يعود الى تاريخ امته مضطرا الى أن يلجأ الى مكتبات أوروبا ومتاحف أوروبا ليطلع على كنوز آبائه التى انتقلت الى أوروبا لينتقل معها المد الحضارى والعمرانى الى هناك .. وهناك نشطت حركة الاستشراق وحركة التحقيق والترجمة والدراسة ـ وبدأ التراكم المعرفى يتزايد ، ونحن هنا مازلنا لا نعرف كم خسرنا حين فرطنا فى هذه الكنوز الحية رغم جمودها ، المتحدية رغم صمتها ، المدلة بقيمها رغم تواضعها ..

من رف الى رف مضيت انتقل ، وقد ملأنى سلام هادىء ، وانا احس بالعناية الحقيقية التى تلقاها هذه الوريقات هنا ، يحوطها شىء كالتقديس والتعبد . وكان صوت الاستاذ صالح يسبقنى الى كل كتاب يتحدث

عنه بحب وشغف ، ويفيض في وصفه وحكاية تاريخه، أين وجد ومتى ، وعدد النسخ الاخرى الشبيهة ، في نفس المركز ، والمحاولات العلمية التي قامت على أساسه ، والمحاولات الدراسية التي تهتم به وتعتني بانطاقه سره وسر مايحمل من علم وحكمة .. هذه العقول التي انطلقت تنقب وتبحث وتدون ، ما كانت مكلفة بكل هذا الجهد والعناء بحثا عن أجر ، وانما كانت تعرف أن الانسان رسالة ، وأن الانسان أن لم يكن يحمل رسالة حقيقية لكل الناس فهو واحد من جنس حيواني يسير على قدميه، ويمارس العيش بغرائزه ولارضائها ، أما الانسان الانسان فهو من يعرف ان الهدف أساس يفرق بينه وبين السائمة، ومن هنا كانت أرضنا منبع العبادات القديمة ،وكانت مهبط الرسالات السماوية ، وكانت منارة الفكر المبدع في كل عصور حضارة بلادنا .. أما بعد هذا ، بعد أن تحولت ثمرات العقول الى سلع غير معروفة القيمة تهرب الى الاجانب الذين يدفعون ثمنها رخيصا ، أو تجمد في المكتبات الخاصة للتبرك أو لانها من بقايا الاجداد . بعد أن حدث هذا همد دورنا الانساني وتعثر ثم توقف . كانت كل هذه الافكار تدور برأسي وأنا انتقل من رف مليء بالكتب الى رف محمل بالمخطوطات ، وقال الاخ صالح :

ـ مازال أمامنا جهد كبير ، فمعظم المخطوطات تحتاج قبل نشرها الى تحقيق علمي جاد ، والمهتمون بالتحقيق العلمي اصبحوا قليلين ، وهؤلاء أمامهم أعمال أكثر شهرة ، واهم في حقل الدراسات في منظورهم من تركها والتفرغ لهذه الثروة المجهولة التي مازلنا نحاول أن نصنفها قدر الامكان ..

كنت اعرف صدق كلماته تماما ، فعلى الرغم من الاعداد الهائلة التى تتخصص فى دراسة الثقافة العربية الا ان العدد اليسير منها مؤهل لعملية التحقيق التراثى ، وهى عملية شاقة ومرهقة ولا تجزى صاحبها عن عنائه لا ادبيا ولا ماديا .. وقلت للأخ صالح انا اقف أمام الجزء الخاص بالتاريخ :

ـ علمتنا كتب التاريخ العربى انها تجمع بين ذكر الاحداث ، وبين تدوين الثقافة المعاصرة لهذه الاحداث ، أو المتبقيات الثقافية حولها مما هو أدخل الى دنيا التدوين الشعبى ، فأين فى هذه الكتب نبحث عن هذا المأثور المدون من فننا الشعبى بما فيه الحكاية أو الرواية أو المدونات عن العجائب والخوارق .

هز الاخ صالح راسه الاشيب الوقور ، وهو يجول بنظره بين أرفف الكتب التى سرقت من عمره أزهى أيامه ، وقال :

ـ ان ماحقق حتى الآن عدد قليل اهتم به بعض أساتذة التاريخ الاسلامى من الجامعات وغير الجامعات ، وهؤلاء فى الغالب لا يبحثون سوى عن التاريخ ، والتاريخ وحده .. فان وجدوا شيئا مما تتحدث عنه أستنكروه واستبعدوه ان أمكن ..

قلت له :

ـ كل يبحث عما عنده ، فرجال الدين أيضا فيما حققوا من كتب التفاسير والاحاديث يعبرون ويتجاهلون مايبدو لهم مخالفا لرؤيتهم الدينية ، فيهملون كل ماهو ابداع للوجدان الشعبى الدينى الذى هو صادق فى دلالته ، حقيقى فى عطائه ، مخلص فى ايمانه .. انما المسالة ان الضمير الشعبى اكثر ثراء وخصبا من أن تقيده

بعض العقول التى تزعم انها تعرف الحقيقة ولا تريد ان تحيد عنها ..

ومضى الاخ صالح ليرينى الجهد ونتائجه ، والعمل وثماره ، وقال :

ــ مازلنا نجمع المخطوطات من مظانها ، ولكن ماعند الافراد منها أكبر بكثير من كل ماقد نلقاه فى القلاع او القصور او المساجد .. ولو قدم هؤلاء الافراد ماعندهم لنا لغدت عندنا ثروة هائلة بالفعل . ومعظم هؤلاء الافراد الذين ورثوا المخطوطات القديمة أثرياء ، بل وعلى قدر كبير من الثراء ، ولو انفقوا على تحقيق هذه المخطوطات تحقيقا علميا ، ثم انفقوا على نشرها ، بعض ما ينفقون على صيانتها والاحتفاظ بها ، لاثروا المكتبة العربية اى اثراء ، ولقاموا بما كان يقوم به آباؤهم الذين كانوا ينفقون المال فى سخاء فى استنساخ الكتب المعروفة فى عصرهم .

قلت :

ــ هموم التراث لا تنتهى ، ولكن يكفى ان البدايات قد تحققت فى معظم الاجزاء العربية التى ورثت جهود علماء جادين من امتنا ، ربما كانت البداية متأخرة جدا ، ولكن السؤال الذى يعرفه الدارسون للتاريخ بأشكاله ، يقول : متأخرة عن ماذا ؟ .. فالتاريخ دورات ،والاحداث لا تجعل بؤرة واحدة تسيطر على الوجود البشرى الى أمد طويل ..

تنهد الاخ صالح ، وقال وهو يودعنى :

ــ صدقت .. من يدرى ؟..

***

وظل لقاء الصباح هذا يشغلنى وانا فى السيارة الى المطار ، ثم وانا فى الطائرة الى صلالة .. ان رجال

الحضارة قالوا ان هناك عشرين حضارة تعاقبت على العالم قبل الحضارة الغربية المعاصرة ، وان مراكز الحضارة قد انتقلت من بؤرة الى بؤرة ، ومن مكان الى مكان ، ومن قوم الى قوم على مدى تاريخ البشرية المعروف . ولكن تاريخ البشرية لم يعرف كله حتى الآن . . فحديث هؤلاء العلماء من منظور الغرب الاوروبى الذى كان يدون فى سجلاته ان تعرفه على الهند كان اكتشافا ، أو أن اتصاله بأفريقيا كان انتصارا للمعرفة ، وهذا قلب للحقائق ، فالحضارات فى آسيا وافريقيا أعرق وأقدم من الوجود الحضارى فى أوروبا . وهذا الذى عدوه كشفا كان مجرد تعرف طفل ينمو على ارجاء المنزل التى كانت أقدامه الصغيرة ومداركه الطفلة لا تساعده على التعرف عليها ، ثم تعرف الصبى على الشارع والحى ، وتعرف الرجل على المدينة والوطن ، ثم على العالم الحى النابض بالوجود قبل ولادته . . وهذه المغالطة تجعل تاريخ الحضارة المدون كله سخرية وعبثا ، والا كانت الحقيقة نسبية ، وكانت حركة الفكر الانسانى قاصرة على رؤية أصحاب الغرب الذين يتناقضون مع أنفسهم حين يقفون عاجزين مدهوشين أمام معطيات الشرق الاقصى والشرق الادنى ووسط أمريكا من معالم تؤكد حقيقة الوجود الحضارى المذهل فى تقدمه وتميزه . . لو أمكن أن يتصل حاضر العالم القديم بماضيه لاستكملت الانسانية رؤية فكرية وحضارية قطعتها الحضارة الغربية بغزوها البربرى العنيف لهذا العالم ، وبرؤيتها المسطحة النفعية والشديدة الانانية لما تقودها أقدامها اليه من معالم الوجود الحضارى ومظاهره . . فلا الحضارات كانت عشرين حضارة ، ولا هى كانت مرتبطة بالجنس الابيض

وهو الجنس الطفل الذى لم يعرف معنى الحضارة الا في الاحقاب الاخيرة من عمر الانسانية ، ولا هي ارتبطت بوديان الانهار .. وانما المسألة تبدو أكثر عمقا ، وسرها يبدو أكثر بعدا ، ما لم ننظر الى العطاء القديم باعتباره ماضيا حيا لا مزارات للسواح ولا مجال لتعاليات أصحاب العلم المحدثين ..

ونزلت بى الطائرة فى مساء خريفي جميل ، وعجبت كيف انتقلت من حر قائظ ، الى رقة خريفية بمجرد رحلة طائرة .. ولكن هذا هو التنوع الذى يحقق تكاملا جغرافيا وبيئيا لوطننا العربى ، بل ولهذا الجزء من وطننا العربى على سبيل المثال لاالحصر ، فالرقعة المنفسحة التى يشغلها هذا الوطن تضم السهل والجبل والوادى والروابى ، وتضم الانهار والعيون والابار والسدود والافلاج والسواقى ، وتطل على بحار الشمال وبحار الشرق وبحار الغرب وبحار الجنوب ، تواجه كل القارات وتواجه أيضا كل طقس ، فان سادها الربيع فى جزء سادها الشتاء فى جزء ، وان كان جو جزء منها قاريا فجو الجزء الآخر مدارى ــ الصحارى والغابات والاحراش وعلى ظهر الارض الزروع والحيوانات ، وفى باطنها المعادن والطاقة .. والعناصر السلالية اندمجت وتزاوجت ، ودين واحد يسود ، وهموم واحدة تجثم فوق الصدور .. لم يبق الا بوق أسرافيل ، ويرحمنا الله ..

تقدم الى شاب سمهرى العود أنيق الثياب العمانية الزاهية ، يطل من عينيه ذكاء الجدود ، وطيبة العرق الاصيل وحيانى فى رقة وهو يقول :

ــ تأخرت قليلا ، او الطائرة جاءت قبل موعدها ، ولكنى عرفتك على ايه حال دون سؤال ، وقد اخطرت

من أمس بقدومك فمرحبا بك في صلالة ، واسم اخيك محمد سهيل حداد ..

وابتسمت في سعادة ، فكأنى أسمع ترحيب ابن بلد قاهري أصيل لضيف عارض جاءه ، فوجد فى استضافته فرحة حقيقية ، وكأن الضيف يضيف الى حياته جديدا يسعده ، وان كنت أعرف أننى بالنسبة له جزء من عمله الرسمى ، ولكن الكرم العربى يغلب كل احساس بالغرض ، فالكرم نفسه فرض سواء كان رسميا أم غير رسمي ..

واقلتنا السيارة الى فندق هوليداى ان على شاطيء البحر ـ ومنذ لحظة دخولى الفندق أخذت أسمع الاوردية والانجليزية فكل القائمين بالعمل هنا من الهنود ، وهى ظاهرة عمت الخليج ، بل الجزيرة العربية كلها ووصل امرها الى العراق نفسه .. فقد غدت البلاد الثرية هدفا للعمالة الاسيوية ، كما كانت من قبل منطقة جذب للتجار الهنود والصناع المهرة ايضا ـ وتحدثنا كتب التاريخ القديم والمعاصر على السواء عن دور الهنود الكبير فى حياة ومقدرات وثروات هذه البلاد . ولم اجد عجبا فى هذا فهم على الناحية الأخرى من البحر ـ تماما كالدور الذى لعبه اليونانيون فى حياة مصر قديما وحديثا على السواء ، فهم أيضا على الناحية الاخرى من البحر ..

وانتظر الاخ سهيل حتى اودعت حقيبتى الصغيرة فى الغرفة التى أعطيت لى ثم صحبنى الى ادارة العلاقات العامة للاعلام فى صلالة .. وكشف الطريق معالم المدينة ، وقد بدأت بعض الانوار تضاء فى شوارعها ، فهذه مدينة متكاملة وواسعة وتشبه الى أقصى الحدود

عاصمة محافظة من المحافظات فى مصر ، الشـــوارع الفسيحة والمنازل متعـددة الطوابق والمحلات المتنوعة ، وان كان أكثرها محلات للخياطة ، والمعـارض المليئـة بالمعروضات ، والبقالات والمطاعم ـ انت اذن فى مدينة عريقة دخلها العمران من زمن كاف ليراوح بين القديم والجديد منها ، وهى ايضا مدينة ثرية .. وكأنمـا ادرك سهيل حداد ما كان يجول فى خاطرى اذ قال :

ـ ان عطر الشرق القديم موجود فى عمق المدينة ، وعطاء المدنية الحديثة موجود فى ظاهر المدينة ، وهنـاك اماكن كثيرة من المدينة يتلاحم فيها عطر القديم بزهـو الجديد . .

وفى مكتب الاستاذ احمد سالم المبارك مدير العلاقات العامة شربنا القهوة العربية وقدم لنا التمر العمانى ، واستأنفت الحديث الذى بدأته مع الاخ محمد سهيل فى الطريق فقلت .

ـ مدينتكم مدينة لها طابعها الخاص كما ارى .

ضحك الاستاذ احمد سالم المبارك ، وقال بعد ان قدمنى الى الاستاذين عامر أحمد العمرى واحمد عمر الرواس :

ـ هذا سؤال يسأله الكثيرون من زوارنا ، ونحن دائما نحمل لهم اجابة واحدة وهى ، لا تنسوا اننا فى مدينة جبلية . اذ ان صلالة حاضرة جبال ظفار ، فواديهـا الممتد تحوطه الجبال الشامخة وتصبغ كالقوس يحصرها بينها وبين البحر .. وهكذا ترى أن المدينة ليســت حاضره ريف ، وليست حاضره سهل ، وانما هى حاضره جبلية على شاطىء البحر المحيط .

وضحك وهو يقول :

ـ عندما تنتهى من قهوتك سنصحبك فى جولة سريعة

داخل المدينة ثم نتناول عشاءنا فى مطعم جيد ولكنه مطعم وطنى ، يقدم الطعام الشعبى العمانى فى اطار متحضر من ادوات المائدة والجرسونات واطباق السرفيس وخلافه ..

وكنت انتهيت من قهوتى ، فنهضت قائلا :

ـ ماذا ننتظر هيا بنا ..

واقلتنا السيارة من جديد عبر الشوارع الواسعة التى اصبحت كلها مضيئة بأنوار النيون الملونة ، وهنا وهناك تبص الانوار من محلات عامة عامرة بالرواد . والسيارات كثيرة ولكنها لا تزحم الطريق . ونزلنا ومشينا حيث طالعنى وجه عمان كما كنت أحب أن أراه، محلات مليئة بكل المنتجات وخاصة جوز الهند واللبان ومشغولات الرعاه من أهل الجبال ومناطق جلدية ودشداشات ، وفوط يمنية ، وشيلان للعمائم وعصى خيزرانية ، وملابس نسائية موشاة ، أكوام واكوام من البضائع من أقصى الشرق ومن عطاء الجبل .. وركبنا السيارة التى دارت بنا دورات لنعود الى شارع رئيسى ، حيث وقفنا امام محل كبير على واجهته لافتة تعلن عن هويته كمطعم عنبام ... الاضاءة خافتة بعض الشىء والخدمة ممتازة ، والعمانيون فى كل مكان يشغلون معظم الموائد مما يشى بحركة دائبة ، وكان الخدم هنودا ولكن الطعام كان بالفعل عمانيا ، واثناء الطعام قلت متاطعا عبارات الترحيب المتوالية من كل الحضور حول المائدة :

ـ تركت الصيف وقيظه وفى اقل من ساعتين واذ بى فى الخريف وجوه الرطب .

ضحك الاستاذ احمد سالم مبارك وقال :

ـ المدهش أنك جئت فى آخر أيام الخريف وأول ايام الربيع .

قلت متسائلا فى دهشة :

ـ الخريف ينتهى والربيع يبدأ فى سبتمبر ؟

قال الاستاذ عامر العمرى :

ـ الخريف عندنا يبدأ من ٢١ شهر ٦ الى ٢١ شهر ٩ أى اليوم ، والربيع يبدأ من ٢١ شهر ٩ اى اليوم ، وينتهى ٢١ شهر ١٢ والشتاء يليه من ٢١ شهر ١٢ الى ٢١ شهر ٣ أما الصيف من ٢١ شهر ٣ الى ٢١ شهر ٦ .

وضحك الاستاذ أحمد عمر الرواس وهو يعقب قائلا:

ـ ومن هذا ترى انك جئت فى أفضل الاوقات بالفعل، ولو أقمت هنا لطابت لك الاقامة ، وخاصة اذا زرت الجبال كما هو مقرر فى برنامجك لعصر الغد .

واكمل الاستاذ احمد سالم المبارك هذا الحديث قائلا :

ـ ستفاجئك الجبال تماما ، فأظن أن فكرتك عن الجبال انها صخور واتربة ورمال وكهوف منحوتة فى الصخر وارض جرداء وحياه وعرة قاحلة ، وأظن أن ماستشاهده غدا سيمثل مفاجأة مدهشة تماما لك .. فأنت فى منطقة الجبال الخضراء ، الجبال المراعى التى تمتد خضرتها حولك وأمامك وخلفك حتى ليخيل اليك أن العالم كله أخضر اللون بكل درجات اللون الاخضر وطبقاته ..

وقال الاستاذ احمد سالم المبارك :

ـ لاشك ان ظفار موجودة منذ خلق العالم . ولكننا لا نعرف عنها شيئا فى العمق السحيق للتاريخ ..

قلت :

ــ أو قل لم تكتشف مدوناتنا القديمة عنها بعد ..
مادونه أبناؤها أنفسهم ، ومادونه الجغرافيون والرحالون العرب والافرنج .

قال :

ــ هذا صحيح،والغريب ان أول ذكر لها يأتي فى عام ١١٤٥ على لسان الجغرافى العربى الادريسى الذى نقلت عنه أوروبا الكثير واعتبروه هناك ابا للجغرافيين اذ يقول ان ظفار كانت تابعة لعمان أى للأسرة الحاكمة فى عمان فى ذالك التاريخ . ومع هذا فقد كانت ظفار دائما محط انظار الغزاة ، فيذكر ياقوت الحموى الجغرافى المسلم المعروف أن ظفار فى أوائل القرن الثالث عشر ــ أى فى عصره ــ كانت تابعة للبحرين . ثم تعرضت فى عام ١٢٦٥ لغزو من هرمز كما يقول ابن رزيق ، وقبل ذلك دمرت ظفار عام ١٢٢١ بواسطة جيش من حضرموت ، ثم أعيد بناؤها باسم المنصورة وهى المدينة التى عرفت فى العصور الاسلامية الوسطى باسم بليد ، واحتلت اليمن ظفار محرره اياها من الحكم الحضرمى عام ١٢٧٨ واضيفت ظفار وحضرموت معا الى ملك اليمن ، وقد هنأ ملك عمان ملك اليمن بانتصاره .

قلت :

ــ لا أظن أن القضية هنا قضية احتلال أو تبعية ، انما هو جزء يقوى بمد نفوذه الى باقى الاجزاء ليستمد من هذا النفوذ قوة .. ومن الطبيعى أن تتوالى حركة صعود القبائل الى مركز القوة وهبوطها مع حركة الزمن وتوالى الاحداث ، وظفار هى الجزء الجنوبى من عمان ، سواء قويت عليها عمان نفسها او غلبت عليها أية قوة عربية مجاورة اخرى ، فاى بؤرة ثرية وسط الصحراء

الجرداء جديرة بأن تجذب اليها والى ثرواتها الاطماع ..

تدخل الاستاذ احمد عمر الرواس فى الحديث قائلا :

ـ لقد ظلت ظفار دائما درة يذكرها الرحالة بانبهـار ودهشة ـ وفى حوالى عام ١٢٨٥ اكد ماركو بولو الرحالة العالمى المشهور ازدهار ظفار وثروتها فقال فى وصفها : « ظفار مدينة عظيمة ، نبلية وجميلة » وقال انه كـانت هناك حركة ملاحية كبيرة بينها وبين الهند ، ثم قـال « ويحصل التجار منها على أعداد كبيرة من الجيـاد العربية ، ويحققون أرباحا وفيرة ، وتتبع المدينة بلاد وقرى عديدة ، وهناك ينتج الكثير من اللبان الابيض » .. وهكذا ترى أن التجارة واللبان والبحر والجياد اشتركت كلها فى أظهار حركة الازدهار في أيام ماركو بولو .

قال الاستاذ عامر العمرى :

ـ ترك لنا ابن بطوطة اشهر الرحالة العرب وصفا طريفا لظفار فى القرن الرابع عشر قال فيه « ان أسواقهـا من اكبر أسواق العالم ، واكثرها يغزوه الذباب بسبب كميات الفاكهة والاسماك التى تباع هناك . واغلب اسماكها من نوع يسمى السردين ، وهو سمين جدا فى تلك البلاد . وهناك حقيقة غريبة ، وهى أن السردين هو الطعـام الوحيد للبهائم والماشية » ويعقب قائلا « وهو شىء لم اشهده فى أى مكان آخر » وتحدث عن أهلها بعبارات رقيقة فقال « والاهالى متواضعون ، مهذبون ، مستقيمون ودودون للغرباء . ثيابهم من القطن المستورد من الهند ، وهم يربطون سارونج على وسطهم بدلا من السروال ، وأغلبهم يضع واحدا حول الوسط ، وآخر فوق الظهر بسبب الحر الشديد ، وهم يستحمون عدة مرات خلال النهار ، وفيها كثير من المساجد ، وبكل مسجد مقاصير

خاصة بالوضوء » ..
عقب الاستاذ احمد سالم المبارك ضاحكا :
ـ لقد انسانا الكلام الطعام ..
قلت :
ـ انا أستمع فلا يعوقني عن الطعام شيء ..
عاد يضحك وهو يقول :
ـ أنت لن تمكث الا نهارين وليلتين ولذلك فنحن نحاول أن نقدم لك خلفية كاملة لنعمق انطباعك ببلادنا ولنرسم صورتها عبر التاريخ امامك .
قبل ان اجيب قال الاستاذ عامر العمرى :
ـ نحن نحس بعمق الجذور التي تربطنا بهذه الارض ونحب ان تحس بما أحدثته الطفرة فى عمان فى نفوسنا من زهو بحاضرنا وماضينا معا .
قال الاستاذ أحمد عمر الرواس :
ـ فقط ينبغى أن تدرك اننا لا نرسم صورة وردية ، فقد عرفت ظفار ايام بؤس وايام سعد مثلها فى هذا مثل كل مكان فى العالم ، فبينما يقول عنها ابن خلدون فى أواخر القرن الرابع عشر « ان ظفار كانت حاضرة توباز ومرباط وهى تقع على البحر ، وقد اصبحت كلتا المدينتين الآن أطلالا » يقول عنها الرحالة الايطالى الشهير لود فيكواى فارثيما ، أنه وجد « ظفار رائعة جدا ، وتزخر بكل شيء » ..
قلت :
ـ لقد قرات بدورى كلمة لويندل فيليبس فى كتابه « عمان المجهول » يقول فيها عن ظفار « هى جنة المناظر الخضراء » وهذا ما اشتاق الى رؤيته بنفسى ..
قال الاستاذ احمد سالم المبارك :

ـ ستراه بنفسك عصر الغد اما فى الصباح فستلتقى بظفار الآن والامس ، فقد حددنا لك موعدا لتلتقى بالاستاذ الشيخ عبد القادر بن سالم بن أحمد الغسانى ، وهو مدير التعليم فى ظفار فهو أمس واليوم والغد ، وهو مؤلف كتاب « ظفار أرض اللبان » فهو القادر على أن يكشف لك من امور الامس ما أحاط به علما وما احطنا به نحن الا الماما ..

قلت :

ـ لقد جئت كيما ارى ماتبقى من الفنون الشعبية ، وما ظل عالقا فى ذاكرة الناس من أدب شعبى .

ضحك الاستاذ أحمد سالم المبارك وهو يقول :

ـ لقد جئت أخصب ارض تمتلىء حياة بفنون الشعب العمانى . فالشعب هنا يحتفل بمناسباته الدينية والاجتماعية ومناسباته الخاصة بالعديد من الاغانى والرقصات التى يمتزج فيها ماورثه الناس من كل العصور ومن كل الاجناس الذين اختلطوا بها . ففى ظفار يزحف الجبل بكل حكاياته وأغانيه ، حكايات الرعاة واهازيجهم وتقاليد حياتهم المميزة ، وحكايات الجبل المخوف والمغامرات الشائقة ، والبطولات التى تلمح منها عطر الخوارق وبقايا أساطير الاولين . وحكايات البحر والطقوس التى يفرضها على من يركبون ظهره ويتعرضون لغموضه وسخطه وأمواجه ومخاوفه ، فيركبهم هو بشبحه المهول يقدمون له القرابين فى كل مناسبة ، ويعرفون بشعائرهم كيف يسترضونه وكيف يحدون من سطوته وغضبه ، ثم يحملهم بحكايات الغرائب والعجائب التى تمتلىء بها جزره المجهولة وسواحله المليئة بالمخاطر والثروات ، بما يستهوى جشع النفوس ، وبما يستدعى المخاوف الموروثة فى هذه

النفوس ، ثم الزرع وما يمثل في ضمائر أصحابه من ارتباط بالامطار والابار ، وما يكثر في موروثهم من معتقدات حول الجفاف وحول الخصب وحول مايحيط بكل شجرة وكل زراعة من ظواهر تبدو خارقة مستعصية على فهم الانسان العادي فيروح ينسج حولها من مخاوفه واحلامه وضراعاته الطقوس والرقصات والعادات .. وما أكثر مايحيط بالآبار والافلاج من حكايات شعبية ، وما أكثر مايحيط بالاشجار وخاصة شجرة اللبان ، شجرة البخور المقدس من موروث متداول باق حتى الآن ..

عقب الاستاذ احمد عمر الرواس قائلا :

ـ ليس من زوارنا الكثيرون الذين يهتمون بالموروث الشعبي ، هم غالبا يستهويهم مظهر الحياة القديمة في البلاد ، أما الموروث الشعبي بمعناه التراثي فهم لايلتفتون اليه الا بقلبل مافيه من مظاهر غريبة عن حياتهم ، بصراحة أنا لا احب تلهفهم على رؤية الرقصات والملابس والاحتفالات الشعبية ، كأنهم في حديقة حيوان ، وكأنهم بشر يتفرجون على عادات قبائل متخلفة أو تجمعات من الحيوانات الطريفة .

قلت وقد لفتتني نبرة المرارة في صوته :

ـ أنت تتحدث عن السائحين من بلاد الغرب ، وهذا حقهم ، فقد غلبت وسائل التقدم الصناعي على حياتهم حتى لنسوا كيف يعيش الانسان العادي . وهجروا بيئاتهم الى المدن ، كما نقلوا وسائل الصناعة المتطورة الى بيئاتهم حتى لنسوا كيف يتعاملون التعامل الطبيعي السوي مع هذه البيئات ، ثم حكمتهم بعد هذا أسطورة تفوق الجنس الابيض . وهذا كله لا يضايقنا في شيء ،

فالمتبقيات الشعبية عندنا هي الوجود الانساني الذى ما يظل حيا رغم زحف المادة والآلة والصناعة ، ولكى تبحث عن الانسان الانسان لابد لك أن تتعرف على جذوره واعماقه .. وكم اخشى ان يأتى الوقت الذى يقضى فيه زحف الصناعة الحديثة وأجهزة الاتصال المعاصرة على كل ماتبقى لنا من نبض انسانى طيب ورقيق ..

استأنف الاستاذ المبارك حديثه مكملا الصورة ، فقال :

– لقد جمعنا هنا كل رؤى الشعوب ، فنحن قطعة من آسيا وقطعة من افريقيا فى آن واحد ، فالسفن قد جعلت الرحلة بيننا وبين الساحل الشرقى من افريقيا امرا ميسرا وسهلا وعاديا ، كما جعلت انتقالنا الى هناك شيئا طبيعيا ، وقد ظلت عمان تسيطر على هذا الساحل الى وقت قريب .. كما ان سفننا قد قهرت المحيط الذى غدا كالقناة الضيقة بيننا وبين الهند وما يتخللها من جزر وممالك ، فأفريقيا والشرق الاقصى امتزجا هنا بآسيا والشرق الادنى امتزاجا حياتيا ومتكاملا .

وقال الاستاذ احمد عامر العمرى :

– شىء طبيعى أن يمتزج فى بلادنا اللون الاسود باللون الاصفر باللون الاسمر ، وشىء طبيعى أن يواجه الجميع الحياة ومغامراتها ومخاطرها معا ، وشىء طبيعى أيضا ان يمتزج موروث هذه الشعوب امتزاجا كليا ليغدو وحدة يحتضنها المكان وتتطور وتتغير عبر الزمان .

قلت :

– كأننى اتلقى اليوم درسا فى الفولكلور يضيف الى ماسبق أن تعلمته عن الفولكلور العربى منه بخاصة شيئا جديدا .

ضحك الاستاذ المبارك وهو يقول :
ـ وغدا مع الاستاذ الفسانى ستضيف ماهو اكثر واغزر ، ولو طال مكثك لازدادت رؤيتك عمقا .
قلت :
ـ المفروض ان يدون كل هذا بسرعة قبل ان ينساه أصحابه ، وكذلك المفروض أن يسجل بالصوت والصورة
قال الاستاذ المبارك :
ـ قبل سفرك بعد الغد ، ستزور مبنى التلفزيون هنا فى ظفار ، وقد رتبنا لك موعدا مع الاستاذ عبد الله بن صالح بن حيدر المخرج المهتم بالتسجيل التراثى لمظاهر الحياة الشعبية فى عمان ، والمذيع الذى تخصص فى تقديم برنامج سهرة من الفن الشعبى الاستاذ سالم بن عوض النجار ، وهما يعرفان اهتماماتك ، وقد أعدا لك عدة افلام مما سجلاه بالصوت والصورة كما تقول .. كما أن مركز الفنون التقليدية قد سجل مكتبة كاملة اعتقد أنها سترضى فضولك العلمى تماما ..
كان العشاء قد انتهى ، وكنا نتناول القهوة فى استرخاء ، فقلت وقد بدأ تعب اليوم ينيم يقظتى :
ـ هذا حقا برنامج حافل ، وهاهى وسائل العلم الحديثة التى أشكو منها تريحنى حين توفر على تعب التنقل والبحث ، فكل شىء جاهز ومعد لاينقصه الا الضغط على زرار فيدور التراث الشعبى أمامك بحكاياته وأغانيه ورقصاته وكل شىء ..
ضحك الاستاذ عامر العمرى وقال :
ـ ولم الشكوى ؟ مادام ماتريده قد تيسر ..؟
قلت :
ـ ربما ..

وسكت . فمادمنا مع مخرج ومذيع فالاختيار قد تحكم فيما سجل ، والانتقاء قد تم فيم اختير ..
وقطع تأملي صوت الاستاذ أحمد سالم المبارك ، وهو يقول ضاحكا :
ـ لا يحزنك هذا الامر ، فمازالت حكايات كثيرة يتناقلها الناس هنا ، ويحكيها العجائز للشباب ولست اظن انها دونت أو درست بعد .
بادلته الضحك في فتور النعسان وأنا أقول :
ـ ليس فى هذا مايفرح فسرعان ماسيذهب العجائز وتضيع حكاياتهم مع ما ضاع مما كان فى ذاكرة من سبقوهم وطواهم النسيان ..
قال :
ـ يتداول الناس حكايات حمد وحكايات خميس ،رجلى الجبل المعمرين اللذين يتعاملان مع الجن ويعرفان أسرار سكان الجبل من عالم الشياطين .. ويقسم اناس كثيرون بصحة الحكايات التى تروى عنهما ، وكيف استطاع حمد أن يحمل بقرة ضخمة كسرت ساقها عند مدرج الجبل ويصعد بها الى سطحه حيث الامان والعلاج ، وكيف استطاع خميس أن يرفع بيديه صخرة ضخمة فى حجم البيت الكبير كانت تسد الطريق أمام قطيع من الغنم ـ حجبه عن عين الماء التى كان يقصدها ، ثم صاح متحديا الجنى الذى كان السبب وراء سقوط الصخرة لعداء بينه وبين الراعى ، وتحداه وهزمه ، وطرده من الجبل كله ..
قلت وقد طار النوم الوشيك من عينى ، وامتلأت يقظة :
ـ كيف كان ذلك ..؟

ضحك وقال : ياسيدى شهريار ، آن أوان النوم فقد أدركنا الصباح ، وغدا يوم جديد ..

واخذنا نغادر المطعم وأنا سعيد برفاقى ، وبدهشة شديدة ادركت اننا كنا نتحادث كأننا أصدقاء قدماء تعودوا الجلوس على العشاء وتبادل الاحاديث ومناقشة القضايا كل ليلة .. ادهشنى أن الكلفة كانت مرفوعة تماما ، وأن الود كان قائما ، وان شيئا كالصداقة القديمة كان يخيم على الجلسة منذ بدايتها .. وحين فتحت نافذة الغرفة فى الفندق ، هاج على البحر بصوته الاجش، تتكسر أمواجه على الشاطىء الرملى القريب ، وارسل الى روائحه الملحة تملأ الغرفة كلها وتغلف كيانى تشى بما يخزن فى أعماقه من صبوات ومن أسرار يتوق الى البوح بها — كان سندباد البحرى يعطى سندباد البرى كل ليلة صرة من دنانير ثمن سماعه لحكاياته وليغريه أن يعود ليسمعه فى الليله التالية ، ترى ماذا يعرض على هذا البحر الجياش لاسمع بوحه وحكاياته ، وأنا ابن البر الذي يهوى تدوين الحكايات ، فان لم يحك له أحد حكى هو لنفسه ، واستنطق الاشياء والحكايات ، حتى البحر ، نعم حتى البحر .. كان ضوء القمر خافتا ، وكانت ظلاله موزعة على أمواج البحر بين القتامة والوضوح ، فيبدو وكأنه يقوم بأشعته مع الامواج برقصة سرية غامضة .. وانسحبت من النافذة كما نتسحب دائما أمام الكوى التى تشع الاسرار ، فنحن نهوى الاسرار ، وخاصة تلك التى تنبعث من اغوار عميقة فى نفس الانسان ضارب الجذور فى الحضارة وبدايات الوجد الانسانى .. وصمت كل شيء حولي ونمت .

نبيّ الله لبّيك

كانت غرف المنطقة التعليمية في ظفار غاصة بالناس من كل الاعمار ومن كل الازياء ، وان كان معظمهم من الشبان والصبيان في سن الطلب وتلقي العلم . ولم ننتظر طويلا حتى ادخلنا الى مكتب الشيخ عبد القادر بن سالم بن أحمد الغساني مدير التعليم بظفار ، ولكن فترة الانتظار كانت كافية لالاحظ ابناء الجبل الذين يكثرون بين المنتظرين .. ولم يكن التعرف عليهم صعبا ، فقد كانوا جميعا عراة الاجساد ماعدا السارونج كما أسماه ابن بطوطة ، وهو من قماش ملون قاتم يحيط بأوساطهم ثم لا شيء على الراس أو في الاقدام .. والاجساد شديدة السمار وعضلاتهم بارزة وشعورهم كثة شديدة السواد ، وفي عيونهم جراة وفي حركاتهم تحد تلقائي طبيعي - وقال مرافقي الاخ محمد سهيل حداد :

- لا يمكن للانسان أن يتنقل في الجبل برداء يعوقه .. وعلى اي لقد تعودوا ان يكونوا جزءا من الطبيعة ، وحتى وهم هنا في المدينة لايتخلون عن تحررهم الطبيعي .. وقد يبدو مظهرهم هنا شاذا بعض الشيء فالكل يرتدون الملابس الفضفاضة والعمامات والاحذية ، ولكنهم في الجبل شيء طبيعي لا شذوذ فيه ..

لم يكونوا عمالقة ، كما لم يكونوا اقزاما ، ولكنهم

لاشك كانوا يتحركون في رشاقة وسيولة كأنما عضلاتهم تتناغم في اتساق كامل مع كل حـــركة ، بحيث تشى الاجساد النحيفة بما تختزنه من قوة جسدية واضحة ، ومن قدرة فائقة على تحدى الطبيعة العنيفة التى يطوعونها لقدراتهم .. وقال الاخ محمد سهيل :

ـ هيا بنا فالرجل فى انتظارنا .

وهب الشيخ عبد القادر الى استقبالنا من خلف مكتبه وهو يصرف مجموعة من الموظفـــين يحملون اوراقا ودوسيهات وقال وهو يمد يده مصافحا فى حرارة :

ـ اعتذر عن هذه الدقائق فقد كنت مشغولا ببعض التقارير .. ولكنى الآن تحت أمرك ..

لم يكن قد غادر أواسط العمر الا منذ حين قـريب جدا ، وابتسامته تملأ وجهه ، وعيناه تلمعـــان ذكاء ومعرفة ، ويده التى صافحتنى قوية واثقة . واقتادنا الى مقعد مستطيل فى جانب من المكتب وطلب القهوة ثم قال :

ـ نحن نستعد للعام الدراسى المقبل ، ونواجه ازمة غريبة فى اصرار كل التلاميذ على الالتحاق بالدراســة العادية رغم حاجتنا الشديدة الى تلاميذ فى المـدارس الزراعية والصناعية ، فالبلاد تبنى نفسها وهى فى هذه المسيرة التى تحاول بها ان تسبق زمن التخلف وتستعيض ماضاع ، تحتاج الى الزراعيين والحرفيين قبل حاجتها الى أصحاب العلم النظرى ..

ووافقته على هذا وانا أقول :

ـ هذه أزمتنا فى الوطن العربى كله ، نريد أن تقفز من الامية الى الدكتوراه مرة واحدة ، لا تريد اجيـال منا ان تكون هى جيل النقلة ، او جيل الوسط الذى

يتحمل عبء النقلة الطبيعية بين مراحل الجهل ومراحل الترف العلمي ..

قال وهو يقدم لى قدح القهوة التى دخل بها الساعى الينا :

ـ لم تظهر هذه الازمة عندكم فى مصر الا هذه الايام عندما ازداد عدد الجامعات ، وكثرت هجرة الايادى المدربة على الخدمات البناءة والانشائية . ولكننا نقفز الى عصر الجامعة بسرعة ، وقبل أن يتوفر لنا عدد كاف من أصحاب الثقافات الوسطى الذين تحتاجهم هذه المرحلة.. ولكنك لا تستطيع أن توقف عجلة التقدم بأى شكل ، ولخير أن يحدث نوع من النقص نسده بشكل أو بآخر من أن نؤخر دخول الجامعة الى بلادنا بأسرع وقت ممكن ..

قلت له وانا انقل البصر بين ما ملأ جدران غرفته من خرائط وجداول ورسوم بيانية :

ـ ليس اجدى على الامم من الاسراع بالتعليم ، وفى كل مراحله ، حتى لو احدث هذا نوعا من التضخم فى حملة الشهادات كما هو الواقع فى مصر .. ولو أننا لا ننتظر منهم جميعا أن يكونوا علماء باحثين من امثالك ..

ضحك وهو يقول فى تواضع :

ـ ان الوقت والمسئولية لايتيحان لى التفرغ للبحث العلمى الذى هو غاية وجودى ومدى طموحى فى الحياة . والبحث الذى أعددته عن اللبان وظفار استغرق سنين عديدة من العمر ، ولكنها سنين سعيدة بالنسبة لى . فالباحث لا يضن على بحثه بوقت أو جهد أو مال بحثا عن مظان الدراسة ومراجع البحث ، وهو أيضا لايشعر

بالندم على ما انفق من جهد وعرق مهما قل الجزاء المادى الذى يحصل عليه عن بحثه . وقد بدأت فكرة الدراسة كبحث ألقى فى ندوة الدراسات العمانية فى احتفال البلاد بالعيد العاشر للنهضة فى عام ١٩٨٠ . وقد تقدم الى الندوة عشرة بحوث منها بحثى وكان بعنوان « ظفار أرض البخور المقدس » ثم عدت الى البحث فى عام الشبيبة العمانية عام ١٩٨٣ فطورته واستكملته وتساءلت فى مقدمته « ترى هل يسترد الذهب الابيض مجده ، ويعود سندا لاخيه الذهب الاسود ؟ » وقلت اجابة على السؤال الذى طرحته « هذا مانرجو » .. وفى الحقيقة هذا مازلت أرجوه ..

قلت وقد كشفت الكلمات لى عن عمق الصراع بين نوعين من الحياة يسودان الامة كلها :

ـ لقد رسخ التاريخ فى أعماقنا حب الارض ، والاطمئنان الى ثروات الزراعة التى نعرف اسرارها ، ورسخ الحاضر فى أعماقنا الخوف من الثروات المفاجئة وما تحدثه من تغيير جذرى فى كل أنماط الحياة والسلوك ، وما تستقطب من أطماع تلفنا فى أخطبوط متشابك من المصالح والارتباطات تهدد حقيقة استقلالنا وارادتنا .. حقا أنا أفهم ماتعنى ..

جعل الشيخ عبد القادر ينظر الى بعينيه المتألقتين لحظات قبل أن يقول وهو يتنهد :

ـ ربما كان السن المتقدم هو الذى يجعلنا ننظر الى التغيرات المفاجئة فى ريبة ، والى الثروات العاجلة والضخمة فى شك ، فقد عشنا نحفر طريقنا بأيدينا ، ونسهر على مانملك لننميه ونيسر سبل الحياة من الصخر وفوق الجبل ، على كل حال لقد كونت شجرة اللبان

ثروة عمان أجيالا عديدة ، واللبان لم تعقم أشجاره بعد ، كما أنه لم يفقد أهميته بعد ، وان اختلفت وسائل استغلاله مع تطور الاحتياجات ووسائل التصنيع الحديثة .. فمن قبل اعتمدت المعابد والكنائس والمحاريب على اللبان كبخور مقدس ، كما اعتمد عليه المصريون القدماء كجزء من المواد المستعملة فى التحنيط ، وشق اللبان لنفسه طريقا بريا من ظفار حتى سواحل البحر الابيض، كما شق لنفسه طريقا بحريا الى أطراف قارة آسيا البعيدة .. وفى العصر الحديث يدخل اللبان كعنصر طبى وعطرى أساسى فى صناعات عديدة .. وسأهديك كتابى « ظفار أرض اللبان » ، وستجد فيه الكثير عن الشجرة وعن تاريخها فى ظفار وعن تأثيرها الاقتصادى والسياسى على البلاد ، وعن الاطماع التى أثارتها فى العصور القديمة للاستيلاء على مصادرها الغنية ، وكذلك محاولات زراعتها فى البلاد التى كانت تحس بحاجتها الماسة اليها وقد ذكرت وتسن أوف سنت البان فى كتابها « حيث وقف الزمن » والذى أصدرته عام ١٩٨٠ حكاية طريفة عن محاولة للملكة المصرية حتشبسوت لزراعة شجرة اللبان فى مصر بعد أن هيأت لها الظروف المناخية المناسبة ، ولكن الشجرة رفضت أن تنمو فى عناد ، رغم أنها تنمو فى موطنها الاصلى دون أى رعاية حتى الآن . فهى عندنا شجرة برية لا يقوم بزراعتها أو سقيها أو رعايتها احد ، وأرجو أن ترى فى الجبل عند جولتك به بعض هذه الاشجار فى موطنها الاصلى ..

كنت سريعا الى انتهاز الفرصة التى سنحت لى فقلت ونا أتلمس لنفسى طريقا للحديث حتى لا يغضب :

ــ اسمح لى ، انا دارس للأدب الشعبى ، ويهمنى أن

أعرف ، هل هناك موروثات شعبية حول شجرة اللبان مازالت تتداول حتى الآن . أعرف ان هذا السؤال قد يثير استنكارك العلمى ولكن ..

ضحك من اعماقه وهو يقول :

ـ هل حسبتنى من هؤلاء العلماء الذين يكرهون هذه المأثورات الشعبية ويقاومونها باعتبارها خرافات ؟ لا ياصديقى ، انا ادرك أهميه هذه المأثورات واتتبعها بعناية ، والحقيقة ان دكنسن اوف سنت اللبان كانت حريصة على ذكر هذه الاساطير فى كتابها ربما لان نظرة العلماء الغربيين الى أهمية هذه الاساطير تفوق نظرتنا اليها . وهى تنص على وجود حراس يحمون الشجرة ، وهم مجموعة من الثعابين الصغيرة ذات الاجنحة ، لها الوان متعددة زاهية ، وهى تطير من الشجرة بعيونها المضيئة ، مرسلة الشرر والنار من أفواهها .. وتقول ايضا أن العائلات التى تحتكر الاستفادة من شجرة البان كل فى موطنه تعتبر عائلات لها قداسة خاصة ، وعليها ان تخضع الى طقوس وقواعد وسلوكيات معينة خاصة فى موسم ضرب أشجار اللبان حيث يراعى الرجال النظافة الكاملة ، ويحرمون على أنفسهم الاتصال بزوجاتهم ، بل ويعتبرون ان مجرد الالتقاء بجنازة فى الطريق أمرا يلوثهم ويجب علهم فى هذه الحالة الامتناع عن الاقتراب من الشجرة .. وقد وصف ويندل فيليبس فى كتابه « عمان المجهولة » الثعابين التى ذكرتها دتسن بأنها فى حجم الجرادة وتحوم حول الشجرة ..

قلت :

ـ هذا عن المأثورات الشعبية فماذا عن الممارسات الشعبية التقليدية ؟

قال :

ـ من التقاليد المرعية هنا في صــلالة ما يسمى « بالتنوير » وهي عادة متبعة عند قدوم السلطان مـن مسقط الى صلالة ، وفي مساء وصوله يصعد السكان الى أسطح منازلهم ويفرقون أكوام اللبان على جدران السطح ثم يرشونه بالزيت ويشعلونه فترتفع الرائحـة في المدينة وتبدو وكأنها شعلة من نور يطيب أريجهـا وتتعطر رائحتها ـ وهو تقليد متبع عند قدوم البحارة من المحيط بعد رحلاتهم الشاقة والطويلة فتقوم أسرهم باشعال البخور بنفس الطريقة تعبيرا عن فرحتها بعودة الغائبين .. والواقع أن اللبان فرض وجوده على المناسبات الاجتماعية كلها في البلاد . ففي الولادة تحرص الام ان تكون هناك مبخرة للبان على مقربة من مهد الطفل لطرد الارواح الشريرة وحمايته من العين . كما يحرص كل بيت على وجود قدر من اللبان فيه كتميمة للبيت تصونه من الاذى وتدفع عنه مضار الهوام ، فهناك اعتقاد سائد أن بعض الحشرات من ذوات السموم تنفر من رائحـة اللبان وتبتعد عنه عندما تشمه . ويلعب اللبان فى حفلات الزفاف دورا هاما ، اذ تحمل الخادمات مباخر فخارية كبيرة فوق رءوسهن وقد أشعلن النيران فى اللبان لتتصاعد روائحه ، ويسرن خلف العريس ، وهن يطلقن الزغاريد حتى الميدان الكبير الذى تقام فيه رقصات تقليـدية اسمها « الهبوت » تقوم بتقديمها قبائل خاصــة فى أطراف صلالة ، ويتبادل الحاضرون الاهازيج والاشعار الشعبية التىيتحدثون فيهاعن فضائل العريس ونقائبه .. ورقصات الهبوت تتم على شكل دائرة كبيرة توضع المباخر في وسطها وتظل مشتعلة متوهجة بالبخور طوال فترة الرقصات التى تستمر من بعد صلاة العصر الى الغروب.

والمعتقد السائد أن هذا سوف يحصن المريض من الحسد وضرر العيون الشريرة .

وسكت لحظات ، وقد اخذ يجيل نظره بين أرجاء المكتب ، وادركت انني عطلته كثيراً عن عمله ، فاستأذنته في مغادرته ، وصحبني الرجل حتى باب مكتبه ، وعند الباب سلمني نسخة من كتابه « ظفار ارض اللبان » .. والكتاب تتصدر غلافه صورة ملونة للشجرة المقدسة .

وصحبني الاستاذ محمد سهيل حداد الى الفندق وهو يقول :

ـ ساتركك لغدائك وراحتك ، ثم أعود اليك عصر اليوم لاصحبك الى الجبل .

وبعد الغداء لم أستطع النوم فقد مضيت اقرأ الكتاب حتى أنهيته ، وأحسست ان هناك الكثير لم يكتب بعد حول المأثور الشعبي سواء الفني او الادبي أو الحرفي الذي خلفته الشجرة حولها عبر السنين . وربما لم يجمع ويدون ، وربما جمع ودون في مخطوطات لم تكتشف بعد ، ولعلها مازالت تعيش في ذاكرة بعض المعمرين الذين تستهويهم مثل هذه المأثورت يحكونها للصغار ، أو يتبادلونها في مجالس السمر بينهم وبين أنفسهم ... فتاريخ الشجرة المعروف يمتد الى عصور سحيقة يختلط فيها التاريخ بالاسطورة ، والوقائع المحددة بالوقائع التي خلقها الخيال ، وفي أمثال العرب القديمة « من دخل ظفار حمر » وهو يشير الى منطقة بنفس الاسم حكمها الحميريون في اليمن . ولكن ظفار هنا في عمان منطقة اخرى فهي ابعد تاريخا من هذا اذ هي ترتبط بحتشبسوت ملكة الفراعنة ، وأساطيلها التي كانت تنقل اللبان الى معابد بلادها وقصورها .. فهل ينطبق الإسمان على ارض واحدة ، أم أن هناك منطقتين بنفس

الاسم وفى نفس المنطقة الجنوبية من الجزيرة .. سؤال يحتاج الى كشف تاريخى يزيح عن غموضه الستار. ويؤكد أننا أهملنا في أمور تاريخنا القديم اهمالا مزريا ، وتركنا للأوروبيين أن يكتشفونا تاريخيا كما اكتشفونا بريا وبحريا ، وكأن حق المعرفة وحق الكشف لهم ، وكأننا لا نوجد الا حين ينظرون الينا ، ويتعرفون علينا ، ويكتبون عنا .. والمدهش أننا نتيح لهم كل مظان البحث والدراسة ونفخر بأنهم يتخصصون فى دراستنا على مافى هذا من خطر سياسى وثقافى معا . ولست أزعم أنهم جميعا « لورنس » ولكنى أزعم أن « مثل » لورنس يداعب أحلام الكثيرين .. والمدهش أيضا ان احدنا حين يحب التعمق في دراسة التاريخ أو النتاج الفكرى العربى مرغم على زيارة مكتبات أوروبا وجامعاتها بحثا عن المخطوطات المسروقة ، والوثائق المنهوبة ، دون أن يفكر أحد فى ضرورة احصائها وجمعها وتبويبها وتصويرها فى كل مكتبة عربية على امتداد الوطن العربى . وعلى كثرة أقسام التاريخ وأقسام الادب العربى من جامعاتنا العربية الا ان مؤتمرا واحدا لم يعقد لبحث هذا الامر وتنسيق التعاون بين العلماء والدارسين والجامعات لوضع خطة شاملة تقوم بعملية المسح المطلوبة ثم التصوير ، ثم القيام بالعمل الاساسى والجاد ، وهو التحقيق والدراسة والنشر ..

وجاء الاخ محمد سهيل حداد نشيطا رقيقا مرحبا ، وصحبنى فى عربته نجتاز بها شوارع صلالة الى الجبل .. وفى الطريق كان الاخ سهيل يشير الى البساتين العديدة التى تنتشر على جانبى الطريق ويقول :

ـ فى هذه البساتين ثروتنا القومية الثانية بعد اللبان .

أشجار جوز الهند والفاف والموز ومزارع الخضر وبساتين الاعناب . وجوز الهند هنا يشرب ماؤه ثم يرمى ..

قلت له وانا أذكر مالاحظته اليوم فى صالة المطعم فى الفندق :

ـ لقد رأيت الكثيرين يشربون من شىء مدور كجوز الهند بشفاطات بلاستيك ، ثم يتركون الجوزة كما هى ليرفعها الساقى .. واستبعدت أن تكون هذه الاشياء ثمار جوز هند ، فنحن نأكل لحم الثمرة ونبشرها ونستعملها فى كل انواع الحلوى ولا نتركها هكذا ربما لترمى كما تقول .

ضحك وهو يقول والسيارة تترك البساتين الممتدة لتدخل بنا طريقا صاعدا حوله مساحات خضراء كبيرة :

ـ ان انتاج جوز الهند هنا وفير .. ومسألة أكل لحمه هذه أو بشره لا تتم الا بعد تجفيفه واعداده للحفظ أو التصدير .. ولكننا هنا نحب أن نأخذ مافى الثمرة من شراب وتنتهى بهذا مهمتها . انها الوفرة ياصديقى ..

ولم أجبه فقد بدأ بصرى يشد الى هذه المساحات الخضراء الشاسعة لايقطع خضرتها الزاهية الا بعض شجرات متناثرة ، ورابية هناك تظهر منها بعض جوانب صفراء داكنة لصخور لم يعلها العشب الثرى ، ومن بعيد تلوح بعض غنمات ، وجمل وحيد يسير وحده الهوينى كأنه يتنزه فى أرض يملكها وحده .. وسيارة تسبقنا تختفى عند منحنى الطريق الصاعد ، ونحن نصعد ونصعد والهواء يلطف ويرق ، والشمس استحت فاختبأت وراء سحابة رقيقة ، وطيور كثيرة تعود الى أعشاشها جماعات .

وفجأة انحرف سهيل بالسيارة ليخرج بها من الطريق المعبد الى منبسط اخضر ، وأوقفها وهو يقول :

ـ تعال أريك شيئا سمعت عنه كثيرا ، وربما قرأت عنه كثيرا ولكنك لم تره بعد ..

وحين نزلنا من السيارة أشار الى أجمة أمامنا ، أو ماخيل الي بأنه أجمة مليئة بالاغصان والاوراق ، ولكن كلماته التالية أوضحت هويتها اذ قال :

ـ هذه أخيرا شجرة اللبان .

قلت له مفسرا ماجال فى خاطرى :

ـ لقد خيل الي أنها أجمة منبتة ..

ضحك وهو يقول :

ـ بالفعل هى أقرب الي الاجمة منها الى الشجرة عند من يراها من بعيد ، اذ أن أغصانها تتفرع رأسا فوق سطح الارض ، فلا يكاد الرائى يرى غير جزعها الرئيسى .. هيا اليها لتراها عن قرب ..

كانت الشجرة شيئا نبيلا بالفعل ، تقف وحدها وسط هذه المساحة الخضراء الشاسعة كأنها معلم بارز يدل بنفسه وبأهميته وبوجوده .. ترتفع حوالى ثلاثة أمتار، وتتشابك غصونها وتغلظ وتكثر أوراقها الخضراء الداكنة التى تشبه الي حد كبير أوراق شجرة الزيتون ، وعاد سهيل يقول :

ـ تسمى هذه الاوراق « بالثال » ويعتز البدوى بهذه الاوراق علفا للجمال والماعز ، كما أن أغصانها تتخذ وقودا .

وكانت الاوراق تنبعث منها رائحة صحية أدركت بعد لحظات أنها تشبه الرائحة المنبعثة من اللبان نفسه ، وتحمل الشجرة فى أغصانها أزهارا يميل لونهما الى البياض . وتتشكل فى الزهرة حبوب خضراء .

وقال سهيل :

ـ عندما تجف هذه الحبوب التى تنظر اليها تتحول الى اللون الاسود ، وهذه الحبوب هي السبب فى تكاثر شجرة اللبان عندما تجف وتسقط على الارض . والبدو يسمون الزهرة « البغوة » ، اما عناقيد الزهر بما فيها الحبوب فتسمى « الترميت » .. وعناقيد الزهر تصلح غذاء للابل والاغنام أيضا .

سألته :

ـ ومتى تصبح الشجرة مثمرة ـ اعنى قادرة على اعطاء اللبان .

كسر غصنا رقيقا صغيرا بين أصابعه وهو يقول :

ـ تباينت الآراء حول هذا ، فقد قيل أنهـــا تعطى اللبان بعد ثمانى سنوات ، وقيل بعدعشر سنوات . ولكن المسألة تختلف من منطقة الى أخرى . ونحن نسميها حين تدر اللبان « مغرة » .. وهناك شجر لا يعطى لبانا وان أعطى فبكميات ضئيلة وبنوعيات أقل جودة الا انه يعتبر الشجر الذكر ويسمونه « التيس » وهو الذى يقوم بعملية اللقاح التى تتم بواسطة الرياح .. وعندما تنبت الشجرة وتأخذ فى النمو قليلا فانهم يسمونها « التلية »

قلت له وانا أجول ببصرى فى هذه الشجرة التى حملت كل هذا التاريخ وكل هذه الثروات وكل هذا الاهتمام :

ـ ولماذا هذه العزلة فهى وحيدة وسط البرارى .

ضحك وقال :

ـ قد تنمو الشجرة بمعزل عن غيرها ، وقد تنمو فى مجموعات حسب مناطق نموها وحسب الجو والتربة .

سألته ونحن نترك الشجرة وراءنا ونتجه الى السيارة :

ـ أعرف ان الشجرة ملكية قومية . ولكن يبـدو انها تشكل أيضا ثروة شخصية ، فمن الذى يملكها ؟

ركب السيارة وادار المحرك ، ثم عاد بها الى الطريق المعهد يرقى الجبل من جديد ، وهو يقول :

ـ تملك الاشجار القبائل التى تسكن الى جوار منابتها .. والملكية تنتقل بالوراثة الى الذكور فقط حتى لا تنتقل الملكية بالزواج الى قبيلة اخرى . وعلى كل فهناك اعراف قبلية تنظم حركة الملكية وانتقالها . ومواقع الاشجار مقسمة الى منازل . وكل منزلة تخص قبيلة معينة ان تجاورت القبائل ، ولكل منزل حدود معينة متعارف عليها ، وتتخذ الاحجار والصخور علامات لتمييز المنازل بعضها عن بعض منعا للنزاعات والصراعات حول حقوق الملكية ..

هناك فى آخر الافق يظل الجبل يصعد الى أن يلتقي بخضرته الصافية تحفها ظلال داكنة بالسماء الرقيقة تغلفها غلالات من سحب شديدة الرقة ، فلا الضوء يلمع في عنف وصخب ، ولا الالوان تتباين فى تضارب وتناقض ولا الجمال يقطع امتداده شيء ، وعاد الاخ سهيل يقول :

ـ الشجرة وحدها لا تمثل الثروة هنا ، بل لعلها لا تمثل فى هذه المنطقة جوهر الثروة ، انما نحن هنا فى ارض ثروتها الابقار اساسا ثم الاغنام والجمال .. فهنا مراع حرة شاسعة تجد فيها الماشية جنتها ..

قلت وبصرى معلق بمجالى الجمال وبهجة الخضرة وامتداد كل شيء وضخامته واتساعه :

ـ بل هى جنة الانسان ايضا ، فلا احسب أن هناك بقعة تعيد الانسان الى صوابه ، وتجعله يحس بعظمة خالقه ، وبرقة الكون وجمال الوجود ، قدر هذه البقعة . هنا لا يحول بين الانسان وربه شيء ، ولا يحول بين الانسان

وسواء طبعه شيء . هنا يستطيع الانسان أن يدرك معنى الكلي ومعنى الشمول ، ومعنى ان يذوب وجوده فى الوجود حوله ليتحد معه في واحد لا عداء بينه وبين شيء ، فلا شيء هنا الا معنى الامتداد والشمول والسلام .

ضحك الصديق سهيل ضحكه نابعة من اعماقه وهو يقول :

ـ لم اكن اعرف أن من أرافقه اليوم شاعر ..

قلت والسيارة مازالت تصعد وتصعد ، وأنا لا احس لحركتها صدى لنعومة الطريق وسوائه ، ولان كل حواسي تركزت في العين ترى والصدر ينشرح برقه الهواء .

ـ ما الشاعر ياصديقي الا انسان ـ رق حتى شعر ؛ وشف حتى احس ، فقال ـ وفى مثل هذا المكان يرق الانسان ويشف وليس فى حاجة الى القول ، فهو شاعر وان لم يصدر عنه قول نسميه الشعر ، الان أدركت لماذا كان الانبياء من الرعاة ، أو ممن مارسوا الرعى فترة مامن حياتهم ،والآن ادركت لماذا كان نبينا يصعد الى الغار ليتهجد ، والان أدركت لماذا كان الشعر هو فن العرب الاول ، ولماذا نبغ فيهم العديد من الشعراء المجيدين .. ولماذ ارتبط هؤلاء الشعراء بالطبيعة حتى أن بعضهم قد توحد معها .

عاد يضحك وهو يقول مشيرا بيده الى الطريق الصاعد أمامنا :

ـ معظم الزوار يتجهون عند نقطة التحول امامنا هذه الى اليمين فهذا الطريق يقود الى قمة الجبل ، والكل يحب أن يصعد الى القمة وأن يقف عليها لينظر الى الجبل كله يمتد تحته ، اما الطريق المتجه الى اليسار فهو يقود الى قبر النبى أيوب ، مادمت قد ذكرت الانبياء .

فجأة توقف شيء فى داخلى ، وجعلت انظر الى النقطة التى نقترب منها حيث يصبح الطريق طريقين فى وجوم وشرود ، ولاحظ رفيقى مااعترانى فهدأ من سرعةالسيارة بعض الشيء وهو يقول فى قلق :

ـ هل قلت ما أغضبك أو ضايقك أو .. قل لى لماذا وجمت فجأة ..

قلت له وكأنى أعود بكل كيانى الى وراء سابحا فى الزمن عبر الكهولة والرجولة الى أيام الشباب المتوفز الحلو :

ـ منذ عشرين عاما تقريبا نشرت لى مسرحية من ثلاثة فصول بطلها النبى أيوب الذى تتحدث عنه ، والذى جاءت حكايته فى القرآن والتوراه وكتب التفاسير القديمة ، فان كنا نتكلم عن شخص واحد فهذه مصادفة عجيبة ، فلا تندهش أن أصابنى الوجوم .

قال :

ـ بل نحن نتكلم عن نبى واحد هو أيوب النبى .

قلت ومازالت أسبح فى ذكريات عناء الصبا فى فهم سفر أيوب وتتبع الشخصية فى كل المصادر ، وكيف استهوانى موقف التحدى الذى وقفه أيوب من رهان الرب مع الشيطان حين ذكر الشيطان أن أيوب عبد صالح لانه غنى ولان الله أعطاه كل ما يشكره عليه ويعبده من أجله :

ـ ليس لايوب رسالة الا حياته وكيف جاءت الينا فى هذه الصياغة الدرامية . فحياة أيوب هى تراجيديا السقوط أمام تحد لا يعرف هو من أمره شيئا .. هل الانسان يعبد الله لانه يمنحه كل الاشياء التى يحبها فان منعه عنها كفر به وكف عن عبادته ، أم ان الانسان يعرف

معنى الحب المطلق فهو يعبد من منطلقه ، وهو يؤمن من منطلقه ، وهو يجعل منطقة العبادة ومنطقة الايمان من معنى الحب ، والذى يحب لا يرجو النفع ثمنا لحبـه ، ولا يشترط العطاء ثمنا لاستمرار هذا الحب . .

قال سهيل :

ــ لا أعرف عن هذا كله شيئا ، فقط أعرف انه نبى جاء ذكره فى القرآن الكريم ، والناس يحسبون انه عاش هنا ودفن هنا فى هذا الضريح الذى تراه .

وكانت السيارة قد دارت مع الطريق الجبلى الصاعد، وكنا نقترب تدريجيا من قمة مسطحة وسطها مجمـوعة كثيفة من الاشجار ومبنى على اليســار كأنه تكنة أو استراحة ، ومبنى على اليمين كأنه مسجد صغير . وتوقفت السيارة وسط سكون كامل الا من أصوات الطبيعة الحية وهبات النسيم ، وأصـوات طيور مختلفة وروائح عطرية ونباتية متآلفة فى اتساق جميل . كانت الاشجار تكون أجمة صغيرة ، وكانت فروعها وأغصانها تغطى ذلك البناء الساكن الذي يمتد على اليمين كأنها تحتضنه وترعاه . .

واقتربنا من المبنى فاذا هو مطلى باللونين الابيض والاخضر على شكل مستطيل من دور واحد يمتد مسافة طويلة ــ وخلعنا الأحذية ودخلنا المكان المغطى كله بالسجاد ، تضيؤه نوافذ متعددة ومتجاورة تصب فيه النور صبا من كل ناحية . والمكان على اتساعه لا مجال للحركة الحرة فيه ، اذ يتوسطه ضريح لا يعلو عن سطح الارض كثيرا ويمتد لمسافة طويلة تبلغ ستة أمتار تقريبا ، فيكاد يبتلع المكان كله ، والضريح على شكل جسد مسجى لعملاق يتمدد فى صلب المكان فيملؤه كله ، لا يبقى الا مساحات ضيقة في الجوانب امتلأت بخزانات صغيرة للكتب ،

ومساند شرقية وحمالات للقراءة وبعض آيات معلقة على الجدران ، ولا أحد في المكان ، ولا شيء آخر غير الضوء الساطع ..

لبيك نبي الله لبيك ..

هانحن نلتقي على غير موعد ، ومن غير ترتيب مسبق، ها أنا في هــــذا المكان امامك وكأني كنت من الاصــل أقصد اليك ، وكأن كل القوى والظروف كانت تسوقني سوقا الى أن أقف خاشعا بين يديك . فلبيك نبي الله لبيك ..

يامن لم يقهره عذاب الجسد ، فعلا عليه وعلا ، وقهر معنى الالم بمعنى الحب فلم تهتز ثقته بمن يحب ، لانه حين احب أعطى وجوده الانساني كاملا لمن يحب .. احب شاكرا ، ثم احب راضيا ، ثم أحب لانه لا يملك الا الحب وهو أقوى مافي الانسان ووجوده . فعلمت البشرية أن الحب هو الاصل وهو الكل ، وهو المعنى الذي يمكن أن يكون بؤرة الوجود وسره ، وأن يكون معنى الاستمرار وقهر الموت والفناء ، فحين يبقى الحب ، يســـتمر الوجود الانساني أبدا شامخا مدلا مزهوا بعطاء لا يعرفه الا الانسان الانسان ، فلبيك نبي الله لبيك ..

يامن لم يقهره عذاب الروح ، فسما عليه وسما ، تمردت على معنى ظلم من احببت ، ما انت ليقهـــره الحب الاعظم ، ما أنت لتتجلى قوة الانتقام العارمة فيك وفي عذابك ، ما أنت وقد وهبت قلبك لتنشب في قلبك مخالب لا قدرة لأحد باحتمال قسوتها وعنفها ، ما أنت يا انسان لتتمطى في وجودك كل مظاهر الغضـــب والانتقام والعنف .؟ ما انت يا انسان في ظل الملكوت الاكبر حين تزهو كل القوة بتحطيمك ، وتزهو كل العظمة

باذلالك ، وتزهو كل القدرة بصغارك ، ما أنت ومن انت .. انسان يحس معنى القدرة ، ويقر بعظمة القدرة ، فما للقدرة لا تتخطاك ، وما للكأس المر لا يعبرك ؟ وتمتلىء نفسك مرائر ، ويرتفع صوتك الخافت ليهتف : ما انا لتتجلى على بسخطك ، ما انا لترزح على بكل ثقلك .. شاه اليوم الذى حملت فيه امرأة بى ، شاه اليوم الذى قالوا ولد انسان ، شاه اليوم الذى نظرت الى فيه ؛ انظر ورائى واهتف ماكان لعطائك ان يكون الا الحب ؛ وما كان لعذابك لى الا ان يكون الحب .. لماذا تتقطر حياتى الصاب والعلقم ، ولماذا عذابى يامن احببت ؟ اقدر ان اتعذب فى حبك ؟ تجليت ياحبى الاعظم ، وتجلت عظمتك .

صدقت يانبى الله ..

لبيك نبى الله لبيك ..

قال الرب : لى عبد صالح فى ارض عوص ، تبرأ وخلص ، صافية نفسه ، فكان نعم العبد الصالح .

قال ابليس : ماعبدك الا لنعمك عليه ، فاطلق يدى ادمر ما انعمت به ، وستراه يكفر ..

قال الرب : فاطلق يدك ولن يكفر ايوب .. فأيوب عبد صابر صالح ..

وانقضت الصواعق تحرق مخازن الغلال واشجار الفاكهة ومزارع الكروم والخضرة .. وصبر أيوب ، ورفع كفيه ضارعا للرب ، وقال : أنت أعطيت وأنت أخذت ، والحمد لك فيما أعطيت وفيما أخذت ، تقدس اسمك وتقدست آلاؤك ..

واهتزت الارض زلازل فدمرت المساكن العامرة ومات تحت انقاضها الابناء والبنات ، قرة العين وامل الفؤاد ،

ومعنى ان يكون للانسان وجود على الارض ، انهـارت الجدران الصلبة فتحطمت تحتها الاجساد الرخـوة ؛ وضاع عمر الوجود نفسه حين ضاع أبناء أيوب .. ورفع كفيه ضارعا للرب وقال : ماكان الاولاد الا منحة منك ؛ فحين جاءوا كانوا درة نعمتك ، وحين ذهبوا كانوا اختبار طاعتك ، فالحمد لك فيما أعطيت وفيما أخذت ، تقدس اسمك ، وتقدست آلاؤك .

وهبت الريح الصرصر السموم ، تحمل الجـراثيم والموت ، وانقلبت الماشية ترفع اقدامها مستسلمة الى الموت المخيف المنتشر العاتى ، ألف الف بقرة ، والف الف ناقة ، والف الف كبش ونعجة وعنزة ، اجتاحهم الموت الزاحف ، وشرعت عيون صماء الى السماء ، وتعفنت جثث كانت تحمل الثروة والجاه ، وضاعت الثروة وضاع الجاه .. ورفع أيوب كفيه ضارعا للرب وقال : ما الابقار والاغنام والابل الا رمز رضاك فان منحته لى فالحمد لك ، وان أخذته منى فالحمد لك .. يرتفع الانسان وسط الناس بما اعطيت ، وينخفض قدره بما أخذت ، ولكن الانسان أمامك هوهو ، الحب لك والشكر لك ، والرضا والقناعة بما اعطيت واخذت ، تقدس اسمك وتقدست آلاؤك .

وزحف العفن الى الجسد فباخ بناؤه ، الاعضـاء انحلت ، والعظم وهن ، والقروح ملأت الجلد واللحم ، وتقيحت حتى نفرت الزوجة والصحاب . الطعام يحمل الى عذابى ، فلا آكله خوف التعاسة والالم ، خبزى عذابى ، وحنطتي شقائى ، وجرعة الماء هول يمـزق وجودى كله ، والقيح يملأ جسدى ، والدود يقفز منـه ابدانا بأن الجسد ضاع ، ولا نهاية لكل هـذا العذاب

المقيم .. من أنا حتى تزرح بعذابك على ، من أنا حتى تأكلني بقوتك ، من انا وما انا يارب الوجود العظيم ، تقدس اسمك وتقدست آلاؤك .

وهب أهل عوص وقالوا كفر أيوب فحق عليه النفي من الارض النقية التى لا تعرف الا الصالحين ، ملعون هو ، مطرود هو ، مشرد هو ، فقد رفع صوته على الرب ورفع اصبعه الى السماء .

وضحك ابليس ضحكة الانتصار وقال : ضـــاع ايوب وكفر حين ضاعت منه نعمتك وسلبت عنه عطاياك .

تقدس الرب وعلا .. فكلمة الرب هى العليا .. ايوب عبد صالح ، وما كلمات أيوب الا الصدق ، فمــا كفر وما عصى وانما اشتكى وتضرع ، غفر الله لايوب فارفع نقمتك عنه فقد حوته الرحمة الكبرى ، والغفران الاعظم .. لبيك نبى الله لبيك .. ثم لبيك نبى الله لبيك ..

قال سهيل :

ـ اتبكى ..

وانتبهت الى وجوده ، والى الضريح امامي والى الغرفة الساطعة الضوء ، واحنيت راسى وأنا اقول :

ـ بل ابكى ياصاحبى .. وليت لى مدد من دمــوع فاستمر في البكاء .. بل جفت الدموع حين احتجـت اليها .. جفت الدموع .. هذا عذاب انسان عظيم سجل عذابه فى سجل لا يموت ولا ينتهى ، هذا وجود انسان عظيم قهر التحدى واعلن الكلمة الكبرى ، ان بالحب يعيش الانسان ويوجد الانسان ، وان بالصدق والكلمة الصريحة ، يعود الانسان الى ملكوت الرب ليحيا فى جنة الرضا المقيم ، وفى ضمير كل انسان الى يوم الرضا المقيم ..

قال صاحبى :

ـ لست افهم .. لو اعرف ان رحلتنا الى هنا ستفعل فيك هذا ماجئت بك ..

قلت له :

ـ ياصاحبي انت لم تجيء بي ، انما جاءت بي ألقدرة .. وجاء بي أمر صاحب القدرة . أعوام واعوام وانا اقرأ كلمات أيوب ، واعوام واعوام ، وأنا اسقط عذاباته علي قدر انسان العصر لتتقطر كلماته مرائر في قلبي ، ولأستمد من مرائر كلماته معنى الصمود في وجودي ، وقدرة الاستمرار والبقاء في دنياي ..

قال صاحبي :

ـ أشركني فيما تجد .

قلت له وأنا ألتفت حولي ، انظر الى الضريح الممتد امتدادا خرافيا يغمره ضوء مبهر :

ـ ليت الشمس تخافت من ضوئها حتى أخلو اليه ، ليت من أقاموا هذا الضريح فهموا أن الانسان ليس امتدادا طويلا عريضا . فتواضعوا في حجم الضريح حتى اتواصل معه ، ليت يومنا هذا كان حين كنت أكتب عنه حتى أصدق اكثر وأعمق واجل ..

قال الصديق :

ـ كفي ونخرج .

قلت له :

ـ نحن مسلمون ، لنقرأ الفاتحة على روحه ، فقد علت الروح وطهرت حتى كانت من اشف الارواح التى عبرت عن نفسها بالكلمات المنقوشة على الالواح ثم على القلوب ، سرق اللصوص كلماته ، ونسبوها وتسبوه الى أنفسهم ، ولكن روحه ملك الإنسان وملك هذا المكان ..

وخرجنا ، وأنا اهمس في صمت صاحبي : لبيك نبي

الله لبيك ، لبيك حبيب المعنى والروح القدس لبيك ، لبيك معنى الانسان والحب لبيك ..

وعند الباب ونحن نلبس أحذيتنا من جديد ، رأيت اول انسان حي في المكان غيرنا ، كان يجلس عند المبنى المقابل ، عريانا هو ، مطاطيء الرأس في جلسته ، جسده الشديد السمرة مليء بالقروح والندوب ، في يده عصا لا يستند اليها وانما تستند اليه ، في عينيه الم صارخ ، وفي وجوده المهزوم الضعيف المتهاوى عند حافة الطريق استسلام هاديء كريم .. وقلت لصاحبي :

ـ اعرف الحساسية الوطنية التي تملأ أعطافنا أبدا .. ولكني احب ان أعطى هذا الرجل كل مامعى ، فهل تسمح لي ان أوفي دينا قديما انت لاتعرفه ..

نظر الى دون أن يفهم ، ولكنه كان ذكيا ومجاملا ورقيقا حين قال :

ـ افعل مابدا لك ، فلست أعرف أحدا رافقته في رحلة الى هذا المكان ارتبج كله كما حدث لك ..

وتقدمت الى الحطام الجسد ، العذاب الانسان ، الصبر الهدوء ، وافرغت كل مامعى في راحته ، ولم انظر اليه وهو يرفع عينيه نحوى انما مضيت مسرعا وورائي سهيل ..

وقال سهيل :

ـ لماذا توقفت .. نركب السيارة لنعود ..

قلت له :

ـ انت تعرف هذه المنطقة فيما اظن ؟

قال :

ـ بل انا ابنها ، فاهلي هنا ، وولدت هنا ، وكل من هنا يعرفون من انا .

قلت في ارتياح شديد :

ـ هائل وتمام .. اذن اترك السيارة ، ودعنا نتحرك على أقدامنا في جولة حقيقية وطبيعية وسط المكان ..

ضحك وقال :

ـ كنت اريد ان اقترح عليك هذا ، وخشيت انك تريد ان ترى كل شيء رؤيه السائح من خلال زجاج سيارة ، أما السير والجولة على الإقدام فهذا ماأحبه وماأريده ، فكم بعدت عن المكان حتى اخشى ان اصبح غريبا عليه ، هيا وتعال ، وارجو ان تقوى على الجولة ..

لم أكن أسمعه ، فقط كنت أسير ، أقدامى تندفع ، وكأننى اعرف المكان والارض ، وكأننى كنت هنا من قديم الزمان ، واكون هنا كل زمان .. وأسرع لتوافق خطواته خطواتي ، وقد تركنا السيارة فى مكانها وانطلقنا الى العالم الاخضر الزاهي المحيط بنا .. وقلت له :

ـ اكنت تريد أن تحرمنا من كل هذه الخضرة .

قال وهو يقودنى عبر ممرات غامضة لم أكن أعرفها وسط الجبل :

ـ هذه أرض لها أصحاب ، ولها حدود .. وكل ثنية في الجبل تحتاج الي اذن حتى نعبر من مكان الى مكان .. ولو أنني أريد أن تعرف أن الناس هنا لا يهتمون كثيرا بمن يعبر طالما هو يعبر فى سلام ..

قلت :

ـ نعبر فى سلام اذن ، وانت مفتاحى الى هذا السلام .

لم يتكلم ، وانما سار معى .. وكل جزء من الجبل الاخضر يسلمنا الي جزء اكثر خضرة وأشد خصبا ، ومن بعيد تلوح مجموعة من المنازل تريد أن تختفى حتى لاترى،

اسقف فى حذاء الارض تقريبا يعلوها النبت الاخضـــر ليخفيها عن العيون . ولكن الذى يكشف أنها منـــازل لاحياء ، مجموعات من البقر تتحرك ويخرج الى مرمى البصر ثم يختفى بعد حين ، والابقار هنا رقيقة جميلة كأنها وجدت لتكمل مع الطبيعة الخضراء معنى موسيقيا متوحدا وعميقا .. ونحن ندور فى الطريق اذ بنا نضل فنصل الى بداية حلة . ويجرى صبى ، ثم تختفى من امامنا فتيات صغيرات ضاحكات ، وتبدو من بعيد أم صبية تنهر هذا العبث من الصغار ، وتطل علينا من بعيـد بجمال يضارع جمال الطبيعة وبحياء يضارع حياء الطبيعـــة وتختفى ، ويهتز كل شىء فى أعماقى واقول :

ـ اذن هنا حياة .

ويضحك سهيل من سذاجتى وعفويتى ويقول :

ـ وماذا كنت تنتظر اذن .. هنا الحياة .. ولكن هيا بنا نبعد عن هذه المنازل حتى لا نضايق أصحابها ..

وعدنا نرقى الى الجبل من جديد .. لا شىء الا الخضرة الممتدة ، والا الصمت المقسم ، وتختفى كل مظاهر الحياة كأنما تخشى فينا عدوا يهاجم معنى الحياة ، ونحن نندفع الى سفح الجبل ، وتختفى بقرة ، ويظهر بعير ثم يختفى ، ونغوص فى الارض الخضراء ، ممتدة كالابد ، ولا شىء فيها الا اننا فوق جبل عريض السفح لا ينتهى ، واننا نتحرك فى ملك الله .. حيث لا شىء الا عظمته ووجـوده وقدرته .. وقال صاحبى :

ـ هل سنستمر فى السير على السفح كثيرا ..

ضحكت وانا انظر الى عينيه الضاحكتين الطيبتـين وقلت :

ـ الجبل لا انتهاء له .. وتنتهى قدراتنا على الحركة ، والسفح الاخضر لا نهاية له الا المزيد من الخضرة الممتدة

بلا نهاية ، وانا اعرف ان اقدامنا لن تعبره ابدا الى نهايته فلنعد اذن ».

قال :

ــ ضايقتك حيث كنت منطلقا ، ولكن الليل يقبل ..

قلت له :

ــ ياسيدى هذه ارض عوص ، ان لم تكن ، ما كان ايوب .. هذه ارض توحى وحدها معنى الصراع الى القمة . هذه هى الارض التى كتبت فيها هذه الكلمات التى ثبتت للانسان معنى الخلود فى مواجهة القمة .. فهنا يلتقى الانسان بالقمة ، هنا يعرف الانسان معنى التحدى ، وهنا ينطلق الانسان ، فهنا الحب المطلق ، وهنا العذاب المطلق ، ثم هنا الايمان المطلق .. هنا ارض عوص ، والا فاتنى كل شىء ، وتحطمت احلامى ورؤاى الى الابد ..

قال :

ــ لست افهمك .

قلت :

ــ انا احس فانا افهم ، فانا والارض اتحدنا ، كما اتحد بها من قبل ايوب فأخرج كلماته ، وسرقها وسرقه كله من سرقوا كل تراثنا وادعوه لانفسهم ، فأيوب من هذه الارض ، وهذه أرض عوص انبتت هذه الرؤية العظيمة المتسعة للحب ، كما امتدت عظيمة متسعة خضراء .

وعدنا الى السيارة تدور بنا فى الجبل وتعود بنا من جديد الى سجون الجدران والحوائط والبشر .

***

بعد أشهر من هذه الزيارة كنت فى صنعاء ، وفى

منزل الدكتور عبد الكريم الارياني كنا نتحدث عن سرقات اليهود لتراثنا السامي كله ، وحكيت هذه التجربة الروحية الفذة واذ بالدكتور يوسف عبد الله رئيس قسم الآثار بكلية آداب صنعاء وعميدها السابق يقاطعني قائلا :

ــ عجيب ماتحكي ، لقد زار المستشرق «يري» عالم الآثار البريطاني المنطقة الجنوبيه كلها ووقف عند الدلائل العلمية ، والحفائر التي تؤكد ماذهبت أنت اليه بتجربتك الصوفية هذه ، وألف كتابا عن هذه المنطقة أسماه « أرض عوص » ..

***

وداعا أرض عوص ، ووداعا نبي الله ، دعوتك الصامتة قادتني الى أرضك ، ووقفتني أمام ضريحك ، أثرت وجداني وقلبي .. وكفى أنني رأيت مثواك وارضك قبل ان أموت ..

واقتربت السيارة من صلالة وقد بدات أضواء الكهرباء تغمرها بفيض من نور .



طيور أفريقيا الدامية

كان همى الاكبر من الرحلة هو الالتصاق بروح الشعب فى اطار التعبير الشعبى عنه أى فى الفنون الشعبية ، أو فى العطاء الفولكلورى المتاح والذى لم تذهب به رياح التغيير والتمدن وتذروه بددا منسيا لارجعة له ولا امل فى التعرف عليه . وفى مكتب الاعلام قال لى الاستاذ مبارك الرواس :

ــ لقد حجزنا لك موعدا فى التلفزيون هذا الصباح ، وقد أعدوا لك عدة افلام تلفزيونية سجلت لاعمال من الفنون الشعبية هنا ، وسيلقاك مخرج هذه الاعمال وهو الاستاذ عبد الله بن صالح بن حيدر ومذيعها المعلق عليها الاستاذ سالم بن عوض النجار .

قلت له :

ـ كنت ساقترح مثل هذا الامر لان زيارتى ستنتهى لصلالة عصر اليوم ولا اعتقد أن الوقت سيسمح لى برؤية شيء او الالتقاء بأحد ، ولكن هذا اللقاء التليفزيونى سيحل الكثير من المشاكل .

وصحبنى الاخ محمد سهيل حداد الى مبنى التليفزيون فى صلالة . وهم مبنى متكامل اذ يضم الاذاعة والتليفزيون والارسال معا . ولهذا فالحراسة عليه مشددة .. والتقينا بمدير الاذاعة فى صلالة الذى قدمنى الى الاخ عبد الله بن صالح ، والاخ سالم بن عوض .

وصحبني الاثنان الى غرف الاستماع او المشاهدة بمعنى أصح ، وقلت وانا آخذ مجلس امام جهاز التليفزيون كبير الشاشة :

ــ الفترة القصيرة التى أتيح لى ان أرى فيها صلالة اكدت لى أنها مخزن مهم وضخم للتراث الشعبى فمازالت الحياة تسير بطبيعة قريبة من البساطة والارتبــاط بالتقاليد ، والناس هنا أيضا أصحاب بديهة حاضرة ونكتة مواتية ، وهذا يشير الى قــدرة على الابداع الشعبى .

قال الاخ سالم ، والاستاذ عبد الله يعد شريط الفيديو الاول للمشاهدة :

ــ لقد حاولنا فى صلالة أن نسجل بالصوت والصورة كل ما امكن لنا ان نسجله .. وبعضه التقطناه كما هو ؛ والبعض الآخر درسناه دراسة وافية قبل أن نضــع له سيناريو يتم على أساسه التصوير . وهذا واحد مــن هذه الافلام ذات السيناريو . وهو يبدأ بصناعة الصنبوق ثم صيد السردين .

وكان الفيلم قد بدأ يدور بالفعل . وبدأ صوت الاخ سالم بن عوض النجار يملأ جو غرفة الاستماع بينمــا أخذت المشاهد الاولى تتــوالى .. وضــحك المخــرج قائلا :

ــ صناعة الصنبوق شيء مميز لاهل عمان ، والصناع يتوارثونها ابا عن جد ، ولو أن اخانا سالم هنا خرج عن هذا التقليد فترك صناعة الصنبوق الى صــناعة الاصوات ، فهذا الذى تراه هنا يشكل الصنبوق بــكل مهارة واقتدار عم له .

قلت ضاحكا :

ـ لم تكتنف الاذاعة بان تقحم على الاذواق الشعبية مايهدد أصالتها بالضياع فهاهى تسرق الرجال من تراثهم الحرفي الشعبي .

قال الاخ سالم وهو يشاركنا الضحك :

ـ لقد حلت مخترعات العصر محل هذه الصناعة المتوارثة حتى قل الطلب عليها . وقد عانيت الكثير كي أقنع العم هنا بأن نصور معه مراحل الصناعة مرحلة مرحلة ..

وفي نفس الوقت جاء صوته من خلال الفيلم يصف لنا هذه المراحل ، كيف تعد الاخشاب الرئيسية التي تكون العمود الفقري للقارب ، كيف تختار الاخشاب التي ستكون جسد القارب ، كيف تصنع الحبال التي ستضم هذه الاخشاب بعضها الى بعض ، ثم كيف تستعمل هذه الحبال المصنوعة من الياف جوز الهند في مهارة وحذق لتعطي القارب شكله الاخير . ووسط الاهازيج والاغاني يحمل القارب الى حافة البحر ، وقبل أن يدفع الرجال بالقارب الى أمواج البحر تساق بقرة لتذبح امامه وتختلط دماؤها بماء البحر ويمثل لحمها وليمة فاخرة يدعى اليها طاقم القارب وصناعه والمشاركون في رحلة الصيد . وتبدأ الرحلة ويشارك فيها مجموعة من فوق الساحل الى جوار مجموعة القارب ، وتجر الشباك المليئة وسط أغاني عمل جمعية لست أظن أنها دونت كلمات ولحنا الا في هذا الفيلم . والرقص والغناء يصاحبان عملية جمع الصيد الوفير الذي يرمي بكمية ضخمة فوق الرمال ثم يحمل في مكاتل صغيرة الى الجمال ليفرغ في الاكياس العميقة الكبيرة التي تحملها . ويأخذ المحتاجون حقهم في السردين الذي يستعمل بعضه في غذاء الجمال

والحيوانات . وقد ذكر ابن بطوطة هـــذه الظاهرة فى اندهاش ، كما ذكرها الكثيرون غيره من الرحالة العرب والاوروبيين على السواء . ومنحة الطبيعة السخية هذه زاوجت بين البحر والصحراء ، وبين القارب والجمل ، وبين عطاء البحر وعطاء البر لتعطى تلك الميزة الخاصـة لهذه الارض التي كانت دائما اللقاء الحى المتجدد بين الصحراء والبحر ، او بين طريق البر وطريق البحر فى الوصل بين المدنيات والحضارات ، وفي خلق النبض الدائم للثروات المتدفقة من الشمال ومن الجنوب معا ، عبر الصحراء وعبر المحيط معا .. انهى الصـــيادين مهمتهم ومضوا يغنون فوق جمالهم قاصدين شـــيخ الصيادين ، وامام بيته ترتفع حناجرهم بغناء مبتهـج هو مزيج من الاحساس بالزهو للعرق الذى صنع الخير ، والخبرة التى وجهت العرق ، والاحساس بالشـــكر للرب الذى حفظهم في رحلتهم ، ورزقهم الخير الوافر الذى عم على الجميع .. ومن داخل الدار تخرج الهدايا السنوية من البلح والدقيق ــ ووسط الاغاريد والاهازيج تتحرك الجمال مغادرة الدار في فرحة وامل جديدين ..

ومن هذا النوع من التسجيل الفيلمي لتقاليد العمـل المميز شاهدت عدة أفلام . واحدا منها عن موسم جمع اللبان ونقله وتخزينه وبيعه . وافراح الاسر المنتجـة للبان والمتاجرة فيه . وما يقام اثر الموسم من اعـــراس وأفراح .. وآخر عن زراعة الارض وسقايتها عن طريق السواقى التى تديرها الجمال ، يغنى لها حاديها وهى فى ذهابها ومجيئها تملأ القواديس وتفرغها فى مجارى الماء فى صبر واناه ، والنساء يبذرن الحب فى الارض التى تم عزقها ــ ثم مواسم الحصاد ، وجمع المحاصـيل فى

جهد مشترك يساهم فيه الجميع وسط رقصات جمعية وأقان بسيطة تعتمد على الإيقاع البسيط والنغم الرفيق واصوات المجموعات المشتركة فى الاداء ..

وهذه الالوان من الافلام التسجيلية هامة جدا ، وان كانت تهتم بالجماليات الفنية فى العرض والتصوير ، وبالمعلومات العامة التى تحيط بالحرفة نفسها . ولكن اهتمامها بالثروة الفولكلورية التى تسجلها اهتمام يأتى فى المرحلة الثانية ، ان كان يأتى على الاطلاق . فالراصد هنا فنان يقف وراء الكاميرا ليسجل بها احسن مايراه ، وأجمل مايحس أنه مناسب للذوق العام ، وما يوائم ولا يجرح الاحساس الحضارى النامى فى البلاد . ولذلك فهو مهتم كثيرا بالاغنية والحركة الجمالية الايقاعية المصاحبة لها ـ ويهتم بمناظر البحر وتناسق الالوان او تناقضها ، ولكنه لا يقف وقفة متأنية عند لحظة نحر الذبيحة امام المركب وتحت قاعها لتصطبغ المياه التى تلامسها لاول مرة بدم الفدية القانى ، بل لعله يعبرها بسرعة حتى لا يشوه جمال المنظر بمعنى الدم .. بينما الراصد الفولكلورى يقف عند هذه الظاهرة وقفة طويلة ، وقد لا يستوقفه من الفيلم التسجيلى كله غيرها ، اذ هى تسلمه الى حقيقة وجود التراكم الفولكلورى القادم من عهود المعبد والفداء لرب البحر ، وطقوس الصيد التراثية القديمة . والفيلم يقفز على الفواصل الزمنية لان الفيلم يعتمد اساسا على الحركة والفعل ، اما مايملأ هذه الفواصل الزمنية من عادات وممارسات وطقوس فهى تغيب بالضرورة عن عمل لم يتجه اصلا الى التسجيل الفولكلورى . وعلى الرغم من فائدة هذه الافلام التسجيلية وشدة اهميتها الا أن البعد العلمى الفولكلورى

يكاد يغيب عنها ، وليس هذا طعنا فيها . وانما هي أدت رسالتها الكاملة من الناحية الفيلمية والتسجيلية ، وهذا بالفعل يكفيها ، فما يريده دارس الفولكلور لايصلح أساسا للمتعة الجمالية والتذوق الفني ، وانما يصلح بالدرجة الاولى للرصد التراثي الفولكلوري ..

والنوع الآخر من الافلام التي توالى عرضها في هذه الجلسة يسجل بعض الاحتفالات الشعبية التي تمارس بمناسبات شعبية عامة كموكب الزفاف وكالموالد . وأبرز الموالد التي شاهدت فيلما تسجيليا عنها كان مولد الشيخ فرج .. والفيلم تصوير واقعي لاحداث المولد ، يتتبع مراحل الاحتفال به من لحظة توافد الاتباع الى الضريح ولحظة اعداد الموكب ، ثم خروج الموكب يتصدره الشيخ حاملا الكسوة ـ تتبعه الاعلام والطبول والاناشيد والرقصات الدينية تطوف بأرجاء المدينة . وتصحبها المبارزات بالعصى ، والهجوم أو تمثيل الهجوم على السائرين ، ثم تحطيم الاواني الفخارية ، وايهام المعارك ومبارزات ، مما يوحي بحكايات شعبية حول هذا الشيخ ودوره في الحياة ، تمثلها هذه الطقوس ، وان فقد نصها الشعبي من السرد الفيلمي ، وربما من ذاكرة الاتباع أو معظمهم ، الذين يمارسون هذه الطقوس كجزء من الاحتفال الشعبي دون ربط لها بالاصول القصصية التي تمثلها الحركات التي يقومون بها .. ونعود هنا لنكرر ماقلناه من قبل ، من أن العمل الفيلمي جميل كعمل تسجيلي ، ولكنه يسجل الظاهرة ولا يعمقها أو يقدم خلفياتها الفولكلورية التي لاشك تتهدد بالانقراض والزوال .

والنوع الثالث من الافلام كان يسجل رقصات شعبية يصحبها بالطبع الاغاني الشعبية ، وهي رقصات متعددة

ومعروفة بالاسم ، كما انها ترتبط بالمناسبات الاجتماعية كالزواج ، وكالموت ، والرحلة الى البحر ، وانتظار المسافر ، والاحتفال بقدوم الغائب . وهذه المجموعة من الافلام تعتمد فى تقديم الرقصات والاغاني على فرقة ثابتة من النساء والرجال السود البشرة الافريقى الملامح، يقدمون الرقصة وما يصحبها من أغنيات من أولها الى آخرها ، ولا يشاركهم احد من خارج هذه الفرقة التى تكررت فى كل العروض المسجلة ، وان شاركهم أحد ، فالمشاركون مجموعة من الاطفال من الصبية والبنات الذين لم يصلوا الى سن الحلم . فنحن اذن أمام فرقة محترفة يحفظ أفرادها الرقصات المتداولة ، والاغانى المصاحبة ، ويؤدونها فى الافراح والمناسبات والاحتفالات لقاء اجر . وفى الدراسات الفولكلورية نسمى اعضاء هذه الفرق باسم « مؤدى التراث » تفرقة لهم عن الاسم الآخر الذى نطلقه على الذين يتوارثون التراث من حفظته من الناس العاديين وهو « حامل التراث » .. وحامل التراث هو الوريث الطبيعى للعطاء الشعبى لبيئته وهو أيضا الذى يسقط على هذا الموروث هموم عصره ، واضافات هذا العصر ، ويلونه بالعطاء الاجتماعى المتجدد ليظل دائما هو الماضى الحى . ولهذا فان دارس التراث يبحث عنه فى مظانه لانه هو نفسه اصل من أصول البناء الفولكلورى المتجدد للموروث الشعبى . اما مؤدى التراث فهو محترف يتخذ من التراث وسيلة حياة ، ويهدف من ممارسته الى الامتاع الفنى عند المتلقى وارضائه ، ولذا فهو يدخل حرفيته واتقانه لفن استهواء الجماهير ، ولا يجد حرجا من أن يغير فى النص ليكون أكثر تأثيرا وتشويقا وامتاعا . وتدخل فى أدائه حرفيات كثيرة كحرفية الاداء والرقص والموسيقى . وهذه الفرق

المحترفة تقدم نفسها باسم الفن الشعبى وهذا حقها ، فما تقدمه يعتمد اعتمادا كبيرا على ماحفظوه وجمعوه من الموروث الشعبى ، وعملهم يكون عند الدارس صيغة مع صيغ العمل الشعبى فى مرحلة ما ، وفى بيئة ما ، وعند قدرات فنان شعبى ما . ولكنه لا يكون الا مجرد صيغة دالة ، فان مايهم دارس التراث وجامعه ، هو ما عند حامل التراث الاصلى ، اى قبل أن تدخل فنون هذه الفرق وحرفيات اعضائها .. وقد تعرضت لهذه القضية من قبل لانها قضية هامة وخلافية ، واحسب أن الكثيرين من جامعى التراث الشعبى لا يجدو غضاضة فى ضم اعمال هذه الفرق ، أو اعمال المحترفين عامة الى مصطلح الفولكلور . فنحن فى كثير من الاحيان لا نجد سوى ماعندهم من بقايا الموروث الذى فقد واضاعه حملته الاصليون .

وأيا كان الامر فان تناول هذه الفرق له تناول بدائى يقترب به الى حد مامن أصوله الاولى . الا انه يحتاج الى دراسة وتحليل يعيدانه الى منابعه الاصلية حيث اخذه هؤلاء الفنانون من حملته . كما انه يحتاج الى دراسة وتحليل يحددان الاطوار المختلفة التى تلقاها فيها هؤلاء الفنانون جيلا بعد جيل ، وما أحدثه كل جيل منهم من تداخلات فى صلب العمل الشعبى أو من اضافات زادوها عليه . وطالما ظل الاداء فى أيدى هذه الفرق الشعبية فنحن فى حاجة الى سرعة تسجيله قبل أن ينتقل منهم الى فرق أكثر تقدما فى فنون الرقص والغناء والاداء بحيث تدخل يد المعاصرة والحرفيات المتقدمة لتخفى المعالم التراثية ولا تبقى الا الطرافة والامتاع .. وهناك عناصر كثيرة تجعلنا نأخذ هذا الموقف

الوسط في القضية ، فان معظم هذه الموروثات المغناة والراقصة تقوم بها الانثى بالدرجة الاولى . وهي في بلادنا لن تقوم بها أمام الباحث الغريب عنها أيا كانت الاسباب . فان زاد وعيها الثقافي فهو يزيد على حساب تمسكها بالموروث القديم فتبتعد عنه كلما ازدادت ثقافة ، وكلما ابتعدت عن المصادر المعروفة لمعرفتها وثقافتها وأدائها الفنى .. ومن هنا اصبح من المتعذر تعقب هذه الرقصات في مصادرها العمانية الاصيلة ، ومن هنا كان الذين يؤدون هذه الرقصات من المحترفين من بقايا الطبقة التى كانت تقوم بالاعمال الصغيرة فى البيوتات الكبيرة للسادة الاثرياء والتجار من ابناء عمان الذين امتدت تجاراتهم واعمالهم الى السواحل الافريقية ، واصطحبوا فى عودتهم الى أرض الوطن مجموعات من الافريقيين الذين اعتادوا العمل فى الحقول وفى المنازل . ولاشك أن هؤلاء قد حملوا معهم موروثهم الشعبى ، وانهم في أداء الرقصات العمانية التقليدية قد مزجوا موروثهم الفنى بهذا الموروث الجديد — فعلى الرغم من ان الموضوعات التى تتناولها هذه الرقصات ترتبط بطبيعة الحياة العمانية من وداع المسافرين فى البحر الى رقصات الابتهال لعودته سالما ، الى رقصات الجناز على الزواج المتوفى ، الى رقصات العمل واغانى الجماعات فى الاعمال التقليدية داخل البيوت وخارجها ، الا أنك تحس ان ثمة بقايا وثنية غريبة ، وثمة اشارات الى تقاليد افريقية تدخل الى هذه العروض الشعبية ولا تستطيع ان تخفى وجودها ، وان كانت رموزها الحقيقية تحتاج الى دراسة وبحث .. والواقع ان ارتباط عمان بأفريقيا الشرقية ارتباط موغل في القدم مما لايستبعد معه ، بل لعله مما يحتم وجود

مثل هذه التأثيرات الافريقية ـ وبكثرة ـ فى الموروث الشعبى العمانى . ويرى المؤرخ الاستاذ احمد محمود المعمرى صاحب كتاب « عمان وشرقى افريقية » ان الفضل فى هذه العلاقة الوطيدة المبكرة يرجع الى « الدلو » ... والدلو اسم لنوع عريق من السفن الشراعية العمانية كان يقوم برحلات سنوية الى شواطىء شرق افريقيا تحمل البلح وسمك القرش المجفف والقهوة والسجاد ، ويقول : « وكانت هذه القوارب تخرج عادة من الجزيرة العربية فى شهر يناير ، ثم تبحر عائدة الى بلادها فيما بين نهاية مارس وأوائل يونيو من كل عام ـ وكان مما يسهل هذه الرحلات المنتظمة ذهابا وايابا الرياح الموسمية التى تهب من الشمال الى الشرق فى شهر ديسمبر ، وتصل بالعرب الى الساحل الشرقى من افريقية ـ وتهب من الجنوب الى الغرب فى مارس فتعود بهم الى الجزيرة العربية فى رحلة تستغرق الفى ميل من مياه المحيط الهندى ـ وقد استفاد بحارة وتجار الجزيرة العربية والبلاد المجاورة لها من الرياح الموسمية طوال ما لا يقل عن ٣٠٠٠ عام » . والواقع أن شرق افريقية قد جذب بحكم ثرواته الكثيرة وأهمها التوابل والعاج والذهب والاخشاب الكثير من الشعوب فأبحر اليها السوريون والاشوريون والهنود والمصريون . « وقد أرسل المصريون بعثاتهم التجارية منذ ٥٠٠٠ عام الى الصومال التى اسموها « بونت » . وكانوا يتاجرون على نطاق واسع فى الذهب والعاج وجلد النمر . الذى استخدمه الملوك والنبلاء المصريون القدامى فى تزيين قصورهم » .. ومنذ عام الف قبل الميلاد قام الفينيقيون من الساحل الشرقى للبحر المتوسط ، والكنعانيون ، بزيارات تجارية

المنطقة . وكذلك قام الهنود والصينيون من سواحل المحيط الهندى . وقام الفرس عبر الخليج ، بمثل هذه الرحلات التجارية المبكرة تاريخيا جدا . الا أن العرب العمانيين كانوا أول الشعوب التى تقيم لها مستوطنات على الساحل الشرقى لافريقية . ويحكى المؤرخون عن هجرات عربية واسلامية متعددة منذ بداية العصر الاسلامى ، ويحكى الاستاذ عبد المنعم عامر فى كتابه « عمان فى أمجادها البحرية » عن أولى هذه الهجرات المنظمة والتى قام بها اهل الشام زمن الخليفة عبد الملك ابن مروان حوالى عام ٨٠ هـ أو ٧٠٠ ميلادية ويقول « وهذا بتوافق توافقا زمنيا مع رواية العمانيين عن هجرتهم الاولى لشرق افريقية » ثم توالت بعد هذا هجرات متعددة : أهمها هجرة أنصار زيد بن على بن ابى طالب الذى هزم وقتل فى نزاع له مع انصاره الخليفة فاضطر انصاره الى الهجرة للنجاه بأرواحهم ، فذهبوا الى شرق افريقية حيث استوطنوا « بنادير » فى الصومال .. » . ويحكى الاستاذ أحمد حمود المعمرى عن هجرة أخرى جاءت من الاحساء ثم عن هجرة جاءت من شيراز ، واستوطنوا اماكن مختلفة على طول الساحل الشرقى لافريقية . وتعتقد قبيلة الحرث من عمان انها أنشأت ديارا لها فى مقديشيو وبراوة، منذ عام ٣١٢ هجرية أى ٩٢٤ ميلادية . ويذكر الاستاذ عبد المنعم عامر أنه فى عام ١٢٠٣ ميلادية كان حاكم جزيرة « تومباتو » بالقرب من زنجبار رجلا من البصرة « على حين زعم أحد السلاطين فى جزيرة « بمبا » بأن قومى قد نزحوا من البصرة » وفى عام ١٢٠٣ ميلادية

كان يحكم « بته » أمير نبهاني من عمان ، وسيطر العرب العمانيون على أعمال التجارة والملاحة . ويؤكد ويندل فيليبس في كتابه « تاريخ عمان » هذه الحقائق التاريخية بقول : « كان الدور العماني في استعمار وتمـدين شرقي افريقية اكبر بكثير مما كان متوقعا اذا راعينا حجم عمان وعدد سكانها .. ففي تاريخ مبكر ليس بعـد عام ١٢٠٠ ميلادية بالتأكيد قام امير من بني نبهان من عمان بتوطيد سلطته في مدينة مبنية بالاحجار في « بات » ، وكان هناك أخرى في « سفالة » التي اشتهرت بتجارتها المزدهرة في الذهب ، وفي « كلوة » و « ممباســا » و « ماليندي » و «مقديشيو » و « بمبا » و (زنجبار) ، على طول ساحل الزنج في شرقي افريقية .. ولا يعني ذلك أنه كان هناك في وقت ما « امبراطورية موحـدة للزنج » فهذا لم يحدث ، ولكن كان نجاح بناةالامبراطورية العمانية الى حد ما نتاجا فرعيا لنجاحهم كبناة للسفن »

وقد اهتم المسعودي بشرق افريقية في اكثر مـن موضوع من كتابه « مروج الذهب ومعادن الجوهـر » تسجيلا لمشاهداته خلال رحلته التي قام بها حوالي عام ٩١٥ ميلادية الى فارس والهند والصين ثم عاد من طريق شرق افريقية ثم عمان . وقد اعتمد في رحلته هذه على سفن عمانية يقودها ربابنة عمانيون . ويحكي عن جزيرة « كابنالو » في بحر الزنج ان سكانها « كانوا خليطا من المسلمين والوثنيين والزنوج » . وبعده جاء الادريسي المتوفى عام ١١٦٦ ميلادية وذكر في كتابه العظيم « نزهة المشتاق في اختراق الآفاق » ملاحظاته عن هـذه البلاد فيقول : « ليس لدى زنج شرقي افريقية اي سـفن يسافرون بها ، ولكنهم يستخدمون سفنا من عمان ودول

اخرى ، تبحر الى بحر الزنج .. وتستغرق الرحلة على طول الساحل الى ممباسا يومين .. ويعمل سكانها فى مناجم الحديد وصيد النمور ، ولديهم كلاب حمراء اللون تقاتل كل نوع من الوحوش البرية حتى الاسود .. » .. ويجيء ذكر شرقى افريقيا فى كتابات أبى الفداء والمقريزى وابن بطوطة الذى زار ساحل شرق افريقية فى عام ١٣٣١ م وقال فى وصفه لها : « وصلنا ممباسا .. وهى جزيرة كبيرة على مسافة يومين من البلاد السواحلية ومساجدهم متينة جدا وهى مقامة بالاخشاب .. وكل من يرغب فى دخول المسجد يجب أولا أن يغسل قدميه ، والى جوار الباب قطعة من قماش ثقيل لتجفيفها .. وقد قضينا الليلة فى الجزيرة ، ثم أقلعنا الى كلوة المدينة الرئيسية على الساحل ، والجانب الاكبر من سكانها من الزنج ذوى البشرة الشديدة السواد .. » ويقول ويندل فيليبس « وحقبة الالف عام من السيطرة والسلطان والثراء العمانى فى شرق افريقية لم تقطعها غير فترة محدودة من الغزو البرتغالى » .. ومن هنا ندخل الى بداية الحقبة الدامية فى تاريخ المنطقة كلها .. فمنذ هزيمة الامبراطورية الرومانية وأوروبا تعيش عصور الظلام والجهل والفوضى وسفك الدماء . ومنذ القرن الخامس عشر وأوروبا تلملم أشلاءها وتحاول أن تحقق لنفسها ولادة جديدة ، وما كان يمكن أن تتحقق لها هذه الولادة الا بالسيف ، الا بنهب مافى أيدى الآخرين ، والا باراقة الدماء واستباحة الثروات والغزو المتوحش المجنون ، ثم بالصفقات والخداع والخسة ، وتستر هذا كله باسم الدين كغطاء يغطى الاطماع المكبوتة والوحشية التى تتوفز لاقتلاع كل شيء ، والخبث الكريه لا يرعى

حرمه ولا عهدا ولا شرفا .. وحين اندفع تتار أوروبا الى الشرق الثرى الذى تحمل سفنه البضائع من الهند والصين وافريقيا الى موانيهم ، تصدى لهم اهل الشرق المسلمون فى حروب مريرة ودامية .. ووجد الفرسان المدججون بالسلاح والمتوشحون بالحديد أن شوكة المسلمين مازالت قوية ، وان الطريق مسدود امام زحفهم الى البحار الدافئة .. كانت تجارة الشرق القديم تأتى عبر سواحل الجزيرة الجنوبية اما عن طريق الخليج فالبصرة وعبر العراق الى موانى سورية ، واما عبر البحر الاحمر او الطريق الساحلى الى ميناء السويس او شبه جزيرة سيناء الى موانى مصر .. وتعبر السفن المحملة بالخيرات حملها الثمين الى موانى جنوا والبندقية المزدهرتين ، ومنها الى الايادى النهمة فى اوروبا التى اصبحت تتطلع الى تملك الاوزة التى تبيض ذهبا بدلا من انتظار هذا البيض يأتى على أيدى الآخرين . واصبح واضحا أن معارك المواجهة مع الدول العربية القوية لن تؤتى ثمارها الا اذا امكن الالتفاف حولها واضعافها بنهب ثرواتها .. ومن هنا بدأت محاولات كسر احتكار العرب لطريق البحر . وفى وقت سيطرة الاوروبيين على القدس فيما سمى بمملكة القدس المسيحية بدأت أولى هذه المحاولات، حاول مغامر اسمه « رينو دى شاتيون » نقل السفن من البحر الابيض الى البحر الاحمر عبر البرزخ الى خليج العقبة ، حيث تم تجهيزها هناك ، وانزالها الى البحر لمهاجمة السفن فى البحر الاحمر ، كما انزل قوة فى شبه الجزيرة العربية للاغارة على مكة ، وانتهت الحملة بكارثة .. ويقول ويندل فيليبس « لم يكن هناك جديد فى ادراك المصريين لاخطار المنافسة . اذ كانت

يقول سيرجنت : قدم سلاطنة المماليك ، بتحريض من البندقية حليفتهم التجارية ، مطالب بالغة الشدة لكل من الفاتيكان وحكومة البرتغال بأن يأمرا كل المسيحيين بالامتناع عن الملاحة والتجارة في البحر الاحمر » . واذ لم تؤت هذه المحاولة ثمارها بدأت محاولة الالتفاف حول المنطقه التي تتحكم في منافذ تجارة الشرق ، وبدأت مغامرات البحارة للبحث عن طريق آخر . وتم في عام ١٤٨٨ اكتشاف طريق رأس الرجاء الصـالح على يد « بارتولوميودياز » ، ثم جاءت رحلة « فاسكو دي جاما » عام ١٤٩٩ ليصل برحلته الى الهند ، وبهذا يتم الاوروبيون هدفهم الاسمي والاصلي هو الوصول الى مصادر الثروة الشرقية نفسها ،وتحجيم دور العرب والالتفاف حولهم ثم سلبهم ثرواتهم ، واخيرا التمكن من هزيمتهم واستعمار بلادهم نفسها ..

ومع اسطول فاسكو دي جاما ارتحل الشـيطان ، ففي كل مكان رفرفت فيه أشرعته رفرف ملك الموت وحل بمنجله لا يقتل فحسب ، وانما يعذب ويمزق ويدمر ويحرق ، ويخرج الناس عن دينهم ويلقى عليهم الزيت المغلى ، ويقطع آذانهم ليعلقها في شفاههم ، ويشنق .. لم يكن الامر استكشافا وانما كان ممارسـة لكل انواع الوحشية والقسوة والدموية .. كما لم يكن الامـر استعمارا وانما كان تدميرا وحرقا للعهود،واطلاقا للأسرى من فوهات المدافع ، واحراقا للمراكب وبحارتها مقيدون وسطها تأكلهم النيران وهم احياء .. ولم تكن مسـيحية وان رفعوا شعارها وحملوا كبير الكهنة معهـم يتلقى اعترافاتهم الجماعية عن جرائمهم ، ثم يمنحهم غفـرانا تاما بمقتضى الامر البابوي الذي يمنح لمن يهلك في سبيل

العقيدة كما يذكر ويندل فيليبس ، ثم ينطلقـــون الى المجازر من جديد ، بنفوس راضية وقلوب خاليـــة من كل هم ، مادام الكاهن جاهزا لتلقى الاعتراف ومنـــح الغفران ، وتثبيت معنى الجهاد المسيحى فى نفوســـهم البربرية الفجة المتوحشة . انما كان الامر وثنية مقنعـة تحرق للرب المتعطش للدماء،وتسفك لتقدم الضحايا للوثن المعبود الذى لا يروى الا بدماء الافريقيين والعـــرب والهنود والفرس على السواء .. وبعد دى جاما امتلأت البحار بمزيد من الانفاس الدنسة والنفوس المريضة ، وحملت مياه المحيط أسماء السفاحين من امثـال دالميدا والبوكيرك الذين مدوا وحشيتهم من شرق افريقيـا الى عمان واستولوا على مسقط بعد تخريبها ، وعانت عمان مما عانت منه شرق افريقيا ، وعرفت وســـط الآلام والاجساد الممزقة والحرمات المنهوبة معنى حرية الغرب ومعنى تحضر الغرب المخيف .

ولكن هذا كله لم يكن المقصود به هو مجرد الاذلال او مجرد الاستجابة للنوازع الوحشية فى قلوب أبنـــاء اوروبا البرابرة القادمين من عهود الظلام والتخلف ، ولا مجرد السخرية من الشعار الدينى الذى رفعـــوه يخفون به أشر واحط مافى الوثنية من قسوة وســفك وعنف ، وانما كان المطلب الاساسى من كل هذا الدمار المخيف هو انهاء المقاومة تماما ، وخلق الرعب فى قلوب الرجال ، واحباط معنى الرجولة والعزة فيهم ، ليتحولوا الى سائمة تصطك اسنانهم عند رؤية الســـادة البيض أصحاب المدافع الاقوى ، والاسلحة الاحدث ، والنفوس الاكثر قسوة وشرا والضمائر الميتة .. فهـــدم المـدن وتدمير المزارع وتحطيم السفن وتحريم التجارة الى جوار

الوحشية والقسوة كلها أمور محسوبة،المفروض أن تؤكد الوجود الوافد وتنتهى المقاومة الى الابد .. ولكن ماحدث كان شيئا مغايرا تماما .. من دمار المدن المحطمة ودخان المزارع المحترقة تولدت شرارة لا تموت ، شرارة المقاومة الدائمة .. ومن الاشلاء الممزقة والاجساد المعذبة ، وأنات المحتضرين وبكاء الاطفال وعويل النساء ولعنات الشيوخ ، زرعت بذرة الصمود والمقاومة التى لا تتوقف .. وبدأت طبول أفريقيا الدامية تدق ، وبدأت المقاومة العنيفة للغزاة البرابرة تنتظم وتظهر ، وتقاوم « كلوا » و « زنجبار » و « ممباسا » .. وفى عمان كان عرب الداخل لا يهدءون فى مهاجمة قلاع البرتغاليين وحصونهم . وشكل القواد البحريون للدولة العثمانية قوة ضاغطة على البرتغاليين ، وان لم يكن هدفهم التحرير قدر ما كان هدفهم المشاركة فى الغنائم والاسلاب . ولم تبق الا قوة مصر البحرية تحاول الصمود فى معركة يائسة دفاعا عن معنى الوجود الاسلامى والكرامة العربية فى المنطقة . وشن أسطول قنصوه الغورى غاراته على البرتغاليين فى كل مكان ، ومن وقت مبكر جدا ، الا أن عام ١٥٠٤ ميلادية شهد نهاية هذا الاسطول الذى خاض معركة يائسة دمر فى نهايتها تماما ، ومع دماره تم التفاف البرتغاليين والاوروبيين حول الحاجز البشرى الذى أوقف تقدمهم فى الشمال .. ومع كل انتفاضة تحرير تزداد وحشية البرتغاليين فى توقيع العقاب الموجع والدامى على أهل البلاد . ولويندل فيليبس جملة كالقول المأثور يقول فيها « واذا كان داالميدا قد عاقب عرب شرقى افريقيا بالعصا فان افونسودا البوكيرك الذى كان اكثر دموية عاقب حاضرة عمان بالعقارب » ..

وقد صدق فيليبس فى جملته هذه فقد ضرب هـذا الهمجى البرتغالى البوكيرك مسقط بكل العنف والوحشية الممكنة . ولم يكتف البرتغاليون بغاراتهم الدائمة على مراكز الثورة الوطنية ، بل لقد سلطوا الزيميا وهى قبيلة من آكلة لحوم البشر تسكن قرب راس الرجاء الصالح ، بأن تجتاح المراكز الاسلامية فى شرق افريقيا .

وبينما كان البرتغاليون يحطمون الاسطول الاسلامى الذى يحاول أن يحمى الاهالى من غارات هـذا الجـراد الآدمى المتوحش ، كانوا يعطون الاذن للزيميا لاجتيـاح « كلوا » مرة و « ممباسا » مرة . . ويحكى ويندل فيليبس عن مجزرة ممباسا قائلا : « وراح الزيميا بعـد ذلك كالجراد البشرى يشقون طريقهم فى جراة ببطء نحـو الشمال ، تاركين فى أعقابهم الموت والدمار .. وظهروا بعد عامين امام جزيرة ممباسا التعسة ، حيث وجدوا العرب يتحصنون وراء أسوارها يعززهم وجود على ميريك والاتراك الذين معه .. وسرعان مارأى الزيميـا الذين لا يهدءون وهم عدة آلاف ، البرتغاليين يظهرون ويدمرون السفن التركية ويستولون على المدينة .. وبعـد فترة اسبوع سمح القائد البرتغالى « تومى راسوزى كوتنهو » لهؤلاء المتوحشين بتمشيط الجزيرة بحرابهم فى أبشـع حدث فى كل تاريخ ممباسا الكئيب » . وبعد ممباسـا شن آكلوا لحوم البشر حلفاء البرتغاليين هجومهم على ماليندى ، التى قاومت بالاستعانة بقبيلة « الواسيجى » زحفهم ، وهزمتهم وقضت عليهم الى الابد فى معـركة وصفها السيرجون جراى بأنها « من المعارك الحاسمة فى التاريخ الافريقى » . ثم بدأت انظار أوروبا كلها تتجـه الى نفس المصادر التى أثرت البرتغال ، تحركت هولندا

والمانيا وانجلترا وبلجيكا وفرنسا فى زحف نحو افريقيا، وبدأ الغزاة الجدد يقتطعون أجزاء من جسد الامبراطورية البرتغالية المتسعة .. وكما تدين تدان . وبدا البرتغاليون يعانون من اخوة الدين والدم والسلاح ، كل أنواع الاطماع والمؤامرات والغزوات . ويقول ويندل فيليبس أنه « وفى ختام القرن السادس عشر كانت البرتغال لا تزال أبرز دولة أوروبية ممثلة فى الخليج ، رغم أن سلطتها فى المحيطات سرعان ماواجهت تحمديات من هولندا وانجلترا ، وقد ازدادت ضعفا نتيجة التدهور والاضمحلال الداخلى الذى نجم عن ستين عاما من ضمها الى اسبانيا » .. آن اذن لمالىء الكأس أن يشرب من سمه النقيع .. فما ان وصل الامام ناصر بن مرشد فى عام ١٦٢٠ الى الحكم حتى استطاع أن يتعقب البرتغاليين بالطرد والتدمير فى كل عمان . ولم يعد لهم الا أبراج وتحصينات مسقط ومطرح وصحار . وفى خلال سنوات حوصرت هذه المواقع واستطاع سعيد بن خليفة الاستيلاء على قلعة الميرانى ، بينما سقطت حصون مسقط فى ايدى الامام سلطان بن سيف . وبذلك انتهت اكثر فصول الاستعمار البرتغالى وحشية وتعاسة ، وانتهى احتلالهم لعمان .. وبدأت فصول أخرى . ويقول الاستاذ احمد حمود المعمرى « عقب نجاحه ـ يعنى الامام سلطان بن سيف ـ فى طرد البرتغاليين عام ١٦٥٠ ، استقبل الكولونيل رينز فورد الذى أرسلته شركة الهند الشرقية للتفاوض على عقد معاهدة لاقامة وجود للشركة هناك ، لكن المعاهدة لم توقع بسبب وفاة رينز فورد .. » ولكن هذه بالنسبة للبريطانيين كانت مجرد البداية .. وان كانوا قد تراجعوا عند المواجهه الاولى فانهم كانوا

يعدون لشيء آخر .. اذ أن الخطوة الطبيعية للامام سلطان بعد طرد البرتغاليين من مسقط كانت طردهم من شرقي افريقيا . وقد بدأ الامام سلطان هذه الخطوة بعدة خطوات عسكرية استمرت طوال حياته ، ثم في عهد ابنه سيف بن سلطان الذي اعد اسطولا ضخما قويا مكنه من الاستيلاء على ممباسا عام ١٦٩٨ ، وبعد ممباسا طردهم من « بيمبا » و « كلوا » — ويقول الاستاذ احمد حمود المعمري « وفي عام ١٧٠٠ بالتحديد وبعد حملات عسكرية متكررة ، أصبح خط الساحل بأكمله من مقديشيو ثم جنوبا الى كيلوا تحت سيطرة عمان » . وهكذا تقاسمت الاسر العمانية القوية حكم مدن الساحل الشرقي لافريقية . وازدهرت عمان وكثرت فيها الاطماع والفتن . . وعاد البرتغاليون يبذلون المحاولات من جديد ، الى أن انتخب الامام أحمد بن سعيد بن محمد البوسعيد اماما لعمان وهو مؤسس اسرة آلبوسعيد التي ظلت تحكم عمان حتى اليوم . وظل الامام أحمد في معارك مستمرة في مواجهة التحديات الطامحة الى الحكم سواء في عمان او في شرقي افريقية — ولم تستقر الأمور بشكل محدد الا في حكم الامام السيد سعيد بن سلطان حفيد الامام احمد عام ١٨٠٦ — اذ سرعان ما اقر النظام في عمان ، ثم غادر مسقط على راس اسطول كبير الى ممباسا ليخضعها لحكمه من جديد — الا أن الاستقرار لم يتكامل الا عام ١٩٣٢ حيث قرر السيد سعد اتخاذ زنجبار عاصمة له قادي ذلك الى نقل مقر السلطة لها « وبدلا من أن يحكم شرقي أفريقيا من عمان ، فانه بدأ يحكم عمان من شرقي افريقية » .. واستمتعت شرق افريقية بفترة من الاستقرار توجها السيد سعيد بزراعة القرنفل الذي

غدت مزارعه مصدر دخل وفير له ولاصحاب المزارع من ابناء شعبه . واحدث اسطوله القوى اثره فى تثبيت مهابته واحترامه عند كل الطامعين ، فهدات الفتن الى حين ..

ان شجاعة الرجال تمسح صفحات الهزيمة والعار ، وهذه القلوب التى لم تخش الموت وارادت الحياة الحرة ، حققت برجولتها كرامة أمة ومجد شعب .. ليس من العار أن يكسر السلاح المتفوق قوة المقاومة ، وليس من العار أن يهزم الخبث والضعة ارادة الحرية . فكل هزيمة تمر ، وكل كسرة تنقضي ، حين تصبح عزائم الرجال وشجاعتهم هى سلاحهم فى مواجهة سنين الهزيمة والاحتلال .. فالثقة فى النفس تأكل الزمن ، والانسان الانسان يبقى عبر الزمن ، يواجه معنى الموت بارادة استمرار الحياة ، ويغرس فى قلوب ابناء الغد معنى ان يكون الغد اشراقا وسط سواد اليوم ويأسه ، فينزاح اليأس وتنزاح الهزيمة ، وتحقق عزائم الرجال ماحملته أمل الصمود والبقاء من معنى .. زاهية حقول القرنفل ، عطر أريجها ، مبتسمه وجوه النساء يحملن الحياة ويزرعن الحياة ، رقيقة ضحكات أطفال جدد يولدون فى يوم جديد لا يحمل الا الحرية والعطاء والامل .. زرعوها دماء وعذابا ، وجنيناها قرنفلا وغناء .. واليوم فى هذه الافلام التسجيلية التى اراها فى صلالة حكايات هذا التوحد ، هذا الصراع ، ثم هذا البقاء .. ألف حكاية وحكاية ، الف قصة بطولة وصمود ، وحكاية حب وفداء وأسطورة الاستمرار لمعنى الحياة ..

ومن معنى الامل فينا ، ومن معنى الحرية فينا نؤخذ من جديد ..

لم تكن بريطانيا بعيدة أبدا عن مسرح الاحداث ، وانما كانت تناور وتداور ، وتحاول .. وسلاحها هذه المرة المال والمؤامرات ، وشعارها الحب والانسانية .. فكما رفع البرتغاليون شعار الصليب اذ قالوا أنهم جاءوا لهداية الكفرة ، رفع الانجليز شعار تحرير العبيد ، اذ قالوا انهم جاءوا للقضاء على تجارة الرق .. ولم يكن الدين ماجاء به الاولون ، ولم يكن النبل ماجاء به التالون .. وانما هو الاستعمار والجشع والخبث الاكيد ... وتحت المعنى الذى آمنا به نحن ، واتخذوه هم شعارا ، وقع السيد سعيد بن سلطان اتفاقيه مع بريطانيا بتحريم بيع الرقيق الذين يملكهم الرعايا البريطانيون ، وتحت شعار تنفيذ المعاهدة تدخلت بريطانيا لتفرض اوامرها على رعاياها — وفى عهد السيد برغش أقام الانجليز مستعمرة باسم « فريرتاون » للعبيد المحررين ، وغدا ممثل فرير هذا سيرجودكيرك القنصل البريطانى فى زنجبار ويقول الاستاذ المصرى « وقد وصل الامر الى انه هدد السيد برغش باستخدام القوة اذا لم يوافق على توقيع معاهدة أشد صرامة ، ووقع عليها السيد برغش مرغما » وحرر الانجليز العبيد الافراد واستعبدوا الاوطان كلها ، والشعوب . وخطوة خطوة تم القضاء على ثروة البلاد بعد ان أقفرت مزارعها ، وتم فى نفس الوقت فرض الاستعمار الكامل لا على ساحل شرقى افريقيا وحدها وانما على كل المنطقة الممتدة حتى الخليج ثم حتى البحر الابيض شرقا ، وحتى النيل وحتى البحر الابيض شمالا ..وبدأت صفحة مرة جديدة من كفاح مهلك جديد .. انها سقطة الطلل التى أخذ منها ودمر .. فلا أحد يستطيع ان يدافع عن نظام الرق أو يبرره ، ولا أحد يستطيع ان يفهم كيف

ظل نظام الرق قائما طوال فترة الحضارة الاسلامية ، الا اذا كان الامر ان اصحاب المال كانوا دائمـــا مركـز القرار . وما كان هؤلاء يتخلون عن مصدر من مصـادر الثروة تحت أى شعار . لقد وضع الاسلام بذور التحرر الاولى للعبيد قبل أن يتحرك أى نظام عالمى آخر . واخذ المسلمون ينمون هذه البذور حتى غدت شجرة سامقة واضحة الثمار والفروع . وتحرر العبيد فى كل مناسبة وعند كل استغفار للذنب ، وعند كل اضافة الى بنيـة المجتمع ، وارتفع من كانوا عبيدا الى المرتبة العليـا فى العلم والقيادة والنسك . ومع هذا ظلت المسألة اجتهادات فردية لا يحسمها امر واضح من اصحاب الحل والعقد .. وتركنا لغيرنا قطف الثمرة ، فقد كنا اكسل او اغبى من أن نفهم اهمية أن نكون نحن قاطفيها ... وحين عاش الاثرياء فى دعة من عرق العبيد ، سقط الجميع ، وسقطت جميع الاوطان تحت سنابك شعار زائف مارفع الا ليبرر هذا السقوط ..

من لحظتها والقبضة منه تحكم سيطرتها ، والتخلف يفرض وجوده ، والاستعمار يحرس مصادر الثروة لتكون له ، ويلقى الينا بسقط المتاع من فضلة مالنا نحن .. وباسم الحضارة أكلنا ، ونحن من علم الكون كله معنى الاخوة والتحرر والحب ..

ولكن الصفحة الجديدة بدأت تشرق من بعد اظلام طويل ، والحياة دورات .. ومع صمود الرجال وشجاعتهم يعود البناء الشامخ من جديد .

مذكرات أميرة عربيّة

لم يحملني رخ السندباد عبر جبل الماس ، لا ولم تحملني الجنية المؤمنة التى طارت بحسن ابن الوزير الى قصر حبيبته فى مصر .. وانما حملتني الكلمات وحملني القلم عبر الزمان وعبر المكان ، وطافا بى كما طاف الريح والبحر العجاج بسندباد .. وعاد سندباد محملا بزاد الحب والمعرفة ، وعدت وكلى الشوق من جديد أن أرى مسقط التى شرقت حولها وغربت ولم ازورها بعد ...
ولهذا فما كاد صباح يوم عودتى الى الفندق فى مسقط يهل حتى كان حمود يحملني فى السيارة أنا والاخ نجيب الى قلب مسقط المدينة ..

وقال حمود :

ــ انتبهوا نحن نتحرك من مسقط الى مطرح عبر هذا الطريق الجديد .

انسابت السيارة مسرعة فوق طريق سلس والمنازل الحديثة التى تحتفظ بالطراز الموحد الذى يسود المدينة تتلاشى امامنا ، منازل وفنادق ومحلات عامة ومبانى وزارات ، ثم يطبق الجبل علينا ونشقه شقا ــ ومن على الجانبين يرتفع حائط جبلى فى كلّ ناحية ، حائط من الصخر الاصم تحاول اليد التى تبنى وتجمل أن تثبت فى صخرة خضرة متسلقة ، طامحة أن هذه الخضرة يوما ستغطى وجهه الكالح بابتسامة الحينة

الخضراء . وتغطي هذه المحاولات الوليدة شبكات فولاذية تحميها من صخور تقع فوقها أو عبث يمتد اليهـا حتي يشتد عودها وتفرض وجودها على الحياة ، وقال الأخ نجيب المرافق :

ـ هذا « المشوار » الذي تقطعه في دقـائق كـان يستغرق نصف يوم في الماضي ، وكان كله مشقة وعنـاء يتمثل في الصعود على التلال أو الالتفاف حولها لنصل من منطقة الى أخرى ، فقد كانت مناطق العاصمة تحوطها كلها مجموعة من هذه التلال التي تلتف حولها وتفصل بين أجزائها ، ثم جاءت « البولدزوات » والحفـارات والعربات العملاقة ، وتلتها الأوناش وحاملات الاسـفلت والمدكات الحديثة ، فاذا بالجبال تنشق عن هذا الطريق الذي ربط أجزاء العاصمة بعضها ببعض ، وجعل الانتقال بينها يتم في دقائق ، كما جعل مطرح في متناول العابر والمتنقل بين أجزاء العاصمة ..

سألته ، وبصري يتنقل بين جانبي الطريق تطل في أعلاه بعض التلال تتخللها مظاهر العمران المستمر :

ـ يخيل لي أن يد التعمير هذه قد أفقدت المدينـــة القديمة ملامحها .

ضحك وهو يقول :

ـ لم تكن مسقط قبل عصر السلطان قابوس أكثر من نصف جبل ساحلي يقع بين قلعتي الجلالي والميراني يحيط بها سور تغلق بوابته عند الغروب فتنقطع صلتها بالعالم حتى صباح اليوم التالي .

قلت :

ـ كانت مدينة من مدن القرون الوسطى والقـــلاع والبوابات والحراسة المشددة ، واحدة من مدن الشرق

القديم كله ، بل وتشابهها فى هذا المدن الاوروبية فى ذلك الحين »

عاد نجيب يقول :

ـ لقد تغير الامر تماما الآن ، فأصبحت العاصمة تمتد على الساحل ثلاثين ميلا ابتداءا من مسقط مرورا بمطرح وحتى السيب ، اى أنها تمتد من قصر العلم السلطانى شرقا الى قصر السيب السلطانى غربا . وعلى بعد اثنى عشر كيلو مترا من مسقط القديمة تقوم مدينة قابوس الجديدة ، وهى فى القرم بين مسقط القديمة والسيب، وقد أنشئت لتجنب زحف المبانى الجديدة على مسقط القديمة لتظل محتفظة بطابعها القديم الذى يعنيك ..

قلت :

ـ احب ان اشاهد بعض معالم مسقط القديمة .

ضحك مرافقى وهو يقول :

ـ مسقط القديمة ومطرح القديمة وكل ماتريد فنحن نعرف ان تطورنا المعاصر لا يجب ان يجور على عراقتنا الاصيلة أبدا .. وحتى فى الانشاءات الجديدة راعينا الابتعاد عن المناطق التى تمثل روح المدينة القديمة ، فمدينة الاعلام التى تضم الوزارة والمكاتب التى تتبعها ومبنى الاذاعة والتليفزيون ، أنشئت بعيدة حتى تمثل وحدها ضاحية مستقلة ، وكذلك الامر بالنسبة لمدينة الدبلوماسيين ، وانشأنا مدينة صناعية غرب السيب هى منطقة الرسيل ، وحتى المطار أنشىء فى منطقة السيب على بعد عشرين ميلا من مسقط القديمة . وربط طريق الاتوستراد بين روى ومسقط ، كما جعل الوطية وهى لا تبعد كثيرا عن روى فى قلب الحركة الدائمة .

وقف حمود بالسيارة وقال :

ـ ننزل هنا . لأن ما نريده يتحقق بالسير على الاقدام لا بالسيارة ..

كدت أقترح هذا بالفعل ، ولكن ذكاء حمود سبقنى . وقادنا نجيب فى رحلة طويلة استغرقت نصف اليوم بكامله ، تحركنا فيها بين المساكن القديمة والاسواق الشرقية بعطورها المحببة وازقتها المسقوفة ، وبين القصور والقلاع ، مرة نحن فى عمق التاريخ ، ومرة نحن فى ظل الحاضر ووسطه ..

ولم نستطع دخول حصن الجلالى او الميرانى فقد كان هذا يحتاج الى تصريح مسبق من ادارة القلاع والحصون بوزارة الثقافة . والقلعتان من مخلفات الغزو البرتغالى الذى جعل من مسقط بعد استيلاء البوكيرك عليها مركزا رئيسيا من مراكز حماية امبراطورية البرتغال فى المحيط الهندى . وفى كتاب « عمان فى صفحات التاريخ الذى جمع مادته « روبين بيدويل » تعليقات الفونسو البوكيرك عام ١٥٠٧ عن مسقط وفيها وصف للمدينة يقول : « استولى على المدينة ، ووجد أن كثيرا من المنازل تحتفظ بمخازن سرية وخزانات خشبية للماء وقد قام بتدمير أحد المساجد الخشبية الجميلة واحرق ٣٤ سفينة ، وكانت مدينة مسقط الميناء الرئيسى للبلاد ، وسوقا للجياد والبلح والقمح ، وكان عدد السكان كبيرا والى الخلف منها سهل واسع كميدان لشبونه مغطى بالملح ، كما كان هناك آبار للمياه العذبة لرى البساتين عن طريق الآلات الخشبية » .. وعن هذه الابار وعن تشييد المدينة وعمارتها الاولى يقول المؤرخ العمانى حميد بن محمد بن رزيق فى كتابه « الشعاع الشائع باللمعان فى ذكر أئمة عمان » : « عمرتها بعض عرب عمان ،

وهم يمن الانساب ، فغرسوا فيها نخيلا واشجارا تسقيها الآبار » .. وهناك من ابتعد بعمرانها فى التاريخ أكثر من هذا فيتساءل السير هربرت توماس عام ١١٦٧ فى كتابه « رحلات الى افريقية وآسيا » كما يقول روبين بيدويل: « يتساءل عما اذا كانت مسقط هى الرآما التى أشار اليها حزقيل اذ من المؤكد أنها كانت تضم عددا كبيرا من السكان فى الماضى » . ونعود الى المؤرخ العمانى ابن رزيق لنقرأ مافعله البرتغاليون فى المدينة اذ يقول : « سوروها من حد جبل الملكا الى جبل السعالي .واحدثوا فيها حصنين كبيرين : شرقيا وغربيا » . وهو يعنى هنا حصنى الجلالى والميرانى . ويحكي الاستاذ احمد حمود المعمرى فى كتابه « عمان وشرقى افريقية » عن الحصنين فيقول « وفى عام ١٥٢٧ بدأ البرتغاليون في بناء قلعتى الجلالى والميرانى . وقد تم تجديد قلعة الجلالى عام ١٥٨٧ والميرانى عام ١٥٨٨ حيث اتخذتا شكلهما الحـــالى . وقد بنى « مليشوار كالكا » قلعة الجلالى وكانت تسمي قلعة سان جوان ، وبنى « دون مانويل دى سوزا كوتينهو » قلعة الميراني التى كانت تسمى قلعة كابتن .. » .. ويقول ابن رزيق : « فلما اصطلمها العرب منهم ، سموا حصنها الشرقى الجلالى ، وسموا الحصن الغربى الميرانى » . . ونعود الى ابن رزيق لنجده يواصل رصـــد ما فعله البرتغاليون فى مسقط فيقول : « واحدثت النصارى فيها بروجا على السور ، وابنيه على رءوس جبالهـــا وخمس عقبات : الاولى من أول مطرح الى أول ريام ، والثانية من آخر ريام الى أول مسقط ، والثـالثة مـن آخر كليوة الى اول مسقط ، والرابعة من اخر سداب الى اول مسقط الى جانب سهيل ، والخامسة من آخر

جبال مسقط الى اول الوادي الذي يفضي الى دار سيت»
.. وهذا الاهتمام الكبير بتحصين مسقط يشير الى
اهميتها كمركز بحري رئيسي وكمدخل الى الداخل والى
الخليج ، فيقول عنها السنيور « بيترد يلافالى » عام
١٦٢٥ « انها بلدة مغلقه وتحيط بها سلاسل من الجبال »
ويقول ان البرتغاليين « بنوا سورا شرقيا واقاموا بعض
الحصون القريبة من بعضها البعض ، ويمتد السور من
الجبل الى الجبل ، وهو يحمي البيوت من تلك الجهة ،
لان البحر يقع على الجانب العكسى ، بينما سلسلة من
الجبال الصغيرة على الجانبين الآخرين ، ولا يمكن الوصول
اليها ، وعلى الجهة اليمنى عند المرفأ توجد القلعة » ..
والمسألة ليست مسألة حماية الموقع وحسب ، بل ان
الرحالة الغربيين وقباطنة السفن والجواسيس حملوا
عن مسقط اساطير يسيل لها لعاب المغامرين والمستعمرين
وأصحاب الجشع الدائم .. وروبين بيدويل يروى لنا
الكثير من هذه الاساطير والحكايات التي تسبب تناقلها
في أطماع البرتغاليين ثم الفرنسيين والهولنديين والالمان
واخيرا الانجليز ، ففي عام ١٦٩٦ يحكى الاب جي أونجتون
بعد زيارته لمسقط فيقول : « كانت هناك وفرة فى القمح
والنبيذ والمر والبخور والبلح والذهب واللؤلؤ » ويقول
جان باتيست عام ١٦٧٥ : « هي مدينة صغيرة الا أنها
تعد من أحسن مدن شبه الجزيرة العربية ، وتزخر بكافة
متطلبات الحياه ويحتفظ الامام بأجمل لؤلؤة شفافة » ..
ويذكر « كارستان نيبهور » عام ١٧٥٦ ان الدخل يصل
الى مائة الف روبية . بينما يقول أبراهام بارسونز عام
١٧٧٥ ان القوافل « تأتى من داخلية عمان محملة بريش
النعام والجلود المدبوغة والعسل والشمع ، وعند عودتها

تأخذ السلع الهندية والبريطانية كاللعب وأدوات المائدة والزنجبيل والفلفل والارز والطباق والبن والسكر ، وكانت لمسقط علاقة تجارية هامة مع مخا ، وكان ملاحو مسقط ينقلون معهم ٢٠,٠٠٠ بالة من البن من مخا للبصرة ، حيث يعاد نقله الى القسطنطينية ، وفى رحلة العودة كانوا يجلبون المنسوجات الحريرية الفارسية والسجاد واللآلىء ، وكمية كبيرة من الريالات والعملات الايطالية ، وكانوا يزرعون المانجو الذى يفوق المانجو الهندية ، وتتكلف ٢٠٠٠ حبة نحو روبيتين هنديتين ، ويتم نقل الماء الى السفوح بالقوارب في قرب من الجلد . كما كان يتم صيد السمك بطرق سهلة جدا ، وتملأ بها السلال » .. فليس الموقع وحده اذن هو مصدر الاطماع ، وانما ما يحدثه الموقع من حركة تجارية دائمة اذ هو مركز لكل هذه الثروات المتدفقة من كل مكان فى العالم – وأذ هو بحكم انتاج البلاد الوافر صاحب ثروة ذاتية ضخمة ومغرية لكل الطامعين ، وقد انعكست هذه الثروة على كل شيء في مسقط القديمة ، فأنت تحس انك تسير فوق ارض عرفت الازدهار والثراء . الشوارع نظيفة ، والمنازل القديمة الباقية يبدو عليها الترف والفخامة وان كانت كلها تشبه القلاع . وقادنا الاخ نجيب عبر المدخل فى أحد هذه البيوت ذات المظهر الخارجى المتناسق الى فناء واسع تحيط به الابنية من جهاته الاربع ، وتطل هذه الابنية فى دورها العلوي على الفناء بواسطة شرفات خشبية الاعمدة جميلة التناسق ، وتتخللها نوافذ تغطيها مشغولات خشبية ذات تناسق بديع ، اما الابواب فقد غطتها النقوش الرائعة . وفكرة الفناء الداخلى تتيح الهواء المتجدد ، كما تتيح أيضا الاضاءة المبهرة التى

تعجب لوجودها فى داخل الحجرات نفسها ، وهو امر لايوحى به مظهر البيت من الخارج..وفى دراسة للدكتورة سعاد ماهر اوردها الاستاذ يوسف الشارونى فى مقال عن « مسقط مدينة القلاع والحصون التى تطل على دنيا القرن العشرين » ونشرها فى مجلة الدوحة ، تقول الدكتورة سعاد ماهر : « ان بيوت مسقط الاثرية تعتبر ضمن العمارة الحربية باعتبار أن تصميمها المعمارى يراعى أن يكون القصر أو الدار قلعة حربية يمكن أن تحمى نفسها وقت الحاجة » . وحددت الدكتورة سعاد ماهر هذه البيوت التى بنيت مابين أوائل واواخر القرن الثامن عشر فاذا هى اثنا عشر دارا ..

وما أن ابتعدنا عن الدار قليلا ، ودار بنا الشارع دورات حتى غدونا فى وسط حي يضارع أحدث احياء العواصم فى المنطقة كلها ، فالمعمار الحديث يراعى الطراز القديم من ناحية المبدأ ولكنه يأخذ فى اعتباره كل الخطوط التى تمثل آخر صيحات الحداثة فى ميدان المعمار ؛ وهكذا يتجاور الامس واليوم جنبا الى جنب فى مزيج لا يحدث التنافر ولا يثير الغربة بحيث تحس أن الزمن فى تطوره لم يفقد المكان أصالته ، كما أن التمسك بالقديم والموروث لم يفقد العطاء المعمارى روح العصر ..والطريق يزخر بالشيوخ والشباب معا ، وهم يلتزمون جميعا بالزى الموحد ؛ الجلباب العمانى والعمامة او الطاقية والعصا الخيرزانة فى اليد ، وبين حين وآخر تصادف احدهم يرتدى خنجره المميز .. وفى كل مكان تعترضنا عمليات رصف جديدة أو عمليات بناء لمبنى جديد ، والعمل يتم فى همة وسرعة ولكنك تحس أن العمال فى معظمهم وافدون من كل مكان وان كانت الغالبية الهندية واضحة وجلية . وتسمع فى كل مكان الاوردية الى جوار

الإنجليزية الى جوار العربية ، وكأنها لغات تشكل وحدة تعبيرية واحدة .. وقادتنا اقدامنا الى سوق مطرح ، قال مرافقي :

ـ هذا السوق هو أول سوق بني في عمان وهو قريب من الميناء وحتى عام ١٩٧٠ كانت بواباته تغلق عند غروب الشمس ، أما الآن فهو كما ترى يشغل معظم مساحة مطرح ويضج بالحياة .

وكأنني في سوق الحميدية في دمشق أو في خان الخليلي في القاهرة ، أو في سوق الملح في عمان . وكأنني عدت من جديد الى أيام تقاليد التجار وأزقتهم ومراسم حياتهم وخلقهم السمح وشهبندر التجار ، وقوافل السندباد تأتي محملة من الساحل لتصب عطاء رحلاته في دكاكين السوق . والحياة تصخب في أسواق ألف ليلة وليلة في كل عواصم عالمنا العريق ، والضحكات والمغامرات والمساومات ، والربح والخسارة ، وحيل الشطار والعيارين ، وقصص الحب وحيل العجائز .. الطرقات مسقوفة وهي على ضيقها رحبة بعض الشيء عن مثيلاتها في أسواق المدن القديمة الاخرى ، وهي تسير في تعرجات دائمة ، تدور بك لتعود الى حيث بدأت ، أو ليتقاطع طريقك مع طريق سبق أن مررت به من قبل والدكاكين مرتفعة عن الارض تصل الى أبوابها بصعود درجات قليلة ، بعضها له واجهة زجاجية تخفي ما في داخله وتعرض فقط مايريد اصحابها ان يعلنوا عن وجوده ، وبعضها مازال يحتفظ بطابعه القديم ، كل شيء معروض الى جانب كل شيء فوق المصاطب التي تلتصق بالجدران أو المناضد الواطئة التي تحتل في نظام هندسي فراغات الدكاكين .. والابتسامة الحلوة تعلو الوجوه ، وكان

معظم السوق يشغله الهنود كباعة وان كانت الصناعات العمانية مازالت فى أيدى العمانين . وضحك نجيب ونحن نغادر موقعنا امام محل ملابس لننتقل منه الى محل للعطور وادوات الزينة . وقال :

ـ مطرح تعنى محط الرحال أو مكان الرسو .. سواء من القوافل القادمة من الداخل ، أم للسفن الآتية عبر البحار الى الميناء القريب . انظر هذه هى الكمة .

وحيث أشار رأيت غطاء الراس المطرز الذى رأيته على رءوس الكثير من الشباب الذين يأتون الى صالة الفندق فى المساء . واستأنف نجيب حديثه قائلا :

ـ جمعها كميم وبدونها لا يكتمل زى الرجال فهى البديلة للعمامة الرسمية فى الصباح . والبائع يسلم القرويات قطعا من القماش مرسومة ، وتقوم النساء بتطريزها فى منازلهن ، وكلما تعقد التطريز كلما ارتفع سعر الكمة . اما العمة فهى الزى الرسمى فى الصباح ، وقد اتخذ قرار يحظر على الموظفين خلعها فى ساعات العمل ، وقد أنعش هذا القرار تجارتها ، ويصنع بعضها من الاقطان الرخيصة وبعضها من الاصواف الغالية أو الحرير الثمين .

ومضينا نتجول فى السوق وروائح العطور والعطارة الشرقية تعبق المكان ، والمحلات مليئة بالعصى الخيزان والمشغولات الشعبية كالخناجر والدلات وهى اناء القهوة العربية ، ومشغولات الذهب والفضة من الحلى التى تستهوى النســـاء ومجامر البخور والانية الخزفية والنحاسية والملابس المستوردة والعاب الاطفال والاجهزة الكهربائية والحلوى العمانية .. وتتخلل السوق محلات

كثيرة للخياطين ، وقد فهمت أنهم جميعا من الهنود الذين مهروا في هذه الصناعة ، وهذه المحلات تعرض بعض النماذج في الواجهات الزجاجية ولكنها ليست للبيع ، النموذج الذى يعجب المشاهد يشترى له القماش ثم تفصل في خلال أيام قليلة وبمهارة فائقة ، وتذكرت حديثا دار بيني وبين الصديق مرعى عن البدلة التي يرتديها ومن أين جاء بها ، ضحك يومها الصديق واخبرني انه رآها على ضيف انجليزى يزور عمان وصحبه الى « ترزى » هندى الذى تفحصها بعناية ، ولم يمر يومان الا وكان قد صنع مثيلتها تماما وهى تلك التى أثارت انتباهى . وعند كل ناحية من السوق يجلس صراف أمام مائدة صغيرة تحوى أدراجها كميات ضخمة من مختلف العملات ، فعمله تحويل كل العملات الى الريالات العمانية أو العكس ، وبنفس أسعار البنك ، والخدمة التي يقدمها أنه حاضر في السوق الى جوار من يشترى ومن يبيع . وحين خرجنا من منطقة السوق ، قال الاخ نجيب :

ـ اذا لم تكن متعبا قمنا بزيارة لبيت السيد نادر ، وهو متحف هام وقريب منا .

كنت متعبا ، ولكن كلمة متحف أطارت كل التعب وحل محله الفضول ، فقلت :

ـ وماذا ننتظر .. هيا بنا

وركبنا السيارة هذه المرة ، ولكن الرحلة لم تطل كما وعد مرافقى ، فما هى الا دورات وكانت السيارة تقف بنا امام منزل قديم يماثل تلك المنازل التى زرناها فى أول نهارنا .. وقال نجيب ونحن نصعد الدرجات الحجرية التى قادتنا الى مدخل الدار :

ـ أنه بيت قديم ، أهداه صاحبه للدولة لكي تقيم فيه هذا المتحف وسط المدينة .

طالعتنا نماذج السفن القديمة في كل مكان ونماذج الآنية الفخارية الضخمة ، ثم السيوف والخناجر والبنادق الاثرية ، ومجموعات من المشغولات والمصوغات النحاسية والفضية والذهبية .. واخذنا نتنقل من طابق الى طابق ، ومن حجرة الى حجرة ، وصفحات التاريخ يعاد نشرها امامنا بهذه المجموعة من المقتنيات الاثرية ذات القيمة الحضارية البالغة الاهمية ، وفي صدر احدى القاعات خصصت مساحة ضخمة لمخلفات اقتنيت من أملاك سيدة واحدة . ملابس وصديريات وحلى ومجوهرات وادوات زينة وصورة للسيدة التي تصدرت هذا المتحف ، وتقول اللوحة المكتوبة : السيدة سالمة بنت السيد سعيد بن سلطان ، سلطان مسقط وزنجبار .

واسرع مرافقي يقول في توقير واضح :

ـ هذه من حاجيات الاميرة سالمة بنت السيد سعيد، أو الاميرة اميلي روث بنت حفيد الامام أحمد بن سعيد مؤسس أسرة البوسعيد .

وقفت أتأمل المعروضات التي تدل على النعمة وعلى الذوق المرهف ، وسألت مرافقي :

ـ ولم هذه الاهمية الخاصة لهذه الاميرة بالذات .

ضحك نجيب في دهشة وهو يقول :

ـ لهذه الاميرة قصة عجيبة تبدو كالاساطير القديمة، فقد خرجت على كل الاعراف والتقاليد واحبت رجلا المانيا وهجرت البلاد من أجله وتزوجته . وتركت حياة القصور والثراء كابنة لاغنى سلطان عرفته البلاد ،

تعيش حياة الفقر فى برلين ولندن . وتترك دينها واسمها وكل شيء .. وبعد عشرين عاما تضيق بحياتها فى الغربة وتحاول العودة الى الوطن ، ولكن أبواب العودة كـانت مغلقة ، فتدون كل هذا فى كتاب باللغة الالمانية ، لعله الكتاب الوحيد الذى يكشف حياة المرأة الشرقية منـذ اكثر من مائة عام .

قلت بسرعة :

ــ واين هذا الكتاب ؟

قال :

ــ كنت اعرف انك ستسأل هذا السؤال ؟. سأحضر لك نسخة مترجمة الى العربية منه أثناء عودتنا ، والآن اذا كنت قد فرغت من المتحف هيا بنا فقد فاتنا موعد الغداء من زمن .

وفى عودتى الى الفندق حصلت على الكتاب . ومنذ دخلت الغرفة لم اتركه حتى انتهيت من قراءته ..

لسنا نعرف العنوان الاصلى لهذا الكتاب ، فالمترجم اسماه مذكرات أميرة عربية ، بينما تقول المؤلفة فى مقدمتها انه « قصة حياتى » .. وأيا كان الامر فالعنوان الذى ذكرته الترجمة العربية اكثر لفتا وخاصة لقراء الغـرب الذين عرفوا هذا الكتاب قبلنا بكثير . فقد ظهر الكتاب منذ مائة عام كاملة اذ أن طبعته الالمانية ظهرت فى برلين عام ١٨٨٦ . وقد كتبته البرنسيس أميلى روث بالالمانية بالفعل ، بينما لم تظهر الطبعة العربية الا عام ١٩٨٣ حيث ترجمها الاستاذ عبد المجيد حسيب القيسى قبل ذلك سنوات . عن ترجمتين انجليزيتين للكتاب،واحدة ظهرت عام ١٨٨٨ ، والثانية ظهرت فىنيويورك عام١٩٠٥ ، كما أن الكتاب ترجم الى الفرنسية عام ١٨٨٩ . وتكاد مقدمة

المترجم تكون هى الوثيقة الوحيدة المتاحة حول الكتاب ، فنحن نعرف منه هذه المعلومات ، ونعرف أيضـــا أن الترجمتين الانجليزيتين قد اختلفتا اختلافا محيرا وكذلك الامر بالنسبة للنسخة العربية التى بين أيدينا فتقــول المقدمة : « والترجمة الانجليزية الاولى أكمل فقـــد وجدناها تسـهب فى الكلام عن بعض المواضيع التى تتجنب الترجمة الثانية الكلام عنها ، أو تختصره اختصارا . وقد جاءت الترجمة الاولى بـ ٣١ فصلا فى حين جاءت الثانية بـ ١٦ فصلا ، نتيجة ضم بعض الفصول الى بعضها أو تفريقها عن بعضها ، وقد أبحنا لانفسنا حدا وسطا فجعلنا ترجمتنا ٢٦ فصلا . وعدا عن هذا الفروق الشـــكلية وفروق طفيفة غيرها فان هناك فرقا أساسيا بين الترجمتين هو ان الترجمة الثانية قد اغفلت تماما ذكــر الفصلين العاشر والرابع عشر ، على ما للفصل الاخير من اهميـــة بالغة فى رسم ملامح جانبية لبعض ابناء السلطان وبناته» ولسنا مع المترجم فى ان هذه الفروق التى يذكـرها شكلية طفيفة ، كما أنا أيضا لسنا معه فى ان يبيـــح لنفسه أن يعدل من فصول الكتاب ليقيم حدا وسطا بين الطبعتين التى لم تلتزم واحدة منهما ـ بالقطع ـ معنى الامانة فى الترجمة . كما انا أيضا لسنا معه فى التعلل بأن المترجمين « لم يتعرفا على الحياة العربية والاسلامية» ليغير من بعض الكلمات والتعبيرات ، وليدخل « بعض الامثال والحكم العربية التى يكثر الاستشهاد بهـا فى لغتنا العربية » فان هذه الحرية التى خولها لنفسه لاتقل عن الحرية التى اباحها المترجمان الانجليزيان نفساهما ، أو احدهما على الاقل ـ لنصل الى نسخة تكاد تـكون نصف النسخة الاخرى من نفس الكتاب .. ولنجـــد

النسخة العربية « حدا وسطا » بين النسختين . فالذى بين ايدينا هو تحرير للكتاب لا ترجمة امينة له . ويبقى لنا ان نسأل من هما المترجمان الانجليزيان ؟ ومن المترجم الفرنسى ؟ واين النسخة الاصلية المكتوبة بالالمانية ، وكيف لم يتم البحث عن كل هذه النسخ وعرضها مصورة فى المعرض الخاص الذى اقيم لمخلفات البرنسيسة اميلى روث أو السيدة سالمة بنت سعيد بن سلطان فى متحف بيت السيد نادر فى مسقط ..؟.. ويبرز المترجم ضياع نسخ الكتاب واهمال امره عبر المائة عام التى مرت على صدوره بقوله : « .. فالكتاب بحد ذاته وبجميع طبعاته فى اللغات الثلاثة التى صدر بها نادر الوجود مفقود الاثر ، بعد أن مضى على نشره أول مرة زهاء قرن من الزمان . وقد كنا نقع على مقتطفات منه واستشهادات واشارات اليه والى مؤلفته فى كثير مما يقع تحت يدينا من الكتب الغربية الباحثة فى تاريخ عمان وزنجبار عامة ، وعن تاريخ عائلة البوسعيد حكام تلك البلاد منذ نيف ومائتين عام خاصة ، ولكننا لم نستطع العثور له على اثر فى غير دور الكتب الكبرى ، وعبثا ذهبت جهودنا فى التفتيش عنه فى اسواق الشرق والغرب ، حتى اذا مافقدنا أمل الحصول عليه ، عثرنا فى صدفة طيبة على نسخة منه عند احد باعة الكتب المتجولين فى شوارع بيروت ممن لايدركون قيمته وندرته فابتعناه منه بثمن بخس دراهم معدودات » .. ولسنا ندرى هل وجد المترجم نسخا للكتاب فى المكتبات العامة حقا ، واى المكتبات هى ؟ ولماذا لم يطلب تصوير هذه النسخ ؟ ان تتبع نسخ الكتاب فى المكتبات العامة ليس امرا عسيرا ، واعتقد ان الواجب يقتضى البحث عن النسخة

الالمانية الاصلية وترجمتها كأصل حقيقي للـكتاب .. فكتاب هذه السيدة الاميرة قد عبثت بها أيد المانيـة وانجليزية وفرنسية وعربية ، كعبث هذه الايدي بحياتها نفسها ، حتى تمزقت وجلست في مرحلة متأخرة في العمر تلم شتاتها في هذا الكتاب الذي ارادت ان تعيد به لحياتها اصالتها وحقيقتها ونغمها الصحيح ، ليتضح لاولادها ماغمض من وجودها وحياتها . وتقول عن قصة حياتها هذه : « .. كنت قد قررت كتابتها ليقرأها من بعدي أولادي حين يكبرون ، فلم يكونوا في ذلك الوقت في سن تسمح لهم أن يعرفوا شيئا عن ماضي حياتي وأصل منبتي ، وعن وطني زنجبار وقومي العرب ،وكنت في حال من الوهن والسقم والارهاق لم أكن أتصـور معها بقائي على قيد الحياة امرا يكفي لان اروي لهم بنفسي سيرة حياتي » .. انه ذلك التشبث الكامل بالاصـــل والعراقة ، وبضرورة أن يستمر النهر في مجراه ، فـلا يخرج الابناء الذين فرضت الحياه بعدهم عن منبتهم ، وهم لا يعرفون حقيقة منبتهم وأصلهم .. وهو في نفس الوقت دفاع حار من امراة تحس انها اساءت الى أولادها والى نفسها ، يريد أن يجلو الحقيقة من منظورها هي ، وان يجمل لكل فعل مايبرره ، عسى ان تفهم بعض العقول وعسى أن تحس بعض القلوب فتغفر وتنسى .. وتعرف ان الرياح التي تقاذفت السفين كانت موجا عاتية قذفت بها الى عالم آخر غريب ، وحين حاول النازح ان يعود عادت فقذفت به من جديد الى التيه ، وخروجا من التيه كانت كلمات هذا الكتاب .. نحن اذن امام سيرة ذاتية لها موقف مسبق واضح . فالسيرة هنا لاتروي لمجرد الرصد التاريخي ، وانما هي سيرة كتبت للدفاع عن

صاحبتها ولجلاء أمور فى حياتها تريد الكاتبة ان يبرزها فى وضوح وجلاء .. ومع هذا الموقف المسبق من الاحداث حس امرأة مرهفة المشاعر تحب فتضحى بلقبها وارضها ودينها وناسها من اجل من تحب ، وتكره فتشترك فى مؤامرة لتغيير الحاكم ، وتدس أنفها فى أمور الحكم ، وتنحاز الى جانب دون جانب فى صراع أخويها من اجل الوصول الى كرسى الحكم ، ثم تندفع محاولة العودة رغم معرفتها المسبقة بعدم جدوى هذه العودة ، ثم تعود لتعيش صراعا عنيفا فى المطالبة بميراثها من السلطان مرة ومن الالمان مرة ومن الانجليز مرة ، لا تهدأ ولا تستقر ..

هذه السيدة اذن ليست مجرد امرأة عادية ، وانما هى صنف مميز من النساء يلقى نفسه فى الدوامة ثم يستعذب الكفاح اليائس الذى لا أمل له ولا جدوى منه منذ البداية .. هى نموذج واضح للمرأة الشرقية التى تتمرد على دورها المحدود فى الحياة فتلعب بكل مالديها من ذكاء وحيلة وقوة لتؤكد أنها صاحبة مكان وصاحبة دور فعال، وان مسألة عزلها عن المشاركة فى الحياة العامة مسألة هزلية مغلوطة لا قيمة لها فى الممارسة الحقيقية للحياة..

ومن قبل لعبت جدة لها هى السيدة موزه بنت الامام احمد دورا بارزا فى صيانة وحدة الاسرة ، فعندما توفى السيد سلطان تولت الوصاية على ابنى أخيها الصغيرين سالم وسعيد ، وتغلبت على اطماع أخوتها فى الحكم فهزمت جيوش قيس الزاحف على مسقط ، ثم ازاحت بدرا الذى استعان بالوهابيين على حكم البلاد واخذ يستعد للاطاحة بحق ابن أخيه سعيد فى الحكم . وبذلك ضمنت لعمان هذا « الربان الماهر والقائدالناجح والسياسى المحنك » الذى ظل يحكم البلاد خمسين عاما بسط فيها

سلطانه على عمان وشرقى افريقية التى وطد نفوذه فيها ونقل اليها مقر حكمه .. وفى نفس المرحلة التاريخية ظهرت سيدة اخري لعبت دورا خطيرا في حياة عمان هي السيدة جوخة بنت محمد بن الامام أحمد التي قادت ثورة ضد السيد سعيد انتصارا لاخيها هلال الذى القى به السلطان فى الحبس ، واحتلت السيدة جوخة السويق واعلنت التمرد فى الباطنة وانضمت اليها قوات أخرى .. ولكن السيدة موزه تتصدى فى غياب أخيها السلطان حيث كان فى زنجبار ، للثورة والثوار ، وتستطيع أن تحفظ لابن أخيها بلاده حتى يصل السلطان فيطلق سراح أخيه ويسترضى أخته جوخه . والسيدة موزه تظهر على سطح الاحداث مرة ثالثة عام ١٨٣٢ حين تواجه بجيشها البالغ الف وخمسمائة جندى تمردا آخر أشترك فيه شيخ القواسم فردت به الهجمات على مسقط وسايست الامور حتى عاد السيد سعيد الى العاصمة مرة أخرى ليتولى الامور بنفسه .. عمة ابيها وعمتها هما امرأتان تركتا بصمات واضحة على حياة الرجال فى تاريخ عمان، فليس غريباًاذن أن تشترك السيدة سالمة هى الاخرى فى مجريات الاحداث ، وفى دوامات الصراع الدائر فى الاسرة حول السلطة ، خاصة وقد عاشت فى بيت أبيها السيد سعيد تحت حكم امراة اخرى قوية الشخصية بالغة النفوذ هى السيدة عزة بنت سيف الزوجة الشرعية الوحيدة للسلطان تقول : « وعلى قدر ما اتذكر فلم يكن لابى السلطان طيلة حياته أو منذ مولدى على الاقل الا زوجة شرعية واحدة . أما الاخريات وقد ترك منهن عند وفاته خمسا وسبعين ، فقد كن من الجوارى والاماء كان يشتريهن أو يتملكهن بين الحين والآخر ، وكان لفظ

الزوجات يطلق عليهن تجاوزاً من باب التعميم ولا يقصد به على كل حال معناه الشرعي الدقيق .. وكانت زوجته الوحيدة هذه ، هى عزة بنت سيف من فرع بيتنا المالك فى عمان ، وكان لها الحكم المطلق والكلمة العليا فى بيته . ورغم ضآلة حجمها وقلة حظها من الجمال فقد كانت لها السيطرة المطلقة على زوجها بحيث أنه يتبنى عن طيب خاطر آرائها وطلباتها . وكانت معاملتها لزوجاته الاخريات ولاولاده جميعا تتسم بالعجرفة والتشامخ وتسقط الاخطاء وقد كنا نحمد الله على أنها كانت عقيماً ، فلو أنها رزقت بطفل لزاد علينا ولأشك عتوهها وجبروتهـــا . ولقد كنا ، نحن ابناء السلطان ،وكان عددنا عند وفاته خمسا وثلاثين ـ جميعا من ابناء الجوارى . وعلى هذا فقد كنا متساوين فى كل الحقوق ، لا تمييز بيننا البتة بسبب الدم أو اللون » .. هذه الصورة ترسم مكانة للمرأة فى حياة السلطان تفوق كل مايمكن أن يرسمه الخيال للمرأة المستقلة صاحبة الحقوق فى المجتمعات الغربية ، وهذه الصورة تكشف ايضا السر فى كل ما اصاب القصر فى زنجبار من تفكك ومعارك اثر موت صاحب السـطوة واليد الحديدية ، فالاخوة جميعا لايربط بينهم الا الاب الواحد ، أما الامهات فهن خليط من أجناس متعددة : تدفع كل واحدة ابنها ليكون صاحب الحق فى ميراث السلطان . وتحكى المؤلفة عن أخيها خالد وأمهالشركسية خورشيد التى « كانت شخصية فذة خارقة لم أر فى حياتى كلها ندا لها بين أفراد جنسنا » ، ثم تقول : « وقد حدث أن تولى خالد مرة أمور السلطنة فى الجزيرة نيابة عن السلطان عند ذهابه الى مسقط فكانت أمه باعتراف الجميع هى الحاكم الفعلي وكان خالد مجرد دمية بين

يديها . ولهذه الخصال الفريدة فقد تمتعت خورشيد بمقام ممتاز بين أفراد العائلة ، وكانت مرجع الشورى لهم جميعا ، وكانت مع صواب الرأى وسرعة الحسم تتمتع بالملمات بحكمة سليمان وصبر أيوب » . لم تكن المرأة اذن بعيدة عن السلطة بشكل أو بآخر سواء فى أمور السلطنة نفسها أم فى بيت السلطان . وقد حكت المؤلفة عن السيدة عزة وسطوتها ، وتحكى أيضا عن واحدة اخرى كان لها سطوة كبيرة وحظوة بالغة عند السلطان تلك هى ابنته خولة التى تقول عنها «كانت خولة دون منازع فريدة عائلتنا الكبيرة بالحسن والجمال وكانت الابنة المفضلة عند أبى السلطان سعيد » .. وفى موضع آخر تحكى عن نفوذها فتقول « وقد عين السلطان قبل رحيله أختى خولة كبيرة للأمينات — ان صح هذا التعبير — وجعلها مسئولة عن بيتى الساحل والموتنى ومن فيهما من النساء ، وقد أثار تعيين هذه النجمة الساطعة فى سماء عائلتنا ، الكثير من الامتعاض والحسد والغيرة فى قلوب بعض نسائنا برغم أنها لم تكسب من هذا التعيين شيئا غير المشقة والأذى ونقمة الناس » .. وخولة هذه — وهى عراقية الام — كانت وراء دخول الكاتبة فى مغامراتها السياسية التعسة التى أودت بها ودمرت كل أمن واستقرار فى حياتها .. فقد كان افتتان الكاتبة بهـا وطاعتها المطلقة لها سببا فى انضمامها لها ولاخيها برغش فى تمردهم ضد أخيهم السلطان الجديد ماجد رغم تلك العلاقة الوطيدة التى كانت تربطها بماجد منذ الصغر ، فأم ماجد كانت الصديقة الوفية لامها ، وحين رحلت سارة أم ماجد عن هذه الدنيا ، تولت أم سالمة تربية ماجد وأخته خديجة . وحين بلغ ماجد سن الرشد ووهبه

ابوه دارا خاصة به فقد توسل الى صديقة أمه المخلصة ومن قامت بتربيته بعدها ، أن تنتقل مع ابنتها لتسكن معه واخته فى داره الجديدة ، وكان ان انتقلتا بالفعل الى الحياة معه فى بيت « الداتور » .. ولكن هذا كله لم يمنع سالمة من أن تنساق لتحريض خولة لها فانضمت بمالها وجهدها الى برغش ومؤامراته ضد أخيه ماجد .. واستمال برغش الطامعين من رؤساء القبائل اما بالمال واما بالوعد او الوعيد . وكانت الثغرة التى دخل منها برغش وكان ولياللعهد ، هو طيبة ماجد ودماثته التى مكنت لوزرائه ولواحد منهم بالذات هو سليمان بن على ان يستحوذ على السلطة والنفوذ ، فاشتعلت الفتن التى زاد مكر سليمان هذا من بثها بين الاخوة . ومن هذه الثغرة نفذ برغش الى قلوب المتمردين واستعد ليقفز الى مقعد الحكم مستعجلا أيام أخيه فى السلطة اذ هو ولى العهد الطبيعى الذى يرث الملك بعده . ولم تكن الكاتبة ولا خولة هما المرأتان الوحيدتان فى المؤامرة ، فالكاتبة تذكر « شيمو » و « فارشو » ابنتى أخيها خالد ، كما ان امراة اخرى رفضت الانضمام الى المتآمرين هى موجة أخت برغش نفسه .. وتكشف الكاتبة عن دورها فى هذه المؤامرة فتقول : « ومع انني كنت أصغر النسوة المتآمرات سنا الا أن معرفتى للكتابة أهلنى لمنصب ــ السكرتيرة العامة للثورة ــ ان صح هذا التعبير ، وكنت بهذه الصفة اقوم بكافة المراسلات مع رؤساء القبائل ، واطلع على أسرار الاستعدادات والخطط . وكنت فى سن يسمح لى بأن احس بوخز الضمير وقلق الوجدان وانا أصدر الاوامر لاعداد البنادق والبارود والرصاص لقتل الابرياء من اقرب الناس الى واحبهم الى قلبى .. ولكن ماالعمل

الآن ؟ هل يمكن التراجع الان وهل يمكن أن انكص عن وعدى لاختى خوله وأتركها وحيدة فى ساعة الخطر » ..
كان الاوان قد فات بالفعل ، فماجد قد عرف بالمؤامرة وحوصر البيت ، وتم اخمادالثورة فى حكاية طويلة ومثيرة وانتهت المغامرة بالفشل « وكان الثمن غاليا من ناحيتيه المادية والمعنوية » .. وسافرت الاميرة سالمة الى مزارعها البعيدة تبحث عن دواء لجروحها ، وعن مكان تغسل فيه ندمها وخطأها الذى يؤرق ضميرها ..

ومشاركة المرأة فى النفوذ والعمل السياسى والتآمر لم يكن هو الوجه الوحيد الذى كشفته السيدة سالمة من حياة « الحريم » فى بيت السلطان . بل كان هذا هو الجانب النادر والفذ الذى لم يكتب عنه أحد قبلها قط . فهى فى كتابها تكشف الجوانب الاخرى الشيقة والغريبة فى حياة النساء فى هذا القصر أو ذاك من قصور السلطان . وحياة النساء يضيع معظمها داخل جدران القصور ، ومن هنا كانت هذه العناية الفائقة التى بذلتها الكاتبة فى وصف القصور وصفا دقيقا ، وكذلك فى وصف طبيعة الحياة فى هذه القصور ـ اعنى الحياة اليومية العادية .. وفى قصر « الموتنى » فى زنجبار تبدأ الاميرة كتابها ، ففيه ولدت « وفيه اعشت أسعد ايام طفولتى واجملها حتى بلغت السابعة من عمرى » .. والقصر يخترق نهر الموتنى وبساتينه ويتفرع داخلها الى جداول صغيرة « تنساب صافية رقراقة الى مختلف الاتجاهات تحت ظلال الاشجار الكثيفة الشاهقة أو فى مروج الحديقة التى طرزتها الورود والازهار بمختلف الالوان » .. وهو مكون من الاجنحة والملحقات وملىء بالمسالك والممرات المتشابكة .. وتقف المؤلفة عند جناح الاستحمام

وغرفه المتعددة التي تختص بكل غرفة منها فئة من فئات القصر . وببراءة الاطفال تتحدث عن الحيوانات والطيور والفة الصغار لها ولعبهم معها فى ساحة القصر الواسعة التى تشهد دروس ركوب الخيل والبغال ، ودروس الفروسية .. ومما تبقى فى ذهن الكاتبة من أيام الطفولة ترسم لنا صورة غريبة لهذا القصر الضخم الكبير و « البنجلة » التى تقع أمامه على شاطىء البحر حيث يتناول السلطان القهوة مع زوجته والبالغين من ذريته ، وكذلك للمطابخ التى تضج بالعاملين فيهما من مختلف الجنسيات و « كانت أطباق طعامنا الشائعة تتنوع بين العربية والتركية والفارسية والروسية تنوع الافواج العديدة من سكان هذين القصرين » تقصد أيضا قصر الساحل . ثم تتحول نحو الازياء التى لم يترك لها الحرية لتتنوع « فاذا ماوصلت القصر شركسية بثيابها الوطنية المزركشة أو حبشية بزيها الفضفاض ذى الالوان الصارخة ، كان عليهما أن يستبدلا بهما خلال ثلاثة أيام لباسا عربيا تقدمه لهن احدى امينات القصر » ... وتتحدث عن الحلى التى هي اساس في زى المراة ايا كان مركزها الاجتماعى ، ثم تقف لتصف زينتها أيام الطفولة فتقول : « وقد كانت العادة لنا نحن البنات الصغيرات أن تجدل شعورنا على شكل ضفائر صغيرة قد تبلغ العشرين عددا فى بعض الاحيان ثم تربط هذه الضفائر بأشرطة رفيعة ملونة ، ثم تجدل فى نهايتها فى ضفيرة واحدة تتدلى من وسطها على قفانا القطع الذهبية الدقيقة الصنع والمفصصة بالاحجار الكريمة والجواهر الفضية .. وكانت التسريحة الاخرى ، وهى الاجمل والاليق ، أن تترك الضفائر ونهايات الاشرطة مدلاة على ظهورنا دون

ضفر ، ويعلق فى نهاية كل منها قطعة ذهبية قد حفرت عليها أية قرآنية ، وكانت هذه الحلى ترفع عن رءوسنا أثناء النوم ، ثم تعاد الى مكانها فى صبيحة اليوم التالى» .. وتقول « وكان من تمام الزى الرسمى لنا ، نحن البنات الصغيرات ، وحتى نبلغ سن الحجاب ، أن نرتدى فوق فساتيننا المعتادة قميصا فضفاضا يغطى أجسامنا يصنع من قماش شفاف يطرز أحيانا بخيوط من الذهب والفضة فيكشف عن جمال الفستان ، ولكنه يحجب مفاتن الجسم التى يظهرها الفستان عادة » .. ثم تملأ المكان حياة حين تحكى علاقات الاخوة والحب التى تجمع بين بعض الضرائر وكلهن غريبات فى هذه الدار التى دخلنها فى سن مبكرة . وقد انتزعهن الاسر أو النخاس من أسرهن القديمة ، فتحكى عن أمها أنها « دخلت بيت أبى وهى فى سن صغيرة جدا لا تتجاوز السابعة فقد خلعت أولى أسنانها اللبنية فى بيته » .. الحب والكراهية التى تنجم عن الحسد والغيرة حين تفوز واحدة برضاء السلطان فيقربها اليه فتشتعل قلوب الاخريات حسدا وغلا ، وتبدأ المؤامرات الصغيرة . وخاصة على الزوجة الشرعية الوحيدة السيدة عزة المتكبرة والتى تحس أنها مطلقة التصرف فى هذه السلطنة الصغيرة . فالجميع يقف لها اجلالا ، والجميع ينحنى حين تسير ، وهى لا تسمح لاحد أن يمثل فى حضرتها الا أن تستدعيه هى .. ومع هذا فقد كان للحب دائما اليد العليا ، وهذا الحب هو الذى جعل ماجد يصحب سالمة وأمها الى بيته الجديد الخاص . وتصف الكاتبة مظاهر الوداع والحزن على فراقهما فى البيت الكبير ، ومظاهر الترحاب والود التى طالعتهما فى البيت الجديد ، وكلهن آخر

الامر نساء ، المرأة تصادق ضرتها ، وتصادق وتآخي ابنة زوجها ، وتقول الكاتبة عن ايام الجمع في بيت الساحل : « وكان الاطفال منا يسرحون ويمرحون بنشاط جم وأدب ظاهر ، فى حين كانت امهاتنا يرحن ويجئن ويتجمعن فيما بينهن يتبادلن الاحاديث والنكات ويطلقن ضحكات قلبية صادقة وفي ود وصفاء ومرح وطيبة ، حتى ليكاد الغريب عن حياة هذا الدار ان يظنهن تلميذات في مدرسة ، ولا يصدق ـ بمظاهر الود والمحبة بينهن ـ ان كل هذا الجمع من النساء هن زوجات رجل واحد » .. ومع هذا فان فرق اللون والجنس كان يثير العداوة والبغضاء . وتقول عن المحظيات الشركسيات أنهن كن يجدن من الحبشيات « نفرة وصدودا وبغضا لا لشيء الا لمجرد ان ضراتهن بنبات اللون يجدنهن انصع منهن لونا واعرق أصلا » .. ونفس النفرة تحدث بين الاخت وزوجة الاخ كما حدث بين خديجة أخت ماجد وعائشة زوجته مما أدى الى خروج المؤلفة وامها الى البيت الثاني ـ او الثالث عددا كما نرى ـ من بيوت السلطان ، حيث تحكي عن ساكنتها الاصلية الزوجة الشرعية الثانية للسيد سعيد وهى أميرة فارسية اسمها شيزاده كانت تعيش حياة البذخ الزائد والاسراف الشديد « وكان الطابق الاول من البيت يسكنه مائة وخمسون فارسا فارسيا هم حاشيتها المتواضعة العدد ! » وعلى جمالها وفتنتها كانت تركب الخيل وتخرج مع فرسانها للصيد . وتحكى الكاتبة حولها حكاية كأنها خارجة من بين دفتى الف ليلة وليلة ، فقد كانت تهب الخدم ما يتساقط من ثيابها من لؤلؤ ، وكان هواها مع غير السلطان الذي ماتزوجته الا لثرائه ، فلما اكتشف السلطان خيانتها للعهد كاد يقتلها ، واستل

سيفه ليقضي عليها ، لو لم يسارع خادمه الوفى سعيد النوبى ليحول بينها وبين الموت ، وطلقها السلطان وعادت الى بلادها ، ولكن الحكاية لاتقف عند هذا الحد . فبعد سنوات اشتبك السلطان فى حرب مع الفرس « وقيل أن شيزاده شوهدت مع جيش الاعداء لتتعرف على أفراد عائلتنا وتدل جنود العدو عليهم ، ويقال أنها كانت نفسها ترميهم بالسهام » .. وحكايات الحب هذه كثيرة وتملأ الكتاب كله ، ولكنه حب من لون خاص وعطر معين لا ينسينا أبدا أننا فى قلب الشرق ، واننا انما نقرأ الاصل الحى الذى الهب قلوب وعقول الفنانين فكتبوا لنا قصص الشرق العظيمة . فالكاتبة تحكى عن اختها خولة وجمالها الفائق الذى سارت شهرته فى كل مكان ، وكان الفرسان يقصدون قصدا الى زنجبار علهم يحظون بنظرة من هذه الفتنة الحية التى تسلب لب كل من يراها « كما حدث بالفعل لاحد الرؤساء القادمين الينا من عمان فقد صعق بنظرة منها فأذهلته عن أمره حتى أوشك أن يودى بحياته وهو مأخوذ بسر فتنتها ساه عما يفعل » اذ ركز رمحه دون أن يحس فى احدى قدميه ، ولم يشعر بالوخز ولا بالالم ولا بالدم « ولم لم يوقظه أحد اخوتى من نشوة حلمه اللذيذ لاودى النزيف بحياته » .. وكما تتعلق أنظار الشباب بالفاتنات من النساء فان الفتيات أنفسهن يلعبن نفس اللعبة التى تراها موصوفة بكثرة فى ألف ليلة وليلة ، تقول الكاتبة « وتلتصق الشابات اليافعات من بنات القصر ممن لا عمل لهن بنوافذ غرفهن يتفرجن على المارة والسابلة يرضين غرورهن بما يرتفع اليهن من حين الى آخر من نظرات اللهفة والاعجاب ، وكانت هذه الجلسات مصدر متعة

وسرور للشابات الحسناوات ، كما كانت مصدر قلق للأمهات والعمات » .. وتحكي الكاتبة قصة حب «شريفة» لابن عم لها وتزوجته رغم اعتراض السلطان الذي مالث ان رضى عن الزوج وقربه اليه . والكاتبة نفسها تقع في الحب فتترك كل شيء من أجله . وقد تعرفت على هذا الشاب الالماني في أيام التعاسة والبؤس بعد فشل مؤامرتها على ماجد ، وتحكي القصة في سرعة وتحفظ قائلة : « وقد تعرفت على زوج المستقبل « هنريخ روث » بعد عودتي من بوبوبو ، فقد كانت الدار التي سكنتها مجاورة لداره ، وكان سطح داره أوطأ من سطح داري ، وكنت غالبا ما أرقب من نافذتي حفلاته الرجالية الباذخة التي كان يتعمد اقامتها في الاماكن التي يقع عليها نظري لعلمه برغبتي في الاطلاع على هذه الاحتفـــالات الغربية . وسرعان ماشاع في البلد خبر صداقتنا التي تطورت في النهاية الى حب » .. وتهرب من زنجبـار بمساعدة زوجة القنصل الانجليزى وعلى ظهر باخـرة حربية بريطانية هي « هاى فاير » ، وفي عدن تستضيفها عائلة اسبانية حيث تلقت تعاليم الدين المسيحي وتعمدت وتزوجت في الكنيسة الانجليزية ، وسافرت منها الى هامبورج حيث تستقر وتنجب ، وحيث يموت زوجهـا وتصبح وحيدة وفقيرة ، وحيث تبدأ محاولاتها للاتصال بأخيها برغش الذى ساعدته في انقلابه الفاشل والذى غدا سلطانا ولكنه يتنكر لها ويرفض مساعدتها . وتبدأ فصول الالم والتعاسة والغربة والمرارة والحقد على أخيها الذى اندفعت بكل عواطف المرأة تتهمه بكل نقيصـــة وتهاجمه بكل أنواع التهم ..

ان القصة نفسها على طرافتها ليست أهم مافي الكتاب

الفذ ، ولو ان قصة عشق بنت السلطان للشاطر « هانز » وهربها معه بتآمر الانجليز والالمان والاسبان شيء لايحدث فى حياة الناس ، ويمكن ان يحدث فى خيال القصاص ـ ولو ان الاخت التى تخون اخاها الطيب من اجل اخيها الشرير وتضحى فى سبيل الاخ الشرير فاذا ما احتاجته تنكر لها وانكرها ، شيء يمكن ان يحدث فى الحياة وفى خيال القصاص معا .. الا ان هذا شيء وما للكتاب من قيمة فذة شيء آخر .. فهذا الكتاب هو الثقب الوحيد الذى تتسلل منه عيوننا الى ماظل محرما على كل العيون حتى الان ،أعنى آن صدور الكتاب ، وآن التعرف عليه معا .. « فالحرملك » سر لم يتناوله الا قصاصو الف ليلة ، وهم حين تناولوه اتهمناهم بالخيال المفرط ، والابتداع لما هو غير قائم . اما هنا فنحن نرى الاصل الذى لا تحاكيه صورة ، هذا الجيش الجرار من السرارى وامهات الاولاد يعشن جميعا معا فى كنف قصر واحد تحكمه الزوجة الوحيدة والعربية العمانية الوحيدة بينهن . كيف يتعاملن معا ومع الزوج والسلطان؟ ومع الاولاد والبنات ومع الخدم والعبيد والخصيان ؟ تقاليد « البرزه » واماكن الجلوس ، تقاليد الإستيقاظ والنوم والطعام ومواعيده ، علاقة السلطان بأبنائه وبناته، حياة النساء وحياة أبنائهن فى هذا المجتمع المغلق ، ماذا يلبسن وكيف يلبسن ؟ ماذا يتعلمن وكيف يتعلمن ؟ وما معنى المدرسة فى حياة الاولاد والبنات ؟ ماهى تقاليد الاستحمام والنزهة والصيام والاعياد والخطوبة والزواج والولادة .. ماهى شعائر الحداد ، وطرق التطبيب والعلاج ، ماهو وضع الخرافة والعادات والسحر والتنجيم فى حياة سكان القصور هؤلاء ؟ ماهى اخلاق

الفروسية والكرم ؟ ومن اين ملامح التآمر والحقد .
الاوضاع القبلية ومدى تحكمها فى كل شىء ، وماعلاقة المكان بالناس ، كيف يفرشونه ، وكيف يرتبونه ، وكيف يعدونه لحياة لا تبديل فيها ولا تقتير ، وكيف تشغل المرأة فراغها وكيف تملأ حياتها . انه الثقب العريض فى جدار الصمت الذى فرضته التقاليد المتوارثة على كل مايتعلق بنساء الشرق وحريم السلطان .. كل دارس للقصة وللتاريخ وللمظاهر الاجتماعية وللموروثات الثقافية والفولكلورية سيجد زاد خصبا متاحا وكنزا دفينا يزهو بما فيه ، وبمـــا يغنى عن الكثير مـــن الاستنتاجات والاستنباطات من اخبار عارضة ترد هنا او هناك فى كتب التاريخ والاخبار .

ونحن هنا فى مطبخ التاريخ ، وما أدق هذا التعبير واكثره دلالة ، فهنا يصنع الحب الذى يبنى دولة ، والاستقرار الذى يؤكد عرشا .. وهنا يصنع الحقـد الذى يثمر تمردا وثورة ، ويصنع الغباء والتنافس الذى يفتح الباب امام أطماع الوافدين الى حيث الثروة والمال. هنا فى عمق قصور السلطان يولد التاريخ ، يتكون جنينا ويترعرع طفلا ، ويتحول الى صفاء وحب او الى غـدر وخسة أو الى موت وخيانة ...

والكاتبة فى كل هذا تحس انهامطالبة بالدفاع عن كل ماتكشف عنه من أسرار هذا الحرملك .. هى لا تفتأ قد تركته بالزواج والتعميد ــ ولها اصلها وناسها الذين تقاليدها التى تعتز بها ولها دينها الذى تؤمن به رغم انها قد تركته بالزواج والتعميد ، ولها اصلها وناسها الذين لا يقلون عن الناس والاصل فى كل مكان انسانية ونضـجا ومدنية ، كما لا يقلون ثقافة وحضارة ومعرفة ، كمـــا

لا يقلون حرية وكرامة واعتزازا ..

الاصالة فيها ، والفنانة فيها ، والمرأة فيها ، خلقت هذا المزيج الفريد من القدرة على القص والحكى والسلاسة في الصياغة والربط ، والحماس الفائق في حب بلادها وأهلها وتاريخها معا .. ندر ان تقدم لنا سيرة ذاتية بكل هذه الابعاد .. ولكن يجب الا ننسى اننا امام ادب نسائي حقيقي كتبته امراة قادرة وذكية وجريئة ، وامراة فنانة مرهفة وكريمة .. انها بنت السلطان راكبة التختروان تغزل وتحكي لي .. ومن هذا الغزل وهذا الحكي الصادق والجريء كان هذا الكتاب .. كم اتمنى ان اراه في ترجمة دقيقة عن الاصل الالماني ، ترجمة لا يتدخل فيها أحد بالحذف والتصرف ، وانما ترجمة ينصرف الجهد المبذول فيها الى تحقيق الاسماء وتهميش الاحداث بما يجلو حكاياتها . كما ينصرف الى التحليل التاريخي والعلمي والاجتماعي الذى يعمق كلماتها ويعطيها ابعادها الحقيقية التى تضيف الى مكتبتنا العربية ثبتا فنيا وعلميا جديرا بالتقدير والاشادة .



رحلة السندباد

في فناء وزارة الثقافة بمسقط تقبع السفينة « صحار » بعد اوبتها من رحلتها التاريخية ، والتي سميت برحلة السندباد ، والتي قادها فيهـا « تيم سيفرين » من ساحل عمان حتى ساحل الصين ، ومن مسقط حتى كانتون . تقبع في هذا المكان حيث خرجت من دنيا البحار لتدخل دنيا الثقافة والفن ، فالرحلة لم تكن تجارة أو استعمارا ، وهما الهدفان اللذان دارت حولهما كل رحلات المحيط الهندي . وانما كانت الرحلة استكشافا لاعماق التاريخ ، ومحاولة لاعادة تمثيل فصل من فصوله التي مرت وعبرت ، ولكنها ظلت لاصقة بذهن الانسانية لا تنساها أبدا .

كأنها قادمة تمخر عباب المحيط وعباب الزمن من عمق البحر المخوف ومن دنياه المجهولة ، ومن بين دفتي الف ليلة وليلة كتاب شهر زاد الخالد .. فوق جسدها اللامع انشقت أمواج المحيط ، وارتسمت أشباح حكايات واساطير عن ثروات مجهولة لاتنفد ، وشجاعة جسورة لا تخاف ، وأسماك تنبت فوق جلودها الاشجار ، ورخ يحمل سندباد عبر جبال الماس ، وغول يأكل الناس ، ومهرة من كرام الخيل تنتظر فرس النهر يصعد اليها من جوفه ، وحولها حراسها يحملون الحراب والمشاعل ، وكهوف يدفن فيها الاحبة أحياء مع أحبائهم الموتى ، وعجوز يركب الناس بالقهر والاذلال ، وموج يتقاذف

السفينة فاذا هي مزق مزق ، واذ بحارتها تتخطفهم الامواج ويأكلهم الموت ، وسندباد يتشبث بقطعة قذفها الموج من أعماق السفينة يبحر بها الى شاطىء النجاه . ثم يعود ليحكى كل يوم حكاية من حكايات رحلاته السبع، فى بحاره السبع ، فى سفنه السبع .

و « تيم سيفرين » واحد من هؤلاء الحالمين الذين يريدون لاحلامهم أن تتحقق وأن تصبح اشياء ملموسة ومفهومة ، ففى عصر الطائرات والمحركات النفاثة والسفن الضخمة يثب الى ذهنه سؤال يؤرقه ، هل حقا استطاع الانسان قبل كل هذه الاكتشافات والصناعات أن يحقق بوسائله الاولى ما يحققه انسان العصر من انتصار على المكان .؟ هل حقا استطاع أن ينتقل من قارة الى قارة بوسائله البدائية الاولى ، فيربط مابين القارات ويحمل عبر رحلاته الثروات ، ويدفع البشرية نحو المزيد من المعرفة والالتقاء وصناعة الحضارة ؟.. الآثار الباقية تقول هذا ، وكتب التاريخ تقول هذا ، ومنطق التطور أيضا يقول هذا ، ولكن انسان اليوم يريد أن يعرف : كيف أستطاعت هذه القلوب صاحبة البكارة ، وهذه العقول البعيدة عن معطيات علم العصر أن تحقق هذا ؟. ولكن انسان اليوم أيضا يريد أن يتحدى هذه البكارة .. هل كان انسان الامس افضل من انسان اليوم ؟ وهل يمكن لانسان اليوم أن يتحمل ماتحمله انسان الامس راضيا ومضحيا وصابرا ..

وأكثر الميادين تشويقا وجذبا لهؤلاء الحالمين من أصحاب الجسارة ، هو ميدان البحر .. ومن قبل قام النرويجى ثور هايردال بعدة رحلات لاثبات امكان القيام بالرحلات

البحرية الطويلة على قوارب بدائية ومصنوعة من الخامات المتاحة في العصور القديمة ، ومن هذه الرحلات رحلته من الساحل الافريقى الى الساحل الامريكى على متن قارب مصنوع من بوص البردى وحبال الكتان . وصحبه مجموعة من الافريقيين المغامرين مثله ، أحدهم تشادى والثاني مغربى والثالث مصرى ، وبعد محاولتين فاشلتين نجحت محاولته الثالثة واستطاع ان يعبر المحيط الاطلسى على متن هذا القارب البدائى الآتى من عصور سحيقة فى تاريخ الصناعة البحرية الافريقية .

و « تيم سيفرين » نفسه له محاولة سابقة على رحلة السندباد يحكى عنها فى مقدمة كتابه الذى سجل فيه رحلة صحار عبر المحيط الهندى . فقد قام مع ثلاثة من مرافقيه برحلة من ساحل ايرلندا الى الساحل الامريكى على متن مركب صغيرة مصنوعة من جلود الثيران، وكان الغرض من الرحلة كما يقول « التأكد من أنه كان من الممكن للرهبان الايرلنديين ان يصلوا شمال أمريكا قبل رحلة كولومبس بألف عام » .. وكان القارب الذى أتم فيه الرحلة تقليداً للقوارب التى استعملها هؤلاء الرهبان وتسمى « برندان » تكريماً لاشهر القديسين عند البحارة الايرلنديين وهو « سانت برندان البحار »، وهو بطل لقصة من قصص البطولة المتداولة فى ايرلندا وتحكى عن مغامرة رحلته مع الرهبان الايرلنديين الى الساحل الشمالى لامريكا .. وقد أكدت له هذه الرحلة أن وسائل القدماء فى عبور البحر كانت سليمة ، وأن معرفتهم كانت كافية لصناعة السفن الملائمة للابحار فى البحار العميقة . ومن منطلق النجاح فى هذه الرحلة بدأ تفكيره الى رحلة مماثلة . وبدأ يبحث عن شخصية

أسطورية أخرى ارتبطت بالبحر والارتحال فيه ليضع أسطورته محل الاختبار العملي ، وليثبت أن ما قالته الاسطورة المتداولة هي حقيقة يمكن تحقيقها بالفعل . ويقول : « وجاءنى الجواب في هذه اللحظة ، لماذا لاأتحقق من أشهر البحارة على مر الزمن ، ذلك البحار الذى يعرفه كل طفل قرأ ألف ليلة وليلة ، الرجل الذى يستدعى اسمه كل مأثورات البحر ، لماذا لا أختبر أسطورة السندباد البحار ؟ » ..

والسندباد لم يكن بحارا وربما كان مااستقر فى ذهنه من الطفولة عن سندباد أنه بحار شهير يقلع بسفينته يمخر عباب البحار بحثا عن المغامرة ؛ كأنه أحدالقراصنة مثلا .. لا يدرى أحد كيف وجدت هذه الصورة عند المتلقى الغربى لالف ليلة - وربما حورها لتلائم أحلامه وطموحاته ، وواقعه الرومانسى فى قرون المغامرة البحرية والاستكشاف البحرى .. وعندما يبدأ « سيفرين » فى القراءة والبحث يتضح له أن رحلات السندباد تنطوى على ماهو أكثر أهمية من عطرها الاسطورى . لقد قرأ وعرف إن العرب فى القرن السابع الميلادى قد امتد وجودهم حتى المحيط الاطلسى وحتى أواسط آسيا وحتى عمق أفريقيا . وان التجار العرب هم صلب حركة النقل البحرى للثروات بين القارات ، وأنهم كونوا اعظم شبكة تجارية عرفها العالم ، وقبل أن تصل اول سفينة أوروبية الى بحارهم بسبعمائة عام على الاقل . وأن العرب قدموا للعالم أكبر مجموعة من مهرة البحارة الذين عرفهم التاريخ ، وأن كتب الجغرافيين والرحالة العرب سبقت الى تدوين اهم ملامح العالم القديم وبحاره وأرضه وسكانه ، وعادات الناس

.تقاليدهم ومعها حكاياتهم وأساطيرهم ، وخاصة تلك المرتبطة بالبحر والرحلة فيه . بل لقد وقف وقفة الاجلال حين اكتشف أن كل النجوم التى تعين البحارة على السفر تحمل أسماء عربية وضعها هؤلاء العلماء العرب الذين تفوقوا من زمن طويل فى علوم الفلك .. وهكذا عاد يقرأ من جديد رحلات السندباد السبع فى الف ليلة وليلة ، وهنا فقط يكتشف أن اسم سندباد وهوالسندباد البحرى لا السندباد البحار . وهنا أيضا يكتشف أن رحلات السندباد فى الف ليلة وليلة مجرد رحلات عادية عرفها التجار العرب الذين عبروا من شاطىء الجزيرة العربية كل المحيط الهندى حتى وصلوا الى الصين فى سفنهم التى صنعوها لتلائم الرحلة وتتحملها ، قبل أن تتطور صناعة عابرات المحيطات لتصل الى حد الامان الذى يعرفه بحارة اليوم ..

لقد أدرك أن حكايات السندباد ترتبط برحلات العصر العربى الذهبى للجغرافيين العرب الذى ساد من القرن الثامن الى القرن الحادى عشر الميلادى . حيث كانوا أول من رصد كل المواقع التى دارت حولها الرحلات القديمة ، تلك التى رصدتها حكايات السندباد وغير السندباد ، ويقف طويلا عند كتاب عجائب الهند وماجاء به من ذكر للأماكن والعادات ليقارنها بما جاء فى رحلات السندباد التى ظنها أسطورية فاذا بها أستعارة روائية من معرفة شائعة عند العرب ، أصحاب العلم منهم ، وأصحاب المعاصرة على السواء . منذ قديم .. وأخذ يعنى نفسه بالقراءة والبحث فلم تعد المسألة عنده مجرد حكاية بطل فرد ، وانما غدت المسألة عنده جزءا من تاريخ الانسان فى قهره للمحيطات ، وجزءا من تاريخ

الملاحة فى العالم . وسرعان ما ادرك أن قصاصى الليالى قد أخرجوا السندباد فى سبع رحلات تنتهى كل منهـا بكارثة ، ينجو منهابعد مغامرات مثيرة تتيح للقصاص أن يستعرضوا ماتجمع لديهم من معارف وحكايات . . وسأل نفسه الا يمكن القيام برحلة واحدة تتعرف على هـذه الاماكن التى جاءت فى كل هذه الرحلات لربطها بالطريق البحرى الطويل الذى قطعه البحارة العرب من الخليج وعبر ستة آلاف ميل حتى ساحل الصين ؟ ولكن هذه الرحلة لن تتم كرحلته الاولي فى قارب بسيط مصنوع من جلود الثيران . هذه رحلة لابد لها من سفينة كبيرة تعبر المحيط وتحمل من الادوات والطعام ماتحتاجه رحلة تستغرق ثمانية اشهر على الاقل ، وتحمل من الزاد والماء مايكفى كل مرحلة من مراحل الرحلة . .

ولكى يصبح الحلم حقيقة لابد من التسجيل بالصوت والصورة ــ بل لابد ايضا من بحارة يعرفون مهـارات الرحلة فى مثل هذه السفينة التى تماثل سفن الرحالة العرب القدماء . وهنا واجهته حقيقة أخرى مزعجة وهى أن سفنا كثيرة قد خرجت من االخليج ولم تعد ، ولم تصل ، ولم يعرف أحد عنها شيئا ــ وانا هذه الرحلات فى حكايات السندباد تنتهى غالبا بتحطيم السـفينة وغرق البحارة .

فالرحلة اذن مغامرة مثيرة ولكنها ايضا مغامرة محاطة بالمخاوف والاخطار . وكانت الخطوة الاولى هى أن يتعلم العربية ، وكانت الخطوة الثانية أن يبحث عن السفينة الملائمة والمشابهة لما كان مستعملا من قديم ــ وفى الخليج وجد نماذج « البوم » . . وهى سفن لاتدخلها المسامير ، فالعرب كانوا يعتقدون فى وجود جبال المغنطيس فى

بعض المناطق . ولهذا كانوا يربطون اجزاء سفنهم بخيوط يفتلونها من حبال قشرة جوز الهند حتى لا يجـذب المغناطيس كل المسامير التى تربط سفنهم فتنفك وتغرق .

ومن الخليج رحل الى عمان ، فعمان بحكم موقعها الجغرافى هى المحطة الرئيسية للابحار بين الخليج وطريق الهند أو افريقيا ، كما أن بحارة عمان اشتهروا عبر التاريخ ، فهم الذين تصدوا للاساطيل البرتغالية وهم آخر الامر الذين طردوهم من المنطقة كلها . كما ان التاريخ قد شهد امبراطورية عمانية امتدت من سواحل فارس وحتى زنجبار . ومما شجعه على هذه الزيارة ان عمان ظلت حتى عام ١٩٧٠ تعزل نفسها عن العالم ولابد اذن أنها تحتفظ بموروثها القديم دون تغيير كبير ، ومن هذا الموروث صناعة السفن ، ومهارة بحارتها فى عبور البحر بوسائلهم التقليدية القديمة .

وفى عمان بدا تحول الحلم الى حقيقة ، فعندما زار صحار دهش حين وجد الاعتقاد فى المدينة البحرية العريقة يسود بأن السندباد كان مواطنا من صحار . وقد كانت صحار مدينة متالقة كمركز تجارى هام ورئيسى فى عصر هارون الرشيد حيث تجرى حكايات السندباد ، فاما أن يكون السندباد تاجرا بغداديا كان مركز حركته الرئيسية فى صحار ، أو انه كان تاجرا من صحار سمحت له ثروته ان يعيش فى عاصمة هارون الرشيد . ويعيد هو المسألة كلها الى حركة الاسطورة وتنقلها وكيفية صياغتها وروايتها ويصل الى حل افتراضي وهو أنه ليس هناك سندباد حقيقى واحد ، ولكن المنطقة شهدت مجموعة من التجار المغامرين

حملوا حكاياتهم الشيقة معهم ، وتكونت هذه الحلقة التى بدأت تكبر وتتزايد بطريقة التراكم الفولكلورى لتحلق كلها حول بطل واحد سمى بالسندباد . ومن هنا خلق البطل الروائى ، ومن هنا صيغت حكاياته ..

وما وصل اليه « تيم سيفرين » يتفق ألى أقصى حد مع ماوصل اليه علماء الفولكلور من كيفية خلق البطل الشعبى ، وكيفية خلق القصة التى تدور حوله . فهو أكثر من بطل وأكثر من مغامرة ، ولكن أسما ما يلمع وسط الاسماء لتحمل عليه كل هذه القصص وكل هذه المغامرات ، ويصبح هو بطلها حين تصاغ القصة الشعبية فى شكلها النهائى .

وسندباد البحرى واحد من الابطال الشعبين الذين تكونوا بنفس الطريقة وعلى نفس المنهج الشعبى الفنى ...

وفى عمان وجد « سيفرين » السلطنة كلها تحاول أن تحقق حلمها بالقفز من عهود العزلة ألى عهود التحضر والارتباط بالعالم من حولها . السلطان والشعب يندفعون بكل قوة نحو البناء والتشييد والتغيير ، ومع هذا فالتعايش بين الماضى والحاضر قائم ومدل بوجوده . ومضى يزور صور والسيب ومسقط وصحار . وفيها كلها كان « سيفرين » يرصد بقايا العمارة البحرية العمانية القديمة ، ويشاهد انواع القوارب التى لا تزال تصنع من ألواح الخشب الآتى من الهند والتى تثبت فى أماكنها بحبال الياف جوز الهند .

قبل أن تنتهى اقامة « تيم سيفرين » بيوم واحد ، دعاه وزير الثقافة والتراث القومى العمانى لالقاء محاضرة عن تجربته السابقة مع السفينة « برندان » . وهكذا

وجد نفسه كما يقول : « اصف رحلة استكشافية تبحر باسم قديس ايرلندى فى قارب جلدى عبر بحار الثلج، لمجموعة من المستمعين المسلمين الذين يرتدون الدشداشات والعمامات والخناجر ، وعلى شاشة العرض اعرض فيلما عن رحلة فوق جليد جرينلاند بينما تزيد الحرارة هنا فى عمان عن مائة درجة » ..

وانتهت المحاضرة وانصرف المستمعون . ولكن المحاضر وجد نفسه فى الصباح ضيفا على الحكومة العمانية وقد دفعت كل مصاريف اقامته فى الفندق ، كما وجد رسالة تنتظره تدعوه الى لقاء وزير الثقافة العمانى .

وفى هذا اللقاء سأله الوزير عن ابحاثه حول رحلات السندباد فى عمان وأهداه سيفا عمانيا اثريا ، وحمله كلمات الترحيب فى الحل والترحال . وما كان « تيم سيفرين » يعود الى ايرلندا حتى تسلم برقيتين من مسقط ، وكانت البرقيتان تحويان نفس المحتوى : لقد عرض الوزير الامر على جلالة السلطان قابوس الذى وافق على قيام رحلة السندباد .. وعاد « سيفرين » الى مسقط حيث تلقى مفاجاة عمره ، اذ عرض وزير الثقافة عليه أن تتولى الوزارة بأمر السلطان تمويل رحلته كلها من بداية بناء السفينة حتى وصولها الى الصين على أن تحمل السفينة الجنسية العمانية وأن ترفع العلم العمانى ، وان تبدأ الرحلة فى العيد القومى العاشر لعمان .

وصعق « سيفرين » ولم يصدق نفسه ؛ فلم يكن يحسب أن مثل هذا الكرم لايزال موجودا فى عالم اليوم . ويقول « ان الوزير كان يأتمننى على بناء سفينة باسم امته ، وان ابحر بها الى اقصى آسيا . مثل هذه الثقة

والشهامة كانتا اكثر مما كنت اجرؤ ان آمل . وبدا لي أن عالم الف ليلة وليلة مازال موجودا ومعاشا » .. ومنذ هذه اللحظة بدأت العجلة تدور ..

وسافر « سفيرين » الى ساحل « مالابار » في الهند في صحبة مرافق خبير بالمنطقة ، وصانع سفن خبير بأنواع الاخشاب المطلوبة ، ومعهم متعهد قصر السلطنة في مسقط ليتولى الصرف على البعثة ، وهو تاجر هندي عريق أدهش المغامر الايرلندي بقوة احتماله الفائقة وذكائه المفرط رغم تجاوزه السبعين ، وهذه الحقيبة البيضاء الصغيرة التي يحملها دائما والتي تستطيع أن تزوده بكل شيء « من تذاكر الطيران الى مواد للقراءة ؛ الى مفكرة ، وأي كمية من النقود من أي نوع مطلوب ونقدا » ..

وفي كلكتا قصدوا الى حيث بقايا التجار العرب ، فهم ـ وقد كانوا سادة التجارة في عصر فاسكو دي جاما ـ قد تقلصوا الى عائلتين كبيرتين تحتلان جزءا من الشاطيء وتحتكران كل انواع التجارة مع المنطقة العربية . وبمساعدتهما يبحث سيفرين عن الشجر اللائم في الغابات المحيطة بالمنطقة كلها ، حتى يجد بغيته في منطقة شبه منعزلة ـ وهناك يتصل بأحد تجار الاخشاب الهنود ويحدد له نوع الخشب الذي يريد والاحجام التي يريد أن يحصل عليها منها . ووسط الغابات تقضي البعثة وقتا طيبا ، والاشجار المختارة تقطع وتنشر وتعد في الاحجام والاطوال المطلوبة . وكان « سيفرين » قد أعد قائمة بكل مايحتاجه من أخشاب لصنع السفينة التي وضع تصميمها طبقا للتصميمات التي استخرجها المهندس « كولين مودي » مصمم القارب برندان من نماذج

السفن القديمة . كانت القائمة تحتوى عدد القطع واحجامها وأطوالها طبقا لاستخداماتها وموقعها فى بناء السفينة ، وكان سيفرين قد عرض التصميم على بناة السفن العمانيين الذين أكملوا التصميم وحددوا الاحتياجات التفصيلية للسفينة .. وكما حصل سيفرين على الاخشاب ، حصل ايضا على حبال الياف جوز الهند التى ستستعمل فى ضم أجزاء السفينة بعضها الى بعض ، والتى بلغ عددها الاجمالى حوالى الف وخمسمائة حزمة ، تغطى عند فردها حوالى أربعمائة ميل طولا . وكان لابد أن تغمس هذه الحبال فى الماء بطريقة معينة حتى تصبح صالحة للاستعمال ولا تتعطن فى ماء البحر .. ومع الاخشاب والحبال يأتى زيت السمك الذى سيمزج بالسكر المذاب ليدهن به هيكل السفينة . والى جوار كل هذا أدوات البناء نفسها من مناشير ومطارق واقمشة القلوع وحبالها وأخشاب القلوع نفسها .

ولكن التحدي الحقيقى الذى واجهه هو أن يجد العمال المهرة الذين لا يزالون يستطيعون القيام بعملية جمع أخشاب السفينة بواسطة الحبال ، فهذه الصناعة انقرضت منذ زمن . وبعد بحث شاق طويل يعثر سيفرين على مجموعة من رجال الجزر المنعزلة مازالوا يصنعون قواربهم بنفس الطريقة التقليدية ، واستطاع أن يقنعهم بالسفر الى عمان ، وأعد لهم كل أمور الرحلة ، وتركهم يسبقونه الى مسقط ، بينما بدأ هو البحث عن سفينة تنقل شحنة البضائع الضخمة الى عمان . وقد كانت هذه مهمة صعبة استغرقت منه أسابيع عديدة حتى عثر على قبطان لم يطمئن الى ملامحه المليئة بالخبث والشر ، يرضى بأن يحمل البضائع حتى صور . ولزيادة

الأمان ترك معه احد رجاله الهنود ليحرس الحمولة الثمينة . وبالفعل حاول صاحب السفينة أن يرغمه على تأجير السفينة لرحلة ثانية بأن يحمل نصف الحمولة فقط ، وكاد حارسه الهندي أن يقتل فوق سطح السفينة حتى لا يخبره بالامر ... وتتدخل السلطات العمانية في الامر .. ويحصل « سيفرين » على ماوصل من بضائعه . وكذلك وصل العمال الهنود في قمصان خضراء اتخذها زى مميز لهم . وبدأ العمل باعداد المنزل الذى قدمته وزارة الثقافة لهم في صور وقد استغرق منهم هذا الامر عشرة أيام كاملة ، فقد كان المنزل واحدا من المنازل العمانية القديمة ذات الحجرات المتعددة والحمامات المستقلة وحجرات المطابخ والفناء الواسع الذى تطل عليه الحجرات . وكان المنزل قريبا من البقعة التى اختارها « سيفرين » ليتم فيها بناء السفينة بحيث كان يمكن للعمال العودة لتناول الطعام ثم الرجوع الى موقع العمل في سرعة . وفي اليوم الاول من عام ١٩٨٠ كان المكان قد اخلى تماما من شاغليه ، كانت منصة العمل في بناء السفينة قد أقيمت بالفعل . واقام العمال حارسا يحرس المنصة ليل نهار ، وحينما سأل « سيفرين » عن السبب بدأت بعض الحكايات الشعبية المرتبطة بالعادات المتوارثة لاهل البحر القدماء تطل برأسها .. فالحارس قد وضع في مكانه ليمنع النساء الحوامل من القفز فوق العمود الرئيسي للسفينة الحديدة لانهن يعتقدن أن هذا يمنحهن ذرية من الصبيان الاقوياء .. ولكنه في نفس الوقت ـ كما يعتقد البحارة ـ يصيب السفينة باللعنة وسوء الحظ . وطبقا للتقاليد القديمة أيضا فانه لابد من التضحية قبل بدء بناء

السفينة ، ولذلك اشترى « سيفرين » « جديا » من البدو المحيطين بمكانه ، وذبح « الجدي » بالفعل ولطخ بدمائه هذا العامود الرئيسي ، بينما اقام العمال من لحمة وليمة فاخرة .. وهنا فقط بدأ العمل الفعلي في وضع رسم وتصميم « كولين مودي » موضع التنفيذ .. وهنا يكتشف « سيفرين » قيمة الخبرة الحرفية المتوارثة ، اذ ما ان بدأ العمل الفعلي حتى ظهرت قدرات « محمد اسماعيل » أحد عماله الحرفيين في فهم الرسوم والتصميمات ، وفي قدرته القيادية في توجيه الرجال الى تنفيذها تنفيذا حرفيا لايعتمد على الرسوم وحدها وانما يعتمد أيضا على موهبة موروثة في تعديل مايجب ان يعدل منها لكي يصبح التنفيذ اكثر وفاء بالمطلوب من السفينة ..

وخلال ايام العمل الشاق والمستمر ظهرت مواهب هذا البناء التقاليدي وموهبته ، وقدرته على حل كل المشكلات التي تواجه أتمام بناء السفينة . ومنها بالطبع غياب بعض القطع الهامة والرئيسية في أخشاب السفينة تلك التي تركها صاحب سفينة النقل عن عمد في الهند .. وعند تثبيت اللوح الاول في السفينة يكتب محمد اسماعيل التاريخ والساعة في احتفالية واضحة . ثم يستمر العمل بسرعة وكفاءة ، وتأخذ السفينة شكلها تدريجيا والجو يصخب بطرقات المطارق وأصوات المناشير ، وحركة الحبال الطويلة وهي تتحرك في ايدي الرجال المهرة .. انها صورة معاصرة لمهارة أصحاب الحرف العرب وحماسهم لعملهم ودقتهم الفائقة فيه ، تبعث في السفينة الجديدة الحياة . خبرة مئات الاعوام المتراكمة عبر السنين تطل برأسها وتدل بمهارتها

وتثبت كفاءة الرجال وقدراتهم على صنع الحياة وأدوات الحياة ، على تحدى العقبات وقهر كل العقبات ..

ومن السادسة صباحا وحتى السادسة مساء يغرق الرجال أنفسهم في دوامة العمل ، وفي بعض الاحيان يستمر العمل حتى التاسعة مساء بلا طلب من أحد وبلا أوامر من أحد .. انه احساس بالانتماء للعمل والفخر به والرغبة فى اكماله على خير وجه .. وفى هذه الاثناء وصل المصور « بروس فوستر » الذى تركزت مهمته في تصوير مراحل بناء السفينة مرحلة مرحلة ، فلاشك انها آخر سفينة ضخمة تصنع من غير مسامير على الاطلاق كما بدأ الزوار لمشاهدة سير العمل ، ومنهم وزير الثقافة العماني وكبار رجاله ، ثم كبار رجال عمان وأثريائها .. ومن بينهم هذا الرجل الذى ناهز الستين من عمره والذي اخذ يطوف بالسفينة ويضرب بعصاته على الواحها ، بل ويقفز كشاب صغير الى اعلاها . انه « صالح خميس » احد ربابنة السفن العظام فى عمان ، وواحد من رجال البحر العرب الافذاذ . وأدرك «سيفرين» انه امام فرصة لا تعوض ، فاسرع يزور السيد صالح خميس فى بيته ليسمع ذكرياته عن رحلاته الى الهند التى استمرت أربعين عاما كاملة .. كما حكى له عن الكارثة التى أنهت حياة صور البحرية منذ قرون خلت . اذ كان أسطول صور الافريقى كله أو غالبيته العظمى فى طريق عودته محملا من زنجبار ، وحين الاقتراب من ساحل عمان هبت ريح صرصر عاتية على السفن الكاملة الحمولة لتتلاعب بها تلاعبا خطيرا ، والتجأ ربابنة السفن الى جزر كوريا موريا حيث القوا مراسيهم وربطوا سفنهم الى الشاطىء . ولكن الرياح تمزق الحبال وتسوق

السفن الى الشاطىء لتتحطم برمتها ، ولتغرق بحمولتها من الناس والبضائع فى أكبر كارثة حلت بصور ، حيث ضاعت عائلات بأسرها ، رجالها ونساؤها وأطفالها . ومن يومها لم تعد صور الى الازدهار من جديد ، وخلت بيوت شهدت ضحكات السعادة وآمال الحياة من سكانها ، ومنها هذا البيت الذى يحتله « سيفرين » ورجاله .. وحكى له أيضا كيف اضطر فى آخر رحلاته حين هاجمته العاصفة وكادت تغرق سفينته ان يلقى بحمولة السفينة الى البحر ليستطيع تعويمها .. ولكن ، ألم يكن يخشى أن تنقلب به السفينة ؟ لا ، لانه كان يحتفظ بستةآلاف كيلو من البلح فى باطنها للاحتفاظ بتوازنها . وبحسبة بسيطة استطاع سيفرين أن يعرف مقدار الثقل الذى يحتاجه ليحتفظ بتوازن سفينته ..

واستمر العمل فى برد الشتاء ثم قيظ الحر القاتل فخلال الموجات اللافحة لحر المنطقة استمر العمل بلا انقطاع ، واستمرت أصوات المطارق والمناشير وصيحات الرجال تتحدى الطبيعة المعوقة .. وعندما انتهى العمل فى بناء السفينة وأخذت شكلها النهائى كان لابد من طلائها بطلاء يمنع عنها حشرات السفن التى تأكل قيعان السفن الخشبية ، وكان الطلاء المستعمل تقاليديا أيضا فقد استخدم عصير الليمون ممزوجا بدهن الغنم ، وتم الطلاء بالايدى المجردة ..

واخيرا وقفت السفينة شامخة فوق الرمال رمزا لعرق الرجال ومهاراتهم التى حولت ١٤٠ طنا من الاخشاب الى قطعة فنية رائعة تنتظر زفافها الى البحر .. ورغم صعوبات دفعها الى رمال الشاطىء فقد تغلب العمال على كل العقبات وحفروا لها طريقها يدفعونها

فيه خطوة خطوة حتى الساحل .. وما أن وصلت السفينة حتى حدود الماء حتى ارتفعت فى الجو أصوات غناء وموسيقى وطبول ممتزجة بضربات الصنج ونداءات الابواق تأتى من بعيد ، وتقترب رويداً رويداً ..ولم تكن هذه الاصوات تأتى من الصحراء من خلفهم ، ولا من منازل صور ، وسرعان ماعرف الجميع مصدرها حين ظهرت سفينة « سامبوك » تسرع نحوهم من البحر . انهم رجال مدن الساحل جاءوا يحيون مولد السفينة الجديدة بموسيقاهم وغنائهم وتصفيقهم .. وما أن وصلت السفينة الى الشاطىء حتى قفز الجميع يرقصون ويعزفون فى ايقاع منتظم وملابسهم تدور مع حركتهم ، وأجسادهم تهتز مع الايقاع والنغم . وسرعان ما انضمت موسيقات جديدة الى الانغام التى تملأ الشاطىء ، فمن منازل صور خرجت ثلاثة طوابير من الرجال على رأس كل طابور الراقصون والمنشدون والعازفون ، وهم جميعا يتقدمون نحو السفينة فى بطء ، يخرج بعضهم من الطابور ليرقص رقصات طليقة على الايقاع والتصفيق وضربات الطبول وصياح الابوق والصنج . وكان الايقاع افريقيا ، كما كانت معظم الرقصات توافقها فى عمقها الشعبى ، وكان بعض الرجال يلوحون بالاعلام العمانية وصور السلطان قابوس ، بينما اشتركت نساء كثيرات فى الرقصات بملابسهن الحريرية السوداء المليئة بالحلى الفضية ، بينما تتدلى من آذانهن اقراط ذهبية تضرب خدودهن وهن يرقصن ، بينما تتصاعد من خلاخيلهن الذهبية انغام ارتطامها بعضها ببعض . وارتفع المد اخيراً ليوقف كل الرقصات على الشاطىء الذى غمرته المياه .. وتكون فريق عمل بسرعة ، مجموعة من البحارة يجذبون السفينة

نحو الماء ، وبناتها الهنود يحفرون لها مجرى فى الرمال لتنزلق عبره الى الماء .. وارتفعت مكان أغانى الابتهاج اغانى العمل .. وما أن مست السفينة الماء حتى بدا الغواصون يغوصون تحتها ليحددوا اماكن العقبات التى تعترض حركة جسمها لازالتها ، وتأكيد الامان للسفينة فى حركتها البطيئة من رمال الشاطىء الى عجاج البحر ، وأخيرا وسط صيحات الفرح وغناء البهجة وخفق القلوب المشاهدة تهادت السفينة الى البحر ، واهتزت ، ثم استقرت فى اعتزاز ودلال ..

وسميت السفينة « صحار » بأمر السلطان قابوس ، تكريما لميناء صحار العريق الذى شهد حركة التجارة القديمة التى أثرت عمان وثبتت مكانها فى تاريخ البحر والتجارة العالمية القديمه . ولم يكن من المصادفة البحتة أن تحقق البعثة الفرنسية العاملة فى آثار صحار كشوفا أثرية تتضمن قطعا من الخزف الصينى الشهير ، مما يؤكد ورودها لصحار عبر البحار من الصين ، فقد كانت صحار تستعد لرحلة العودة الى منابع هذه القطع الخزفية الصينية الشهيرة بنفس امكانيات عمان التاريخية من حيث السفينة والرجال الذين صنعوها ، والرجال الذين سيبحرون بها .. فقد قدر « سفيرين » أن السفينة تستطيع أن تقل عشرين رجلا ، ثمانية منهم من البحارة العمانيين المهرة الذين يعرفون كيفية الابحار عبر المحيط فى سفينة تعتمد على الشراع ، والباقين مهمتهم تسجيل الرحلة بالصورة الفوتوغرافية ، وكذلك تشغيل راديو السفينة ، كما أن السفينة بعد كل هؤلاء تحتاج الى طاه . وحين طلب سيفرين متطوعين للرحلة كان أمامه العدد الكافى من أهل عمان يختار منهم أصحاب الخبرات

التى يحتاجها ، وكان دافع الجميع حب المغامرة والرحلة المثيرة عبر البحار ، ولكن هذا لم يمنع ان يكون منهم من يفهم قيمة الرحلة لبلاده ، والذى تطوع ليشارك فى تحقيق هذا العمل المجيد للسفينة التى تحمل علم عمان وتمر به متحدية العصر والبحر والآلة ، لتعلن تفوق الانسان والاصالة والخبرة ، ولتكتب فصلا جديدا فى شجاعة الانسان ، وسخريته من كل العقبات التى تتحدى زحفه الحضارى . وحين اكتمل عدد البحارة وقفت « صحار » في مدخل ميناء مسقط تتزود بما تحتاجه الرحلة من أطعمة وفاكهة وماء وادوات وادوية .. على ناحية منها تنهض حوائط قلعة الميرانى العالية يرفرف على ساريها العلم العمانى ، وفى الناحية الاخرى القصر السلطانى ، ببنايته الهندية المعمار ، ومن بعيد تلوح اعلام امريكا وبريطانيا المرفوعة على السفارتين الامريكية والبريطانية ، ثم قلعة الجلالى الحارسة التوأم للثغر العمانى العريق . ثم بدأت أدوات البحث العلمى تفد الى ظهر السفينة ، فصحار فى سيرها بسرعة الشراع ، يمكن أن تكون وسيلة للأبحاث العلمية البحرية على مدى ستة آلاف ميل ، وبهذا لا تحقق الرحلة الغرض التاريخى وحده ، وانما تحقق هدفا ساسيا آخر ، بأن تتيح المعرفة الجديدة للبحر فى سطحه وأعماقه وحيواناته وطيوره على مدى هذه المساحة المائية الضخمة .

وكان العلماء غير مقيدين بالسفينة فى رحلتها الطويلة، بل هم يستطيعون الالتحاق بها فى أى ميناء ، او فى عرض البحر بواسطة السفن الاحدث أو الطائرات ، كما يستطيعون مغادرتها فى أى وقت وبنفس الوسائل . وارسلت الجامعات ومعاهد البحث البحرية ثلاثة من

العلماء مع أدواتهم العلمية لتحقيق هذا الهدف العلمي لتكون الرحلة « رحلة السندباد » اضافة جديدة للعالم المعاصر وحضارته ..

واخيرا في الثالث والعشرين من نوفمبر وفي العيد القومي العاشر لعمان اخذت « صحار » مكانها في الميناء وقد تزينت بالاعلام والانوار ، ودهن جسدها بألوان العلم العماني الذي أخذ يرفرف من فوق ساريتها في كبرياء . وحولها وقف قاربان للبوليس البحري ، وسفينتان حربيتان ، واليخت السلطاني بلونه الابيض . والقيت الخطب من وزير الثقافة العماني وممثل للصين الذي جاء خصيصا من بكين لحضور لحظة الانطلاق ، وباركها وبارك رحلتها أحد علماء الدين مع مصحف مغلف بالقطيفة يحمل الى مسلمي الصين كهدية من مسلمي عمان . بل لقد القيت ايضا قصائد الشعر ، ثم عزف الحرس السلطاني السلام الوطني وانطلق مدفع يعلن بقذيفته بدء الرحلة باسم الله وعلى بركته . واعطى سيفرين أمر البدء في الرحلة فدبت الحياة والحركة على ظهر السفينة صحار لاول مرة . وارتفع غناء البحارة باسم الله يرفعون المرساة وينشرون القلوع .. وعلى الشاطيء وقف بناتها الذين شيدوها يرقبون ارتحالها والدموع في عيونهم ، بينما أخذت السفينة تتهادى الى عرض البحر في طريقها الذي سارت فيه آلاف السفن من شبيهاتها عبر تاريخ البحار واصلة شطرى العالم : جامعة الخير في ذهابها ومجيئها على السواء .

وشهدت الايام الاولى للرحلة بعض الاضطراب والمضايقة ، فهذا حبل جديد يتمزق ، وهذه عقدة لم يحكم عقدها تنحل ، والقلوع في حركتها تصيب بحارا

ليس فى مكانه ، بينما ينفجر المولد فى أول محـاولة لتشغيله ليصيب الغطاس الاوروبى بجرح فى ساقه ، ويحتاج الامر الى طبيب وليس على « صحار » طبيب ، وتستنجد السفينة بأحد هواة الرادىو الذى يتتبع رسائلها ، فترسل البحرية العمانية سفينة تحمل طبيبا لمواجهة الحادث . ولكن كل هذا كان متوقعا حتى يستتب الامر ويأخذ الرجال كل مكانه ، ويعتادون على العمل المنظم الجمعى .

وكانت مشكلة سيفرين الرئيسية هى معرفة كيف استطاع البحارة العرب أن يحددوا طريقهم الى الصين ، فقد كان هذا انجازا مذهلا .. اذ انه فى الوقت الذى نجحوا فيه فى الدوران حول ربع العالم تقريبا ، كانت السفن الاوروبية تتعثر فى عبورها للقناة الانجليزية . ولم يحقق العرب هذا بمجرد الحظ ، وانما حققوه بالحسابات الدقيقة والمعارف المتراكمة . وكانوا يستعملون النجوم لا الشمس لرصد مواقعهم ــ وكان مع سيفرين كتاب أحمد بن ماجد الذى ترجمه الى الانجليزية « جيرالدتيتس » ــ وقد عكف عليه يدرسه ويحاول أن يطبق ماجاء به من رصد النجوم ومعرفة أسمائها والتحرك بهديها ــ وهكذا بدأ سيفرين دروسه التى تلقاها « المعلمين » من القباطنة العرب واتقنوها قبله بقرون وقرون ..

وفى نفس الوقت عرف كل بحار واجباته ، كما بدأ كل منهم يعرف امكانيات الآخرين وقدراتهم ، ولم يكن فى هذه المرحلة مايزعج سوى الطباخ الذى كان طعامه عذابا مقيما لبحارة السفينة ، بالاضافة الى كسله وقدراته وصفاقته الكاملة . اما العلماء فقد انصرفوا الى

جمع النماذج ، وانزال آلاتهم ومجساتهم الى ماء البحر ، كما اخذوا يدونون ملاحظاتهم ويسجلون مشاهداتهم عن الاسماك والطيور التي تحلق فوق السفينة ، وكلها من الطيور الاستوائية المعروفة والنادرة على السواء . أما الاسماك فقد كانت كثرتها تعني الاقتراب من الارض ، وكان من البحارة صيادون اكفاء زودوا السفينة بحاجتها من لحم التونة الطازج بكميات وافرة عند اقترابهم من جزر « اللكاديف » ، وهي جزر صغيرة لا يزيد طـول احداها عن الميل ، وهي ترتفع فوق سطح الماء ارتفـاعا طفيفا .. وقد عرف الرحالة العرب هذه الجزر المليئـة بأشجار جوز الهند ، وكتب عنها الادريسي في القـرن الثاني عشر يقول : « الى هذه الجزر تأتي سـفن عمـان لتجمع ثمار جوز الهند وتقطع من أخشاب أشـجارها لصناعة السفن ، وهم يصنعون سفنهم فيها ثم يبحرون منها الى وطنهم فيها » .. ولاشك أن هذه الجزر التي تقع في ممر السفن العربية الى الهند زودت الـكتاب بالمادة الخام للكثير من رحلات السندباد . وهذه الجزر تتبع الهند حاليا . وكان الجغرافيون القدماء يعتقـدون أن احدى هذه الجزر تحكمها امرأة ، كما ان هناك حكاية عن جزيرة منها لايسكنها الا النساء ، وقد ذكـرها صاحب كتاب « عجائب الهند » الذي يحكي عن سـفينة تحطمت على صخور الجزيرة وعن أسر النساء لبحارتها، وكيف ان هؤلاء البحارة ماتوا من الاعياء والاجهـاد الجنسي ماعدا عجوز منهم خبأته امرأة أحبته ، وعـاد ليحكي الحكاية الغريبة . وربما كان مصدر الحكاية أن الرجال يتركون أمور الحكم في احدى هذه الجزر للنساء تتوارثه واحدة اثر الاخرى . وهنا نعود الى السندباد

مرة أخرى ، اذ يربط سيفرين بين هذه الجزيرة وبين رحلة سندباد التي يتزوج فيها بامرأة ثم تموت فيدفن معها ..

وما أن تغادر السفينة صحار هذه الجزر حتى تلتقي بأول الحيتان . اذ يكتشف البحارة ان قافلة مكونة من سبعة حيتان تتبع سفينتهم في حركتها وبنفس سرعتها ، وتقفز من الماء من حين الى حين ترقب السفينة كأنما لتتأكد مازالت موجودة ، وبعد حين انضم تسعة حيتان آخر الى الموكب . كما اصطاد البحارة أول سمكة قرش في مجهود مشترك ، وسعدوا بعشاء من لحم القرش . ومع اقترابهم من شاطىء الهند بدأت تظهر الاسماك من جديد ومعها ثعابين الماء والحيتان الضخمة التي تذكر بحكاية السندباد الذي رست مركبه الى جوار ظهر حوت نائم ونزل البحارة اليه يعدون طعامهم ويوقدون النيران حتى أحس الحوت بهم فتحرك واغرقهم ..

واخيرا القت صحار مراسيها في ميناء كلكتا مكملة الجزء الاول من رحلتها من عمان الى الهند ، حيث حيتها مجموعات من الغربان بأصواتها النكراء وتطفلها السمج ، وظلت هذه القطعان النهمة تسطو على كل ماعلى السفينة مما يؤكل ، حتى تمكن سيفرين من الحصول على اذن رسمي بدخول الميناء ، حيث بدأت عملية ترميم شاملة السفينة من قاعها حتى قلوعها .. وعندما تمت كل الاصلاحات المرجوة غادرت صحار الميناء الى عرض البحر من جديد ، لتواجهها امطار استوائية غزيرة احتاجت كل عزيمة الرجال وتعاونهم للتخلص من مائها الذي اخذ يملأ السفينة ، وحين هبت الرياح بدأت معاركهم مع القلوع والاشرعة ، وبدأوا يتلقون دروسهم الحقيقية عن

معاناة البحارة القدماء فى رحلة المحيط .
يتطلع البحارة العرب بعد الابحار من الهند الى رؤية قمة جبل آدم فى سيرلانكا ، اذ تعتبر رؤية هذه القمة ايذانا بالوصول الى سرنديب اعظم واكبر الجزر التى تلى الهند . وقد اخذت هذه القمة اسمها من الحكاية الشعبية التى تقول ان آدم حين طرد من الجنة حط بقدمه فوق قمة الجبل الذى مازال يحتفظ بأثر هذا القدم ، أما القدم الاخرى فلا اثر لها ، والمظنون أن خطوته الاولى حملت قدمه الاخرى الى البحر ..
وسرنديب هو الاسم العربى لسيلان او سيرى لانكا ؛ وقد اشتقت الانجليزية منها كلمة « سيرنديبتى » ومعناها فن الاكتشافات السعيدة . وفى الميناء أهتم عالم البيولوجيا المصاحب للرحلة باحصاء مايلقونه من بقر البحر الذى بدأ ينقرض ، وكذلك السحالف ، كما بدأ يسأل الغواصين عن انواع الاسماك النادرة والمرجان الذى اشتهرت به سواحل سيرلانكا .. وبينما انهمك هذا العالم فى أبحاثه وأسئلته واحصاءاته ، كان سيفرين يسأل عن مصير فيل سيرلانكا الابيض بعد موته . وسر سؤاله يعود الى رحلة السندباد السابعة ، فاحدى طبعات هذه الرحلة تتحدث عن أسر القراصنة لسندباد حيث بيع الى ملك الجزيرة التى يبدو انها سيرى لانكا ، وكلفه سيده باصطياد الافيال حيث يكمن فى قمة شجرة حتى يمر قطيع من الافيال يقتل منها واحدا كل يوم ويحصل على انيابه ، وظلت هذه المذبحة فترة . الى أن فوجىء سندباد ذات يوم بالقطيع يحاصر الشجرة التى كان يكمن فوقها ، وينتزعون الشجرة بخراطيمهم ، واحس سندباد بنهايته تحت أقدام الافيال المخيفة . ولكن قائد القطيع

حمله بخرطومه وسار به الى حيث عظـــام المئات من الافيال فى مقبرة ضخمة ، وكأن قائد القطيع كان يريد أن يريه المكان ليأخذ منه مايريد ويكف عن قتل القطيع. . ويحمل سندباد اكتشافه الى سيده الذى يمنحه حريته بعد أن دله على مكان هذا الكنز الثمين .. وربما كانت هذه الرحلة اضافة حديثة للرحلات ، ولكن الرحلةالرابعة للسندباد في الف ليلة وليلة تحوى ذكرا للفيل الذى كان مركبه ملك الجزيرة .. ولم يدل أحد سيفرين على اجابة شافية لسؤاله . كان من الطبيعى أن يتجه به الى سكان الغابات الذين مازالوا يعيشون على الصيد فى عمـــق الغابة . ولكن احدا منهم لم يكن يعرف الاجـــابة الصحيحة على السؤال . ان أحدا لايرى الافيال وهى تموت ، كما ان احدا لم يعثر على هياكل عظمية لافيـال ميتة فى الغابات ، ولكن أحدهم قاده ذات يوم الى بحيرة في عمق الغابة ، وحكى له ان هذه البحيرة لا تجف ابدا ، الا ان البلاد تعرضت لجفاف شديد فانكشف قاع البحيرة، وأرادت الحكومة تنظيف القاع منتهزة فرصة الجفــاف فاذا العمال يكتشفون أن القاع مغطى بعظام الافيال . قبل كانت هذه البحيرة هى المقبرة ذات الاريج الشعبى الذى ملأ أكثر من حكاية فى اكثر من لغة ، وربمـا .. وهناك حكاية اخرى من حكايات السندباد تجد جذورها فى سيرى لانكا ، وتلك هى أشهر مغامراته ورحلاته وهى التى تتعلق بوادى الماس والرخ ، حيث نجد سندباد نفسه فى جزيرة قاحلة بعد أن تحطم مركبه وبها بيضـة الرخ الضخمة ، وحين يأتى الرخ يربط سندباد نفســه الى ساقه فيحمله الرخ الى واد مليء بالحيات ، ولكن ارض هذا الوادى كانت من احجار الماس ، ويبيت ليلته

فى كهف تحتله حية ضخمة ، وفى الصباح يفاجأ بحيوانات مذبوحة ترمى الى الوادى فيتذكر ماسمعه من ان التجار يلقون بهذه الجثث الطرية فى الوادى حتى يلتصق بها الماس ، ثم تحملها النسور والصقور الى أعشاشها حيث يستردها التجار ويأخذون ماعلق بها من ماس .. ويملأ سندباد جيوبه وملابسه بقطع الماس ويقيد نفسه تحت واحدة من هذه الذبائح ، ويقبل نسر عظيم فيحمل الذبيحة وسندباد معها الى قمة الجبل حيث يتقاسم سندباد حمله من الماس مع التجار المذهولين بقصته .. ووادى الماس هذا يذكره ويحدد مكانه فى سرنديب ، فهى مشهورة بمناجم الماس فيها ، ومازالت بعض هذه المناجم تعمل الى الآن . وفى سرنديب زار بحارة « صحار » المسلمون مقابر البحارة العرب الاول الذين حملوا الاسلام الى الجزيرة ، ووصلوا فى جامعها .. وفى الف ليلة وليلة يذكر القصاص ان ملك سرنديب كان ملكا عظيما وثريا ، وانه حمل سندباد رسالة وهدية الى ملك بغداد هارون الرشيد ، وتغرق الليالى فى وصف الهدية ومدى دلالتها على ثراء الملك وكرمه ، كما تسرف فى وصف موكب الملك وزينة الفيل الذى يركبه فى هذا الموكب .

وحين أقلعت صحار من سرى لانكا كان على ظهرها مصور جديد حيث رحل مصورها الاصلى الى بلاده . وسرعان ما أصابه دوار البحر بعد قليل من الاقلاع نحو سومطرة او ارض الذهب كما اسماها العرب . ومع هذا فقد استطاع هذا المصور الجديد ان يقوم بواجبه فيما يشبه المخاطرة المثيرة .. وفجأة دهمتهم العاصفة ، وبدأت المعركة بين عزيمة الرجال من جديد ، وبين ثورة

الطبيعة وغضبها .. كان الرجال يبتسمون وهم يصعدون الصوارى العالية لقمم القلوع ، وحين تحطم الصارى الرئيسى اسرعوا يلملمون مزق الشراع ويطوونه بسرعة وغناؤهم لا ينقطع ، يستمدون منه الايقاع الموحد ، والحس الجمعي بالخطر المشترك الذي لابد لقهره من عمل مشترك .. والسماء تبرق والرعد يصم الاذان ، والريح هوجاء مفزعة والماء ينهمر من السماء مدرارا .. وعندما يهدد الخطر قاع السفينة بعمل الغواصون تحت الماء واسماك القرش تحاول الاقتراب ، ورجال السفينة يداورونها ويحاورونها ، حتى يتم الغواصون العمل فى سرعة ، وحين تتكاثر اسماك القرش يتحول الطارد الى مطارد ، ويبدأ الرجال فى التنافس على صيده حتى يمتلىء سطح السفينة باسماك القرش التى رفعها الصيادون من الماء ليجهزوا عليها بخناجرهم . واخذت السفينة تتخبط ذهابا وجيئة فى مساحة محدودة من المحيط والرياح ، تتلاعب بها وتبعدها عن مقصدها مرة ، ثم تعود وتدفعها الى الطريق السوى مرات ، واستمر الامر اسابيع متتالية ، ولكن عزيمة الرجال لم تهزها اخطار الضياع او الغرق او تمزق السفينة بين انياب الريح .. استمروا يصلحون مايفسد ، ويجابهون الجوع والعطش ، والجراح العديدة التى اصابت اجسادهم فى كفاحهم الدائب لتستمر السفينة فى سيرها . واخيرا اطلقت الرياح سراح السفينة التى طالت اطباقة قبضتها عليها ، ومع هدوء الريح هدأت مياه البحر واختفت امواجه ، وبدأت الاسماك تظهر .. اسماك عديدة تحيط بالسفينة وتسير امامها ، اسماك صغيرة تعيش على

فضلات السفينة ، وأسماك أكبر تعيش على الاسماك الصغيرة ، واسماك ضخمة تعيش على الاسماك الكبيرة ، عالم من السمك ربط نفسه بالسفينة بحيث غدا جسدها مركزا لمجاميع ضخمة تتحرك معه وبنفس سرعته ، وفى السماء انتشرت الطيور الصيادة تلتقط رزقها من السمك المتاح .. ومع اقتراب السفينة من جزيرة سومطرة بدات تلتقى بالكثير من السفن الضخمة حيث بدات تهتدى الى طريق الملاحة التقليدى .. والعرب القدماء كانوا فى رحلتهم الى سومطرة يحسون الانبهار والخسوف فى مريج من المشاعر والسلوك الحذر ..

أما الانبهار فبثراء الجزيرة وثراء مهرجانها . وكان المهراجا الكبير يعيش فى قصر فخم فيه حمام سباحة يلقى فيه المهراجا قالبا من الذهب كل يوم ، وعند وفاته يستخرج هذا الذهب ويقسم بين افراد أسرته تكريما له وللذكراه . وقد استعمل قصاصو الف ليلة لقب المهراجا لحكام آسيا الاثرياء ، ولكن الطريق البحرى الى عالم المهراجا الثرى محفوف بالمخاطر العديدة . فاذا كان من يقصد بلاده آتيا من ساحل البنجال فانه معرض لهجوم سكان جزر « الاندامان » وهم قبائل متوحشة من آكلى لحوم البشر . فهم يأسرون بحارة السفن ويأكلونهم . وعلى شواطىء سومطرة نفسها عاش آكلوا لحوم البشر الذين جاء ذكرهم فى الرحلة الرابعة من رحلات السندباد . ففيها يقع البحارة أسرى لهؤلاء المتوحشين الذين يسوقونهم الى قريتهم حيث يطعمونهم طعاما ممزوجا بمواد مخدرة، وكلما أكل الرجال ازدادوا ذهولا حتى غدوا كالانعام المساقة الى الذبح ، يسمنون على الطعام المقدم اليهم والذى يقبلون عليه بشراهة ، ويرفض السندباد الطعام

فيظلّ على هزاله ، بينما يساق أصـــحابه الى الذبح ليصبحوا وليمة لآسريهم . وربما ساعد على دخول القصة الى الفولكلور العربى أن اهالى سومطـــره يستعملون الحشيش كأحد التوابل المستخدمة فى الطهو ، كما أن البحارة العرب تحدثوا كثيرا عن هذه القبائل المتوحشة من أكلة لحوم البشر التى تقطن جزائر المنطقــة وبعض أجزاء ساحل سومطره .

وتقدم سومطره تفسيرا لحكاية اخرى من حـكايات السندباد هى حكاية شيخ البحر الذى يجده السندباد فى احدى الجزر التى رماه القدر اليها ، ويطلب اليــه الرجل الهرم ـ بالاشارة ـ أن يحمله الى شجرة يقطف منها ثمارها ، فاذا ماحمله سندباد ظل يأمره أن ينتقــل من شجرة الى شجرة ، فلما تعب سندباد وأراد أن ينزله ، يرفض العجوز ويطبق على رقبة سندباد بفخذين لوحش قوى كثيف الشعر ، ويضربه فوق رأسه ويلكزه بقدميه حتى يخضع سندباد لطلباته التى لا تنتهى . وفى جولاته فى الجزيرة يرى سندباد هياكل بشرية فى جانب منها ، ويعرف أن هذا الرجل يركب ضحاياه حتى المــوت . ويلجأ سندباد الى تخمير الفاكهة وشربها حتى ينسى ماهو فيه ، ويستهوى العجوز مالاحظه من خفة ونشاط يحظى بهمـا سندباد بعد الشراب ، فيطلب منـــه أن يسقيه مما يشرب ، فيسرف سندباد فى تقديم عصــير الفاكهة المخمر والملىء بالكحول للعجوز حتى يسكر ويفقد تماسكه ، فيرميه الى الارض ويقتله بحجر . ويقـــول سيفرين ان عجوز البحر هذا قد يكون « أورانج ـ أوتان » المعروف فى سومطره وهو غوريلا ذات شكل قـريب من الشكل الآدمى ، حتى أن سكان سومطره يعتبرونه كائنا

بشريا منعزلا يعيش على الفاكهة ، وهو شديد الكسل ، وهو يختلف عن الغوريلا النمطية التى يعرفهـــا العلم الحديث .

وفى سومطرة يعيد البحارة تجديد سفينتهم واصلاح ما أحدثته العاصفة بها من تلفيات ، ثم يبحرون فيمـا يعرفه العرب باسم البحر الخامس فى الرحلة ذات البحور السبعة الى الصين . أبحروا فى محاذاة الشاطىء حتى عبرو القناة بين سنومطره والملايو ، حيث توقفوا فى ميناء ملقا ليستعدوا لدخول المحيط من جديد ، حيث لم يعد أمامهم لاكمال الرحلة الا الابحار فى بحرين فقط من البحار السبعة . وهنا كان عليهم أن يواجهوا الاعاصير أو الطوفان كما يسميها البحارة العرب تحريفا للـــكلمة « التيفون » التى يستعملها الصينيون . ولكن أيامهـــم الاولى فى المحيط كانت هادئة ــ كانت السفينة تسير فى ثقة والجو رخو والبحر لا صخب فيه . وكـــان سيفرين فى سباق مع الزمن فان فترة الاعاصـــير تقترب ، وكان واثقا أن صحار لا تستطيع ان تواجـه أعصارا من الاعاصير التى يتناقل البحارة حكايات قوتها وعنفها .. ولكن العاصفة التى هاجمتهم بعد أربعة أيام من مغادرة سومطره كانت فى تدميرها لا تقل خطورة عن اعصار حقيقى ، فقد مزقت الشراع الرئيسى ، وحطمت صارى المركب ، وتلاعبت بالمركب بحيث تهددته أكثر من مرة بالتمزق بين الرياح الهوج أو بالغرق وسط الامواج المتلاطمة ..

ومن جديد تضافرت القوى وارتفع النداء باسم الله الحامى المنقذ ، وظهرت خبرات الرجال التى اكتسبوها عبر الرحلة الطويلة حتى الآن ، واستطاعت السفينة أن

تحتمل وان تؤكد مهارة وخبرة بناتها المخلصين . وكما أن الاعصار او التيفون كان خطرا ماثلا فكذلك كان القراصنة يمثلون خطرا حقيقيا فى هذه المرحلة من رحلة « صحار » .. فقد حذرت السلطات فى سنغافورة « سيفرين » من القراصنة الذين يهاجمون الناقلات العملاقة والبواخر وسفن البضائع وهم يستقلون لنشات سريعة ويقفزون على سطح السفينة الضحية ويسرقون كل مايستطيعون حمله معهم .. وكانت التقديرات أن هناك على الاقل خمسة عشر الفا منهم فى بحر الصين الجنوبى يسرقون ويقتلون المهاجرين الفيتناميين واليخوت العابرة . ولهذا فقد حمل بحارة صحار السلاح الذى حملوه معهم من عمان ، وبدأوا يتدربون يوميا على استعماله بكفاءة .

وكان هؤلاء البحارة بعد كل هذه المدة فى البحر بشعورهم الكثة وذقونهم الملتحية والاسلحة فى أيديهم يشبهون القراصنة الى حد كبير ، ولعل هذا هو ماخطر ببال ركاب السفينة ذات الموتور التى صادفتهم .. ولهذا فقد أخفى الركاب نساءهم فى أسفل السفينة وبدت عليهم معالم الخوف والقلق واضحة . وسرعان ما اعترض طريقهم قارب مطاطى من صحار يحمل بعض بحارتها . ولكنهم لم يكونوا قراصنة وانما كانوا من المهاجرين الفيتناميين الذين مضى عليهم فى البحر أسبوع كامل وقد ضلوا الطريق ونفد زادهم وماؤهم .. وقدمت صحار لهم المعونة الكاملة من ملابس وغذاء وماء ونصائح فى العودة الى الطريق البحرى . وودعتهم صحار وسط شكرهم وعبارات الحمد والثناء ، قائلة لهم : تذكروا عمان . ثم تركتهم فى طريقها الى تايوان .

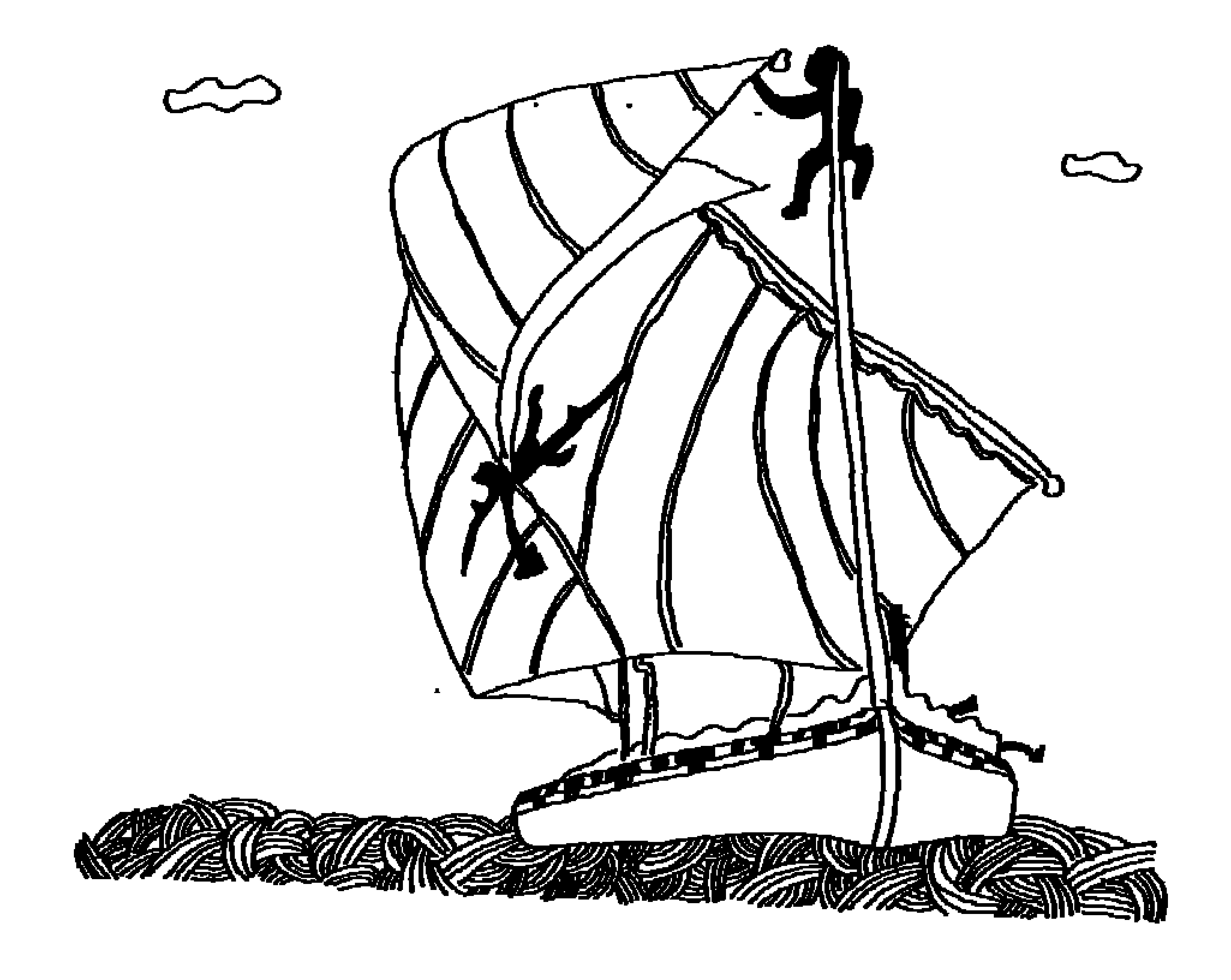
وفى الثامن والعشرين من يوليو أبصر بحارة صحار

شواطىء الصين بعد ابحار استمر سبعة أشهر كاملة .
واخذ العمانيون على ظهر صحار يغنون اغانى النصر فقد
تمكنوا بالفعل من تسيير صحار من مسقط وحتى الصين
قاطعين ستة آلاف ميل فوق سفينة خرجت من اعماق
التاريخ . . اخيرا لاحت ملامح الشاطىء الصخرى باشجاره
ومنازله وولجت السفينة الى نهر اللؤلؤ الذى يؤدى الى
ميناء كانتون . وتستدعى مناظر الشاطىء وفتحة النهر
وانزلاق صحار فوق مياهه الهادئة لتأخذ مكانها راسية
على أحد جوانب الرصيف المزدحم ، فى ذهن سيفرين .
الحكاية السابعة من رحلات السندباد فى الطبعة التى
قرأها فيها ، ويحس أن هذا المكان قدم الخامة
الاساسية لها حيث يعيش اناس يتحولون الى طيور تحلق
فى السماء ، ويحملونه معهم فى طيرانهم حتى اذ ذكر
سندباد اسم الله توقفوا عن الطيران وعادوا به الى الارض
.. وطبقا للوثائق المدونة فان اول من وصل الى الصين
من التجار العرب كان عمانيا وهو ابو عبيدة الذى وصلها
فى منتصف القرن الثامن محملا بالبضائع والتحف ،
وعائدا منها بأول ماعرفه العرب من بضائع الصين .
وارسلت صحار رسائلها اللاسلكية ، وتلقى احداها هاوى
هونك كونج الذى أبلغ السلطات فى كانتون تليفونيا ..
وكانوا فى كانتون ينتظرون وصول صحار سالمة ، ولكنهم
أرسلوا لنشا يجر السفينة الى الداخل فان اعصارا
عاتيا فى الطريق ، ولو ظلت السفينة فى مكانها المكشوف
هذا لتعرضت للتلف .

وهكذا استطاعت صحار أن تسبق الاعصار الى بر
النجاة ، واستطاع جهد الرجال والاصرار على السير
بكل قدرة السفينة وطاقتها أن ينجيها وينجيهم ممن

المصير الذى تعرضت له سفن السندباد فى رحلاته السبع ..
وفتحت كانتون ذراعيها لتستقبل السفينة بكل الدفء الحقيقي والحرارة الممكنة ، عمدة المدينة يصحبه السفير العمانى وممثل وزارة الثقافة الصينية وبعض المسئولين الآخرين اقبلوا يحيون طاقم السفينة ويضعون تحت امرهم كل الامكانيات التى تجعل زيارتهم للصين معلما بارزا فى حياتهم ، كما كانت رحلتهم اليها معلما بارزا فى تاريخ المغامرة الايجابية .
وفى جامعة كانتون عرف سيفرين بأمر السفينة التى حملت أبو عبيدة العمانى فى عصر هارون الرشيد الى الصين ، وكانت هى أيضا مصنوعة بالاخشاب التى تجمعها خيوط الياف ثمار جوز الهند ، كانت هى ايضا الاصل الذى جاءت صحار على صورته . واسرع البحارة الى الجامع المقام منذ زيارات المسلمين الاول للصين ليقدموا لله صلاة الشكر والعرفان .
وفى الحادى عشر من يوليو اقيم الاحتفال الرسمى للترحيب بصحار وتحية رحلتها الناجحة .
رحل من عمان وفد رسمى يتقدمه السيد وزيرالثقافة والتراث القومى ومعه ممثلون عن الجيش والبحرية ووزارة الدفاع ووزارة الخارجية ، وجاء من بكين وزير الثقافة ونائبه وممثلون لادارات وزارة الخارجية .. بينما قطرات احدى القاطرات صحار وحولها سفن صغيرة مزينة باعلام الصين وعمان ، ورفعت صحار نفسها ثلاثة أعلام لعمان وعلم الصين ترفرف كلها فى بهجة ، بينما انطلقت الصيحات من أطفال المدارس الذين اصطفوا يحيون صحار ، ووقفت فرقة موسيقية تعزف الحانا

بهيجة بينما انطلقت في السماء مجموعات ملونة مـــن الالعاب النارية والصواريخ ، الى أن وصلت الســفينة الى الرصيف الرئيسى الذى اصطف عليه الضيوف .
ونزل البحارة بملابسهم الوطنية واصطفوا يتقبلون تحية الجماهير الحاشدة وتبودلت الكلمات ، وزفت صحار الى التاريخ ، وبلغت رحلة السندباد نهايتها السعيدة .



وأدرك شهرزاد الصّباح

قلت له :

ــ ياسيادة السفير اسمح لى ان اشكر لك سؤالك فهذه رقة لم نتصورها .

قال لى السفير فتح الله الضلعى سفير مصر فى عمان والذى فوجئت بتليفونه فى هذا الصباح :

ــ لقد حاولت ان اتصل بك اكثر من مـــرة ولكنك لا تستقر فى الفندق ابدا .

ضحكت وانا اقول :

ــ البرنامج مشحون على آخره ، وعلى كل حال آن للغريب أن يعود ..

قال :

ــ لا أظن انك غريب هنا ولكنى أعرف انك تستعمل الكلمة كجزء من التعبير ، وكلام الادباء دائما يحير .. على كل ارجو أن اعرف مواعيدك حتى نقوم بالواجب ..

قلت :

ــ سؤالك قام بكل شيء ، فما كنت اظن آن كاتبامصريا يزوركم يحظى باهتمام السفارة المصرية وسؤالها ،بصراحة لم نتعود على هذا السلوك من احد قبلك ، أن سؤالك عنى تكريم لى وجعلنى احس أن مصر معى وجدانا وفعلا ايضا .

ضحك وهو يقول :

ـ لقد سمعت بوجودك وكان بودى أن اتعرف عليك ، وعلى كل حال أنا تحت امرك ، اى شىء تريده اطلب ، واحاول ..

قلت له وقلبى يخفق سرورا :

ـ أطلب لك الصحة ، كما أطلب ان تكون قدوة تحتذى فأنا اغادر عمان هذا اليوم .

من النادر بالفعل أن يلتقى المرتحلون منا بمثل سلوك السيد الضلعى ، فهذه المبادرة تزيد من احساس المواطن بالانتماء ، وبحقيقة ارتباطه بالارض الام ، وهى فى نفس الوقت تعمق من وجود التمثيل الدبلوماسى وتعطيه أهميته الحقيقية . وكان بودى ان اذهب اليه لاشكره ولكن موعد السفر كان قد تحدد من قبل ، وكان برنامج اليوم حتى موعد السفر مشحونا تماما . فما أن انتهت المكالمة حتى كان الاخ نجيب رجب يصحبنى فى السيارة الى منزل شاعر عمان وأديبها الكبير الشيخ عبد الله بن على الخليلى . فقد طلبت أن التقى بوجه من وجوه الثقافة والابداع الادبى فى عمان ، فكما ان المكان نفسه شىء هام ، وكما أن الناس أنفسهم حقيقة هامة ، فان الفكر والادب والثقافة عندى أشياء هامة لا تكتمل صورة وطن ما من غيرها .

وقال نجيب والسيارة تنتقل بنا فى شوارع عمان :

ـ انه ينتظرنا فقد اخطرناه بالموعد . ولكن البيت ليس بعيدا على اية حال .

وبالفعل لم يطل سير السيارة التى اخذت ترقى بنا طريقا صاعدا ، ثم تدور لتقف امام منزل حديث البنيان وان كان طرازه العمانى واضحا . وما أن نزلنا من

السيارة حتى استقبلنا رجل كهل نظيف الثيـاب باسم الوجه . وقادنا الى غرفة واسعة مؤثثة على الطـراز العربى حيث تمتد الوسائد الى جوار الجدران ، مغطاة بمفارش مزخرفة وتنتشر خلفها وفوقها المسـاند ، وتمتد المناضد الصغيرة القليلة الارتفاع امامها ، ويتوسـط القاعة الواسعة منضدة عالية عليها مجموعة من الفاكهة والورود والى جوارها مباخر عدة ، بينما توجد «ترامس» عديدة على بعض المناضد التى ينتشر فوقها مجموعة من القطع النحاسية والفخارية الانيقة ..

وقال الرجل وهو يقودنا الى حيث نجلس :

ـ الشيخ سيحضر حالا ..

وكنا قد خلعنا أحذيتنا عند دخول القاعة المفروشة بالسجاد الثمين والذى يزيد من بهجة الغرفة وروائها ، فجلسنا جلسة مريحة فوق الحشايا الوثيرة .. وبينما كان الكهل الذى استقبلنا يوقد مجامر البخور ويحيينا برائحتها العبقة ، دخل الشيخ الوقور الى القاعة بابتسامة هادئة يحوطه الوقار ، وتشع عيناه ابتساما وترحيبا .. وكانت كلماته رقيقة وهو يرحب بى فى بيته وفى بلده ، وأخذ مجلسه وهو يشير بيده فقدم لنا التمر والعصير ، ثم جاءت القهوة العربية ، وقال :

ـ كنت فى القاهرة أحضر ندوة العقاد ولجنة التاليف والترجمة والنشر ولى من جيلى أصدقاء كثيـرون من الشعراء والكتاب المصريين . وفى الحقيقة كم احن الى هذه الجلسات التى تمتلىء بحديث الفكر والادب .

قلت :

ـ ونحن أيضا ياسيدى نحن اليها فقد اختفت هـذه الجلسات أو كادت ، ولم تعد هناك بؤر مضيئة يلتف

حولها الكتاب يتطارحون أبداعهم ، او يختلفون حول رؤاهم النقدية ..

كانت دهشته واضحة وهو يقول :

ـ هل هذا معقول ، لقد كانت القاهرة منتدى ادبيا كبيرا ، فى المقاهى والنوادى والجمعيات والقاعات ، ندوات ومحاضرات تعقد على مدار الاسبوع ، بحيث لم يكن يخلو يوم واحد من مكان نرى فيه رجال الادب ونسمع منهم وعنهم . ان المكانة الكبيرة التى تكنها للقاهرة انها مدينة الادب والفكر ..

ابتسمت فى مرارة وانا اقول :

ـ والناس الآن يتحلقون فى بيوتهم حول اجهزة التليفزيون والفيديو ، فان تلاقوا من غيرهما فحديثهم تشغله مافي جرائد الصباح من أخبار تهم مجريات الحياة العامة فى يومهم ..

ـ لا باس ، كل هذا جيد ، ولكن كل هذا لايصرف شعبا قارئا شغوفا بالفكر والثقافة عن أهتماماته العميقة بالفكر والادب . لقد كنت الحظ هذا يحدث هنا وكان هذا يؤسفنى جدا ، وافكر كثيرا فى الوسائل التى تجعل الاهتمام بالثقافة والفكر عنصرا رئيسيا فى حياة الانسان فى عمان . وكانت صورة القاهرة دائما امامى .. أما الآن فقد أحزنتنى ، أو لعلك تهول من الامر ..

قلت :

ـ لست أهول ، بل انا ابسط الامر ، ولو احصيت متوسط مبيعات اى كتاب فى الادب أو الشعر او الفكر لعرفت اننا نواجه خطرا حقيقيا .

قال :

ـ فى هذا انا اتفق معك فالكتاب الذى يوزع الآن هو

الكتاب السياسى او مذكرات الساسة أو الكتب التى ترتبط بالمشاهير والنجوم . ونحن هنا لانكاد نعرف ماتخرجه المطابع من كتب جديدة فى عالم الفكر سواء في القاهرة أو دمشق أو بغداد ، فما بالك بكتب المغرب العربى ، لقد كان الكتاب الجيد يفرض نفسه على كل صحيفة ومجلة ، ونقرأ عنه فنسرع الى اقتنائه ، اما الآن فالكتب تصدر فى صمت حقيقى ، فاذا سمعت عن كتاب يستهوينى لموضوعه او كاتبه فالسماء يأتى بالصدفة المحضة ، واجد صعوبة حقيقية فى معرفة ناشره أو مكان بيعه ، وان لم أوص صديقا مسافرا أن يحمل الى نسخة منه فلن أستطيع الحصول عليه .

قلت :

ـ لقد أصبحت تكلفة أصدار كتاب مسألة غالية جدا، فاذا أضفت اليها أجر اعلان فى واحدة من وسائل الاعلام فان سعره سيصل الى حد مذهل .

قال :

ـ ومع هذا فنحن نحرص على تتبع الحياة الثقافية العربية بعامة قدر الامكان ، فنعرف بأمر الكتاب وابداعاتهم كلما تيسر لنا هذا ، وبعض أسماء الكتاب الجدد فرضت وجودها . ولكن القضية بالنسبة لنا أن كتاباتنا لا تصل اليكم ، أعنى نظل كتابا محليين ، تتحدد شهرتنا بموقعنا المحدود فى العالم العربى ، ولا يصل عطاؤنا الى باقى اجزاء الوطن العربي . وهذه مشكلة رئيسية نعانى منها تماما .

قلت :

ـ كان المظنون ان المجلات الثقافية التى تصدر من عواصم متعددة ستحل هذهالمشكلة ، اى ستجعل الكاتب

العربي في أى مكان يعيش معروفا ومقروءا فى باقي أجزاء الوطن العربى ، ولكن هذه المجلات حددت دورها في نقل المعلومة الثقافية لا في نقل ابداع الكتاب وفكرهم بالدرجة الاولى ، وأصبح الاهتمام بالمادة الثقافية يخضع للمنظور الاعلامي لا المنظور الفكرى ..

ضحك وهو يقول :

ـ هذا يفسر اختفاء المعارك الادبية ، فمادام الرأى لا ينشر اساسا ، فالرأى المخالف لا يقوم ، ومازلت اذكر معارك العقاد والمازنى وطه حسين والملاكم الادبى الاشهر زكي مبارك .. لقد كانت هذه المعارك تثرى وجداننا وفكرنا ونحن فى مرحلة الشباب ، وتثير رغبتنا في القراءة والاستزادة من المعرفة ، لنقوى على متابعة الجدل العملاق القائم .

قلت :

ـ ماكان يمكن لواحد أن يكتب أو يتصدى للقراء الا اذا كان فى الاصل مزودا بزاد ضخم من القراءة والمعرفة، والا اذا كان لديه مايقوله ، وعنده القدرة على قول مايريد ..

عاد يضحك كأنما ليخفف من مرارة حديثنا وقال :

ـ لقد تضخم الجهاز الاعلامى العربى تماما ، فلم تعد هناك دولة لا تصدر الصحف ولا تنشىء محطات الاذاعة والتليفزيون ، وكثرت العواصم التى تصدر المجلات الثقافية الفاخرة الطباعة والورق والالوان ؛ ومع هذا كله قلت حصيلة الفكر وتناقص زاد الادب .. ربما كان الامر أن هذه الكثرة سمحت بدخول غير المؤهلين الى دنيا الكتابة والتصدى للرأى . وربما كان الامر أن الاعلام غدا حرفة لايشترط فى مهنتها غير شهادته المتخصصة

التى اصبحت لا تعنى بالنسبة للأدب والفكر أكثر ممـا يعنيه المؤهل الجامعى الذى جاء بالتنسيق لا بالهـواية والرغبة وتكريس الحياة والوجود للتحصـيل الدائم المستمر .. والاستزادة التى لا تتوقف .

قلت :

ــ حين تحققت الكثرة ذهب الكيف فى سبيل الكم .. وتبعثرت الكلمة العربية بحيث لم نعد نعرف من الذى يستعملها ولم وكيف ؟ واصبحت السلامة هى الاساس فى عمل الجميع ، فمادام الكلام قد يؤذى ويدمر ، فلماذا الخوض فى الاشياء التى قد تؤذى وتدمر ؟ ومبدأ السلامة هذا جعلنا نكرر ولا نبتدع ، ونردد ولا نخلق ، ونحـاذر ولا نغامر ، فالزاد اذن محدود ومتداول ومستهلك . والساحة خالية لا للفكر ، وانما للمعطيات الشاذة والحادة التى تستهوى الشباب فيندفعون فيها ، ويجرون الامة كلها معهم الى حافة الخطر ..

ظل الشيخ عبد الله بن على الخليلى صامتا للحظات ، ثم قال وهو يشير بيده ليدور علينا دورُ قهوة جديد :

ــ أنت تتحدث عن مخاطر نحسها ونعرفها ، ولكننا لم نتعرض لها بعد لها .. فعمر اطلالتنا الحقيقية على دنيا الحضارة المعاصرة يرتبط بتولى السلطان قابوس الامور ، أي منذ عام ١٩٧٠ ، وهى فترة زمانية صغيرة نسبيا ، رغم أن ماتحقق خلالها شبه معجز .. تجـاوز احلام امثالنا من شيوخ الفكر ، بل لعله سبق هـذه الاحلام .. ونحن نستطيع أن نتجنب ما وقعتم فيه لو هضمنا التجربة ووعينا كل عواملها واطرافها ، فنحن ولعلك تحس ودة جديدة لوجود عربى جديد فى هذه المنطقة التى ظلت معزولة عن المشاركة الجادة فترة طويلة.

وقطع حديثه دخول شيخ وقور هادىء الحركة والخطوة الى القاعة ، فهب مضيفنا واقفا وهو يمد يده مصافحا ، ويصيح مرحبا ومعرفا في آن واحد :

ـ أهلا ومرحبا ، هذا شاعرنا الشيخ أبو سرور ، تفضل .

ووقفنا تحية للقادم الجديد ، ثم أخذنا مجالسنا بعد ان اخذ هو مجلسه ، كان الجسد ضئيلا ، ولكن العينين اللامعتين ذكاء وتوقدا كانتا تكشفان عن نفس كبيرة ، وقال مضيفنا يربط القادم الجديد بما نحن فيه من حديث :

ـ كنا نتحدث عن طموحاتنا للحياة الثقافية والادبية في عمان .

قال الشاعر الشيخ أبو سرور حميد بن عبدالله :

ـ أنت ياضيفنا جئت أرض الشعر ، فالشعراء عندنا كثيرون جدا ، اذ الشعر فطرة عربية وسليقة ، ولكن معظم الشعر عندنا شعر نبطى ، ويقال باللهجة الدارجة او العامية ، فالطبيعة عندنا سخية وهى تفعم القلوب بروح الشعر . وما أن يجد القائل طريقه الى الوزن حتى يملك ناصية التعبير ، ونحن نعتبر المبارزة الشعرية أساسا هاما فى سهراتنا واحتفالاتنا ، وستدهش لعدد الشعراء الذين يشتركون فى هذه المساجلات الشعرية . وما أن يشتهر واحد فى هذا الميدان حتى يسعى كل شاعر جديد الى الالتقاء به ومبارزته والتفوق عليه ليشتهر اسمه ويذيع ذكره . والاذاعة والتليفزيون فى عمان ينقلان الينا كثيرا فى هذه الجلسات التى يلعب فيها الشعر العامى دوره الرئيسى .

قال مضيفنا الاستاذ عبد الله بن على الخليلى :

ـ من أشهر هؤلاء الشعراء الشيخ سعيد بن عبد الله ولد وزير وهو من « صور » ، وقد غلب فى مبـارزاته الشعرية سالم بن مالك فى وادى بنى جابر ، والشيخ خلفان بلوه فى « الباطنة » .

قال الشيخ أبو سرور :

ـ هذه المساجلة الاخيرة هى التى حققت للشيخ سعيد عبد الله ولد وزير شهرته الذائعة ، وبعدها حاول كل الشعراء مساجلته وانهزموا أمامه ومنهم خلفان عبد الله الحراسي الذى اشتهر باسم طلحة . ولكنه يقر بشاعريته شاعر زنجبار سعيد بن خميس .

استأنف الشيخ الخليلى الحديث قائلا :

ـ لقد قال فى كل الفنون التى يعرفها الشعر النبطى منها الرزحه والرمسة والميدان والعيالة ، كما قال فى النخل والبحر والبادية .. بل لقد قال قصيدة فى محاورة بين التمر والنوى ، كما اقام حوارا شعريا بينه وبين المسجد الكبير فى صور .

وعاد الشيخ ابو سرور يمسك ناصية الحديث فقال :

ـ وهناك شاعر البحر والبادية الشيخ محمد جمعه الفيلانى وهو من صور أيضا . ولابنه الشيخ سالم بن محمد الفيلانى فضل كبير فى القاء الضوء على شعر والده وعلى الشعر العمانى بعامه ، وأرجو أن تحصل على نسخة من كتابه « أغاريد البحر والبادية » الذى قدم فيه شعر الوالد مع مقدمه عن فنون الشعر العمانى . وكذلك كتابه « على هامش الشعر الشعبى العمانى » ، وتستطيع أن تستكمل رؤيتك للشعر العمانى الشعبى والفصيح لو قرأت كتابه الاخير « الادب الشعبى فى بلد الشراع » .

وقاطعه الشيخ الخليلى قائلا :

ـ لا يذكر الشعر فى عمان الا ويذكر كتاب صـــديقنا الكبير الشيخ الفقيه محمد بن راشد بن عزيز الخصيبى، واسماه « شقائق النعمان على سموط الجمان فى أسماء شعراء عمان » ، وهو أول من كتب تاريخ الشعر شعرا ، وله فضل الجمع والتبويب وترتيب الشعراء الى طبقات، وترتيب الاغراض التى قال فيها الشـــعراء العمانيون شعرهم ، فهو يغطى صورة كاملة للشـــعر العمانى فى العصور المختلفة ، وفى الاغراض المختلفة ، وفى طاقات الشعراء على تباينهم .

قال الشيخ سرور :

ـ تستطيع أن تقول ان هذا الشعر يمثل المـــرحلة التاريخية فى حياة الشعر العمانى ، ولكن الشـــعراء المحدثون من المخضرمين من أمثالنا انا والامام الخليـــلى كانوا على اتصال بالحركة الشعرية فى عواصم العـــالم العربى ، وللشيخ عبد الله بن على الخليلى مضـــيفنا محاولات رائدة فى القصة الشعرية مثل « لقيط والخيلاء» وقد نشرت مؤخرا فى مجلة الاسرة ، كما أن له محاولات فى الشعر المسرحى أو المسرح الشعرى ، تأثرا بمحاولات شوقى وغيره ، فله مسرحية بعنوان « الملك ووزيراه »

ضحك الشيخ الخليلى وهو يقول :

ـ هى محاولات على الورق لم تدخل خشبة المسرح بعد ، ولى مسرحية أخرى لم تطبع هى « كيف أعمل» ، ولكنها كالاعمال الاخرى تشكو من الحبس داخل الورق والقلم .. وكنت أود ان يشجع وجودها كنص شعرى مسرحى على اخراجها على المسرح ، فان تجسيدها على الخشبة هو الذى يطور الكتابة المسرحية ، ويتيح الفرصة لمعرفة الطريق الى خلق نهضة مسرحية شعرية بخاصة، .

ونهضة مسرحية بعامة ، ولكننا كما سبق أن قلت لضيفنا مازلنا فى أول طريق النهضة ، ولابد أن يمر الزمن لتظهر كوادر مسرحية فى التمثيل والاخراج توفى حاجة التليفزيون والاذاعة ، وتوفى حاجة المسرح فى نفس الوقت .

قال الشيخ أبو سرور :

ـ المسألة أيضا تحتاج الى وقت ليتربى جمهور المثقفين على تذوق المتعة المسرحية ، فالمسرح ليس نصا وخشبة وممثلين وحسب ، وانما المسرح جمهور أيضا . وتعويد الجمهور على الذهاب الى المسرح ، ليتلقى الثقافة والفن والفكر ، تأخر عندنا كثيرا ، بحيث أصبحت عادة المشاهدة مرتبطة عندنا بالتليفزيون ، وما يقدمه من قضايا معاشه لا تحوى فى الغالب الا العلاج المباشر لقضايا انسان العصر الضيقة ، فكيف نستطيع أن نحول هذه العادة الى قدرة على استيعاب الفكر والثقافة ، وعلى مشاهدة عميقة تثير فى داخل الانسان أسئلة مصيرية تجعله يفكر فى حياته وغده ومعناهما وهدفهما .

عاد الشيخ الخليلى يضحك فى رفق وهو يقول :

ـ صديقنا المتحمس لجمهور المسرح الشاعر أبوسرور حميد بن عبد الله يغرق فى الشعر الاجتماعى ، اى الذى يصور قضايا المجتمع ويعمقها ، ويحاول أن يخرج منها بالدروس والعبر التى تصلح أخطاء الأفراد وتحقق التوازن فى حياتهم . فله قصة شعرية ضمن ديوانه « الى أيكة الملتقى » رقيقة رقة زائدة واسمها « سلوها » احب ان يسمعك جزء منها .

وأطرق الشيخ أبو سرور لحظات ، ثم اخذ يلقى شعره العذب ، بدأ مترددا خافت الصوت ، ثم مضى صوته

يزداد ارتفاعا ، وأداؤه يزداد حرارة ، كلما أمعن في ابيات القصيدة التي تحكي قصة زوجين أمام القاضي ، الزوجة تشكو ادمان زوجها ، والزوج يشكو مرضه وضعفه ، والقاضي يثبت عزيمة الزوج ويعيده الى الجادة لتعود الحياة الزوجية الى هناءتها .. وتحول الشعر الرقيق الى اداء تمثيلي متقن ، وتحول الشاعر الى قصاص يمزج الحركة بالكلمة ، ويلون أداء الكلمة لتعبر عن المعنى ونبرزه .. وحين انتهي الشاعر من انشاده سادنا صمت عميق .. قطعته سعلة الشاعر وقوله :

ــ لقد اطلت واضجرتكم ..

قلت ان متعتي كانت كاملة بما أسمع وبالانشاد نفسه، فهذا الربط بين الشعر والاداء عند الشاعر نفسه ، وفي عمل قصصي له الطابع الدرامي كان اضافة جديدة وهامة لي ، وقال الاستاذ الخليلي :

ــ هنالك أيضا الشاعر سالم بن علي الكلباني وغيره .. ولابد أن تلحظ أن مجموعة المخضرمين من امثالنا تمثل جيل اليقظة الشعرية ، وهو نفس الدور الذي لعبه عندكم شوقي وحافظ ومطران . الا أن غياب النقد المواكب للحركة الشعرية عطل تطورها ، وهذا ما كنت أحدثك عنه في اول مجيئك ، فالقاهرة الفنية بالمحافل الادبية اتاحت لحركة الشعر فيها المناخ الطبيعي لتطوره .

قال الشيخ أبو سرور :

ــ لقد بدأت المطابع في عمان تعمل ، كما بدأت الكتب تطبع وتظهر ، وهذه الدراسات التي تؤرخ لحركة الشعر كدراسات الاستاذ سالم بن محمد الغيلاني وغيره تؤكد اننا على ابواب نهضة ادبية تواكب نهضة البلاد في باقي المجالات ..

قلت :

ـ وماذا ينقصكم ؟ الرجال موجودون ، والامكانيات موجودة ، والارض بكر ..

قاطعني الشيخ الخليلى قائلا :

ـ هذا ما اختلف معك فيه ، وما احب دائما ان اؤكد عليه . فالارض ليست بكرا اذ نحن لانبدأ وانما نواصل، ونحن لا نخرج من فراغ ، وانما نحن ورثة الفكر العربى كله ، ماهو خاص بعمان وماهو خاص بالوطن العربى كله . واذا كان فكرنا لاسباب مذهبية اقتصر تحركه على دوائر محددة ، فان انتاج الفكر العربى كله قد صب عندنا بلا تحرج ، من امرىء القيس وحتى شوقى ، ومن بعد شوقى من الشعراء المعاصرين والجدد والمجددين أيضا . وبهذا فنحن نبنى على نماذج سابقة وثابتة ومستقرة ، حتى فى التطوير والتجديد يجب أن نرتبط بالخطوط الرئيسية فان خرجنا عنها عدنا اليها ، اذ هى تمثل حدا من الاتفاق تواضعت عليه الاجيال .

قلت :

ـ ربما تقصد بعض مظاهر الغلو فى التجديد الشعرى ؟

قال :

ـ معظم شبابنا قفزوا عبرنا ، لم يتصوروا اننا مرحلة بناء ينبغى أن تؤخذ فى الاعتبار حين تنطلق محاولات الاجيال للكشف والاكمال .. ولانهم لم يبدأوا من منطلق صحيح ، فكل من قرأ نموذجا اعجبه قلده ، وكلما زاد انحراف هذا النموذج كلما زاد استهواؤه لهم .. والمسألة لم تقتصر على محاولات الكتاب العرب ، وانما التقليد استهدف نماذج لكتاب لا علاقة لهم بلغتنا ولا بقضايا

مجتمعنا ولا بتراثنا وكيفية تواصل التعبير عندنا .

قال الشيخ ابو سرور :

ـ يمرضنى ان أقرأ كلاما باللغة العربية المفروض انه شعر ، ولا اجد فيه اى اثر للوزن ، هو كلام منثور لا يحكمه شيء حتى ولا التفعيلة الواحدة المرتبطة ببحر ما كما فعل الجيل الذى تلانا من محاولى التجديد .. ويمرضنى اكثر ، ان اقرأ هذا الكلام المفروض انه مبين ، ولا افهم منه معنى ، ولا يصلنى منه عطاء او فهم ... واعجب كيف أمكن لهم ان يكتبوا فلا يقولوا مايفهم ..

ضحك الشيخ الخليلى بمرارة وهو يقول :

ـ فى البداية أصبت بالدهشة من أن ينشر هذا الكلام باعتباره ادبا ، ثم ازدادت الدهشة حين رأيته يحظى بالنقد والتقييم . وشككت فى قدراتى انا على الفهم والمتابعة . الى أن أدركت أن الموجة عامة وان الكثيرين من الكتاب بدوا يلتفتون الى هذه الظاهرة فى انتاج الشباب ويحاربونها ، ويضعونها فى موضعها الصحيح ، وحملت لنا المجلات الادبية فى العالم العربى كله صيحات غاضبة من نقاد لهم وزنهم واحترامهم فى دنيا الكلمة العربية تؤيد وجهة نظرى وتسخط مثلى على هذا الضياع للجهد والعرق .

قلت :

ـ فى مصر بدأت هذه الموجة بمجموعة اعلنت أنها جيل بلا أساتذة ، وأنهم يلقون اللوم على الاجيال السابقة لهم فى كل ماحدث لحياتنا السياسية العربية من تدهور وتفكك ، وفقدان للمكاسب ، وانحراف أو توقف عن الاهداف . ومن هنا رفضوا عطاءهم الفكرى ، وراحوا

هم يبحثون عن الجديد الذى يرضيهم . ورغبة فى اظهار التفرد اهتموا بأدب أمريكا اللاتينية والادب الافـــريقى وأدب الموجات الغاضبة فى أوروبا وامريكا ، ثم قـلدوا واحتذوا .. بعض النماذج ذات الاصالة بقيت ، وعندما حقق أصحابها ذواتهم عادوا يحصلون مافاتهم من ثقافة عربية عرفوا انها ضرورة حتمية لاستمرارهم ، كما عادوا للاهتمام بقضايانا التراثية والادبية وهمومها المتوارثة .. ولكننا مازلنا نشكو من ظواهر الاستهتار باللغة وبالقوالب الموسيقية وبالمعنى ايضا .

ضحك الشيخ أبو سرور وهو يقول :

ـ اى مازلتم تشكون من اللا أدب المسمى بالادب .

وشاركه الشيخ الخليلى ضحكه ، ثم قال :

ـ ربما كانت هناك اخطاء من اجيال الاساتذة فى عدم تكريس الوقت والجهد للعناية بأبداع وفكر الشـــباب الجديد ، وربما كان الامر أن الاعلام الادبى غير كاف ، او غير واع لاهمية ان يخلق باستمرار دوامات من الحوار والنقاش وتبادل الرأى وتداخل الاجيال . وربما كـان غياب الندوات والصالونات الادبية الحية مسئولا ايضا عن جزء من هذه القضية .

قلت متسائلا :

ـ ماهو الوضع بالنسبة لهذه القضية هنا فى عمان .؟

قال بعد سكتة قصيرة :

ـ هناك ناد يرعى شباب الادباء . وهناك اهتمـــام بطبع الكتب لكل الاجيال ، ولكن نقاط الالتقـاء ضعيفة وباهتة ، وفى رأيى أنه يجب ايجاد حل لهـــذه القضية بشكل ملح وهام ، ولنبدأ بالنـــدوات التى تعـــرض قضايانا الفكرية ، او لنبدأ بمنتديات الشـــعر والابداع

ـصى . وعندى أن الجامعة آلتى تمت الخطـــوات
ـاسية لانشائها بالفعل ستحقق تجمعات شبابية لعقول
ـحة تطلب العلم والمعرفة ، وتستطيع أن تشـــارك
ود بناء في حياتنا الثقافية . كما أننا نحتاج ــ كما
، من قبل ــ ان نسمع وبصوت واضح فى مجـالات
ـر الثقافي فى العواصم الفكرية العربية الاخرى .
نتهت جلستنا الثرية ، فشكرت للمضيف الشـــاعر
ـير الشيخ عبد الله على الخليلى مااتاحه لنا من وقت
ر ، وودعت زميلى فى الجلسة الشاعر الرقيق الشيخ
ـسرور حميد بن عبد الله وأنا أشكره على مساهمته
ـاءة فى الحوار .
ـعادت بنا السيارة الى وزارة الاعلام لاقدم شـــكرى
ـتاذ الشيخ عبد العزيز بن محمد الرواس وزيرالاعلام
استضافته الكريمة لى ، وعلى ما أتاحته أجهـــزة
ـزارة أمامي من سبل للتعرف على كل ما اريد ان ارى
اعرف ، ولاستأذنه فى العودة الى القاهرة .. وقد
ـرني وانا آخذ مجلس على مقعـــد مريح في مكتبه
ـه :
ـ نحن نعتز بالشيخ عبد الله الخليلى ، وارجـو ان
ـن زيارتك له قد حققت ماكنت تبغيه منها ؟
قلت :
ـ سيادة الوزير ان همومنا الثقافية واحدة فى العالم
ـبى كله .. فالعالم العربى على أختلاف مواقع أجزائه
ـ قطعة قطعة الي دنيا المعاصرة ، وصدمة الخروج من
ـكون الى الحركة ظاهرة تحدث فعلها فى كل المنطقة
ـبية التى تخلصت بالنهضة أو الثورة من حـــالة

السكون ، والتى تحظى بالثروة ومقومات القدرة على الحركة ..

قال :

ـ نحن نحاول أن نستفيد من كل التجارب التى خاضتها شعوب الامة العربية فى مختلف اوطانها لنقلل من الفترة الزمنية التى يقتضيها الدخول الى روح العصر والحضارة المعاصرة . ونحن نعرف ان التعليم والثقافة والاعلام محاور رئيسية نبنى عليها انسان الغد فى عمان .

قلت :

ـ وفقكم الله ، ان ماحققتموه حتى الآن كثير وبناء ، وكل انسان فى العالم العربى يتمنى لكم اكمال المسيرة بنجاح ، فالشعب العماني بموروثه الحضارى العميق والعريق ، اضافة حقيقية وهامة الى القوى العاملة فى تحقيق كيان الانسان العربى صاحب العراقة وصاحب المشاركة الايجابية معا .

وتمنى لى الاستاذ الشيخ عبد العزيز آل رواس رحلة موفقة وعودة حميدة ، وقال :

ـ هذه زيارة قصيرة جدا ، ونتمنى ان نحظى بك فى زيارة اكثر طولا .

شكرته ، وشكرت فيه رقة عمان كلها وكرمها وابتسامتها الهادئة المرحبة ..

وفى الطريق الى المطار قال الاخ الصديق محمد سالم المرهون :

ـ كثرة تنقلاتك لم تتح لنا وقتا كافيا لنجلس ونتكلم .

ضحكت وانا اقول :

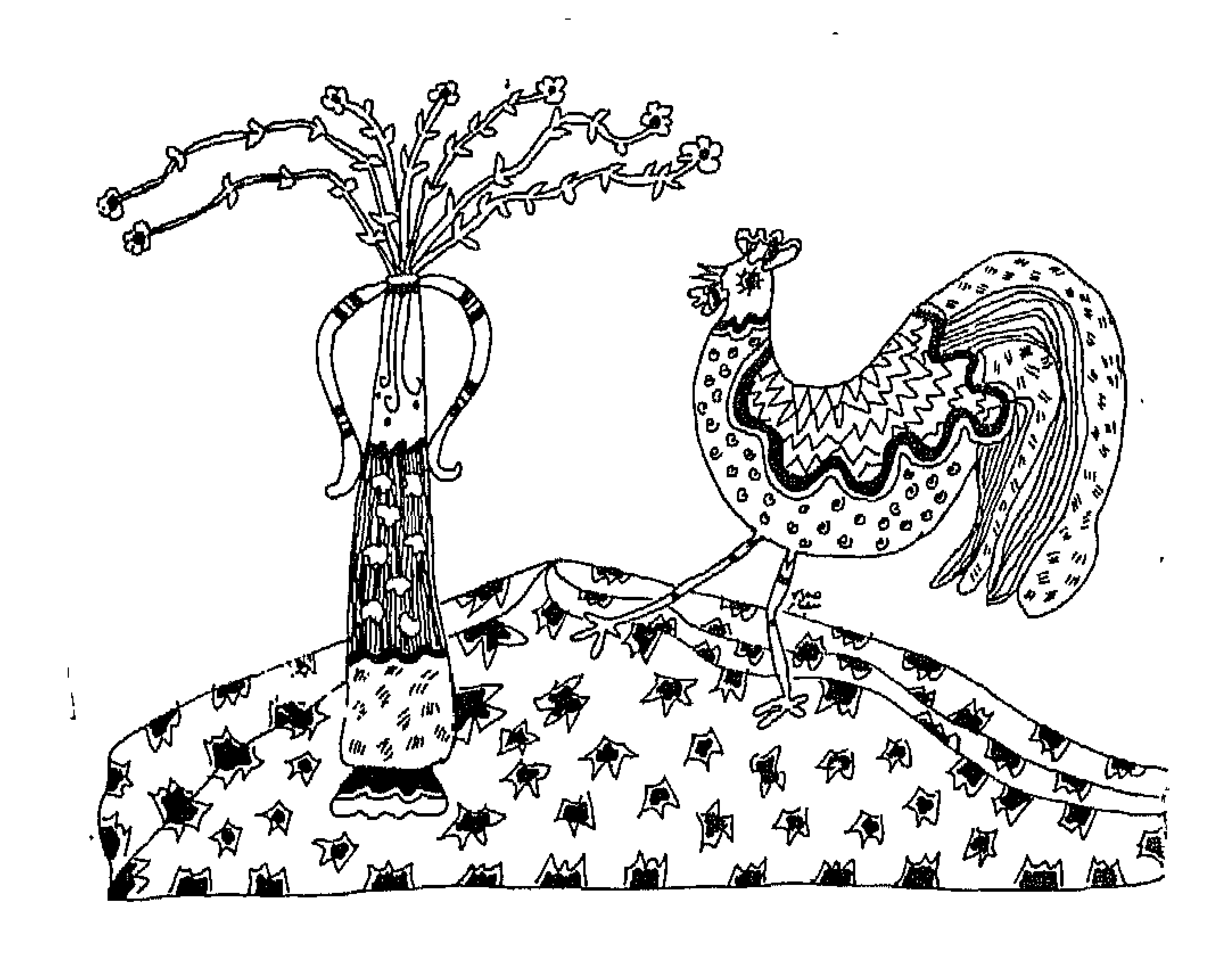
ــ بل لقد تكلمت كثيرا على الورق حتى حــل وقت الصمت ، قد أدرك شهرزاد الصباح وآن لها أن تســكت عن الكلام المباح ..

وبعد قليل كان رخ العصر يحملنى فى جوفه عائدا من بلاد السندباد حيث ذهبت أبحث عنه ، فعدت وقــد ازدادت شخصية السندباد عندى ثراء وعمقا .. كما زاد يقينى أن الف ليلة وليلة لايمكن ان تبوح بسرها الحقيقى لنا الا بتحقيق ونشر كل المراجع والمخطوطات القديمــة التى تكشف عن ثقافة وحضارة الكيان العربى فى المنطقة التى شهدت الازدهار الحضارى الذى حققه الانســان العربى بفعله وفكره واخلاصه لمعنى الكشــف ومعنى المغامرة ومعنى ازدهار الحياة .. فعلى طول الرحلة فى عمان : رحلة السندباد البرى ، أو سندباد الفــكر ، أو سندباد الوجدان ، كان احساسى يتزايد ان ســندباد البحرى بمغامرته فى عمق البحر هو الجوهر المفقــود لنعرض هذا الجزء الطموح فى النفس العربية ، ولندرك ان اولى معالم الشخصية العربية طال تجاهلها فى تقييمنا لانفسنا . ان هذه الرغبة الطموح فى قهر العقبات ، وارتياد الخطر ، ونقل الحياة عبر البحار ، وربط القارات كانت سمة رئيسية فى الوجود العربى قبل الاسلام ، ثم جاء الاسلام فأكد عليها وحققها كواجب دينى يدفع الانسان لطلب المعرفة والكشف ولو فى الصين ، ويرفض القاعدين عن السعى فى منــاكب الارض . وكواجب حضارى يرسم حقيقة الفعل الحضارى الاسلامى الذى حمل موروث العالم من العلم والثقافة والفكر والابداع ليعيده الى العالم أكثر ثراء وعطاء ، وليضــيف اليه

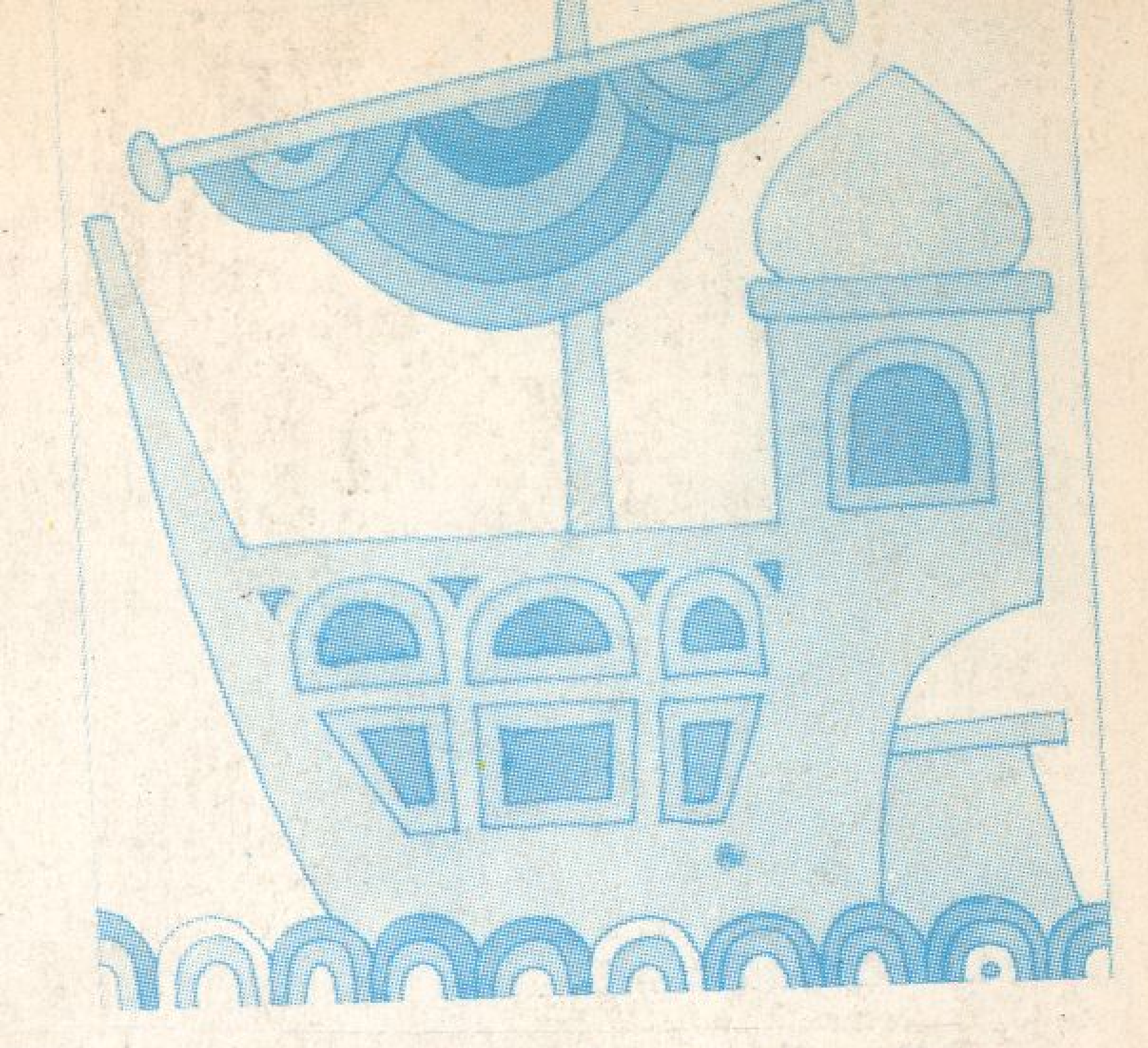
المغامرة فى كل ميدان ، والارادة القاهرة لكل العقبات ، ا حالمة بعالم واحـد يسوده الرخاء والمســاواة والاخوة و، ـدل ..

تحية لعمان ونهضتها وشعبها العظيم ..

تجية للأصالة المتشبثة بمعانى العراقة ، وتحيــة للزحف الجديد نحو المشاركة الايجابية المخلصة فى بناء الانسان العربى صانع الغد ، وفى تحقيق الرخاء للانسان الانسان .



رقم الايداع : [illegible]
الترقيم الدولي [illegible] ISBN



هـذا الكتاب

هناك مقولة خاطئة سادت محاولتنا لفهم الشخصية العربية ، وهى أن العربى - انسان صحراوى - تكونه الصحراء بتحدياتها وعطاءاتها وترسم بهذا معالم شخصيته .

وخطأ المقولة ناجم من أن العربى قهر البحار كما قهر الصحراء ، وكان حب المغامرة ورغبة الكشف ، والقدرة على تحدى الاخطار واكتشاف المجهول ، سمات حفرتها رحلات البحر فى شخصية الانسان العربى .

وفى عمان تتفتح امام الكاتب دنيا كاملة من تاريخ العرب مع البحر منذ أعمق التاريخ والى اليوم ، امتلأت هذه الدنيا بالمدن البحرية ذات التاريخ العريق وبالصناعات البحرية وأولها صناعة السفن قاهرة المحيط منذ فجر التاريخ . السفن التى ربطت العالم القديم كله بثروات الشرق الاقصى ، بجزره المجهولة ، بالهند الثرية وبالصين صاحبة الحضارة الغامضة ، كما ربطته بدنيا افريقيا وسواحلها .

فى بلاد السندباد نعثر على تجسيد صحيح لمع... الاسلام فى تلك الصورة الفريدة ، المشرقة والثرية ... معا ، الصورة التى تجسد المعنى الاسلامى بأن لا ... ولا اعجمى ، الا بالتقوى .

كما نعثر على سجل من الفخر والطموح و... والحماسة . التى هى صورة لتاريخ الانسان الا...

٢٥